

الاعتصام بالله تعالى



تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الرجبى

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

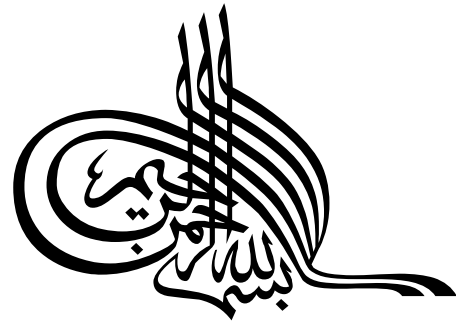
الكتاب رقم (١٩)

الاعتمادُ بالله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

٩	مقدمة
١١	التعريف
١٤	علاقة الاعتصام بالتعلق واللجأ
١٥	فضله وضرورته للمؤمن
٣٠	وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة
٣٤	ماهية البدعة
٣٥	أسباب البدع
٤٠	مصدر التلقي الصافي التليد
٤٢	الاعتصام بكتاب الله تعالى
٤٨	الاعتصام بالسنة وسبيل السلف الصالح
٥٣	أصول السعادة الثلاثة قد حواها القرآن العظيم
٦٣	الاعتصام بالله في زمن غربة الإسلام
٦٧	ثمرات الاعتصام بالله تعالى
٧٧	وسائل تحصيل الاعتصام
٩٤	النعم السبع الكبار
١١٢	مظاهر الاعتصام بغير الله تعالى
١٢٦	عوائق تحقيق الاعتصام
١٣٢	العصمة من فتنة الشهوات
١٣٨	عاقبة ترك الاعتصام أو ضعفه
١٤٥	ليس من شرط الولاية العصمة من الخطأ

- ١٥٩ الاعتصامُ بالجماعة وذمُّ الافتراق
- ١٧١ الاختلاف والتفرُّق سبب هلاك الأمم السابقة
- ١٧٣ هل الاختلاف رحمة؟
- ١٧٦ طريق الخلاص من الفرقة والاختلاف
- ١٨٠ ويلات الفرقة والاختلاف
- ١٩٠ فضائل أهل السنة والجماعة وأوصافهم
- ١٩٩ تعيينُ الفرق الهالكة
- ٢٠٣ مسألة تكفير المبتدعة
- ٢٠٦ أصول البدع
- ٢٠٩ من هدايات حديث الافتراق
- ٢١١ معنى الجماعة
- ٢١٢ معنى الصراط المستقيم الذي انحرفت عنه سبل أهل الابتداع
- ٢١٧ الهوى آخية الافتراق
- ٢١٨ هل وجود المتشابه في القرآن والسنة يُعتبرُ سبباً في خروج أهل الأهواء؟
- ٢١٩ العصبيات الجاهلية والفرقة
- ٢٢٢ متى ظهر الاعتناء بأهل السنة والجماعة؟
- ٢٢٤ معنى الجماعة
- ٢٣٨ الفرقة في الدين التي حصلت في الأمة على مراتب وأنواع
- ٢٤٣ معنى لا إنكار في مسائل الخلاف
- ٢٤٦ الكفر ضد الإيمان
- ٢٤٧ مذهب السلف، حقيقته وكيفية ضبطه
- ٢٤٨ حقيقة مذهب السلف والأمور المترتبة على نسبة فعل ما إليه



٢٥٣	حكم إضافة القول في المسألة المختلف فيها إلى مذهب السلف
٢٥٤	مخالفة قول الجماهير للظاهر الذي يراه بعض المتأخرين
٢٥٨	كيفية ضبط مذهب السلف
٢٥٨	تحصيل مذهب السلف وضبطه بالتقل
٢٦٣	هل يُدرك ويضبط مذهب السلف بالفهم
٢٦٥	التحذير من تحصيل مذهب السلف بالفهم
٢٦٥	من أسباب الفرقة تحصيل مذهب السلف بالفهم
٢٦٦	خلاصة الكلام عن حقيقة مذهب السلف وضبطه
٢٦٩	المذهبية
٢٧٠	التمذهب المذموم
٢٧١	التمذهب الجائز
٢٧٢	المقصود بالتمذهب من باب التراتيب العلمية
٢٧٧	الشيخ محمد بن عبد الوهاب والمذهبية
٢٧٩	عدم الإنكار على المتمذهبين وغير المتمذهبين
٢٨٢	الافتراق واقع
٢٨٣	مدى صحة حديث الافتراق
٢٨٥	ما اختص به حديث الافتراق
٢٨٧	الجمل المذكورة في حديث الافتراق
٢٨٨	حكم الفرق المخالفة لأهل السنة
٢٩٠	منزلة الاجتماع عند أهل السنة والجماعة
٢٩٢	أهل السنة هم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم
٢٩٤	خطأ القول بأن العامة والجمهور ليسوا من أهل السنة

- السواد الأعظم ٢٩٦
- حكم زيادة لفظ: (على فهم السلف الصالح) ٢٩٨
- الأسماء الشرعية لأهل السنة والجماعة ٣٠٠
- دعوى بعض أهل البدع أنهم يلتزمون بفهم السلف الصالح ٣٠١
- أهل السنة لا يتبعون إلا رسول الله ﷺ ٣٠٤
- كل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله عليه الصلاة والسلام ٣٠٦
- الحكم على المخالفين لأهل السنة ٣٠٨
- من قال قولاً مبتدعاً لا يلزم أن يكون مبتدعاً ٣٠٨
- الاشتراك في مقالة واحدة لا يستلزم الاشتراك في تفاصيلها ٣١٢
- الاشتراك في الحروف لا يستلزم الاشتراك في المعاني ٣١٢
- الاشتراك في الحروف والمعاني الكلية ٣١٣
- وقوع بعض الأئمة في القول بأقوال مبتدعة ٣١٥
- الغلو في الرد على الفرق المخالفة لأهل السنة ٣١٨
- ذم البدع وسوء منقلب أصحابها ٣٢١
- الأدلة من النقل على ذم البدع ٣٢٥
- توقير المبتدع هدم للإسلام ٣٣١
- شؤم البدعة وشر أهلها ٣٣٣
- الفرق بين البدعة والمعصية والخطأ الفقهي ٣٤٠
- إثم المبتدعين ليس على رتبة واحدة ٣٤٣
- طريق الحق وطرق الضلال ٣٤٥
- البدعة قدح في الشريعة ٣٤٨
- نشوء البدع ٣٤٨

٣٤٩	رد شبهة استفتاء القلب.....
٣٥٠	تزيين النفس للبدعة.....
٣٥١	وسائل الوقاية من البدع.....
٣٥٢	التحذير من الرأي المذموم.....
٣٥٥	الاحتساب على أهل البدع.....
٣٥٩	هل الاحتفال بالمولد النبوي من مقتضيات محبته ﷺ؟.....
٣٦٠	بعض العلماء الذين أفتوا ببدعية الاحتفال بالمولد النبوي.....
٣٧٣	وصايا وأقوال أئمة أهل السنة في الاتباع والنهي عن الابتداع.....
٣٨٣	استقراء مستقبل الأمة في ظل الواقع والمبشرات.....
٣٨٩	أولاً: المبشرات القرآنية.....
٣٩٩	ثانياً: المبشرات النبوية.....
٤٠٤	وقفه مع حديث: «يا طوبى للشام..».....
٤٢٣	«يَا حَيْلَ اللَّهِ لِلشَّامِ أَرْكَبِي».....
٤٥٢	المبشرات الواقعية.....
٤٥٦	كتاب الاعتصام للبخاري.....
٥١٢	من أخبار المعتصمين بالله تعالى.....
٥١٣	الإمام البخاري رحمه الله تعالى.....
٥١٣	صباه العلمي.....
٥١٤	شيوخه.....
٥١٥	رحلته وطلبه وتصانيفه.....
٥٢٢	حفظه وسعة علمه وذكائه.....
٥٢٦	ثناء الأئمة عليه.....

- ٥٣٥ عبادته وفضله وورعه وصلاحه
- ٥٤٤ كرمه وساحته وصفته
- ٥٤٨ محنة الإمام أبي عبد الله البخاري رحمه الله تعالى
- ٥٦٢ وفاته رحمه الله تعالى
- ٥٦٥ صحيح البخاري
- ٥٦٦ موعظة القبر



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله العليم الحكيم الرحمن الرحيم، أمر بالاعتصام بحبله المتين والاجتماع، ونهى عن الفرقة والتنازع والضياع، جَعَلَ أُخُوَّةَ الدِّينِ مِنَ الدِّينِ، وأمر بالموالاة فيه كلَّ حين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق وقدر، وملك ودبر، وشرع ويسر، فله جميلُ الحمدِ مقدِّمهُ والمؤخَّر، وأشهد أن محمداً عبداً لله ورسوله النبيِّ الخاتم والناصح المشفق والمصطفى الأمين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان، أما بعد:

فإنَّ الاعتصام بالله تعالى هو من أعمال القلوب الشريفة الفاضلة جدًّا، ولا غنى للمؤمن عنه طرفة عين، وعلى قدر اعتصام المؤمن بمولاه يكون تسديده وتوفيقه وهداه، وهو حبل الدين المتين، ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] ويكفيه فضلاً أن كفاية الرب تعالى على قدر الاعتصام به، فمن حقَّق اعتصامه بالله فلا تخشَّ عليه الضيعة، ولا تخفَّ عليه الخيبة، فربنا لا يخلف الميعاد. وهذه حروف في تبيان حدِّ الاعتصام، ودلائله، وفضله، وضرورة المؤمن له، وبيان حال أهله، وطرق تحصيله، وعوائقه، وكشف الإيرادات عليه، وشيء من أخبار أهله.. ونحو ذلك مما يقتضيه الأمر مما يسره ربي تبارك وتعالى، سائله التوفيق والتسديد والقبول والغفران، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الاعتصام بالله تعالى



فاشددُ يدِيك بحبل الله معتصمًا فإِنَّه الركنُ إنْ خانتك أركانُ

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

١٤٣٩ / ٠٨ / ٢٠ هـ

aldumaiji@gmail.com

التعريف

الاعتصام: هو ملازمة سبب النجاة من الهلكة ونوال الرغيبية. ففيه لياذ واستجارة واستعاذة واستعانة وتوكل وتعلق. وكما له تحقيق التوحيد، والعاصم هو المانع، وفي التنزيل: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣] أي: لا مانع لأحد من الغرق إلا من رحمه الله تعالى.

والله يعصم عبده، بمعنى يمنعه مما يضره، ويمنع عنه ما يضره. واعتصم فلان بالله: إذا امتنع به، ومنه: ﴿وَلَقَدْ رَوَدْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]

والعصمة بمعنى الحفظ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] أي: يحفظك ويحميك.

قال ابن فارس: «العين والصاد والميم أصل واحد صحيح يدل على إمساك ومنع وملازمة، والمعنى في ذلك كله معنى واحد. ومن ذلك العصمة: أن يعصم الله تعالى عبده من سوء يقع فيه. واعتصم العبد بالله تعالى: إذا امتنع. واستعصم: التجأ»^(١).

والاعتصام: الاستمسك بالشيء، ومنه قول أبي طالب في لاميته الشهيرة مادحاً رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وآله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٤/٣٣١).

أي: يمنعهم من الضياع والحاجة.

والعصمة: المنع، واعتصم فلان بالله، إذا امتنع به، ويُراد بالعصمة: الحفظ، وعصم إليه: اعتصم به، وأعصمه: هياً له شيئاً يعتصم به، وأعصم بالفرس: امتسك بعرفه.

قال الزجاج: «أصل العصمة الحبل، وكل ما أمسك شيئاً فقد عصمه، وأعصم الرجل بصاحبه إعصاماً إذا لزمه».

والاعتصام بمعنى الامتناع، تقول اعتصمت بالله؛ إذا امتنعت بلطفه من المعصية، واستعصم بمعنى امتنع وأبى، ومنه قوله تعالى عن امرأة العزيز حين راودت يوسف عن نفسه: ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] بمعنى أنه أبى عليها ولم يجيبها إلى ما طلبت. والعاصم: المانع والحامي.

فمن خلال ما تقدم يتبين لنا أن الاعتصام في اللغة ورد بمعان عديدة، وهي المنع والالتقاء والحفظ والحماية والالتجاء، وكلها معان متقاربة تدور حول فلك واحد^(١).

والاعتصام في الاصطلاح هو عين الاعتصام في اللغة مع شيء من التخصيص. قال الإمام الشوكاني: الاعتصام بالله التمسك بدينه وطاعته والوثوق بوعدته^(٢).

(١) ينظر: الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات (٤ / ١).

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير (٣٦٧/١).

قال النووي رَحْمَةُ اللَّهِ: «الاعتصام بحبل الله هو التمسك بعهدته، وهو اتباع كتابه العزيز وحدوده، والتأدب بأدبه. والحبل يطلق على العهد، وعلى الأمان، وعلى الوصلة، وعلى السبب. وأصله من استعمال العرب الحبل في مثل هذه الأمور لاستمساكهم بالحبل عند شدائد أمورهم، ويوصلون بها المتفرق، فاستعير اسم الحبل لهذه الأمور»^(١).

وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «الاعتصام: افتعالٌ مِنْ عَصَمَ، وهو طلب ما يعصم، أي: يمنع، وذلك بالاجتماع على هذا الدين وعدم التفرق ليكتسبوا باتحادهم قوة ونهاء»^(٢).

وقال القشيري: «الاعتصامُ بحبله سبحانه: التمسك بآثار الواسطة صلوات الله عليه، وذلك بالتحقق والتعلق بالكتاب والسُّنَّة. وَلَمَنْ رَجَعَ عِنْدَ سَوَانِحِهِ إِلَى اخْتِيَارِهِ وَاحْتِيَالِهِ، أَوْ فِكْرَتِهِ وَاسْتِدْلَالِهِ، أَوْ مَعَارِفِهِ وَأَشْكَالِهِ، وَالتَّجَاؤَ إِلَى ظِلِّ تَدْبِيرِهِ، وَاسْتِضَاءِ بِنُورِ عَقْلِهِ وَتَفْكِيرِهِ؛ فَمَرْفُوعٌ عَنْهُ ظِلُّ الْعِنَايَةِ، وَمَوْكُولٌ إِلَى سُوءِ حَالِهِ»^(٣). وقال: «الاعتصامُ بالله: التبري من الحول والقوة، والنهوض بعبادة الله بالله لله. يقال: الاعتصام بالله التمسك بالكتاب والسنة. ويقال: الاعتصامُ بالله حُسْنُ الاستقامة بدوام الاستعانة»^(٤).

(١) شرح النووي على مسلم (١٢ / ١١).

(٢) التحرير والتنوير، المجلد الثالث (٣١ / ٤).

(٣) تفسير القشيري (١ / ٣٦٥).

(٤) تفسير القشيري (٥ / ٢٣٣).

علاقة الاعتصام بالتعلق واللجأ:

يجمعها العلم بالله والتعلق بالله والثقة به، بيد أن في الاعتصام مزيد سكينه ومزيد ثقة ومزيد ثبات ومزيد استغناء.



فضله وضرورته للمؤمن

الاعتصام بالله تعالى عصمة من الهلكة، ووقاية من الخلل، وأمان من الخذلان، وسلامة من عثرات الطريق، ووسيلة مفضية لكمال الرضا والفلاح بإذن الله تعالى.

وجوهر الاعتصام: صدق الاعتماد، وتحقيق التوحيد، وتجريد التعلق، وتمام الثقة، وكمال التوكل، ورسوخ اليقين. فمن اعتصم بهاله قل، ومن اعتصم بعقله ضل، ومن اعتصم بجاهه ذل، ومن اعتصم بغير الله زل، ومن اعتصم بالله عز وجل لا قل ولا ضل ولا ذل ولا زل، بل إلى ذرى المنى يقيناً قد وصل.

ذلك أن الاعتصام بالله تعالى هو ركن التوفيق، فالمرء في كل أطواره وأزمانه متردد بين جلب الخير وثباته ونهائه، أو دفع الضر أو رفعه، ليس له حول وطول على الحقيقة البتة، إنما غاية جهده اتخاذ الأسباب المأمور بها من لدن المسبب الخالق البارئ، فهو لا شيء إلا بمعونة إلهه وسيده ومولاه.

وهذه الأسباب لا تستقل بحدوث تأثيراتها، بل لا بد من صرف الموانع، ولا يكون شيء من ذلك إلا بمشيئة رب العالمين، فعاد الأمر طراً لمن بيده مقاليد الأمور وتصاريح الأشياء وصيرورات الأقدار، فمن رام التوفيق فليلد بذلك الركن، وليعتصم بمن لا يأتي بالخير ولا يدفع الشر سواه.

والمعتصم بالله حقاً في تحصيل إيمانه فغاياته الجليلة ليس وراءها مرمى، كيف لا، وهو بالله يسمع وبه يبصر وبه يبطش وبه يمشي؟ فعلمه وإرادته

وقدرته بربه الأعلى، فلا يقوم لقوته قوة، ولا يتخلف عن معيته توفيق.

ومتى أحسن العبد الاعتصام بربه انتظمت له سائر أعماله، وتيسرت له، وانشرح صدره بها؛ ذلك أن الله شكور حميد. «فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله تعالى أبداً، وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له وعبادته وحده، فهو دائماً يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده، فحينئذ يباشر روح الحياة ويذوق طعمها، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذي له خلق الخلق، ولأجله خلقت الجنة والنار، وله أرسلت الرسل ونزلت الكتب، ولو لم يكن جزاء إلا نفس وجوده لكفى به جزاء، وكفى بفوته حسرة وعقوبة» (١).

قال الله جل ذكره موصياً عباده بالاعتصام بحبله المتين الواصل إليه:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۚ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٤﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۗ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣] فالاعتصام وصيته سبحانه للمؤمنين به.

وقال مشترطاً الاعتصام به للتائب من أعظم جرم: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَأَعْتَصَمُوا

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (١ / ٧١).

بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ^ط وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿ [النساء: ١٤٥ - ١٤٦].

وقال تبارك وتعالى في وصف أوليائه الموعودين برحمته: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ، فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿ [النساء: ١٧٤ - ١٧٥] ثم أردف أمره بالصلاة والزكاة بالاعتصام، وختم ذلك بالإغراء بتحصيل ولايته فقال: ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿ [الحج: ٧٨].

وقال جل وعلا في بيان ألا معصوم من كل كريمة إلا من عصمه برحمته: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ ﴿ [هود: ٤٣].

وأوصى الحريص الشفيق صلوات الله وسلامه وبركاته عليه بتحقيق الاعتصام بالله، وبيّن طرق تحصيله؛ فعن سفيان بن عبد الله الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله: حدثني بأمر أعتصم به، قال: «قل: ربي الله ثم استقم». قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: «هذا» (١).

وقال للحارث بن هشام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سأله: أخبرني بأمر أعتصم به؟ فقال

(١) الترمذي (٢٥٢٢) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٣٩٧٢)، وصححه الألباني، صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٠٨).

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «املك هذا» وأشار إلى لسانه^(١)، فيبين أن ملاك التقوى الاعتصام بالله تعالى في لزوم الاستقامة، ومن ذلك حفظ اللسان.

وأخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ صِيَامَ أَمَانِ الْمُؤْمِنِ اعْتِصَامَهُ بِكِتَابِ رَبِّهِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: فِي حَدِيثِ الْحَجِّ الطَّوِيلِ: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضَلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ؛ كِتَابَ اللَّهِ»^(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم ينزل القلب منزل الاعتصام، وهو نوعان: اعتصام بالله واعتصام بحبل الله، قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

والاعتصام: افتعالٌ من العِصْمَةِ، وهو التمسك بما يعصمك ويمنعك من المحذور والمخوف. فالعصمة: الحمية، والاعتصام: الاحتماء، ومنه سُمِّيت القلاع: العواصم لمنعها وحمايتها. ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين.

فأما الاعتصام بحبله: فإنه يعصم من الضلالة، والاعتصام به: يعصم من

(١) رواه الطبراني بإسنادين أحدهما جيد، المعجم الكبير (٣/ ٢٩٥) (٣٣٤٩، ٣٣٤٨)، وانظر الترغيب والترهيب للمنزدي (٣/ ٥٢٧) ويتقوى بشواهد عند أحمد (٥/ ٢٩٥)، وابن المبارك في الزهد (١٣٤).

(٢) مسلم (١٢١٨).

الهلكة، فإن السائر الى الله كالسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها، فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيلا بعصمته من الضلالة وأن يهديه إلى الطريق، والعدة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتهما.

والاعتصام بحبل الله: يوجب له الهداية واتباع الدليل، والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح، والمادة التي يستلتم بها في طريقه. ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى، فقال ابن عباس: تمسكوا بدين الله، وقال ابن مسعود: هو الجماعة، وقال: عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة. وقال مجاهد وعطاء: بعهد الله، وقال قتادة والسدي وكثير من أهل التفسير: هو القرآن، وقال مقاتل: بأمر الله وطاعته ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى. وفي الموطأ^(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويسخط لكم ثلاثاً، يرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تناصحوا من ولّاه الله أمركم، ويسخط لكم: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال».

فالاعتصام بحبل الله يحمي من البدعة وآفات العمل. وأما الاعتصام به: فهو التوكل عليه، والامتناع به، والاحتفاء به، وسؤاله أن يحمي العبد ويمنعه ويعصمه ويدفع عنه.

(١) الموطأ (٢/ ٩٩٠) وصححه الألباني وأصله في مسلم (١٧١٥).

فإن ثمرة الاعتصام به: هو الدفع عن العبد، والله يدافع عن الذين آمنوا، فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضي به إلى العطب ويحميه منه، فيدفع عنه الشبهات والشهوات وكيد عدوه الظاهر والباطن وشر نفسه، ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه، فتفقد في حقه أسباب العطب فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها، ويدفع عنه قَدْرَهُ بِقَدْرِهِ، وإِرَادَتَهُ بِإِرَادَتِهِ، ويعيده به منه»^(١).

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي آيَةِ الْأَمْرِ بِالْإِيمَانِ: «قوله تعالى: ﴿قُولُوا﴾ أي: بألستكم، متواطئة عليها قلوبكم، وهذا هو القول التام، المترتب عليه الثواب والجزاء، فكما أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب نفاق وكفر، فالقول الخالي من العمل عمل القلب عديم التأثير، قليل الفائدة، وإن كان العبد يؤجر عليه إذا كان خيراً ومعه أصل الإيمان، لكن فرق بين القول المجرد، والمقترن به عمل القلب.

وفي قوله: ﴿قُولُوا﴾ إشارة إلى الإعلان بالعقيدة، والصدع بها، والدعوة لها، إذ هي أصل الدين وأساسه.

وفي قوله: ﴿ءَامِنَّا﴾ ونحوه مما فيه صدور الفعل، منسوباً إلى جميع الأمة، إشارة إلى أنه يجب على الأمة، الاعتصام بحبل الله جميعاً، والحث على الائتلاف حتى يكون داعيهم واحداً، وعملهم متحداً، وفي ضمنه النهي عن الافتراق،

(١) مدارج السالكين (١/٤٥٠ - ٤٥٥) مختصراً.

وفيه: أن المؤمنين كالجسد الواحد»^(١). وقال: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ﴾ أي: يتوكل عليه، ويحتمي بحماه، ﴿فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] وهذا فيه الحث على الاعتصام به، وأنه السبيل إلى السلامة والهداية»^(٢).

«ولما توعد فرعون موسى عليه السلام بالقتل لم يأت في دفع شره إلا بأن استعان بالله واعتمد على فضله كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ﴾ أي: اعتصمت عند ابتداء الرسالة ﴿بِرَبِّي﴾ ورغبهم في الاعتصام به وثبتهم بقوله: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ أي: المحسن إلينا أجمعين، وأرسلني لاستنقاذكم من أعداء الدين والدنيا ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: عات طاغ متعظم على الحق هذا وغيره ﴿لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧] من ربه له وهو يعلم أنه لا بد من حسابه هو لمن تحت يده من رعاياه وعبيده، فيحكم على ربه بما لا يحكم به على نفسه.

وبالأمرين يقدم الإنسان على اتقاء الناس، لأن المتكبر القاسي القلب قد يحمله طبعه عن إيذاء الناس، إلا أنه إذا كان مقراً بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعاً له عن الجري على موجب تكبره، فإذا لم يحصل له الإيمان بالبعث والقيامة كان طبعه داعياً له إلى الإيذاء»^(٣).

وقال أبو بكر الوراق: «علامات الاعتصام ثلاثة: قطع القلب عن معونة

(١) تفسير السعدي (١/ ٦٧).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٩٧١).

(٣) انظر: السراج المنير (٣/ ٣٨٣).

المخلوقين، وصرفه بالكلية إلى رب العالمين، وانتظار الفرج من الله» (١).

وعن الإمام الزهري أنه قال: «الاعتصام بالسنة نجاة» (٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]
«الاعتصام هو التمسك، ولا يتأتى إلا في علو، فيقال: اعتصمت بحبل الإيوان،
لأن للإنسان ثقلاً ذاتياً، وهذا الثقل الذاتي إن لم يرفعه سواه؛ فإنه يقع بالإنسان.
وهذا لا ينشأ إلا إذا كان الإنسان معلقاً في الجو ويمسك بحبل ولا يوجد من
يدفعه إلى أسفل، بل الإنسان بثقله الخاص يهبط إلى الأرض. فمن يعتصم بالله
ويمسك بحبل الإيوان فإنه يمنع نفسه من الهوي والسقوط.

وهنا نشعر أن الاعتصام بالله هو أن نتبع ما تلي علينا من الآيات، وما سنّه
لنا رسول الله ﷺ. إذن فباب الاعتصام هو كتاب الله وسنة رسوله.

وكذلك كان وجود الرسول بين أظهرهم هو الأمر الضروري، لأنهم كانوا
منغمسين في حمأة الجاهلية، فلا بد أن توجد إشراقة الرسول بينهم حتى تضيء
لهم، فيروا أن الله قد أخرجهم من الظلمات إلى النور. ولم يقبض الحقُّ رسولَه إلا
بعد أن أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام ديناً. قال الرسول
ﷺ: «ترك فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي» (٣).

(١) تفسير السلمى (١/ ١١٤).

(٢) تفسير السمعي (٣/ ٤٦٠).

(٣) الحاكم (٣١٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٥٦٦) المشكاة
١٨٦، الصحيحة (١٧٦١).

هكذا نرى أن وجود آيات الله وسنة رسول الله هي العاصم الذي يهدي إلى صراط مستقيم. والهدى كما نعرف هو ما يوصل إلى الغاية المرجوة، فهب أن غايتك أن تذهب إلى مكان معين؛ فالذي يوصلك إلى ذلك المكان هو هدى، وكل ما يدل إنساناً على الموصل للغاية اسمه هدى»^(١).

ومن تدبر حديث ابن عباس المشهور وعمل به حاز الاعتصام، وقطف ثمراته، ونال على حسب تحقيقه درجاته، فهو حديث جامع، وكلام حافل بكل معاني المنعة والحفظ والعصمة، ووصية مانعة لمن حققها، ووعد إلهي لمن التزمه، فقد أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «يا غلام؛ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سألت فسال الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»^(٢).

«ومعنى الحديث أن الله سبحانه وتعالى ملك الملوك، ليس شأنه شأن الملوك، الذين يأخذهم السفه، ويميل بهم التيه، فلا يرقون لملوك، ولا يعطفون عليه، وإن بالغ في التضرع والاستغاثة، لذلك لجأ كثير من رعية الملوك وأهل مملكتهم إلى الأمراء، فتوسلوا بهم عند هؤلاء الملوك، وتمسكوا بأهدابهم، ولاذوا

(١) تفسير الشعراوي (١/ ١١١٠).

(٢) الترمذي (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح.

بحماهم ليميلوا إليهم، ويشملوهم بعطفهم، ويعفوا عن خطاياهم، تحقيقاً لرغبة هؤلاء الشفعاء، أو جاهة أولئك الأمراء والعظماء، بل هو في منتهى الكرم والرحمة، لا ينسى أحداً، ولا يغفل عن أحد، شفيع شفيح، أو لم يشفع، وليس له مجلس كمجالس الملوك والسلاطين.

بل إن الله أقرب إلى عبده من حبل الوريد، فمن أقبل عليه بقلبه أقبل عليه بعطفه، ووجده تجاه نفسه، ليس بينه وبين ربه حجاب إلا الغفلة والجهالة، فمن بُعد عنه بعد بغفلته، ومن حُرِمَ رحمته حرم بجهالته ومعصيته، وهو أقرب من كل قريب.

ألا يعرف من دعا شيخاً أو نبياً، وناداهما لنصرته ليقرباه إلى الله زلفى؛ أن الشيخ والنبى بعيدان عنه، والله قريب منه، ومثله مثل رجل جالس وحده عند الملك، وقد أقبل عليه الملك يسمع طلبه، وما يبيديه من حاجة أو رغبة، فانصرف هذا الرجل الجاهل عن الملك، وبدأ ينادي أميراً أو وزيراً، وهما بعيدان، وسألها أن يُبلغا حاجته إلى هذا الملك العظيم!

فهو لا يخلو عن حالين: إما أنه أعمى، وإما أنه مجنون.

وقد أمر النبي ﷺ في هذا الحديث بأن العبد إذا سنحت له حاجة اضطرتة إلى السؤال فليسأل الله، وأنه إذا كان في حاجة إلى إعانة أو إغاثة فليستعن بالله، وأنه قد رفعت الأقلام، وجفت الصحف، فلا ماحي لما أثبتته الله، ولا مثبت لما محاه الله، وأن القضاء واقع، والأمر محتوم، وإن اجتمع الناس كلهم صغيرهم وكبيرهم على أن ينفعوا أحداً أو يضره؛ لم يجاوز ذلك قدر الله.

والمؤمن الموحد رابط الجأش ناعم البال، وضعيف العقيدة مشتت الفكر

موزع النفس، فمن المشاهد أن الإنسان إذا تعلق قلبه بشيء واستحوذ عليه، أو أملت به ملمة فلم تنفرج؛ تشتت فكره، وذهب في طلب الغوث كل مذهب، وهام في كل واد، وقد تسول له نفسه أن يستصرخ النبي الفلاني، وقد تزين له أن ينادي فلاناً من الأئمة، وقد يجول بخاطره أن ينذر فلان من المشايخ، وكذا من الشهداء، أو يخضع لجنية فلانية، أو يرجع إلى المنجم الفلاني، أو الرمال الفلاني، وقد تحدثه نفسه بأن يراجع سادناً، أو إماماً من أئمة المساجد الذين اتخذوا هذه الأمور حرفة، فيطلب منه أن يبحث عن الفأل في كتاب!

ومن هام في كل واد، واتبع كل ناعق؛ صرف الله عنه عنايته، وأخرجه من عباده الصادقين، وأخطأ طريق التربية والهداية الربانية، وظل يهيم في هذه الأودية، ويتيه في مهامه الأوهام والأحلام إلى أن يتلف ويهلك، فمنهم من تمذهب بمذهب الدهريين، ومنهم من سلك مسلك الملحدين، ومنهم من دخل في غمار المشركين، ومنهم من ابتلي بالسفسطة.

وأما من توكل على الله ولم تتشعب به المذاهب وفقه الله، وفتح الله عليه طريق الهداية، وهدى قلبه، فأذاقه حلاوة الإيمان، وغشيته غاشية من السكينة، ورزق من اجتماع الخاطر، ورباطة الجأش، وبرد اليقين، وهدوء النفس ما لا سبيل إليه لمن تشتت فكره، وتفرق هواه.

ثم إنه لا يخطئه ما قُدِّرَ له وقُسم، ولكن ضعيف العقيدة متشتت البال، يعاني الحزن والقلق من غير جدوى، والمؤمن المتوكل الموحد ينعم بالهدوء والطمأنينة والسكينة.

ومعنى ذلك: أن الله عز وجل وعلا لا يقاس على ملوك الدنيا، فإنهم يباشرون الأمور الخطيرة ويتولونها بأنفسهم، أما الأمور التافهة فيكلونها إلى الخدم والموظفين، فيلجأ الناس إليهم في هذه الأمور التي ليست ذات خطر وشأن، وليس الأمر كذلك فيما يختص بالله تعالى، فإنه هو القادر المطلق الذي يقدر على أن يصلح ما دقَّ وجلَّ من الأمور، وإن كانت في عددها وانتشارها كنجوم السماء، ورمال الدهناء، وليس لأحد تصرف في مملكته، فيحب أن يطلب منه الأمر التافه كما يجب أن يطلب منه الأمر الجليل والعطاء الجزيل، لأن أحداً لا يملك شيئاً سواء الصغير منه والكبير، والدقيق والجليل»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨] «أي: متى اعتصمتم به تولاكم ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان، وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد، وعداوتها أضرم من عداوة العدو الخارج، فالنصر على هذا العدو أهم، والعبد اليه أحوج، وكمال النصر على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله»^(٢).

والمعتصم بالله الملازم للاعتصام يمدّه الله بقوة الإيمان وإصابة الحق، فيريد الحق ويحرص عليه، وهذا من أعظم أسباب معرفة الحق واتصاحه، قال شيخ الإسلام رَحْمَةُ اللَّهِ: «وفي الحديث الصحيح: «إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ»^(٣) فدل على أن المؤمن يتبين له ما لا يتبين

(١) رسالة التوحيد الدهلوي (١/ ٩٣ - ٩٩) مختصراً، وهي كما ترى نفيسةً توحيديةً عزيزة.

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٨٠).

(٣) بنحوه في مسلم (٧٥٥٢).

لغيره؛ ولا سيما في الفتن.. وكلما قوي الإيمان في القلب قوي انكشاف الأمور له، وعرف حقائقها من بواطنها، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف، وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم؛ ولهذا قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] قال: هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحق، وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور» (١).

ومن فضائل تحقيق الاعتصام بالله تعالى:

١- اختصار الطريق على نفسك، فلا تتشعب بك السبل ومردك إلى الله بكل أحوالك، قال سبحانه: ﴿وَلَكِنْ مَتَّمَّ أَوْ قَتَلْتُمْ لِأَلِي اللَّهِ تُحْشِرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨] «فالخلق إذا ماتوا أو قتلوا بأي حالة كانت، فإنما مرجعهم إلى الله، ومآلم إليهم، فيجازي كلا بعمله، فأين الفرار إلا إلى الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله؟» (٢).

٢- تكفير الخطايا مهما بلغت. فحتى المنافق إذا تاب واعتصم بالله حُطت عنه ذنوبه برحمة الله قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿ [النساء: ١٤٥-١٤٧] «يجزى تعالى عن مآل المنافقين أنهم في أسفل الدرجات من العذاب، وأشر

(١) الفتاوى (٢٠/٤٥-٤٦).

(٢) تفسير السعدي (١/١٥٤).

الحالات من العقاب. فهم تحت سائر الكفار؛ لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين على وجه لا يُشعر به ولا يُحسّ. ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه؛ فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق إلا مَنْ مَنَّ اللهُ عليهم بالتوبة من السيئات. ﴿وَأَصْلِحُوا﴾ له الظواهر والبواطن. ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ والتجأوا إليه في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم. ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان ﴿لِلَّهِ﴾.

فقصدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلّموا من الرياء والنفاق، فمن اتصف بهذه الصفات ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم كنهه إلا الله، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلِحُوا﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما، خصوصاً في هذا المقام الحرج الذي يمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافياً كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: وسوف يؤتيهم أجراً

عظيماً، مع أن السياق فيهم. بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأن هذه القاعدة الشريفة لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب عليه ثواباً أو عقاباً، وكان ذلك مشتركاً بينه وبين الجنس الداخلة فيه؛ رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولثلا يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين مع المؤمنين وله ثوابهم.

ثم أخبر تعالى عن كمال غناه وسعة حلمه ورحمته وإحسانه فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَعَآمَنْتُمْ﴾ والحال أن الله شاكر عليم. يعطي المتحملين لأجله الأثقال الدائنين في الأعمال جزيل الثواب وواسع الإحسان. ومن ترك شيئاً لله أعطاه الله خيراً منه.

ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم، وأعمالكم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق، وصد ذلك. وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه، فإذا أنبتم إليه، فأى شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفى بعذابكم، ولا ينتفع بعقابكم، بل العاصي لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل المطيع لنفسه.

والشكر هو خضوع القلب واعترافه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور، وعمل الجوارح بطاعته وألا يستعين بنعمه على معاصيه^(١). فأكرم بالاعتصام ملجأً وملاذاً، وأمنةً وسلاماً، ونعمةً ونوالاً. والحمد لله رب العالمين.



(١) تفسير السعدي (١/ ٢١١-٢١٢).

وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة

لقد أمر الله تعالى الأمة بالاجتماع واتحاد الكلمة وجمع الصف، على أن يكون أساس هذا الاجتماع الاعتصام بالكتاب والسنة، ونهى عن التفرق والتباغض والتهاجر والاختلاف، وبيّن خطورة ذلك على الأمة في الدارين. ولتحقيق ذلك المقصد الأسمى والغاية العظمى أمرنا تعالى بالتحاكم إلى كتابه في الأصول والفروع، ونهانا عن كل سبب يؤدي إلى التفرّق والتبدّد.

فالطريق الفرد الصحيح إلى النجاة ثمّ الفلاح هو التمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فإنهما حصن حصين وحرز متين لمن وفقه الله تعالى من أصفيائه ومكرميه. قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. فقد أمر الله تعالى بالاعتصام بحبل الله، وحبل الله هو عهد الله، وهو القرآن كما قال المفسرون، إذ العهد الذي أخذه الله على المسلمين هو الاعتصام بالقرآن والسنة. فقد أمر الله تعالى بالجماعة ونهى عن التفرق والاختلاف. قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] وهذا شامل لأصول الدين وفروعه الظاهرة والباطنة.

وقد وردت أحاديث شريفة كثيرة في وجوب التمسك بالكتاب والسنة، منها ما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنْ اللَّهُ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا، يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفْرُقُوا، وَأَنْ تَنَاصَحُوا مِنْ وِلَاةِ اللَّهِ

أمركم. ويسخط لكم ثلاثاً، قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال»^(١).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي»^(٢).

وقال ﷺ: «تَرَكْتُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلَهَا كُنْهَارُهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ»^(٣).

وجاء في حديث العرباض بن سارية قوله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»^(٤).

واعلم أن ما جاء به الرسول ﷺ فإنه يتعين على العباد الأخذ به واتباعه ولا يحل لأحد مخالفته، ولا مندوحة لأحدهم في الإعراض عنه مهما اكتنفته شدائد شهوات الغفلات. ونص الرسول ﷺ على حكم الشيء كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، فهو المبلغ عن الله المرسل منه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله. قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠] فقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، وزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له.

(١) صحيح مسلم (١٧١٥).

(٢) رواه مالك في الموطأ (٢/٨٩٩).

(٣) سنن ابن ماجه (١٦/١) المقدمة، وصحيح ابن ماجه للألباني (٦/١).

(٤) سنن أبي داود (١٣/٥) والترمذي مع تحفة الأحوذى (٧/٤٣٨).

ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ﴾ [الأنفال: ٢٠] أي تركوا طاعته وامتنال أو امره وترك زواجره.

وقد أمر الله تعالى بطاعة رسوله في أكثر من ثلاثين موضعاً من كتابه الكريم، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قال الحافظ ابن كثير: «أطيعوا الله، أي اتبعوا كتابه، وأطيعوا الرسول أي خذوا سنته، وأولي الأمر منكم، أي فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله». وقوله: ﴿فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال. ولهذا قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩] أي ردوا الفصل في الخصومات والجهالات إلى الكتاب والسنة، ومن لا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا اليوم الآخر. وقوله ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [النساء: ٥٩]، أي التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، والرجوع إليهما في فصل النزاع خير ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. أي:

وأحسن عاقبة ومآلاً كما قال السدي وقال مجاهد: «وأحسن جزاء، وهو قريب»^(١) وفي كتاب الله آيات كثيرة وردت في وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة والرجوع إليهما في كل الأمور.

وقد بشر النبي ﷺ المتمسكين بسنته من أمته بأعظم بشارة ونيل أشرف مقصد يطلبه كل مؤمن ويسعى إلى تحقيقه من كان في قلبه أدنى مسكة من إيمان وعقل ألا وهو الفوز بدخول الجنة التي هي عنوان لرضا الملك العلام تبارك وتعالى وقبوله لوليّه الصالح الذي خرج من امتحان الدنيا بالفوز الحقيقي، نسأل الله الكريم من فضله العميم الجميل الجزيل.

وقد جاءت هذه البشرى في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى». قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»^(٢) وأي إباء ورفض للسنّة أعظم من مخالفة أمره ﷺ؟ وذلك بالإحداث والابتداع في الدين، والإيضاع في نتن المعصية ونجس الرذيلة وحفرة النار.

ومعلوم أن الفرقة الناجية هي التي كانت على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وهي الجماعة. قال أبو بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسه النار أبداً، وإن اقتصاداً في سبيلٍ وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٤).

(٢) صحيح البخاري (٧٢٨٠).

وسنة».

والمؤمن الناصح لنفسه شديد الحذر من البدع والمحدثات، وقد تضافرت الدلائل وتظاهرت النداءات من الوحي المنزل في الكتاب والسنة في التحذير من البدع والتشنيع على أهلها، لأنها - وإن لم يقصد أهلها - إشعاراً بعدم الاكتفاء بالوحي الإلهي، وإلماحٌ بعدم إكمال الدين إما بنقصه في ذاته، أو في قصور البلاغ عنه، وكفى بتصوّر شناعة ذلك كفرًا بالبدع وأهل البدع! لا جرّم؛ فشرُّ الأمور المحدثات البدائع.

ماهية البدعة:

البدعة هي: ما خالف الكتاب والسنة، أو إجماع سلف الأمة من الاعتقادات والعبادات المحدثّة في الدين.

والبدع والمحدثات في الدين لها خطورة عظيمة، وآثار سيئة على الفرد والمجتمع، بل وعلى الدين كله أصوله وفروعه.

فالبدع: إحداث في الدين، وقول على الله بغير علم، وشرع في الدين بما لم يأذن به الله تعالى، والبدعة سبب في عدم قبول العمل، وفي تفريق الأمة، والمبتدع يحمل وزره ووزر من تبعه في بدعته، كما أن البدعة سبب في الحرمان من الشرب من حوض النبي ﷺ، فعن سهل بن سعد الأنصاري، وأبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «أنا فرطكم على الحوض، من مرّ عليّ شرب، ومن شرب لا يظمأ أبداً. ليردّن عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم فأقول إنهم من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك.

فأقول: سحقا لمن غير بعدي»^(١).

أسباب البدع:

وللبدع أسباب كثيرة أعظمها البعد عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومنهج السلف الصالح، الأمر الذي يؤدي إلى الجهل بمصادر التشريع. ومن أسباب انتشار البدع: التعلق بالشبهات والاعتماد على العقل المجرد وجلساء السوء، والاعتماد على الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي يستدل بها المبتدعة على بدعهم، والتشبه بالكفار، وتقليد أهل الضلال ونحو ذلك من الأسباب الخطيرة.

قال الألباني رَحِمَهُ اللهُ: «هنيئاً لمن وفقه الله للإخلاص له في عبادته واتباع سنة نبيه ﷺ ولم يخالطها ببدعة، إذا فليشر بتقبل الله عز وجل لطاعته وإدخاله إياه في جنته. جعلنا الله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

واعلم أن مرجع البدع المشار إليها إلى أمور:

الأول: أحاديث ضعيفة لا يجوز الاحتجاج بها ولا نسبتها إلى النبي ﷺ، ومثل هذا لا يجوز العمل به عندنا على ما بينته في مقدمة «صفة صلاة النبي ﷺ» وهو مذهب جماعة من أهل العلم كابن تيمية وغيره.

الثاني: أحاديث موضوعة أو لا أصل لها، خفي أمرها على بعض الفقهاء

(١) صحيح البخاري (٦٥٨٣) (٦٥٨٤) وصحيح مسلم (٢٢٩٠) والفرط: الذي يسبق إلى الماء. وسحقا: أي: بعدا.

فبنوا عليها أحكاماً هي من صميم البدع ومحدثات الأمور.

الثالث: اجتهادات واستحسنات صدرت من بعض الفقهاء خاصة المتأخرين منهم لم يدعموها بأي دليل شرعي، بل ساقوها مساق المسلمات من الأمور حتى صارت سنناً تتبع! ولا يخفى على المتبصر في دينه أن ذلك مما لا يسوغ اتباعه، إذ لا شرع إلا ما شرعه الله تعالى، وحسب المستحسن إن كان مجتهداً أن يجوز له هو العمل بما استحسنه وأن لا يؤاخذ الله به. أما أن يتخذ الناس ذلك شريعة وسنة فلا ثم لا. فكيف وبعضها مخالف للسنة العملية؟!

الرابع: عادات وخرافات لا يدل عليها الشرع ولا يشهد لها عقل، وإن عمل بها بعض الجهال واتخذوها شرعة لهم، ولم يعدموا من يؤيدهم ولو في بعض ذلك ممن يدعي أنه من أهل العلم ويتزيّاً بزيمهم.

ثم ليعلم أن هذه البدع ليست خطورتها في نسبة واحدة، بل هي على درجات، فبعضها شرك وكفر صريح، وبعضها دون ذلك، ولكن يجب أن يعلم أن أصغر بدعة يأتي الرجل بها في الدين هي محرمة بعد تبين كونها بدعة، فليس في البدع كما يتوهم بعضهم ما وهو في رتبة المكروه فقط، كيف ورسول الله ﷺ يقول: «كل بدعة ضلالة»^(١).

(١) قطعة من حديث رواه مسلم في صحيحه (٨٦٧)، من حديث جابر رضي الله عنه وعند أبي داود في سننه (٤٦٠٧) من حديث العرباض رضي الله عنه مرفوعاً: «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» وأحمد (١٧١٨٤) وصححه الأرنؤوط. والدارمي في السنن (٧٨ / ١) والحاكم في المستدرک (٣١٨ / ٢)

وقد حقق هذا أتم تحقيق الإمام الشاطبي رَحْمَةُ اللَّهِ فِي كتابه العظيم «الاعتصام»^(١) ولذلك فأمر البدعة خطير جداً، لا يزال أكثر الناس في غفلة

وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

(١) مع التنبيه لوقوعه - عفا الله عنا وعنه - في بعض بدع الأشاعرة في باب الصفات والقدر والإيمان وغيرها .

ولم ينفرد الشاطبي رحمه الله تعالى في هذه الازدواجية المؤسفة - أي شدة الاتباع في العمليات والمسلكيات مع الوقوع في بدع العلميات والاعتقادات - فقد وقع فيها غيره كالإمام ابن حزم رَحْمَةُ اللَّهِ حِينَ عَطَّلَ بتأويل (تحريف) بعض صفات الرحمن، وأبي بكر الطرطوشي رَحْمَةُ اللَّهِ صاحب كتاب (البدع والحوادث) فقد وافق الأشاعرة في أصولهم، وأبي شامة الدمشقي رَحْمَةُ اللَّهِ صاحب كتاب (الباعث في إنكار البدع والحوادث) الذي وافق الأشاعرة، وغيرهم كثير من أهل العلم والفضل ممن أخطأوا في بعض العلميات العقديّة، والحمد لله على كل حال .

والذي نرجوه لهم من الله تعالى أن يتجاوز عنهم أغلاطهم، إذ لم يُوقِّفوا لمن ينبِّههم لذلك الانحراف العلمي والله المستعان، ومن استفرغ وسعه في طلب الحق من بابه لن يُعَدَم توفيقاً للصواب وعفواً عن الخطأ بإذن الرحيم العليم سبحانه، والله في ذلك أعظم الحكم الربانية تبارك وتعالى، ولعل من أسباب ذلك أن المتكلمين المتقدمين لم يبسطوا القول في استحسان البدع العمليّة، بل قد أنكروها بعضهم .

والقاعدة عند خطأ العالم أنه يُعْتَذِرُ له وبينه على خطئه ولا يتابع على قوله، ولا عصمة لمن دون رسول الله ﷺ . قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ثلاث يهدمن الدين: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون» .

عنه» (١).

هذا وإن البدعة تشويه للدين، وتغيير لمعالمه، وخطرها عظيم على المسلمين في أمر دينهم ودنياهم.

ومن تأمل الكتاب والسنة وجد أن البدع في الدين محرمة ومردودة على أصحابها من غير فرق بين بدعة وأخرى، وإن كانت تتفاوت درجات التحريم بحسب نوعية البدعة.

ومن المعلوم أن النهي عن البدع قد ورد على وجه واحد في قول النبي ﷺ: **«إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»** (٢). وقوله

وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «ويل للأتباع من عثرات العالم، قيل: وكيف ذلك؟ قال: يقول العالم برأيه ثم يجد من هو أعلم منه برسول الله ﷺ فيترك قوله ذلك ثم تمضي الاتباع» وانظر: «جامع بيان العلم وفضله» (١٣٣/٢) وما بعدها.

أما التشغيب على أهل العلم بتتبع عثراتهم وسقطاتهم والاشتغال بنشرها وإشاعتها بقصد العلو فليس بسبيل سنة، بخلاف نشر ما خشي منه فتنة الناس فهذه طريقة رسولية وجادة سلفية، وما كل أحد يُحسن تمييز السيلين، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وقد بسطت ذلك في كتاب «ولا تفرقوا».

(١) مناسك الحج والعمرة للألباني (٤٤ - ٤٧).

(٢) أبو داود في سننه (٤٦٠٧) من حديث العرياض رضي الله عنه مرفوعاً، وأحمد (١٧١٨٤) وصححه الأرناؤوط. والدارمي في السنن (٧٨ / ١) والحاكم في المستدرک (٣١٨ / ٢) وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(١).

فدل الحديثان على أن كل محدث في الدين فهو بدعة، وكل بدعة ضلالة مردودة، ومعنى ذلك أن البدع في العبادات والاعتقادات محرمة، ولكن التحريم يتفاوت بحسب نوع البدعة، فمنها ما هو كفر صراح كالطواف بالقبور تقريباً إلى أصحابها، وتقديم الذبائح والندور لها، ودعاء أصحابها والاستغاثة بهم، ومنها ما هو من وسائل الشرك كالبناء على القبور، والصلاة والدعاء عندها، ومنها ما هو ضلال ومعصية كإقامة الأعياد التي لم ترد في الشرع، والأذكار المبتدعة والتبتل والصيام قائماً في الشمس ونحو ذلك من العنت الخذلان، وباللغة التوفيق والعصمة، وإليه المبدأ والمعاد، وإليه.. وإلا لا تُشدُّ الركائب.



(١) صحيح البخاري (٢٦٩٧) وصحيح مسلم (١٧١٨).

مصدر التلقي الصافي التليد

قال أبو داود رَحِمَهُ اللهُ في حائته المشهورة:

تَمَسَّكَ بِحَبْلِ اللَّهِ وَاتَّبَعَ الْهُدَى وَلَا تَكُ بَدْعِيًّا لَعَلَّكَ تُفْلِحُ
 وَدُنْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَالسَّنَنِ الَّتِي أَنْتَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ تَنْجُو وَتَرْبِحُ
 وَدَعْ عَنْكَ آرَاءَ الرِّجَالِ وَقَوْلَهُمْ فَقَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ أَزْكَى وَأَشْرَحُ
 وَلَا تَكُ مِنْ قَوْمٍ تَلَهُوْا بِدِينِهِمْ فَتَطْعَنَ فِي أَهْلِ الْحَدِيثِ وَتَقْدَحُ
 إِذَا مَا اعْتَقَدْتَ الدُّهْرَ يَا صَاحِ هَذِهِ فَأَنْتَ عَلَى خَيْرِ تَبِيْتٍ وَتُصْبِحُ

قال شيخنا العلامة: عبد المحسن العباد حفظه الله: «هذان البيتان العظيمان فيهما الدعوة إلى الاعتصام بالكتاب والسنة والتحذير من البدع، وقد بدأ بهما قبل بيان الاعتقاد ومسائله على طريقة أهل السنة في كتب الاعتقاد.

وقد جرت عاداتهم في الغالب على البدء بهذا الأمر، وهذا منهم تحديداً لمصدر التلقي في أصول الدين وفروعه ليكون بناء المعتقد وقيامه على أسس سليمة وأصول صحيحة قويمية، وعندما يُحدد العبد مصدره في التلقي، ويكون مصدره من المنبع الأساس وهو الكتاب والسنة، فإنه يرى ما سواه من المنابع كدرأ، فلا يأخذ منها شيئاً ولا يجعلها مصدراً له في دينه وعقيدته، وإنما يتلقى من المنبع الصافي والمعين النقي الذي لا شائبة فيه ولا كدر، فيسلم له بذلك معتقده ويصح إيمانه.

وأهل السنة مصدرهم في التلقي هو: الكتاب والسنة، بهما يأخذون، وعنهما يتلقون، وعليهما يُعولون، لا يجيدون عنها قيد أنملة، بل هم كما قال الأوزاعي:

«ندور مع الكتاب والسنة حيث دارا» لا يُحدثون شيئاً من قبل أنفسهم.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «ليس الاعتقاد لي ولا لمن هم أكبر مني، الاعتقاد لله ولرسوله ﷺ». فمن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق والتسليم.

ولذا نجد كتب أهل السنة تبدأ بتحديد المصدر قبل بسط الاعتقاد، وهذا نستفيده مما كان يداوم عليه رسول الله ﷺ في خطبة الجمعة، فكان دائماً يقول في مقدمتها: «أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كتابُ الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرُّ الأمور محدثاتها»^(١) وتكراره ﷺ لذلك كل جمعة فيه تأكيد على أهمية العناية بهذا المصدر وضرورة رعايته والمحافظة عليه»^(٢).



(١) رواه مسلم (٨٦٧).

(٢) التحفة السننية شرح منظومة ابن أبي داود المسماة بالحائية (١/٧-٩).

الاعتصام بكتاب الله تعالى

إنّ من الاعتصام بكتاب الله تعالى تعظيمه، وإجلاله، وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، بل على الدوام عند الاقتدار والسعة، إن لم يكن بالتلاوة والتدبر فبالعمل والحياة، وحفظه في الصدور، وتعظيمه في السطور، والعمل بهداه، والرقية والاستشفاء به، واتخاذه قائداً للهدى والنور.

قال سبحانه في المعتصمين بكتابه المستمسكين به: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] «والإمسك والتمسيك والتمسك: الاعتصام والتعلق بشيء»^(١).

وتدبر وصف الله تعالى لهم بأنهم يُمسكون - بتشديد الياء - لما في دلالة ذلك التعبير من زيادة الاستمسك والاعتصام، فزيادة المبنى زيادة معنى، ثم تدبر وعده الرباني لهم بحفظ أجرهم لما حفظوا عهده المنزل وأدّوا أمانته العظيمة.

واعلم - وفقك الله تعالى - أن رأس العلم وينبوعه كتاب الله تعالى، فمن تدبره بألة جيدة، ونية قويّة، وقلب صادق؛ تفجّرت في قلبه ينابيع الحكمة المحكّمة، وسالت على فؤاده أودية العلم النافع، وانهمرت على روحه غيوث اللطف الإلهي، وامتألت يمينه بالكرامة الربانية، والله شكور حميد.

هذا، «وبقاء الدين والدنيا في بقاء العلم، وبذهاب العلم تذهب الدنيا والدين، فقوام الدين والدنيا إنما هو بالعلم. قال ابن شهاب الزهري:

(١) تفسير النسفي (٢/١١٩).

«الاعتصام بالسنة نجاة، والعلم يقبض قبضاً سريعاً، فتعش العلم ثبات الدين والدنيا، وذهاب العلم ذهاب ذلك كله».

والعلم يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة مالا يرفعه الملك ولا المال ولا غيرهما، فالعلم يزيد الشريف شرفاً، ويرفع العبد المملوك حتى يجلسه مجالس الملوك، كما ثبت في الصحيح من حديث الزهري عن أبي الطفيل أن نافع بن عبد الحارث أتى عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على أهل مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبزى. فقال: من ابن أبزى؟ فقال: رجل من موالينا. فقال عمر: استخلفت عليهم مولى! فقال: إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض. فقال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»^(١).

وقال أبو العالية: «كنت آتي ابن عباس وهو على سريره وحوله قريش، فيأخذ بيدي فيجلسني معه على السرير، فتغامزت بي قريش ففطن لهم ابن عباس فقال: كذا هذا العلم يزيد الشريف شرفاً، ويجلس المملوك على الأسرة».

وقال إبراهيم الحربي: «كان عطاء ابن أبي رباح عبيداً أسود لامرأة من مكة، وكان أنفه كأنه كذا، قال وجاء سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه فجلسوا إليه وهو يصلي، فلما صلى انفتل إليهم، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج وقد حول قفاه إليهم. ثم قال سليمان لابنيه: قوما فقاما، فقال: يا بني اطلبا العلم، فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود».

(١) مسلم (٨١٧).

قال الحربي: «كان محمد بن عبد الرحمن الأوقص عنقه داخل في بدنه، وكان منكباة خارجين كأنهما زجان^(١) فقالت أمه: يا بني لا تكون في مجلس قوم إلا كنت المضحوك منه المسخور به، فعليك بطلب العلم فإنه يرفعك، فولي قضاء مكة عشرين سنة. قال: وكان الخصم إذا جلس إليه بين يديه يردد حتى يقوم». هذا مع التنبيه إلى ضرورة إخلاص النية في طلب العلم لله، فكل شيء لغير وجه الله يضمحل، وطلب العلم عبادة وصرها لغير الله مورد هلكة ومدحضة خسران، وإرادة الدنيا بالدين حفرة جحيم، أما الدنيا فتبع للآخرة. ومن أراد الدنيا بالعلم فجعله خير له من علم لا يقربه لربه!

وقال أبي الخناجر: «كنا في مجلس ابن هارون والناس قد اجتمعوا إليه، فمر أمير المؤمنين فوقف علينا في المجلس، وفي المجلس أوف، فالتفت إلى أصحابه وقال: هذا الملك».

وقال الحسن بن فارس: «سمعت الأستاذ ابن العميد يقول: ما كنت أظن أن في الدنيا حلاوة ألد من الرياسة والوزارة التي أنا فيها، حتى شهدت مذاكرة سليمان بن أيوب بن أحمد الطبراني وأبي بكر الجعابي بحضرتي، فكان الطبراني يغلب بكثرة حفظه وكان الجعابي يغلب الطبراني بفطنته..^(٢)».

(١) الزج: طرف السهم.

(٢) وذكر قصة لا تخلو من تكاثر ومراء! - وهما آفة العلم، وكذا العجب والرياء في خصال قلبية وسموم خفية يدسها الرجيم في فؤاد طالب العلم مع العلم فتزاحمه، وتذهب رونقه، وتبطل طهارته، وربما أفسدته، وكرب علم الجهل خير منه عاقبة! وإن كان المرء لا يسلم

وقال المزني: «سمعت الشافعي يقول: من تعلّم القرآن عظمت قيمته، ومن نظر في الفقه نبل مقداره، ومن تعلم اللغة رُقّ طبعه، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه».

وقال سفيان الثوري: «من أراد الدنيا والآخرة فعليه بطلب العلم. وقال النضر بن شميل: من أراد أن يشرف في الدنيا والآخرة فليتعلم العلم، وكفى بالمرء سعادة أن يُوثق به في دين الله، ويكون بين الله وبين عباده».

«وابتنى معاوية بالأبطح مجلساً فجلس عليه ومعه ابنه قرظة، فإذا هو بجماعة على رحال لهم، وإذا شاب منهم قد رفع عقيرته يتغنى:

مَنْ يُسَاجِلُنِي يُسَاجِلْ مَا جِدًّا يَمَلَأُ الدَّلْوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ

قال: من هذا؟ قالوا: عبد الله بن جعفر، قال: خلوا له الطريق. ثم إذا هو

بجماعة فيهم غلام يتغنى:

من عشرة بعد عشرة يقوم منها خيراً منه قبلهما، وله في أبيه الطيب التواب أسوة، وهذا حال التوابين فكلنا ذوو خطأ وضعف وهفوات وسقطات، والتقيُّ منا محفوظ بحفظ الله الأعلى، فما إن يمَسَّ قلبه طائفُ شيطانٍ تذكَّرَ وارعوى وتاب وأناب فأبصر واهتدى. وتمام القصة: «.. ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه، فقال الجعابي: عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي. فقال: هاته، فقال: حدثنا أبو خليف حدثنا سليمان بن أيوب، وحدث بالحديث، فقال الطبراني: أنبأنا سليمان بن أيوب ومني سمع أبو خليفة، فاسمع مني حتى يعلو إسنادك، فإنك تروي عن أبي خليفة عني! فخرج الجعابي وغلبه الطبراني. قال ابن العميد: فوددت في مكاني أن الوزارة والرياسة ليتها لم تكن لي، وكنت الطبراني وفرحت مثل الفرحة الذي فرح الطبراني لأجل الحديث أو كما قال».

بينما يذكُرُنِّي أبصرُنِّي عند قِيدِ المِيلِ يسْعَى بي الأغرّ
قلن: تعرفن الفتى؟ قلن: نعم قد عرفناه وهل يخفى القمر

قال: من هذا؟ قالوا: عمر بن أبي ربيعة، قال: خلوا له الطريق فليذهب.
قال: ثم إذا هو بجماعة وإذا فيهم رجل يُسأل فيقال له: رميتُ قبل أن أحلق،
وحلقت قبل أن أرمي - في أشياء أشكلت عليهم من مناسك الحج - فقال: من
هذا؟ قالوا: عبد الله بن عمر، فالتفت إلى ابنه قرظة وقال: هذا والله الشرف،
هذا والله شرف الدنيا والآخرة!

وقال أبو جعفر الطحاوي: «كنت عند أحمد بن أبي عمران، فمرّ بنا رجل
من بني الدنيا، فنظرت إليه وشُغلت به عما كنتُ فيه من المذاكرة. فقال لي: كأني
بك قد فكّرت فيما أُعطي هذا الرجل من الدنيا؟ قلت له: نعم، قال: هل أدلك
على خلة؟ هل لك أن يُحوّل الله إليك ما عنده من المال، ويحول إليه ما عندك
من العلم، فتعيش أنت غنياً جاهلاً، ويعيش هو عالمًا فقيرًا؟! فقلتُ: ما أختارُ
أن يحوّل الله ما عندي من العلم إلى ما عنده، فالعلم غنى بلا مال، وعزّ بلا
عشيرة، وسلطان بلا رجال»^(١). وفي ذلك قيل:

العلم كنز وذخر لا نفاذ له نعم القرين إذا ما صاحبٌ صحبا
قد يجمع المرءُ مالاً ثم يُجرمه عما قليل فيلقى الذلّ والحربا

(١) كيف وهما الآن تحت الثرى، ولا أنيس سوى العمل الصالح والعلم النافع؟! فما أعظمها
من موعظة، وما أنفعها من وصية، وتلك بركة العلماء الربانيين، أكثرهم الله في الأمة،
وشدّ أزرها بهم، وجزاهم عنها خير ما جزى المصلحين المحسنين.

وجامع العلم مغبوطٌ به أبداً ولا يحاذر منه الفوتَ والسلبا
يا جامع العلم نعم الذخر تجمععه لا تعدلنَّ به دُرّاً ولا ذهباً»^(١)
وبالجملة فمن رام سعادة الدنيا وفلاح الآخرة فعليه بعلم الوحي
والاعتصام به فهو الموصل لعناية ربه جل وعز وعونه وكرامته وحبّه رضوانه.



(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٦٤ - ١٩١) بتصرف واختصار وزيادات. وَنَعَشُ الدِّينِ:
بقاؤه ورفعته شأنه. ومعنى «يَمْلَأُ الدَّلْوَ إِلَى عَقْدِ الكَرْبِ»: هو الحبل الذي يُشَدُّ فِي وَسْطِ
العَرَاقي ثم يُثْنَى، ثم يثَلَّث؛ ليكون هو الذي يلي الماء فلا يعفن الحبل الكبير. ويضرب
مثلاً لمن يبالغ فيما يلي من الأمر.

الاعتصام بالسنة وسبيل السلف الصالح

من تأمل عجائب أحوال الناس، وغرائب اختياراتهم، وسرعة تقلبهم في محن الدنيا وفتنها، ومسارعتهم لركوب ما ماله هلكتهم؛ أيقن أن الأمر في الغاية القصوى من الخطر، وأنه لا عاصم من أمر الله عز وجل إلا من رجم، فموج الفتن بشبهاتها وشهواتها يحول بين المرء وعقله وعلمه وقلبه وإرادته، فيصبح العاقل سفيهاً، ويضحى الحليم حيراناً، ويمسي العالم على خطرٍ، والعابد على حَرَضٍ، فما بال الجاهل، فاللهم رحماك رحماك!

قال الإمام الزهري رَحِمَهُ اللهُ: «كان علماءنا يقولون: الاعتصام بالسنة هو النجاة»^(١). وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: «السنة سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق»^(٢).

وهذا التشبيه المالكي في الغاية من المطابقة والجودة، ولا غرو؛ فالطيب من معدنه لا يُستغرب، فهو إمام دار الهجرة، معدود من نوادر معادن الحكمة، وذخائر العلم، وحصون الديانة. وتظهر براعة التشبيه لمن تدبر حال الناس في أزمنة الجهل وغربة الدين واستطالة الفسقة، فسفينة السنة علماً وعملاً ونيةً وأتباعاً ودعوةً وجهاداً هي سفينة النجاة والفلاح لمن وفقه الله لركوبها والاعتصام بها.

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٣٧).

(٢) الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٣٠٩)، وأبو إسماعيل الأنصاري الهروي في «ذم الكلام» (٨٨٥).

قال تقي الدين: «وذلك أن السنة والشريعة والمنهاج: هو الصراط المستقيم الذي يوصل العباد إلى الله. والرسول: هو الدليل الهادي الخريث في هذا الصراط كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ لَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال عبد الله بن مسعود خط رسول الله ﷺ خطأ وخط خطوطاً عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه. ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]»^(١).

وإذا تأمل العاقل - الذي يرجو لقاء الله - هذا المثال، وتأمل سائر الطوائف من الخوارج ثم المعتزلة ثم الجهمية والرافضة ومن أقرب منهم إلى السنة من

(١) أحمد (٤١٤٢، ٤٤٣٧) الدارمي (٢٠٢) والسنة لمحمد بن نصر المروزي ٩/١، ومسند أبي داود الطيالسي ١/١٩٧، والسنن الكبرى للنسائي ١٠/٩٥ (١١١١٠)، وصححه الحاكم (٨١٣/٢) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، من طريق عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن ابن مسعود، فذكره، وأقره الذهبي، ومسند الدارمي ١/٢٨٥ وحسنه حسن أسد، وابن حبان (١ / ١٨١) وقال الألباني في ظلال الجنة (١٦ و١٧): حسن صحيح.

أهل الكلام مثل الكرامية والكلابية والأشعرية وغيرهم، وأن كلاً منهم له سبيل يخرج به عما عليه الصحابة وأهل الحديث، ويدّعي أن سبيله هو الصواب. وَجَدَ أَنَّهُمُ الْمُرَادُ بِهَذَا الْمَثَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ الْمَعْصُومُ الَّذِي لَا يَتَكَلَّمُ عَنِ الْهَوَى. ﴿إِنَّهُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤]» (١).

فلا مندوحة للمؤمن عن الاعتصام بالكتاب والسنة وعلى قدر اعتصامه تكون كفايته بإذن الله. «وشواهد هذا الأصل العظيم الجامع من الكتاب والسنة كثيرة، وترجم عليه أهل العلم في الكتب (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة) كما ترجم عليه البخاري والبخاري والبغوي وغيرهما، فمن اعتصم بالكتاب والسنة كان من أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين.

إذا عُرِفَ هذا فمعلوم أنها يهدي الله به الضالين ويرشد به الغاوين ويتوب به على العاصين لا بد أن يكون فيما بعث الله به رسوله من الكتاب والسنة، وإلا فإنه لو كان ما بعث الله به الرسول ﷺ لا يكفي في ذلك؛ لكان دين الرسول ناقصاً محتاجاً تنمة!

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٥٧) وهو في «الانتصار لأهل الأثر» المطبوع باسم «نقض المنطق» ٨٣/١. ولا يقصد المصنف الحصر، بل هو الدخول الأولي في تلك السبل الضالة، لأنها كبريات البدع التي استقرت بأهلها، واستطار في الناس إحداثهم، واستطالوا في ضلالهم، فهم رؤوس الطرق والسبل المخالفة للسنة فيما خالفوها فيه، فمن سلك سبيلهم فهو منهم، سواء في مرافقتهم في نفس بدعتهم، أو في طريقتها وبنائها وتعيد أشباهها في ابتداء المخالفة والسير في الإحداث، ولا يمنع دخول غيرهم من كل مُحدثٍ ضال جهول على تطاول الزمان، والحمد لله رب العالمين.

وينبغي أن يعلم أن الأعمال الصالحة أمر الله بها أمر إيجاب أو استحباب. والأعمال الفاسدة نهي الله عنها. والعمل إذ اشتمل على مصلحة ومفسدة فإن الشارع حكيم. فإن غلبت مصلحته على مفسدته شرعه وإن غلبت مفسدته على مصلحته لم يشرعه؛ بل نهي عنه كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] ولهذا حرمها الله تعالى بعد ذلك.

وهكذا ما يراه الناس من الأعمال مقرباً إلى الله ولم يشرعه الله ورسوله؛ فإنه لا بد أن يكون ضرره أعظم من نفعه. وإلا فلو كان نفعه أعظم غالباً على ضرره لم يهمله الشارع؛ فإنه ﷺ حكيم لا يهمل مصالح الدين، ولا يفوت المؤمنين ما يقربهم إلى رب العالمين.

لذلك فمن قصد أن يتوب المجتمعين على الكبائر وزعم أنه لا يمكنه ذلك إلا بما من طريق بدعي فهو جاهل بالطرق الشرعية التي بها تتوب العصاة أو عاجز عنها، فإن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين كانوا يدعون من هو شر من هؤلاء من أهل الكفر والفسوق والعصيان بالطرق الشرعية التي أغناهم الله بها عن الطرق البدعية. فلا يجوز أن يقال: إنه ليس في الطرق الشرعية التي بعث الله بها نبيه ما يتوب به العصاة، فإنه قد علم بالاضطرار والنقل المتواتر أنه قد تاب من الكفر والفسوق والعصيان من لا يحصيه إلا الله تعالى من الأمم بالطرق

الشرعية التي ليس فيها بدعة» (١).

إذا تبين ذلك فالسعيد من اعتصم بموارد العصمة الحقيقية الباقية دون الزائفة الفانية، فمن رام الثبات والهدى فليعتصم برسالة سيد الثقلين صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، «فالسعادة والهدى في متابعة الرسول ﷺ والضلال والشقاء في مخالفته، وكل خير في الوجود إما عام وإما خاص فمنشأه من جهة الرسول، وكل شر في العالم مختص بالعبد فسببه مخالفة الرسول أو الجهل بما جاء به، وسعادة العباد في معاشهم ومعادهم مقرون باتباع الرسالة.

والرسالة ضرورية للعباد لا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأى صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟!

والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] فهذا وصف المؤمن كان ميتاً في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نوراً يمشي به في الناس. وأما الكافر فميت القلب في الظلمات.

وسمى الله تعالى رسالته روحاً، والروح إذا عدم فقدت الحياة قال الله

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٢٣ - ٦٢٨) باختصار وتصرف.

تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] فذكر هنا الأصلين وهما: الروح والنور، فالروح الحياة والنور النور.

وكذلك يضرب الله الأمثال للوحي الذي أنزله حياة للقلوب ونورًا لها بالماء الذي ينزله من السماء حياة للأرض وبالنار التي يحصل بها النور، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُ النُّعْمِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

أصول السعادة الثلاثة قد حواها القرآن العظيم:

فالأصل الأول: يتضمن إثبات الصفات والتوحيد والقدر وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصها على عباده والأمثال التي ضربها لهم.

والأصل الثاني: يتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة وبيان ما يحبه الله وما يكرهه.

والأصل الثالث: يتضمن الإيمان باليوم الآخر والجنة والنار والثواب والعقاب.

وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح موقوفة

عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل، فإن العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة، كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة إلى الطب ومن يداويه، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض وتنزيل الدواء عليه.

وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب، فإن آخر ما يقدر بعدم الطيب موت الأبدان، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتاً لا ترجى الحياة معه أبداً، وشقي شقاوة لا سعادة معها أبداً.

فلا فلاح إلا باتباع الرسول، فإن الله خص بالفلاح أتباعه المؤمنين وأنصاره كما قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] أي: لا مفلح إلا هم كما قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] فخص هؤلاء بالفلاح كما خص المتقين الذين يؤمنون بالغيب ويطبقون الصلاة وينفقون مما رزقهم ويؤمنون بما أنزل إلى رسوله وما أنزل من قبله ويوقنون بالآخرة بالهدى والفلاح، فعلم بذلك إن الهدى والفلاح دائر حول الرسالة وجوداً وعدمًا، وهذا مما اتفقت عليه الكتب المنزلة من السماء، وبُعث به جميع الرسل.

ولهذا قص الله علينا أخبار الأمم المكذبة للرسل وما صارت إليه عاقبتهم، وأبقى آثارهم وديارهم عبرة لمن بعدهم وموعظة، وكذلك مسخ من مسخ قرده

وخنازير لمخالفتهم لأنبيائهم، وكذلك من خسف به وأرسل عليه الحجارة من السماء وأغرقه في اليم وأرسل عليه الصيحة وأخذه بأنواع العقوبات، وإنما ذلك بسبب مخالفتهم للرسول، وإعراضهم عما جاؤوا به، واتخاذهم أولياء من دونه.

وهذه سنته سبحانه فيمن خالف رسله وأعرض عما جاؤوا به واتبع غير سبيلهم، ولهذا أبقي الله سبحانه آثار المكذبين لنعتر بها ونتعظ لئلا نفعل كما فعلوا فيصينا ما أصابهم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [٣٤] ﴿ وَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٤ - ٣٥] وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴾ [١٣٦] ﴿ وَإِنَّكُمْ لَنُؤْمِنُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴾ [١٣٧] ﴿ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصفات: ١٣٦ - ١٣٨] أي تمرؤن عليهم نهارًا بالصبح وبالليل ثم قال: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصفات: ١٣٨] وقال تعالى في مدائن قوم لوط: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [٧٤] ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [٧٥] ﴿ وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر: ٧٤ - ٧٦] يعني مدائنهم بطريق مقيم يراها المار بها، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [الروم: ٩].

وهذا كثير في الكتاب العزيز يخبر الله سبحانه عن إهلاك المخالفين للرسول ونجاة أتباع المرسلين، ولهذا يذكر سبحانه في سورة الشعراء قصة موسى وإبراهيم ونوح وعاد وثمود ولوط وشعيب، ويذكر لكل نبي إهلاكه لمكذبيهم والنجاة لهم ولأتباعهم، ثم يختم القصة بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [٨] ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٨ - ٩] فختم القصة باسمين من

أسماؤه تقتضيها تلك الصفة وهما العزيز والرحيم، فانتقم من أعدائه بعزته، وأنجى رسله وأتباعهم برحمته.

والرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودينه إلا باتباع الرسالة، فإن الإنسان مضطر إلى الشرع، فإنه بين حركتين: حركة يجلب بها ما ينفعه، وحركة يدفع بها ما يضره، والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره، والشرع نور الله في أرضه، وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمناً.

وليس المراد بالشرع التمييز بين الضار والنافع بالحس، فإن ذلك يحصل للحيوانات العُجم، فإن الحمار والجمل يميز بين الشعير والتراب، بل التمييز بين الأفعال التي تضر فاعلها في معاشه ومعاده، كنفع الإيمان، والتوحيد، والعدل، والبر، والتصدق، والإحسان، والأمانة، والعفة، والشجاعة، والحلم، والصبر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى المالك والجار، وأداء الحقوق، وإخلاص العمل لله، والتوكل عليه، والاستعانة به، والرضا بمواقع القدر به، والتسليم لحكمه، والانقياد لأمره، وموالاتة أوليائه ومعاداة أعدائه، وخشيته في الغيب والشهادة، والتقوى إليه بأداء فرائضه واجتناب محارمه واحتساب الثواب عنده، وتصديقه وتصديق رسله في كل ما أخبروا به، وطاعته في كل ما أمروا به مما هو نفع وصلاح للعبد في دنياه وآخرته، وفي ضد ذلك شقاوته ومضرته في دنياه وآخرته.

ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد، فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف مننه عليهم أن أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وبين لهم الصراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم، بل أشراً حالاً منها، فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البرية، ومن ردها وخرج عنها فهو من شر البرية، وأسوأ حالاً من الكلب والخنزير والحيوان البهيم.

وفي الصحيح من حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكان منها أجادب^(١) أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وانتفعوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(٢).

فالحمد لله الذي أرسل إلينا رسولاً من أنفسنا يتلو علينا آيات الله ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة وإن كنا من قبل لفي ضلال مبين، وقال أهل اللجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

(١) الأجادب: أي صلاب الأرض التي تمسك الماء فلا تشربه سريعاً. النهاية (١/٢٤٢).

(٢) البخاري ١/٣٠ (٧٩) ومسلم ٦٣/٧ (٢٢٨٢).

والدنيا كلها ملعونة ملعون ما فيها إلا ما أشرقت عليه شمس الرسالة وأسس بنيانه عليها، ولا بقاء لأهل الأرض إلا ما دامت آثار الرسل موجودة فيهم، فإذا درست آثار الرسل من الأرض وانمحت بالكلية خرب الله العالم العلوي والسفلي وأقام القيامة!

وليست حاجة أهل الأرض إلى الرسول كحاجتهم إلى الشمس والقمر والرياح والمطر، ولا كحاجة الإنسان إلى حياته، ولا كحاجة العين إلى ضوئها، والجسم إلى الطعام والشراب، بل أعظم من ذلك وأشد حاجة من كل ما يقدر ويخطر بالبال، فالرسل وسائط بين الله وبين خلقه في أمره ونهيه، وهم السفراء بينه وبين عباده.

وكان خاتمهم وسيدهم وأكرمهم على ربه محمد بن عبد الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة»^(١) وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال صلوات الله وسلامه عليه: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»^(٢) وهذا المقت كان لعدم هدايتهم

(١) قال الأرنؤوط في تحقيق سنن أبي داود (٦ / ١٤٥): روى ابن سعد في الطبقات ١ / ١٩٢، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٣٩) عن طريق وكيع بن الجراح، أخبرنا الأعمش، عن أبي صالح قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إنما أنا رحمة مهداة» وهذا سند صحيح لكنه مرسل، وبعضه حديث أبي هريرة في مسلم (٢٥٩٩) قيل: يارسول الله.

ﷺ ادع على المشركين، قال: «إني لم أبعث لعناً وإنما بعثت رحمة».

(٢) مسلم (١٥٩/٨).

بالرسل، فرفع الله عنهم هذا المقت برسول الله ﷺ، فبعثه رحمه للعالمين ومَحَجَّةً
للسالكين وْحُجَّةً على الخلائق أجمعين، وافترض على العباد طاعته ومحبته
وتعزيره وتوقيره والقيام بأداء حقوقه، وسدَّ إليه جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا
من طريقه، وأخذ العهود والمواثيق بالإيمان به واتباعه على جميع الأنبياء
والمرسلين، وأمرهم أن يأخذوها على من اتبعهم من المؤمنين.

أرسله الله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله
بإذنه وسراجاً منيراً، فختم به الرسالة، وهدى به من الضلالة، وعلم به من
الجهالة، وفتح برسالته أعيناً عمياً وأذنًا صمًّا وقلوباً غلغفاً، فأشرقت برسالته
الأرض بعد ظلماتها، وتألّفت بها القلوب بعد شتاتها، فأقام بها الملة العوجاء،
وأوضح بها المحجة البيضاء، وشرح له صدره ووضع عنه وزره ورفع ذكره،
وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، أرسله على حين فترة من الرسل،
ودروس من الكتب، حين حُرِّفَ الكَلِمُ، وبُدِّلَت الشرائع، واستند كل قوم إلى
أظلم آرائهم، وحكموا على الله وبين عبادهم بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم، فهدى
الله به الخلائق، وأوضح به الطريق، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور،
وبصّر به من العمى، وأرشد به من الغيِّ، وجعله قسيمَ الجنة والنار^(١) وفرق ما
بين الأبرار والفجار، وجعل الهدى والفلاح في اتباعه وموافقته، والضلال
والشقاء في معصيته ومخالفته.

وامتحن به الخلائق في قبورهم، فهم في القبور عنه مسؤولون وبه ممتحنون،

(١) أي قُسم الناس بسببه إلى سعداء باتباعه، وأشقياء بمخالفته.

يؤتى العبد في قبره فيقال: ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟
فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله، جاءنا بالبينات والهدى، فأمنّا به
واتبعناه. فيقال له: صدقت، على هذا حييت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء
الله، ثم نومة العروس لا يوقظه إلا أحب أهله إليه. ثم يُفسح له في قبره، وينور
له فيه، ويفتح له باب إلى الجنة، فيزداد غبطة وسرورًا.

وأما الكافر والمنافق فيقول: لا أدري! سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته. فيقال
له: قد كنا نعلم ذلك، وعلى ذلك حييت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله، ثم
يضرب بمرزبة من حديد، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان^(١).

وقد أمر الله بطاعة رسوله في أكثر من ثلاثين موضعاً من القرآن، وقرن
طاعته بطاعته، وقرن بين مخالفته ومخالفته، كما قرن بين اسمه واسمه فلا يذكر
الله إلا ذكر معه، قال بن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾
[الشرح: ٤] قال: «لا أذكرُ إلا ذكرتَ معي»^(٢). وهذا كالتشهد والخطب والأذان
أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فلا يصح الإسلام إلا بذكره

(١) الترمذي (١٠٧١) وحسنه الألباني.

(٢) أبو يعلى في مسنده، وابن حبان (١٧٧٢) وابن جرير في تفسيره (٢٣٥ / ٣٠) ولا يصح
مرفوعاً. سلسلة الأحاديث الضعيفة (٤ / ٢٣٠) والله درُّ حسان بن ثابت وهو يقول:

أَعْرُ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ	مِنَ اللّٰهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيُشْهَدُ
وَضَمَّ الْإِلَهَ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ	إِذَا قَالَ فِي الْحَمْسِ الْمُوَدَّنِ أَشْهَدُ
وَسَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيَجِلَّهُ	فَدُوا العرشِ محمودٌ وهذا محمدٌ

والشهادة له بالرسالة.

وكذلك لا يصح الأذان إلا بذكره والشهادة له، ولا تصح الصلاة إلا بذكره والشهادة له، ولا تصح الخطبة إلا بذكره والشهادة له.

وحذر الله سبحانه وتعالى من العذاب والكفر لمن خالفه قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «أي فتنة هي، إنها هي الكفر».

وكذلك ألبس الله سبحانه الذلة والصغار لمن خالف أمره كما في مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رِجْلِي، وَجُعِلَتِ الذَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١).

وكما أن من خالفه وشاقه وعاداه هو الشقي الهالك، فكذلك من أعرض عنه و عما جاء به واطمأن إلى غيره ورضي به بدلاً منه هو هالك أيضاً، فالشقاء والضلال في الإعراض عنه وفي تكذيبه، والهدى والفلاح في الإقبال على ما جاء به وتقديمه على كل ما سواه.

(١) أحمد (٥٦٦٧) وصححه أحمد شاكر. وتأمل إنهاء الخبر بنسبة المتشبه لمن تشبه به حمداً وذنماً، وما فيه من الإغراء والتحذير.

فالأقسام ثلاثة: المؤمن به، وهو المتبع له، المحب له، المقدم له على غيره، والمعادي له، والمنابذ له، والمعرض عما جاء به. فالأول هو السعيد، والآخرا^ن هما الهالكان^(١). وبالله التوفيق وإليه المآب.



(١) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه (١٩/٩٣ - ١٠٥) باختصار وتصرف.

الاعتصام بالله في زمن غربة الإسلام

اعلم - رحماني الله وإياك - أنه كلما ابتعد الزمن عن عصر النبوة كلما اشتد الضلال، واسودّ الظلام، وعلا القتر، واستحكمت غربة الإسلام، ولكن الله تعالى بلطفه ورحمته وإحسانه لا يزال يستخلص ويصطفي فئامًا وأفرادًا من أمة نبيه الخاتم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، يقيم بهم دعائم الملة، ويحفظ بجهادهم - علمًا وعملاً - أركانه ومبانيه، ويستخلص منهم الأولياء والشهداء، قال رسول الله ﷺ: «بُدِيَءَ الإسلامِ غريباً وسيعود غريباً كما بُدِيَءَ فطُوبَى للغُرباءِ»، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «الذين يُضِلُّحُونَ عند فساد الناس»^(١).

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: «وجملة المعنى فيه من جهة وصف الغربة ما ظهر بالعيان والمشاهدة في أول الإسلام وآخره، وذلك أن رسول الله ﷺ بعثه الله تعالى على حين فترة من الرسل، وفي جاهلية جهلاء، لا تعرف من الحق رسماً، ولا تقيم به في مقاطع الحقوق حكماً، بل كانت تتحلل ما وجدت عليه آباءها، وما استحسنته أسلافها، من الآراء المنحرفة، والنحل المخترعة، والمذاهب المبتدعة، فحين قام فيهم ﷺ بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فسرعان ما عارضوا معروفه بالنكر، ونسبوا إليه كل محال، ورموه بأنواع البهتان، فتارة يرمونه بالكذب وهو الصادق المصدوق، وآونة يتهمونه بالسحر، وكرة يقولون: إنه مجنون، كل ذلك دعاء منهم إلى التآسي بهم والموافقة لهم على

(١) الآجري في الغرباء (٥)، والداني في السنن الواردة في الفتن (٨٨٢) وانظر السلسلة الصحيحة (٣٧٢١).

ما يتتحلون، فأنكروا ما توقعوا معه زوال ما بأيديهم، لأنه خرج عن معتادهم، وأتى بخلاف ما كانوا عليه من كفرهم وضلالهم.

فأبى عليه الصلاة والسلام إلا الثبوت على محض الحق، والمحافظة على خالص الصواب؛ وأنزل الله: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ ۗ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١ - ٢] إلى آخر السورة، فنصبوا له عند ذلك حرب العداوة، ورموه بسهام القطيعة، وصار أهل السلم كلهم حرباً عليه، عاد الوليُّ الحميم عليه كالعذاب الأليم، فأقربهم إليه نسباً كان أبعد الناس عن موالاته، كأبي لهب وغيره، وألصقهم به رحماً؛ كانوا أقسى قلوباً عليه، فأبى غربة توازي هذه الغربة؟!!

ومع ذلك فلم يكله الله إلى نفسه، ولا سلطهم على النيل من أذاه، بل حفظه وعصمه، وتولاه بالرعاية والكلاءة، حتى بلغ رسالة ربه.

ثم ما زالت الشريعة في أثناء نزولها، وعلى توالي تقريرها، تبعد بين أهلها وبين غيرهم، وتضع الحدود بين حقها وبين ما ابتدعوا، وما زال عليه الصلاة والسلام يدعو لها، فيؤوب إليه الواحد بعد الواحد، خوفاً من عادية الكفار زمان ظهورهم على دعوة الإسلام.

ثم استمرَّ تزيُّدُ الإسلام، واستقام طريقه على مدة حياة النبي ﷺ ومن بعد موته؛ وأكثر قرن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، إلى أن نبغت فيهم نوايغ الخروج عن السنة، وأصغوا إلى البدع المضلة كبدعة القدر وبدعة الخوارج، وهي التي نبه عليها الحديث بقوله: «يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم» يعني لا يتفقهون فيه، بل يأخذونه على الظاهر: كما بينه حديث ابن عمر، وهذا كله في آخر عهد الصحابة.

ثم لم تنزل الفرق تكثر حسبها وعد به الصادق عليه السلام في قوله: «افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»^(١) وفي الحديث الآخر: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا في جحر ضب لا تبعتموهم» قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟!»^(٢) وهذا أعم من الأول، فإن الأول عند كثير من أهل العلم خاص بأهل الأهواء، وهذا الثاني عام في المخالفات، ويدل على ذلك من الحديث قوله: «حتى لو دخلوا في جحر ضب لا تبعتموهم».

وكل صاحب مخالفة فمن شأنه أن يدعو غيره إليها، ويحض سؤاله بل سواه عليها، إذ التأسى في الأفعال والمذاهب موضوع طلبه في الجلبلة، وبسببه تقع من المخالف المخالفة، وتحصل من الموافق الموافقة، ومنه تنشأ العداوة والبغضاء للمختلفين.

كان الإسلام في أوله وجدته مقاوماً بل ظاهراً، وأهله غالبون، وسوادهم أعظم الأسود، فخلا من وصف الغربة بكثرة الأهل والأولياء الناصرين، فلم يكن لغيرهم ممن لم يسلك سبيلهم أو سلكه ولكنه ابتدع فيه صولة يعظم موقعها، ولا قوة يضعف دونها حزب الله المفلحون، فصار على استقامة، وجرى على اجتماع واتساق، فالشاذ مقهور مضطهد، إلى أن أخذ اجتماعه في الافتراق الموعود؛ وقوته إلى الضعف المنتظر، والشاذ عنه تقوى صولته ويكثر سواده، واقتضى سرّ التأسى المطالبة بالموافقة، ولا شك أن الغالب أغلب، فتكالت على سواد السنة

(١) أبو داود (٦٩٥٤) والترمذي (٤٦٢) وابن ماجه (١٩٩٣) وقد تقدم.

(٢) البخاري (٣٤٥٦) ومسلم (٢٦٦٩).

البدع والأهواء، فتفرق أكثرهم شيعاً. وهذه سنة الله في الخلق: إن أهل الحق في جنب أهل الباطل قليل، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣] ولينجز الله ما وعد به نبيه ﷺ من عود وصف الغربة إليه، فإن الغربة لا تكون إلا مع فقد الأهل أو قلتهم، وذلك حين يصير المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وتصير السنة بدعة والبدعة سنة، فيقام على أهل السنة بالثريب والتعنيف؛ كما كان أولاً يقام على أهل البدعة، طمعاً من المبتدع أن تجتمع كلمة الضلال، ويأبى الله أن تجتمع حتى تقوم الساعة، فلا تجتمع الفرق كلها. على كثرتها. على مخالفة السنة عادة وسمعاً، بل لا بد أن تثبت جماعة أهل السنة حتى يأتي أمر الله، غير أنهم لكثرة ما تناوشهم الفرق الضالة، وتناصبهم العداوة والبغضاء استدعاء إلى موافقتهم، لا يزالون في جهاد ونزاع، ومدافعة وقراع؛ آناء الليل والنهار، وبذلك يضاعف الله لهم الأجر الجزيل، ويشيهم الثواب العظيم.

فقد تلخص مما تقدم أن مطالبة المخالف بالموافقة جارٍ مع الأزمان لا يختص بزمان دون زمان، فمن وافق فهو عند المطالب المصيب على أي حال كان، ومن خالف فهو المخطئ المصاب، ومن وافق فهو المحمود السعيد، ومن خالف فهو المذموم المطرود، ومن وافق فقد سلك سبيل الهداية، ومن خالف فقد تاه في طرق الضلالة والغواية^(١)، وبالله تعالى وحده الاعتصام.



(١) مختصر كتاب الاعتصام للإمام الشاطبي (١١ - ١٥) اختصار الشيخ علوي السقاف، وقد استفدت من تخرجه وفقه الله تعالى.

ثمرات الاعتصام بالله تعالى

إذا كان فضل الاعتصام بهذه المثابة؛ فلا غرو أن تكون ثمراته طيبة، وأوقاته نافعة، ومخرجاته مباركة، ونهاياته سعيدة، ومن تلك الثمرات:

١- رضا الله تعالى:

فالاعتصام توحيد وتعلق وثقة وتوكل وثبات على الإيمان، ومن كان هذا ديدنه وسبيله؛ فليبشر بالرضوان من لدن الرحيم الرحمن.

٢- حصول المأمول:

ويكفي لبرهان ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١] فقد ضمن الحق سبحانه الهدى لمن اعتصم به، ومن أفراد الهدى نيل المراد، هذا من جانب، ومن جانب آخر فالمعتصم متوكل على ربه، مفوض أموره إليه، وقد سبق ما وعد الله به المتوكلين من توفيق وظفر ونيل مأمول.

٣- دفع المكروه:

وهذا متعلق بما قبله، فإذا اعتصم العبد بربه أناله مطلوبه، ويسر له أسباب سعادته، وقرب إليه مبادئه، ودفع عنه مكروهه، بل ودفع عنه أموراً تضره مآلاتها وإن ظن عبده خلاف ذلك، فقد يحرص العبد على تحصيل أمر، ويستغرق جهده في نيله، وربُّه يحميه عنه ويمنعه من بلطف خفي، والعبد يكرر احتياله لنيله، وربُّه الرحيم محيط به ويرحمه ويحجزه عنه لعلمه أن هلكته أو نقصه

في حصوله، فتبارك أرحم الراحمين.

٤. الظفر والنصر:

شريطة أن يكون الاعتصام حقيقياً لا متوهماً، وراسخاً لا متداعياً، وعميقاً لا سطحياً، وعن علم وثقة لا عن ريبة وتجريب، فالاعتصام لزومٌ وثباتٌ وثقة وعمق، ومتى اعتصم عباد الله به أنزل عليهم نصره، وأظفرهم بعدوه وعدوهم، سنة الله ولن تجد لسنة الله تحويلاً ولا تبديلاً.

٥. انشراح الصدر:

وكيف لا ينشرح صدر المعتصم وهو واثق بمعية الله له بحفظه وتوفيقه ولطفه ومدده ومعونته وربوبيته وحسن تدبيره، فهو محسنٌ ظنه بربه، عظيم الرجاء به، تامّ التوكّل عليه، راسخ اليقين به، معوّلٌ كلّ التعويل عليه، حافظ قلبه وقالبه مما يחדش اعتصامه، واثق بوعد ربه، عالمٌ أنّ مع العسر يسراً، وأنّ مع الشدة لطفاً، وأنّ مع الابتلاء رحمة، وأنّ مع الكرب فرج، وبعد الليل صبح، وأنّ تدبير ربه كله خير، وأنه بربه لا بنفسه وغيره، وأنّ الدنيا دار ممرٍّ ومعبر، فلا تستحقّ عناءً لا يُبلغ للدار الآخرة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

٦. الثبات على الحق:

لما كان الاعتصام لزومٌ لباب الله تعالى، كان الثبات على ذلك ملازم له طبيعةً، فالثبات على الاعتصام يورث الثبات على الإيمان جملة، ويورث الثبات

على الخير النامي في قلب المؤمن المعتصم، فأعمال القلوب روافد لبعضها، سيما ما كان موقعها قريباً من بعض في قلعة الفؤاد المؤمن.

٧. اليقين بموعد رب العالمين:

لأن المعتصم لا يزال يرى ثمرات اعتصامه شيئاً بعد شيء، وثمره طيبة بعد أختها، فتارة في تقوية إيمانه وانسراح صدره وحصول مأموله، وتارة بالمزيد من العلم بالله وبدين الله وبموعد الله، فلا يزال يترقى في مدارج اليقين حتى يتذوق ثلج اليقين وبرد الحقيقة، فتتابع على بصيرة فؤاده العلوم النافعة، فيعلمها ويراها ويتحققها، ويعيش بها وتعيش به، حتى يلقي بها الحق تبارك وتعالى راضياً مرضياً.

٨. صدق التعلق بالله تعالى:

لأن الاعتصام لا يكون إلا بالتعلق، فكلما زاد الاعتصام كماً وكيفاً زاد التعلق الصادق برب العالمين دون ما سواه.

٩. الاستقامة:

وأجمل بها من ثمرة، وأكرم به من شرف، وأسعد به من نوال، فالمعتصم يراقب خواطره وأقواله وأفعاله، ويجرس كنز إيمانه من عبث الشيطان وتلاعبه، فيلزم جادة الاستقامة، ويلتوي على حبل الهداية، ويحرص على ما يعينه على بلوغ غايته بأن يموت مودة المرضيين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

١٠- تحصيل محبة الله تعالى ومحبة الناس:

فالنفوس الزكية المؤمنة مجبولة على حب ما يُشاكلها ومودة مَنْ يُشابهها، فمن أحب الله أحب من يحبون الله وَمَنْ يحبهم الله وكلَّ عمل يوصل لمحبة الله، ومن أجلَّ أعمال القلوب الاعتصام بعلام الغيوب، فمن كان بالله معتصماً أحب المعتصمين بالله، وأحبه المعتصمون بالله، وإذا أحب الله عبداً أنزل له القبول في أرضه، وبسط له المودة في قلوب أوليائه، ونَشَرَ له أعراف المسك في عليائه.

١١- السكينة:

فلا شيء في الدنيا يستحق تكدير النفس وضيقها وغمها، فقلب المعتصم بالله ساكن، وعينه قريرة، ونفسه منشرحة، وروحه مستريحة، فإذا تراحم الناس على أبواب غموم المعاش وهموم الأيام رأينا المعتصم في واد ليس واديهم، ومنتجع ليس كناديهم، حتى وإن زاحمهم أحياناً بجسده في طلب رزقه المأمور به فإن قلبه ونفسه ليسا معهم، بل روحه تسبح بسكينة وسعادة في الملا الأعلى والملكوت الأسمى لنفاذ بصيرته وسعة علمه وعظيم توفيقه، قد أدى عبادة الجسد بطلب المعاش، وأدى عبادة القلب بتحقيق التجريد وتفريد التوحيد، فسكنت حينئذٍ نفسه، وسبحت في الملكوت الأعلى روحه، وأطمأنت بربه جوارحه، وطاب بإلهه عيشه، وأفلح في دنياه وأخراه. والله لا يضيع أجر المحسنين، وواهاً لعيش الجنة في دار الغربية!

١٢: الامتثال لأمر الله عز وجل:

فالاعتصام بحبل الله والالتفاف بدينه فيه امتثال لأمر الله تعالى، وسمع وطاعة له، ورضا بما ارتضاه، فالله سبحانه وتعالى لا يأمر إلا بخير، ولا يُحذّر إلا من شر، قال سبحانه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] أي: تعلقوا بأسباب الله جميعاً، وتمسكوا بدينه الذي أمركم به، وعهده الذي عهدته إليكم في كتابه من الألفة والاجتماع على كلمة الحق والتسليم لأمر الله، فقد كره الله لكم الفرقة وحذركموها ونهاكم عنها، ورضي لكم السمع والطاعة والألفة والجماعة، فارضضوا لأنفسكم ما رضي الله لكم^(١).

١٣: الهداية إلى صراط الله المستقيم:

فالهداية إلى الحق ثمرة من ثمرات الاعتصام بحبل الله كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] «فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعدة في مباحة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد»^(٢) قال الشوكاني: «أرشدهم الله إلى الاعتصام به ليحصل لهم بذلك الهداية إلى الصراط المستقيم الذي هو الإسلام»^(٣).

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري (٤/٣١-٣٣) بتصرف وزيادات.

(٢) تفسير ابن كثير (١/٣٨٧).

(٣) فتح القدير (١/٣٦٧).

ويقول محمد الطاهر بن عاشور: «سياق الآية مؤذن بأنها جرت على حادثة حدثت وأن لنزولها سبباً، وسبب نزولها أن الأوس والخزرج كانوا في الجاهلية قد تحاذلوا وتحاربوا حتى تفانوا، وكانت بينهم حروب كان آخرها يوم بُعَاث التي انتهت قبل الهجرة بثلاث سنين، فلما اجتمعوا على الإسلام زالت تلك الأحقاد من بينهم، وأصبحوا عدة للإسلام، فساء ذلك يهود يثرب، فقام شاس بن قيس اليهودي وهو شيخ قديم منهم بإرسال شاب يهودي جلس إلى الأوس والخزرج يذكرهم حروب بعَاث، فكادوا أن يقتتلوا، ونادى كل فريق يا للأوس! يا للخزرج! وأخذوا السلاح، فجاء النبي ﷺ فدخل بينهم وقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم» ثم قرأ عليهم: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَد هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠٠ - ١٠١] فما فرغ منها النبي ﷺ حتى ألقوا السلاح، وعانق بعضهم بعضاً.

وقوله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَد هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] أي من يتمسك بالدين فلا تخش عليه الضلال، وفي هذا إشارة إلى التمسك بكتاب الله ودينه لسائر المسلمين الذين لم يشهدوا حياة النبي ﷺ، لأن ذلك هو السبيل في عصمة المسلمين من كيد أعدائهم من المشركين وأهل الكتاب الذين يحاولون جاهدين في الإيقاع بين المسلمين كما كانوا يفعلون زمن النبي ﷺ (١).

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٤٢٨) بتصرف.

فطاعة أهل الكتاب تحمل معنى الهزيمة الداخلية، والتخلي عن دور القيادة الضروري للأمم، وهم أيضاً لا يحرصون على شيء حرصهم على إضلال هذه الأمة عن عقيدتها وفضيلتها وشريعتها وأخلاقها، وإثارة الفتن والقلائل بين أبنائها، ويبدلون في سبيل ذلك كل ما في وسعهم من مكر وغدر وحيلة وقوة وعدة، وحين يعيبيهم أن يحاربوا الإسلام بأنفسهم فإنهم يجندون من المنافقين المتظاهرين بالإسلام، أو ممن يتسبون زوراً إليه لينخروا لهم في جسمه وجسم أتباعه من داخل الدار، فالاعتصام بالله والتمسك بكتابه والوثوق بوعدته يعصم الأمة من مكائدهم ومخططاتهم بإذن الله العليّ سبحانه.

وإذا كان رسول الله ﷺ قد استوفى أجله، واختار الرفيق الأعلى، فإن آيات الله باقية، وهدى رسول الله ﷺ باق، وشريعته معصومة من الزلل، فلا خير إلا دلنا عليه، ولا شر إلا حذرنا منه، ونحن اليوم مخاطبون بهذا القرآن كما خاطب به الأولون، وطريق العصمة بيّن، ولواء العصمة مرفوع، ورايته ظاهرة، وأهله ظاهرون، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم.

١٤: الدخول في رحمة الله تعالى، ونيل فضله وهدايته:

قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].

والمراد آمنوا بالله في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه، واعتصموا به في أن يشبتهم على الإيثار، ويصونهم عن نزغ الشيطان، ويدخلهم في رحمة منه وفضل، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً.

فوعد الله المعتصمين به بأمر ثلاث: الرحمة والفضل والهداية، قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «الرحمة الجنة، والفضل ما يتفضل به عليهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً يريد ديناً مستقيماً»^(١).

وقال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: «الذين آمنوا بالله واعتصموا به جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم، فهؤلاء يرحمهم الله، ويدخلهم الجنة، ويزيدهم ثواباً ومضاعفة ورفعاً في درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً، أي: طريقاً واضحاً لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنان»^(٢).

والاعتصام بالله ثمرة ملازمة للإيمان به، متى صح الإيمان، ومتى عرفت النفس حقيقة الله، وعرفت حقيقة عبودية الكل له، فلا يبقى أمامها إلا أن تعتصم بالله وحده، وهو صاحب السلطان والقدرة وحده، فهؤلاء يدخلهم الله في رحمة منه وفضل، رحمة في هذه الحياة الدنيا قبل الحياة الأخرى، وفضل في هذه العاجلة قبل الفضل في الآجلة.

فالإيمان هو الواحة الندية التي تجد فيها الروح الضلال من هاجرة الضلال في تيه الحيرة والقلق والشرد، كما أنه هو القاعدة التي تقوم عليها حياة المجتمع

(١) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب. مجلد (٦) (١١/١٢٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٥٩٢).

ونظامه، فالذين آمنوا بالله واعتصموا به في رحمة من الله وفضل في حياتهم الحاضرة وفي حياتهم الآجلة.

وكلمة (إليه) في قوله: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥] تخلع على التعبير حركة مصورة، إذ ترسم المؤمنين ويد الله تنقل خطاهم في الطريق إلى الله على استقامة، وتقربهم إليه خطوة خطوة، وهي عبارة يجد مدلولها في نفسه من يؤمن بالله على بصيرة، فيعتصم به على ثقة حيث يحس في كل لحظة أنه يهتدي، وتتضح أمامه الطريق، ويقترّب فعلاً من الله كأنها هو يخطو إليه في طريق مستقيم.

١٥: استحقاق معية المؤمنين ومرافقتهم في الدارين:

فقد شهد الله لمن اعتصم بحبله وتمسك بدينه وأخلص عمله فيه بأنه مع المؤمنين بقوله سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٦].

وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد الحديث عن المنافقين وما يستحقون من الله من عذاب يوم القيامة، فهم أشد الناس عذاباً وفي الدرك الأسفل من النار إلا الذين تابوا منهم وأصلحوا عملهم واعتصموا بالله وأخلصوا لدينهم، بحيث لم يشبوا عملهم بتردد، ولا تربص بانتظار من ينتصر من الفريقين المؤمنين والكافرين، فأخبر أن من صارت حاله إلى هذا الخير فهو مع المؤمنين. وفي لفظ (مع) إيحاء إلى فضيلة من آمن من أول الأمر ولم يصم نفسه بالنفاق، لأن (مع) تدخل على المتبوع وهو الأفضل^(١).

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور. ٣م (٥/٢٤٤).

ويقول القرطبي: هذا استثناء ممن نافق، ومن شرط التائب من النفاق أن يصلح في قوله وفعله ويعتصم بالله أي يجعله ملجأً ومعاداً، ويخلص دينه لله وإلا فليس بتائب قال الفراء: معنى ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من المؤمنين^(١).

فهذه بعض ثمرات الاعتصام بحبل الله، فما أحوجنا إلى الامتثال لأمر الله، والاعتصام بحبله، وأن نتعرف على الله في الرخاء حتى يتعرف علينا وقت الشدة، وما أحوجنا أن نلجأ إليه سبحانه ليمنحنا الهداية الإلهية إلى صراطه المستقيم، وما أحوجنا إلى رحمت الله ونيل فضله لنكون في معية المؤمنين في الدارين.

فكل هذه الثمرات وعد بها رب العزة والجلال إذا اعتصمنا بحبله والتزمنا بشرعه ووثقنا بوعده^(٢). فيا طيب عيش الصالحين، ويا سعادة مآل المعتصمين، والحمد من قبل ومن بعد لله رب العالمين.



(١) الجامع لأحكام القرآن (٤٢٣/٥).

(٢) الثمرات الأربع الأخيرة ملخصة بتصريف وزيادات عن: الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات (دراسة قرآنية واقعية) د. محمود هاشم عنبر (١/١-١٩) شكر الله تعالى له.

وسائل تحصيل الاعتصام

من رحمة الله بعباده أن بين لهم جادة النجاة، وطريقة الفلاح، وسبيل السعادة، وجعلها مَهْيَعًا سالِكًا، واضِحًا بَيِّنًا، سهلاً ميسورًا على من رام الوصول لمرضاته وجنته، كما قد جعل أسباب الضلال واضحة بَيِّنَةٌ لكل ذي لب وإرادة، وجعل فيها من أسباب الضيق والظنك والعنتِ والوحشة ما تَشِيْمُ عنه نفوس الطيبين الأحرار، وكلُّ مسؤول عما جتته يده، فنحن على البيضاء حقًا لا يزيغ عنها إلا هالك، قال سبحانه: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] وقال سبحانه وبحمده: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥].

فالْمُؤْمِنُ الحَرِيصُ على إدراك خلاصه وفلاحه لا تراه إلا ساعيًا في فكاك نفسه وتنقيتها وتحصيل أسباب طهاراتها وطيبها، ثم رفعها عند ربها وقربها منه تبارك وتعالى. وباب فلاحها وفكاكها هو الاعتصام بالله وحده على التمام، ولتحصيله أسباب منها:

١- الإخلاص:

فهو باب الدخول، وعمود القبول، ومعراج التوفيق، ومستدرّ العون الإلهي، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في كلام متين: «إن المخلوقين إذا اشتكى إليهم الإنسان فضررهم أقرب من نفعهم، والخالق - جل جلاله وتقدست أسماؤه ولا إله غيره - إذا اشتكى إليه المخلوق وأنزل حاجته به واستغفره من

ذنوبه: أيده وقواه وهداه، وسد فاقتة وأغناه، وقربه وأقناه، وأحبه واصطفاه.
 والمخلوق إذا أنزل العبد به حاجته استرذله وازدراه، ثم أعرض عنه،
 فخر الدنيا والآخرة حتى وإن قضى له بعض مطلبه؛ لأنه عنده من بعض
 رعاياه يستعبده بما يهواه، قال الخليل عليه أفضل الصلاة والسلام: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ
 اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧] وقال تعالى:
 ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۗ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى
 اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا
 وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] وهذا باب واسع قد كتبت فيه
 شيئاً كثيراً وعرفته علماً وذوقاً وتجربة»^(١).

ومن الإخلاص يكون تحقيق التوحيد الذي وعد الله أهله بالجنة والمزيد.
 قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «وأما قول السائل: ما السبب في أن الفرج يأتي عند
 انقطاع الرجاء عن الخلق؟ وما الحيلة في صرف القلب عن التعلق بهم وتعلقه
 بالله؟

فيقال: سبب هذا تحقيق التوحيد؛ توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية. فتوحيد
 الربوبية: أنه لا خالق إلا الله، فلا يستقل شيء سواه بإحداث أمر من الأمور؛
 بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فكل ما سواه إذا قُدِّرَ سبباً فلا بد له من شريك
 معاون، وضد معوق، فإذا طلب مما سواه إحداث أمر من الأمور طلب منه ما

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤١/٢٨).

لا يستقلّ به، ولا يقدر وحده عليه، حتى ما يطلب من العبد من الأفعال الاختيارية لا يفعلها إلا بإعانة الله له، كأن يجعله فاعلاً لها بما يخلقه فيه من الإرادة الجازمة ويخلقه له من القدرة التامة، وعند وجود القدرة التامة والإرادة الجازمة يجب وجود المقدور.

فمشيئة الله وحده مستلزمة لكل ما يريد، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وما سواه لا تستلزم إرادته شيئاً؛ بل ما أَرَادَهُ لا يكون إلا بأمر خارجة عن مقدوره إن لم يُعِنه الرب بها لم يحصل مراده، ونفس إرادته لا تحصل إلا بمشيئة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۖ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۖ ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۖ ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۖ﴾ [الإنسان: ٢٩ - ٣١] وقال: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۖ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَىٰ وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ ۖ﴾ [المدثر: ٥٥ - ٥٦].

والراجي لمخلوق طالب بقلبه لما يريد من ذلك المخلوق، وذلك المخلوق عاجز عنه، ثم هذا من الشرك الذي لا يغفره الله.

فمن كمال نعمته وإحسانه إلى عباده المؤمنين أن يمنع حصول مطالبهم بالشرك حتى يصرف قلوبهم إلى التوحيد، ثم إن وحده العبد توحيد الإلهية حصلت له سعادة الدنيا والآخرة، وإن كان ممن قيل فيه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ ۗ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ﴾ [يونس: ١٢] وفي قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمْ

الضُرِّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ [الإسراء: ٦٧] كان ما حصل له من وحدانيته حجة عليه، كما احتج سبحانه على المشركين الذين يُقرّون بأنه خالق كل شيء ثم يشركون ولا يعبدونه وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ فِي يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩] وقال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ [العنكبوت: ٦١] وهذا قد ذكر في القرآن في غير موضع.

فمن تمام نعمة الله على عباده المؤمنين أن يُنزل بهم الشدة والضرر وما يلجئهم إلى توحيده فيدعونه مخلصين له الدين، ويرجونه لا يرجون أحداً سواه، وتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم من التوكل عليه، والإنابة إليه، وحلاوة الإيمان، وذوق طعمه، والبراءة من الشرك ما هو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض، أو الخوف، أو الجذب، أو حصول اليسر، وزوال العسر في المعيشة، فإن ذلك لذاتٌ بدنية ونعم دنيوية قد يحصل للكافر منها أعظم مما يحصل للمؤمن. وأما ما يحصل لأهل التوحيد المخلصين لله الدين فأعظم من أن يُعبّر عن كنهه مقال، أو يستحضر تفصيله بال، ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر إيمانه، ولهذا قال بعض السلف: «يا ابن آدم لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من

قرع باب سيدك». وقال بعض الشيوخ: «إنه ليكون لي إلى الله حاجةٌ فأدعوه فيفتح لي من لذيذ معرفته وحلاوة مناجاته ما لا أحبُّ معه أن يُعجِّل قضاء حاجتي خشية أن تنصرف نفسي عن ذلك؛ لأن النفس لا تريد إلا حظَّها فإذا قُضي انصرفت». وفي بعض الإسرائيليات: «يا ابن آدم البلاء يجمع بيني وبينك، والعافية تجمع بينك وبين نفسك».

وهذا المعنى كثير، وهو موجود مذوق محسوس بالحس الباطن للمؤمن، وما من مؤمن إلا وقد وجد من ذلك ما يعرف به ما ذكرناه، فإن ذلك من باب الذوق والحس، لا يعرفه إلا من كان له ذوق وحس بذلك.

ولفظ «الذوق» وإن كان قد يظن أنه في الأصل مختص بذوق اللسان فاستعماله في الكتاب والسنة يدل على أنه أعم من ذلك، فهو مستعمل في الإحساس بالملائم والمنافر، قال تعالى: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢] فجعل الخوف والجوع مذوقاً؛ وأضاف إليهما اللباس ليشعر أنه لبس الجائع والخائف فشمله وأحاط به إحاطة اللباس باللباس^(١).

«وأنت تجد كثيراً من المنتسبين إلى علم ودين لا يكذبون فيما يقولونه، بل لا يقولون إلا الصدق، لكن لا يقبلون ما يخبر به غيرهم من الصدق، بل يحملهم الهوى والجهل على تكذيب غيرهم وإن كان صادقاً، إما تكذيب نظيره، وإما تكذيب من ليس من طائفته، ونفس تكذيب الصادق هو من الكذب؛ ولهذا قرنه

(١) مجموع الفتاوى ٣٣٤/١٠ وهذا المجلد العاشر هو مجلد السلوك، وهو نفيس جداً، وقد حوى نكتاً علمية دقيقة لا تكاد تراها في غيره.

بالكاذب على الله، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر: ٣٢]، فكلاهما كاذب: هذا كاذب فيما يخبر به عن الله، وهذا كاذب فيما يخبر به عن المخبر عن الله، والنصارى يكثر فيهم المفترون للكذب على الله، واليهود فيهم المكذَّبون بالحق»^(١).

هذا ومع زيادة الإيمان يكون الفرقان في قلبك وبصيرتك بإذن الله تعالى ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] «وفي الحديث الصحيح: «إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ»^(٢). «فدل على أن المؤمن يتبين له ما لا يتبين لغيره؛ ولا سيما في الفتن.. وكلما قوي الإيمان في القلب قوي انكشاف الأمور له؛ وعرف حقائقها من بواطنها، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف، وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم.

ولهذا قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] قال: هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحق، وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور»^(٣).

وكل مبطل لا بد أن يكون معه طرف حق يُلبس به على الناس، قال ابن تيمية: «وكل من سوى أهل السنة والحديث من الفرق فلا ينفرد عن أئمة

(١) منهاج السنة النبوية ١٩٢/٧

(٢) البخاري (١٦ / ٥٧٤ - فتح) ومسلم (٤ / ٢٢٤٥).

(٣) مجموع الفتاوى ٤٥/٢٠

الحديث بقول صحيح، بل لا بد أن يكون معه من دين الإسلام ما هو حق، وبسبب ذلك وقعت الشبهة، وإلا فالباطل المحض لا يشتبه على أحد، ولهذا سُمي أهل البدع أهل الشبهات، وقيل فيهم: إنهم يلبسون الحق بالباطل»^(١).

٢. العلم:

لا اعتصام إلا بعد العلم، وبخاصة العلم بالله وبأسماؤه وصفاته وأفعاله وحقه، وعلى قدر العلم يكون إحسان الظن وثبات اليقين وعظيم الرغبة، فإن ساعد العمل فثم نيل المراد بإذن الله تعالى.

ومن تأمل اعتصام العلماء بالله عند النعم والمحن عرف قدر العلم في هذا الباب وجلاله وعظمته وعظيم نفعه، فما دتته هي العلم النافع والله المستعان. وأعظم العلم هو العلم بالله تعالى، «ففي القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهب إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفراغ منه إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ومعانقته الصبر على ذلك إلى وقت لقاءه، وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تُسد تلك الفاقة منه أبداً»^(٢).

(١) منهاج السنة النبوية ١٦٧/٥

(٢) مدارج السالكين ١٧٢/٣

٣. إحصان الاتباع:

لا بد لكل معتصم بسنةٍ سابقةٍ يعتصم بها، وصراطٍ بينٍ يهتدي خلاله، وطريقٍ واصلٍ لمراده، وما ثمَّ إلا سنة سيد الأولين والآخرين ﷺ، فمن رغب عنها هلك.

وتركُ السنة مفضٍ للوقوع بين براثن البدعة، وعلى قدر بُعده عن السنة يكون دخوله في ضدها وهي المخالفة، إما بالترك أو الابتداع والاختراع، وبحسب قربه منها يكون انفكاكه مما سواها من المحدثات، كلاً بكلاً، وجزءاً بجزءٍ، وشيئاً بشيءٍ، فالمكان الممكن لا يحتمل الضدين، فعلى قدر تحصيل أحدهما يكون فراغه من الآخر، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «لا تجد أحداً ترك بعض السنة التي يجب التصديق بها والعمل إلا وقع في بدعة، ولا تجد صاحب بدعة إلا ترك شيئاً من السنة، قال تعالى: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ١٤] فلما تركوا حظاً مما ذكروا به اعتاضوا بغيره ف وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] أي: عن الذكر الذي أنزله الرحمن، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٤] وقال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] فأمر باتباع ما أنزل ونهى عما يضاد ذلك وهو اتباع أولياء من دونه، فمن لم يتبع أحدهما اتبع الآخر، ولهذا قال: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥].

قال العلماء: «من لم يكن متبعًا سبيلهم كان متبعًا غير سبيلهم» فاستدلوا بذلك على أن اتباع سبيلهم واجب؛ فليس لأحد أن يخرج عما أجمعوا عليه.

وكذلك من لم يفعل المأمور فعل بعض المحظور، ومن فعل المحظور لم يفعل جميع المأمور؛ فلا يمكن الإنسان أن يفعل جميع ما أمر به مع فعله لبعض ما حظر، ولا يمكنه ترك كل ما حظر مع تركه لبعض ما أمر، فإن ترك ما حظر من جملة ما أمر به فهو مأمور، ومن المحظور ترك المأمور؛ فكل ما شغله عن الواجب فهو محرم، وكل ما لا يمكن فعل الواجب إلا به فعليه فعله، ولهذا كان لفظ «الأمر» إذا أطلق يتناول النهي، وإذا قيد بالنهي كان النهي نظير ما تقدم»^(١).

«والبدع نوعان: نوع في الأقوال والاعتقادات، ونوع في الأفعال والعبادات. وهذا الثاني يتضمن الأول، كما أن الأول يدعو إلى الثاني.

فالمتسبون إلى العلم والنظر وما يتبع ذلك يخاف عليهم إذا لم يعتصموا بالكتاب والسنة من القسم الأول.

والمتسبون إلى العبادة والنظر والإرادة وما يتبع ذلك يخاف عليهم إذا لم يعتصموا بالكتاب والسنة من القسم الثاني.

وقد أمرنا الله أن نقول في كل صلاة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) صِرَاطَ الَّذِينَ

أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ [الفاتحة: ٦-٧] آمين.

(١) الإيذان لابن تيمية ١/١٣٩ وهو ضمن مجموع الفتاوى ١٧٤/٧

وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون»^(١).

قال سفيان بن عيينة: «كانوا يقولون: من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى». وكان السلف يقولون: «احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتها فتنة لكل مفتون».

فطالب العلم إن لم يقترن بطلبه فعل ما يجب عليه، وترك ما يجرم عليه من الاعتصام بالكتاب والسنة، وإلا وقع في الضلال.

وأهل الإرادة إن لم يقترن بإرادتهم طلب العلم الواجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة، وإلا وقعوا في الضلال والبغي.

ولو اعتصم رجل بالعلم الشرعي من غير عمل بالواجب، كان غاوياً، وإذا اعتصم بالعبادة الشرعية من غير علم بالواجب كان ضالاً، والضلال سمة النصارى، والبغي سمة اليهود، مع أن كلا من الأمتين فيها الضلال والبغي، ولهذا تجد من انحرف عن الشريعة في الأمر والنهي من أهل الإرادة والعبادة

(١) الترمذي (٢٩٥٤)، والإمام أحمد في المسند (٣٧٨/٤، ٣٧٩)، وأبو داود الطيالسي (١٠٤٠)، وابن جرير في جامع البيان (١٨٥/١، ١٩٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٣/١)، كلهم من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه. والحديث صحيح أحمد شاكر إسناده. انظر جامع البيان الموضع المتقدم. وقال عبد الرحمن ابن أبي حاتم: «ولا أعلم بين المفسرين في هذا الحرف اختلافاً». يعني تفسير الآية بما جاء عن رسول الله ﷺ. انظر تفسيره (٢٣/١).

والسلوك والطريق يتتهون إلى الفناء الذي لا يميزون فيه بين المأمور والمحظور، فيكونون فيه متبعين أهواءهم.

وإنما الفناء الشرعي أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه، وبسؤاله عن سؤال ما سواه، وبخوفه عن خوف ما سواه، وهذا هو إخلاص الدين لله وعبادته وحده لا شريك له، وهو دين الإسلام الذي أرسل الله به الرسل، وأنزل به الكتب»^(١).

٤. الصدق:

فالصدق مع الله تعالى هو آخية التوفيق والفلاح، ودليل صحة التوجه والإخلاص، وبرهان التوقير للعليّ الأعلى تبارك وتعالى، ومن رام جزيل العطايا فليصدق مع العظيم بقلبه وقوله وعمله. وفي مصنف عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «بيننا فتى من الأنصار عَلفَ ناضحه، وأقام معاذ بن جبل صلاة العشاء، فنَزَلَ الفتى عَلفَه، فقام فتوضأ، وحضر الصلاة، وافتتح معاذ بسورة البقرة، فصلَّى الفتى وترك معاذًا، وانصرف إلى ناضحه فعَلفَه أو فعَلفَها، فلما انصرف معاذ جاء الفتى فسبّه ونَقَصَه، ثم قال: لآتين نبي الله ﷺ فأخبره خبرك، فأصبحنا فاجتمعنا عند النبي ﷺ، فذكر له معاذ شأنه، فقال الفتى: إنا أهل عمل وشُغلٍ، فطَوَّل علينا، استفتح بسورة البقرة، فقال النبي ﷺ: «يا معاذ أتريد أن تكون فتانًا، إذا أمت الناس فاقراً بِ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾،

(١) الفتاوى الكبرى (٢/١٤٢).

﴿وَأَلِّلْ إِذْ يَعْتَشَى﴾، و ﴿أَقْرَأْ بِأَسْرِ رَبِّكَ﴾، ﴿وَالضُّحَى﴾ وبهذا النحو.

فقال عبد الله بن عبيد بن عمير: فدعا النبي ﷺ الفتى فقال: «يا معاذ، ادع» فدعا، فقال للفتى: «ادع» فقال: والله لا أدري ما دندنتكما هذه، غير أني والله لئن لقيت العدو لأصدقن الله، فلقى العدو فاستشهد، فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ اللهُ فَصَدَقَهُ اللهُ» (١).

٥. الدعاء:

الدعاء حبل المعتصمين بربهم، وباب الداخلين إلى سيدهم، ووسيلة الطالبين كريمهم، فبه يرفعون شكاياتهم من غوائل الدنيا وحبائل الشيطان، وبه يطلبون رغائبهم من الكريم الوهاب المنان، قال بكر بن عبد الله المزني: «من مثلك يا ابن آدم! خُلِّي بينك وبين الماء والمحراب، متى شئت دخلت على ربك، ليس بينك وبينه حجاب ولا ترجمان» (٢).

٦. المحاسبة:

قال الحسيب سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] وهذا أصل في محاسبة المؤمن نفسه، ومن أولى ما يحاسب المؤمن نفسه فيه قوة اعتصامه بربه تعالى واستمساكه بحبله، فالدنيا تذهب بلبه أحياناً فيطيش وهله عن سعادته باعتصامه بحبل مولاه، فإن أسعفه ربه

(١) مصنف عبد الرزاق (٢/٣٦٥) (٣٧٢٥).

(٢) شعب الإيمان (٤/٥٣٧).

بمحاسبة صادقة لنفسه عاد لكنف ربه ورحمته وكرامته.

وبالجملة؛ فالمحاسبة أخذٌ بالحزم في تحصيل المراد، واحترازٌ من مؤاخذة الحساب، ومن اعتصم بربه فاز.

٧- لزوم العلماء:

فالمعتصم بالله تعالى مفتقر لبصيرة تهديه، ومعدنها العلم بالله وبدينه، ومعينها صدور العلماء الأتقياء العاملين الربانيين، فمن لزم غرزهم أوشك أن يصل بإذن الله، ذلك أن للشيطان حظوظ من فريسته الآدمية، وللنفس رغائب تعميها، وشهوات تُعشيها، فإن استفرد به الشيطان أتلفه، فإن وفقه الله لبصير يرشده ويأخذ بيده أوشك السعيد لفلاحه أن يصل.

أيضاً فلزوم أهل العلم ومصاحبتهم في اختلاف أحوالهم وتقلبهم مع الشدة والرخاء، والخوف والأمن، والضيق والسعة يحقن في قلب المؤمن جرعات النفع وعقار التحصين وغذاء المسير بإذن الله تعالى.

٨- الفرح بالله:

الفرح بالله له لذة تقصر عن وصفها الحروف، فهي الجنة قبل الجنة، والنعيم السابق للنعيم، وهي حقاً قطعة من نعيم الجنة، وفي الجرعة اليسيرة منها ما يشبع الروح في مسيرها للأخرة، فكيف بالكثير!؟

فافرح بربك وبرحمته وفضله كلَّ الفرح، واجرع بقلبك وروحك ونفسك موارد الفرح ومصادر السرور وألوان الحبور، فلا أفرح على الإطلاق من فرح

العبد بربه تعالى، وهذا من الأمور المعلومة بالفطرة والعقل والشرع والحال والتجربة، فالحمد لله كثيراً كثيراً على ما يعجز عنه البيان، وتقصّر عنه الحروف، ويقف دونه التوضيح ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

قال ابن تيمية حين كان سجيناً في قلعة دمشق قبل وفاته رَحِمَهُ اللهُ: «ما يبيّن نعم الله التي أنعم بها عليّ وأنا في هذا المكان أعظم قدرًا وأكثر عددًا ما لا يمكن حصره، وأكثر ما ينقص علي الجماعة، فأنا أحب لهم أن ينالوا من اللذة والسرور والنعيم ما تقر به أعينهم، وأن يُفتح لهم من معرفة الله وطاعته والجهاد في سبيله ما يصلون به إلى أعلى الدرجات، وأُعرّف أكثر الناس قدر ذلك، فإنه لا يُعرف إلا بالذوق والوجد، لكن ما من مؤمن إلا له نصيب من ذلك ويستدل منه بالقليل على الكثير، وإن كان لا يُقدّر قدره الكبير، وأنا أعرّف أحوال الناس والأجناس واللذات. وأين الدر من البعر؟ وأين الفالوذج من الدبس؟ وأين الملائكة من البهائم؟» (١)

٩ - تجديد التوبة:

فلما كانت التوبة هي أولى المنازل وأوسطها وآخرها - بحسب ابن القيم - فعلى المؤمن أن يعتصم بها، وهي - بحمد الله - موصلة للاعتصام بحبل ربه، لأنّ دائم التوبة لله دائم الاعتصام به، فهو يتوب إلى الله تعالى من قصور وتقصير،

(١) مجموع الفتاوى (٢٨ / ٤٥) وللفرح بالله تعالى كتاب مستقل في هذه السلسلة بإذن الله تعالى.

من قصور في ذات الاعتصام، وتقصير في تحصيل وإعمال أدوات الاعتصام، فيتوب على التكرار والدوام تطهيراً وإنقاءً من دخيلة في نفسه، ودخن في قلبه، وضعف في فؤاده، ونكت وقتر وثقله وغفلة يعترينه أحياناً على مر الزمان وتتابع الأيام، لأن الإنسان ضعيف عاجز، جهول فاتر، ملول عجول، مفتن تواب، ومن هنا كانت ضرورته لتجديد التوبة للتواب تبارك وتعالى، وتجديد التوبة فرع عن المحاسبة الصادقة وثمرتها نافعة لها.

١٠. الذكر:

وهو زاد المعتصمين، ووقود المقرورين بين جليل الدنيا وبأسائها، ذلك أن الاعتصام بحد ذاته ذكر خالص بالقلب، فأعظم بالذكر منهلاً وزاداً وسلاحاً. قال الطبري رحمه الله تعالى: «ومن جسيم ما يُرجى به للعبد الوصول إلى رضا ربه ذكره إياه بقلبه، فإن ذلك من شريف أعماله عنده؛ لحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منهم»^(١).

والذكر سبب للعصمة من لأواء الأرواح. أي أذاها بالذنوب. فالذكر سربال حافظ بإذن الله من غوائل الخطايا، ونوازل الرزايا، وحرابات طوارق الليل والنهار، كما أن بعض الأذكار عاصمة بإذن الله من أخطار مخصوصة، كتعويدات طرقي النهار والمنزل والنوم وغيرها، وكعشر سورة الكهف، فعن أبي

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/١٣٨).

الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ، عَصِمَ مِنَ الدَّجَالِ» وفي رواية: «مَنْ آخَرَ سُورَةَ الْكَهْفِ» رواهما مسلم (١).

قال الطبري: «إن قال قائل: أي أنواع الذكر أفضل؛ فإن ذلك أنواع كثيرة، منها التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير؟

قيل: أعلى ذلك وأشرفه الكلمة التي لا يصح لأحدٍ عمل إلا بها، ولا إيمان إلا بالإقرار بها، وذلك التهليل، وهو لا إله إلا الله (٢).

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» متفق عليه (٣). وقال ﷺ: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله» (٤)(٥).

(١) مسلم ١٩٩/٢ (٨٠٩) (٢٥٧) وفي صحيح ابن حبان (٦٥ / ٣) (٧٨٥): «من قرأ...» بدلاً من: «من حفظ» قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) قلت: وهو كما قال، فهي خير الكلام، وهي مفتاح الجنة، وهي حبل الوصول إلى الله تعالى، وهي أحب الكلام إلى الله تعالى، ومن أجل تحقيقها خلق الله الخليفة، وكل الأذكار مردّها إليها، وهي قطعة من القرآن قال سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فلا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

(٣) البخاري ٩/١ (٩) ومسلم ٤٦/١ (٣٥) (٥٨).

(٤) أخرجه أحمد (٢١٠/٢) (٦٩٦١).

(٥) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٣٩ / ١٠) بتصرف يسير.

١١. التفكر:

واعلم أن التفكر سبيل للاعتصام بإذن الله، ولتقف قليلا متفكرين شاكرين في سبع نعمٍ كبار!

تركوا التفكر في أمور فلاحهم فكأنهم بجمودهم أصنام العاقل الحازم الرشيد، المريد لنفسه الخلاص ثم الفلاح وحسن العاقبة لا بد له من وقفات يخلو بها مع نفسه، يتأمل وإياها ممن ربه وآلاء معبوده..

وجه الله عبادة للتدبر في آياته: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢] وأرشدهم للتفكر في الخليفة: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والنهاية: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] وقال حكيم الصحابة أبو الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة».

يا لله! كم تحت هذه الكلمة من كنوز علم، وذخائر حكمة!

ألم تعلم أنك منغمس حتى شعر رأسك في نعم لا تستطيع إحصاءها، مع هذا فأنت مأمورٌ بشكرها، ولكن من رحمة ربك بك أن جعل وجوب الشكر على قدر وسعك وطاقتك، والأمر يسير بحمد الله تعالى.

قف الآن هنيهات متذكراً بعض نعم الحميد الكريم الوهاب عليك، فالله يحب المتحدثين بنعمه، المتفكرين في آلائه.

النعمُ السبعُ الكبارُ:

أولاهُا: نعمةُ الخلق:

إنها نعمةٌ مذهشةٌ عجيبةٌ، فأحضر عقلك بين يديك، وعُدْ بذاكرتك لأبعدِ ما تستطيع، يوماً بعد يومٍ، وشهراً بعد شهرٍ، وسنةً بعد سنةٍ حتى تقفَ عند عتبةِ زمنيّةٍ، لا تستطيع بذاكرتك اختراقَ حاجزها ولا كشفَ سِتْرِها.

مِنَ ذلكِ المكانِ الزمانيِّ اقفزِ بمُخيلتكِ إلى ما قَبَلَ خَلْقِكَ!

هناك في ذلك العالم السحيق لا تجدُ نفسك، قد وُجِدَ الكونُ وأنتِ غيرُ موجودٍ، ليس لك ذرّةٌ وجودٍ فيه، لا جسداً ولا روحاً، ليس هناك منك أيها الفاني سوى العدم!

مرّت أزمانٌ وأزمانٌ وأحداثٌ في هذا الكونِ وأنتِ غيرُ موجودٍ فيه، لا إله إلا الله ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ [الإنسان: ١].

بعد ذلك خلقك ربُّكَ، وفطرك وبرأك، وسواك وأوجدك ولم تك شيئاً، فاحمد الله واشكره على نعمة خَلْقِكَ، فهي خيرٌ للصالحين، وأكثرُ البشر عن شكرها غافلون.

ثانيةُ النعم: نعمةُ الاصطفاءِ الانساني:

لما خلقك ربُّكَ اختارك لتكون مخلوقاً مُميّزاً فاضلاً كريماً ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وتأمل ضدَّ ذلك، ماذا لو أن الله قد خلقك شجرةً تُرعى وتُقطعُ وتُرمى

للنار، أو خلقتك صخرةً، تهوي وتكسر، أو قطرة ماء في بحرٍ، أو ذرة هواء، أو حيواناً بهيمياً، أو طيراً حائراً، أو حشرة تائهة!

اصطفاك الله من جميع أجناس مخلوقاته لتكون بشراً مُميّزاً كريماً، تستحق رضاه وحبّه، وكرامته وجنته إن شكرته وأطعته.

ثالثةُ النعمة: نعمة الإسلام:

وهي أعظم النعم بإطلاق، ومهما تصوّرت قدر هذه النعمة فلن تطيق قدرها، وكيفيك أن ترى شؤم الكفر وظلمة الضلال، وبشاعة المآل، وسوء العاقبة والمنقلب.

ألم تعلم أن نسبة دخول البشر للجنة هي واحد من كل ألف! اللهم سلّم سلّم.

ففي صحيح البخاري عن أبي سعيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يُقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ، يَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ دُرِّيَّتِكَ بَعَثًا إِلَى النَّارِ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا بَعَثَ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ وَتِسْعِينَ. فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الْوَالِدُ» وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» [الحج: ٢].

إن أكثر بني آدم لن يعودوا لمسكنهم الأول الذي أخرجوا منه وهو الجنة: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠] فهل

أنت من العائدين؟!!

سيغضبُ اللهُ في ذلك اليومِ غضباً لم يغضبِ قبله مثله، ولن يغضبُ بعده مثله، فماذا أعددت لغضبه من صالح العمل؟!!

رابعةُ النعم: نعمةُ الاصطفاءِ المحمديّ:

وأبشر ببشرى الله لك، فقد جعلك من خير أمة أُخرجت للناس، وخصّك بأن تكون من أتباع النبي الخاتمِ الكاملِ. فاسعدُ الآن وابتهج، فأنت من الأمةِ المرحومة، فهذه الأمة من المزايا والخصائصِ ما ليس لغيرها، من مضاعفةِ الأجرِ والحسنات، والتجاوزِ عن الخطايا والسيئات، ورحمةِ الله لها ورفعِ الدرجات، كرامةً لسيدها نبيِّ الرحمة والهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ولكلّ نبي دعوةٌ مستجابة فاستعجلْ كلُّ نبيِّ دعوته، لكن نبيّك ادّخرها لك شفاعة عند ربك يوم القيامة، فكن من أهل الإخلاص والاتباع تنلها بإذن ربك.

وما حملتُ من ناقةٍ فوق رحلِها أبرّ وأوفى ذمّةً من محمدٍ
ولا طلعت شمس النهار على امرئ تقىّ نقىّ كالنبي محمدٍ
ولا لاحت الجوزاءُ شرقاً ومغرباً بأطيب من طيبِ النبي محمدٍ

ولولا أن الله أرسله ووفقه لكنت أنت ووالديك وكلّ من تحب من حطبِ جهنم، لكن الله استنقذكم به من عمّاية الضلالة لنور الإسلام والايان، فاحمد

الله على ذلك، واسأله المزيد من فضله، وألح عليه، ألح عليه بأن يُثبتك على الحق حتى تلقاه وهو راض عنك.

إنك إنسان محظوظٌ متميزٌ بكونك من أتباع هذا النبي المُمَيِّز، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أما ترضون أن تكونوا رُبْعَ أهل الجنة»، فكبر الناس. فقال: «أما ترضون أن تكونوا ثُلُثَ أهل الجنة»، فكبر الناس. فقال: «أما ترضون أن تكونوا شَطْرَ أهل الجنة» ثم وجدنا الله قد زاده على ما رجا من ذلك، فجعل أمته ثلثي أهل الجنة. رواه مسلم^(١) وثبت عنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: «أهل الجنة يوم القيامة عشرون ومائةُ صَفٍّ، أنتم منهم ثمانون صَفًّا»^(٢).

ومن رحمته ﷺ بأمته أنه كان يتلو قول الله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَجَّيْتُكَ مِنَ الْكُفْرِ وَلَقَدْ كَفَرْنَا بِكَ كَافِرِينَ كَثِيرًا وَأَضَلَّلْنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَن عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقول عيسى عليه السلام: ﴿ إِن تَعَدَّيْتُمْ فَإِنِّي أَنذَرْتُكُمْ يَوْمَ تَمُوتُ وَنَسُوا حَظِيصَتَهُمْ أَن ذَلَّلْنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ وَلَئِن لَّمْ يَذْكُرُوا الْحَدِيثَ مِنَ رَبِّكَ إِذْ يَخِرُّونَ مِنَ السَّمَاءِ وَكَيْفَ يُعْرَبُونَ وَمَا يَحْتَفِرُونَ لَهُمْ وَمَا يُذَكَّرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١١٨] فرفع يديه قائلاً: «اللهم أمتي أمتي» وبكى، فقال الله عز وجل - وهو أعلم -: «يا جبريل اذهب إلى محمد فسأله: ما يبكيك؟» فاتاه جبريل فسأله، فأخبره النبي ﷺ، فقال الله تعالى: «يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولن نسوؤك»^(٣) ﴿ وَسَوْفَ يُجِيبُكَ رَبُّكَ بِمَا تَعْبَثُ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]

(١) مسلم (١/٢٠٠) (٢٢١).

(٢) أحمد (٧/٣٤٩) (٤٣٢٨).

(٣) مسلم ١/١٣٢ (٢٠٢) (٣٤٦).

يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَارْضُ ﴿٥﴾ [الضحى: ٥].

عليك بتأمل سيرته ﷺ، وما فيها من أحواله وأوصافه وأخباره. واعلم أنك كلما استوعبت سيرته كلما ازددت به شغفاً وحباً وشوقاً.

إنه يُحِبُّك ويشتاقُ لك، فهل لك مهجة تُطِيقُ الصدودَ يا صاح!

تسألُ الناسُ بالدنيا وإنَّا لعمرُ الله بَعْدَكَ ما سألينا

والذي نفسي بيده لو استغرقتَ عُمْرَكَ في الصلاةِ والسلامِ عليه ما أدتِ معشَرَ حَقِّهِ عَلَيْكَ، مع ذلك فأكثر من الصلاةِ والسلامِ عليه ما استطعت.

ولقد أوصاك وبشرك بقوله: «إن أولاكم بي يوم القيامة أكثركم علي

صلاة» (١).

تكادُ حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسي لولا تأسينا

إن كان قد عزَّ في الدنيا اللقاءُ ففي مواقف الحشْرِ نلتاكم ويكفيننا

خامسةُ النعم: نعمة الهداية للسنة:

إذ جعلك الله من أهل السنة والجماعة، لا من أهل الفرقة والبدعة، هل

هناك أجمل من أن تبيتَ على مُعتقدِ رسول الله ﷺ وصحابته الأبرار؟!

إن معتقد أهل السنة موافق للفطرة، مريحٌ للنفس، مبهجٌ للروح، مغدِّ

للعقل، فليس فيه خرافةٌ ولا دجلٌ ولا شعوذةٌ، ولا تعقيدٌ ولا قرمطةٌ ولا

(١) أبي يعلى في مسنده (١٣/٩) (٥٠٨٠).

سفسطةً. بل هو الزُّلَالُ الصَّافِي للوحي، والخلاصةُ النقيةُ للرسالة، والمهيغُ السهلُ المُنِيرُ للجنة، فاستمسك به وافرح به واثبت عليه رعاك الله.

سادسةُ النعم: نعمةُ الصَّلاحِ والاستقامة:

فما كُلُّ من عرف الحقَّ عمل به، ولا كُلُّ من عَلِمَ الهدى اهتدى، ولا كُلُّ من اهتدى ثبت. فافرح بصلاحك واستقامتك وورعك وعفافك، واسأل ربَّكَ المزيدَ من فضله ورحمته وتوحيته وغفرانه.

سابعةُ النعم: النعمُ المتعلقة بالصحة والعافية في العقل والبدن والرزق:

تفكّر في نعمة العقل والإدراك وما فيه من الآلاء والمنح، وفي الجسد وما فيه من العجائب والحكم، تأمل القلب ونبضه، والدم وجريانه، والعظم وإحكامه، والعصب ودقته، والنفس وراحته، والبصر ومُتعتته، والسمع وضرورته.

أبحرْ بخشوعٍ في تأملِ نِعَمِ الروح والعقل والجسد، واهتف بقلبك: آمنتُ بك يا ربّي، حنانيك خذ بيدي.

اسبح في بحر التأمل لنعم الكريم عليك، واحمده حمد من عرف وخضع وخشع، وامتلأ فؤاده بالمحبة والشكر والامتنان للوهاب الكريم الرحمن ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

والآن: قد عرفت فالزم. وانتشِ بهذه النعم، واغبط وافرح بها، ولا فرح كالفرح بالله، لا فرح كالفرح بالله، ولا أنس كالأنس بالله، واشكره وسأله المزيد، فقد وعدك إن كنت من الشاكرين.

نعم، لقد وعدك إن كنت من الشاكرين.

١٢ - الثقة بالله تعالى:

الثقة أساس الاعتصام، فالاعتصام استمسك واستيثاق وسكون وعكوف واستئمان، وعلى قدر الثقة يكون الاعتصام، فعزز الثقة يشتد الاعتصام، ومن جمال الثقة جمعها بين عالمي الغيب والشهادة، إذ يتنفسها المؤمن بقلبه قبل صدره، ويراها ببصيرته قبل بصره، ويأنس إليها ومنها وبها، فهي الركن الشديد، والمأرز الوثيق، ومن وثق بالله انقطع حقيقة عن كل ما سواه، وانخلع من نظره إليهم وانتظار فرجهم أو عونهم أو حفظهم ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

١٣ - اليقين بالله تعالى:

اليقين هو العمود الذي يرفع بنيان الاعتصام، فإذا هبت رياح شتاء البلى ثبث جبل الاعتصام بعمود اليقين، فيرى ببصيرته اليقينية حكماً ربه في ابتلائه وآلاء معبوده في طي محنه، وقرب فرجه من كربه، فالناس يتساقطون صرعى في أتون الكربات، ويتلوون شاكين من ماجريات الأقدار، وصاحب اليقين راسخ في اعتصامه بحبل ربه، ثابت الجنان، عظيم العلم والإيمان.

وتأمل كيف حمل البحر موسى في مهده وهو وليد وحيد، ثم أغرق فرعون وجنده وهو ملك جبار عنيد، إنه تدبير العزيز الحميد فثق به وتيقن من صدق موعوده.

١٤. الاعتصام بمسميات الشرع دون اصطلاحات المُحدثين:

من المهمات في باب الاعتصام: الحرص على مراعاة الألفاظ السنية الواضحة التي لا تحتمل محامل أهل الفرقة، ومما داخل الناس من سبل الشر الألفاظ المجملة التي تحتمل حقاً وباطلاً، فيقولها الصّدِّيق والزنديق، ويوردها صاحب البدعة ليصل لباطله دون الحق الذي تحتمله، فيُغضي عنه صاحب السنة إحساناً للظن به أو غفلة عن باطن بدعته، وهذا خطأ فالباطل يردّ على من كان نصحاً له ولغيره.

وبالجمله؛ فمن وسائل تحصيل الاعتصام الاعتصامُ بألفاظ الشرع وحروفه، توقيراً وإعظاماً، وحراسة واحترافاً، وكلُّ الخير في الاتّباع، ونحن وإن قلنا بتقديم المعنى واللب إلا أن القالب واللفظ والظاهر له حظه من الأهمية، فشعار المؤمنين ظاهر، واجتماعهم ظاهر، وحزبهم ظاهر، وحروفهم ظاهرة، وحظهم قائم، وقسمهم غانم، وطائفهم منصوره بإذن الله تعالى.

ومن تلك المجملات ما حمّله أهل الكلام من زاملة كتب اليونان من الحيز والجهة والعرض والجسم.. إلخ. ولقد تواترت عبارات السلف وتطابقت مقالاتهم في ذم علم الكلام والتحذير منه، وهو الذي قد دخل حصن أهل الإسلام من باب المجملات.

فهذا أبو حنيفة النعمان رَحِمَهُ اللهُ سألَهُ سائل: ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام؟ فقال: «مقالات الفلاسفة! عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة فإنها بدعة».

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: «أكلّمنا جاءنا رجل أجدلّ من رجل تركنا ما نحن عليه؟! إذاً لا نزال في طلب الدّين».

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «لأن يُبتلى المرء بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك به، خير من النظر في الكلام». وقال - أيضاً -: «حكّمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجرّيد، ويجلسوا على الإبل، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، وينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام».

وقال أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «لا يفلح صاحب كلام أبداً، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دَغَلٌ». والدغل هو الكدر واللوث والحقد.

وأما موقف ابن تيمية رحمه الله تعالى من الألفاظ المجملة المبتدعة التي أطلقها أهل الكلام، وجعلوها من الاعتقاد، وبيان موقف السلف منها فيمكن إجماله في التالي:

«١ - كان السلف يتحرّون في إطلاق الألفاظ على الله عزّ وجل، فلا يطلقون إلا الألفاظ الشرعية، ويحرصون على اجتماع الحُسن بين اللفظ والمعنى، ولا يلجؤون إلى المعنى الحسن، ليعبروا عنه بأفضل الألفاظ التي لم ترد في الكتاب والسنة، إلا إذا لم يهتدوا إلى لفظ مناسب موجود في الكتاب أو في السنة.

٢ - حين يردّ السلف على النفاة فإنهم يردّون على ألفاظهم القريبة من الإثبات، ويبطلونها، فيكون ذلك رد من باب أولى على ألفاظهم الموغلة في النفي، البعيدة عن الحق.

٣- نهى السلف عن إطلاق الألفاظ الكلامية، فذكر رَحْمَةُ اللَّهِ أَقْسَامٌ مَثْبُتَةٌ الصفات تجاه النفاة، وذكر عن أهل السنة والجماعة قوله: «وطائفة نازعتهم نزاعاً مطلقاً في واحدة من المقدمتين، ولم تطلق في النفي والإثبات ألفاظاً مجملة مبتدعة لا أصل لها في الشرع، ولا هي صحيحة في العقل، بل اعتصمت بالكتاب والسنة، وأعطت العقل حقه، فكانت موافقة لصريح المعقول، وصحيح المنقول».

٤- سبب نهى السلف عن إطلاق الألفاظ الكلامية هو:

أ- اشتغالها على معان باطلة ومعان صحيحة، ولذلك فهي توقع في الاشتباه والاختلاف والفتنة، خلاف الألفاظ المأثورة التي تحصل بها الألفه، يقول ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ: «يوجد كثيراً في كلام السلف والأئمة: النهي عن إطلاق موارد النزاع بالنفي والإثبات».

وليس ذلك لخلو النقيضين عن الحق، ولا قصور، أو تقصير في بيان الحق، ولكن لأن تلك العبارة من الألفاظ المجملة المتشابهة المشتملة على حق وباطل، ففي إثباتها إثبات حق وباطل، وفي نفيها نفي حق وباطل...».

ب- لأنها تتضمن تكذيب كثير مما جاء به الرسول ﷺ، وذلك يعرفه من عرف مراد الرسول ﷺ، ومراد أصحاب تلك الأقوال المبتدعة.

ج- لأنها ليس لها ضابط، بل كل قوم يريدون بها معنى غير المعنى الذي أراده أولئك، فجعلوها دقيقة غامضة، بخلاف ألفاظ الرسول ﷺ فإن مراده بها يُعلم كما يعلم مراده بسائر ألفاظه.

٥ - أول من عرف عنه إطلاق الألفاظ المبتدعة المجملة نفيًا أو إثباتًا هم أهل الكلام المحدث بقسميهم: النفاة كالجهمية والمعتزلة. والمثبتة الغلاة كالمشبهة من الرافضة وغير الرافضة.

٦ - تضمنت الألفاظ المجملة أنواعًا مختلفة من الإجمال، وليس نوعًا واحدًا، فتارة يكون الإجمال بطريق الاشتراك لاختلاف الاصطلاحات، وتارة يكون الإجمال بطريق التواطؤ مع اختلاف الأنواع، فإذا فسّر المراد، وفصل المتشابه تبيين الحق من الباطل والمراد من غير المراد.

٧ - كثير ممن تكلم بهذه الألفاظ المجملة كان يظن أنه ينصر الإسلام بهذه الطريقة، وأنه بذلك يثبت معرفة الله وتصديق رسوله ﷺ، ف وقعت عندهم أمور كثيرة من الخطأ والضلال.

والبدعة - في هذا - لا تكون حقًا محضًا ولا باطلاً محضًا، إذ لو كانت حقًا محضًا موافقًا للسنة، لما كانت باطلاً.

ولو كانت باطلاً محضًا لما خفيت على الناس، ولكنها تشتمل على حق وباطل، وقد لبس صاحبها الحق بالباطل، إما مخطئًا غلطًا، وإما متعمدًا لنفاق فيه وإلحاد.

٨ - كثير من الألفاظ البدعية المجملة تختلف معانيها في اصطلاحات المتكلمين عنها في لغة العرب، ولذلك تحدث إشكالات، وتورث شكًا، ويضرب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ مَثَالًا لذلك بالعقل، فهو عند المتكلمين: جوهر قائم بنفسه، وأما العقل في لغة العرب فهو عَرَضٌ: علم، وعمل بالعلم، وغريزة

تقتضي ذلك.

ولذلك يحرص ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عَلَى معرفة معاني ألفاظ المخالفين ومرادهم من إطلاقها.

٩- أن هذه الطرق التي يسلكها المتكلمون أحسن أحوالها أن تكون عوجاء طويلة، وقد تهلك، وقد توصل بمشقة ووعورة وكلفة مع وجود غيرها من السهل الموصل، فتلك الطرق والألفاظ إذن لو كانت مستقيمة مُوصلة لم يعدل عنها السلف، فكيف إذا تيقن أنها مهلكة!

ويضرب ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ مَثَلاً لذلك بمن ترك سلوك الطريق المستقيم الذي يوصله إلى مكة، وسلك طريقاً بعيدة لغير مصلحة راجحة، فهذا يكون تاركاً لما يؤمر به، فاعلاً لما لا فائدة فيه أو ما ينهى عنه، إذا كانت تلك الطريق موصلة إلى المقصود، فأما مع الاسترابة في كونها موصلة أو مهلكة فإنه لا يجوز سلوكها.

١٠- لا يُكْفَرُ مطلق هذه الألفاظ أو نافيها، بل يُبَدَّع وَيُدَمَّ غاية الذم.

١١- تختلف مقامات الخطاب في الاقتصار على الألفاظ الشرعية، أو الحاجة

إلى مثل هذه الألفاظ المجملة ومنها:

أولاً: إن كان الإنسان في مقام دفع من يلزمه ويأمره ببدعة، ويدعوه إليها أمكنه الاعتصام بالكتاب والسنة، وأن يقول: لا أجيبك إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله، بل هذا هو الواجب مطلقاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا

فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿ [الأنعام: ١٥٣] وقال سبحانه: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ [الأعراف: ٣].

ثانياً: وإن كان الإنسان في مقام الدعوة لغيره والبيان له، وفي مقام النظر - أيضاً، فعليه أن يعتصم بالكتاب والسنة، ويدعو إلى ذلك، وله أن يتكلم مع ذلك، ويبين الحق الذي جاء به الرسول ﷺ بالأقيسة العقلية والأمثال المضروبة.

فهذه طريقة الكتاب والسنة وسلف الأمة، فإن الله سبحانه وتعالى ضرب الأمثال في كتابه، وبيّن بالبراهين العقلية توحيده وصدق رسله وأمر المعاد وغير ذلك، وأجاب عن معارضة المشركين كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٣].

ثالثاً: وإن كان المتكلم في مقام الإجابة لمن عارضه بالعقل، وادعى أن العقل يعارض النصوص، فإنه قد يحتاج إلى حل شبهته وبيان بطلانها، فإذا أخذ النافي يذكر ألفاظاً مجملة، فهنا يستفصل السائل ويقول له: ماذا تريد بهذه الألفاظ المجملة؟

فإن أراد بها حقاً وباطلاً قبل الحق ورُدَّ الباطل. وإذا قُدِّر أن المعارض أصر على تسمية المعاني الصحيحة التي ينفىها بألفاظه الاصطلاحية المحدثه، قيل له: هب أنه سمي بهذا الاسم، فنفيك له: إما أن يكون بالشرع، وإما أن يكون بالعقل.

أما الشرع فليس فيه ذكر هذه الأسماء في حق الله، لا بنفي ولا إثبات، ولم ينطق بذلك أحد من سلف الأمة لا بنفي ولا بإثبات.

وإن أردت أن نفي ذلك معلوم بالعقل، فيقال: الأمور العقلية لا عبرة فيها بالألفاظ، فالمعنى إذا كان معلوماً إثباته بالعقل لم يميز نفيه لتعبير المعبر عنه بأي عبارة عبر بها، وكذلك الحال في النفي العقلي لا يجوز إثباته بأي عبارة، والمنازعات اللفظية غير معتبرة في المعاني العقلية.

ثم ذكر شيخ الإسلام رَحْمَةُ اللَّهِ الموقف من هذا الصنف، وأن المناظر يحتاج أن يعبر بألفاظ لا يطلقها إلا في مثل هذا الموضع بقوله: «وقد يقع في محاورته إطلاق هذه الألفاظ؛ لأجل اصطلاح النافي ولغته، وإن كان المطلق لا يستجيز إطلاقها في غير هذا المقام».

فتبين أن المصلحة الشرعية الراجحة هي الضابط والمعياري بحسب اختلاف حال المخاطبين.

١٢ - تبني على الفقرة السابقة مسألة وهي: حكم معاملة أهل الاصطلاح باصطلاحهم. ويجب عنها شيخ الإسلام رَحْمَةُ اللَّهِ بالجواز إذا توفر فيها شرطان:

إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وكانت المعاني صحيحة كمخاطبة العجم، ومن كرهه من الأئمة، فإنما ذلك إذا لم يُتَّجَّ إليه، والله أعلم.

١٣ - المنازعات اللفظية اللغوية والاصطلاحية والعقلية والشرعية توجب

على المسلمين الاعتصام بالكتاب والسنة، كما أمرهم الله بذلك في قوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقوله: ﴿الْمَصَّ ١﴾ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِئُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ [الأعراف: ١ - ٣] وقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣] وقوله: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١١٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١١٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَعْمَى أَيُّنَّا فَتَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦].

١٤ - الاستفصال في بيان معاني الألفاظ المجملة هو الطريق الشرعي للتعامل معها إزاء المخالف، فيبين له ما وافق الحق وما خالفه، وهذا من الحكم بالكتاب بين الناس فيما اختلفوا فيه، وهو مثل الحكم بين سائر الأمم بالكتاب فيما اختلفوا فيه من المعاني التي يعبرون عنها بوضعهم وعرفهم.

ويشترط ابن تيمية رَحْمَهُ اللَّهِ فيمن يستفصل في بيان الألفاظ المجملة

شرطين وهما:

أن يكون عارفاً بمعاني الكتاب والسنة، وأن يكون عارفاً بمعاني ألفاظ المخالفين ومرادهم منها، لتقابل المعاني الشرعية بمعاني المخالفين؛ ليظهر الموافق والمخالف.

ويوجب ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى من يريد كشف ضلال من يطلق الألفاظ المجملة ألا يوافقهم على لفظ مجمل حتى يتبين له معناه، ويعرف مقصوده، ويكون الكلام في المعاني العقلية المبينة، لا في معانٍ مشتبهة بألفاظ مجملة.

وينبه رَحْمَةُ اللَّهِ إِلَى طريقته إذا ذكروا لأحد كلامهم المجمل فاعترض عليهم بما تنفر عنه فطرته، قالوا له: أنت لا تفهم هذا، وهذا لا يصلح لك، فيبقى ما في النفوس من الأنفة والحمية ما يحملها على أن تسلّم تلك الأمور قبل تحقيقها عنده، وعلى ترك الاعتراض عليها خشية أن ينسبوه إلى نقص العلم والعقل.

والاستفصال في الألفاظ المجملة نافع في الشرع والعقل:

أما الشرع: فإن علينا أن نؤمن بما قاله الله ورسوله، فكل ما ثبت أن الرسول ﷺ قاله فعلياً أن نصدّق به، وإن لم نفهم معناه؛ لأننا قد علمنا أنه الصادق المصدوق الذي لا يقول على الله إلا الحق.

وما تنازعت فيه الأمة من الألفاظ المجملة فليس على أحد أن يقبل مسمى اسم من هذه الأسماء، لا في النفي ولا في الإثبات، حتى يستفصل ويبين له معناه، ويكون المعنى صواباً إذا كان موافقاً لقول المعصوم.

أما العقل: فمن تكلم بلفظ يحتمل معاني، لم يقبل قوله ولم يردّ حتى

نستفسره ونستفصله، ليتبين المعنى المراد، ويبقى الكلام في المعاني العقلية، لا في المنازعات اللفظية.

١٥ - الاستفصال في الألفاظ المجملة يكون كالتالي:

إن أراد المثبت لهذه الألفاظ بها معنى صحيحاً، فقد أصاب في المعنى، وإن كان في اللفظ خطأ.

وإن أراد النافي لهذه الألفاظ معنى صحيحاً، فقد أصاب في المعنى، وإن كان في اللفظ خطأ.

وإن أراد المثبت لهذه الألفاظ معنى باطلاً نفى ذلك المعنى عن الله عز وجل.

وأما من أثبت بلفظه حقاً وباطلاً، أو نفى بلفظه حقاً وباطلاً فكلاهما مصيب فيما عناه من الحق، مخطئ فيما عناه من الباطل، قد لبس الحق بالباطل، وجمع في كلامه حقاً وباطلاً.

وأما الموقف من اللفظ مجرداً عن المعنى فإن الأصل هو التعبير بالألفاظ الشرعية الواردة كما تبين من قبل.

ولا ينبغي العدول إلى هذه الألفاظ المبتدعة المجملة، إلا عند الحاجة، مع قرائن تبين المراد بها.

ويضرب ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ مثلاً على الحاجة وهو: أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها كمخاطبة العجمي بلغته.

ويسهل الأمر عند ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ إِذَا عُبِّرَ بِالْأَلْفَاظِ الْمُحَدَّثَةِ الَّتِي تَحْمَلُ
معان صحيحة حين المنازعات العقلية، والله أعلم»^(١).

والمقصود؛ حفظ قالب حروف الشريعة، وحراستها من عاديات الألفاظ
المسمومة التي تحتمل حقاً دُوسَّ معه باطل، فيحار السامع ويتردد بين ردّه فيردّ
ما فيه من الحق، أو يقبله فيكون قد قبل الباطل، لذلك فالسلامة هي بالبقاء على
ألفاظ الشريعة وفيها غنية وكفاء، فإن ابتلينا بألفاظ أخرى وألجئنا لها فلا بد من
الاستفصال حتى يرد الحق لنصابه والباطل لنطاقه.

وبالجمله؛ فمن اعتصم بمعنى حقّ ولفظٍ حقّ فقد اهتدى وأنجح، ومن لم
ير في حروف الشرع غُنية فلا أغناه الله.



(١) دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٣٤ - ١٤١) بتصرف يسير، وانظر: درء
تعارض العقل والنقل (١/ ١٣٣) وما بعدها، ففيها تحرير طويل ونفيس.

مظاهر الاعتصام بغير الله تعالى

الاعتصام بغير الله داء قاتل، وسُمُّ ناقع، يثلم الدين، ويهدم الإيمان، ويقطع الطريق بين العبد ورحمة ربه تعالى.

وقد يبتدىء الأمر بضعف يسير، ثم يزداد مع المدى حتى ينتهي إلى الخروج من ربقة الدين، فأصل الشرك التفاتُ القلب واعتصامه بغير الله تعالى، والتوحيد يعصف بالشرك ويقطع جذوره من القلب والجوارح، وعليه فتعزيز توحيد المعرفة والإثبات والقصد والطلب في القلب في الغاية من الأهمية، فهي المطلب الأسمى، والهدف الأشرف، والغاية الخالدة.

ولكل داء أعراض تشير إليه، وأسباب تدعو إليه، ولكل باطن مظاهر دالة عليه، ومن مظاهر الاعتصام بغير الله تعالى:

١- الجهل بالله تعالى:

فالجهل أبو الخبيات، وسرداب الضيعات، ودهليز الهلكات، لذلك كانت أول آية في القرآن هي: ﴿اقْرَأْ﴾ فالقرآن منبع العلم النافع الدافع للجهل، والرافع لآفاته.

وكثير من الخلائق قد أتوا من ركن جهلهم، فالعلم سلاح المؤمن، وأشرف العلوم بإطلاق هو العلم بالله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وآلائه وبما يستحق من الحمد والتقديس والتسبيح والذكر، ثم العلم بدينه وشرعه الذي ارتضاه صراطاً مستقيماً وطريقاً قويمًا للوصول إلى حبه ومرضاته وجنته.

٢. التعلق بالمخلوق:

لا بأس من معاملة الناس والإفادة منهم والانتفاع منهم شريطة أن يكون تعلق المضغة فقط بمن فطرها وسواها وقدّر لها سيرها ومرساها، فكل شيء هالك إلا وجهه، وكل جبل منقطع إلا من جهته، وكل شأن مضمحل إلا من قبّله، فبه ومنه وإليه تُرجع الأمور وتُتصرّفُ الأشياء سبحانه وبحمده.

ومتى تعلق المرء بمخلوق ناقص ضعيف فقير فإنّ فلا تسل عن خيئته وخساره من جهة مأموله ومطلوبه، أبت سنة الخلاق القدير الحكيم تعالى إلا أن يكون النقص بقدر خطأ وجهة التعلق.

فكلما تعلق القلب بربه تنزلت عليه المنح والألطاف، وانهمرت على دربه أسباب التوفيق والسعادة، وكلما ضعف تعلّقه انقطعت عنه الأسباب بحسبه، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً. ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] أي: تركهم ووكلمهم لأنفسهم.

عن عطاء الخراساني قال: لقيت وهب بن منبه وهو يطوف بالبيت فقلت له: حدثني حديثاً أحفظه عنك في مقامي هذا وأوجز، قال: نعم، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود: «يا داود؛ أما وعزّي وعظمتي لا يعتصم بي عبد من عبيدي دون خلقي، أعرف ذلك من نيته فتكيد السّموات السبع ومن فيهن والأرضون السبع ومن فيهن؛ إلا جعلت له من بينهن مخرجاً، أما وعزّي وعظمتي لا يعتصم عبد من عبيدي بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته؛ إلا قطعت أسباب السماء من يده، وأسخت الأرض من تحت قدميه، ثم لا أبالي بأي

وإِهِلِكَ» (١).

وتعلق القلب بالله مستلزم لإخلاص الدين له، ولا يكفي العلم بقدرته تعالى، بل لا بد من العمل بمقتضاها من تجريد الاعتصام والعبادة. قال الدهلوي رَحِمَهُ اللهُ: «إن الكفار في عهد الرسول ﷺ لم يكونوا يرون لله عديلاً يساويه في الألوهية والقدرة وفي الخلق، ولكنهم كانوا يعتقدون أن آلهتهم والأصنام التي كانوا يعبدونها هم وكلاؤهم عند الله، وبذلك كفروا. فمن أثبت في عصرنا هذا لمخلوقٍ التصرف في العالم، واعتقد أنه وكيله عند الله؛ ثبت عليه الشرك ولو لم يعدله بالله، ولم يثبت له قدرة تساوي قدرة الله» (٢).

ومن رام الوصول لمنح الكريم العلام فليزم عتبة الاعتصام. وإذا تَوَلَّاهُ امْرُؤٌ دُونَ الْوَرَى طُرًّا تَوَلَّاهُ الْعَظِيمُ الشَّانِ وبالاعتصام بالله والاعتماد عليه، وإنزال الحوائج به دون غيره، يبطل كيد الكائدين، ويندفع عدوان المعتدين، وشر الحاسدين، من الإنس والجن

(١) قال الإمام أحمد: حدثنا به هشام بن القاسم ثنا أبو سعيد المؤدب ثنا من سمع عطاء.. «تيسير العزيز الحميد (١/ ١٣٩) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٣١٨) بنحوه. وهو من أخبار وهب بن منبه رحمه الله تعالى، وقد كان من أخبار أهل الكتاب وأسلم وحسن إسلامه، وكثرت فوائده ومواعظه ووصاياه وأخباره. ولا بأس بالتحديث عنهم اعتباراً فيما لا يخالف شرعنا.

(٢) رسالة التوحيد، الدهلوي (١/ ٨٠).

والشياطين. وإذا ابتلي الإنسان بتعلق بغير الله فالواجب عليه الفرع إلى الله تعالى، والاعتصام والاستعاذة به، والتوبة والالتجاء إليه، ورجاؤه وحسن الظن به، والتوكل عليه، والتوجه إليه بقلبه وقلبه، وتفويض الأمور بحذاقها للطفه ورحمته وحكمته، فإن هذا هو السبب المنجي من الشرور، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣] وقال: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣] أي: كافيه.

٣. التهالك على الدنيا، وإيثارها على الآخرة:

حب الدنيا مغروز في نفوس البشر، لأجل سيرورة استخلافهم ليقوموا بمصالحهم، ويتابعوا معيشتهم وتناسلهم، لإقامة امتحان صلاحيتهم لقرب الله تعالى في جنته. ولا يلامون على حب الدنيا ابتداءً، فليس حبها بعيب ولا ذنب، ولكن يكون كذلك إذا طغى على حب الآخرة، أو زاحمها، أو ألهى عنها، أو قسى القلب لأجلها، فحينها يكون حباً مذموماً.

وقد نبهنا الله تعالى لذلك في سورة الزهد فقال: ﴿ أَلْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ ۗ ١ ﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۗ ٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۗ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۗ ٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۗ ٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۗ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۗ ٧ ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۗ ﴾ [سورة التكاثر] أي: «شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر، وصرتم من أهلها؟!»

قال الحسن البصري: ﴿أَلْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ «في الأموال والأولاد». وعن أبي بن كعب قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿أَلْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ يعني: «لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب».

وعن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: ﴿أَلْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟^(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله»^(٢).

وعن أنس أيضًا أن النبي ﷺ قال: «يهرم ابن آدم وتبقى منه اثنان: الحرص والأمل»^(٣).

ورأى الأحنف بن قيس في يد رجل درهما فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال الرجل: لي. فقال: إنها هو لك إذا أنفقتة في أجر، أو ابتغاء شكر. ثم أنشد الأحنف متمثلا قول الشاعر:

أنت لسهل إذا أمسكتَه فإذا أنفقتَه فالمال لك

(١) المسند (٢٤/٤) ومسلم (٢٩٥٨) وسنن الترمذي (٣٣٥٤) وسنن النسائي (٢٣٨/٦).

(٢) البخاري (٦٥١٤) وصحيح مسلم (٢٩٦٠).

(٣) البخاري (٦٤٢١) ومسلم (١٠٤٧).

وقال قتادة: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ۖ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ كانوا يقولون: نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعدُّ من بني فلان. وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم.

والمراد بقوله: ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي: صرتم إليها ودفنتم فيها، كما جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده، فقال: «لا بأس، طهور إن شاء الله». فقال: قلت: طهور؟! بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تُزيره القبور! قال: «فَنَعَم إِذَا» (١).

وعن ميمون بن مهران قال: كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز، فقرأ: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ۖ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فلبث هنيهة فقال: يا ميمون، ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بُدُّ من أن يرجع إلى منزله.

وقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿ قال الحسن البصري: هذا وعيد بعد وعيد. وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي: لو علمتم حق العلم، لما أهلكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة، حتى صرتم إلى المقابر.

ثم قال: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۖ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم، وهو قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿ تَوَعَّدَهُم بهذا الحال، وهي رؤية النار التي إذا زفرت زفرة خَرَّ كل ملك مقرب

(١) البخاري (٥٦٦٢، ٥٦٥٦، ٧٤٧٠).

ونبي مرسل على ركبته من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال، على ما جاء به الأثر المروي في ذلك.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (٨) أي: ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك. ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته.

وعن أبي هريرة قال: بينما أبو بكر وعمر جالسان، إذ جاءهما النبي ﷺ فقال: «ما أجلسكما هاهنا؟» قالا: والذي بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع. قال: «والذي بعثني بالحق ما أخرجني غيره» فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبي ﷺ: «أين فلان؟» فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء، فجاء صاحبهم يحمل قربته فقال: مرحباً، ما زار العباد شيء أفضل من شيء زارني اليوم.

فعلّق قربته بكرب نخلة، وانطلق فجاءهم بعدق، فقال النبي ﷺ: «ألا كنت اجتيت؟» فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم.

ثم أخذ الشفرة، فقال النبي ﷺ: «إياك والحلوب؟» فذبح لهم يومئذ، فأكلوا، فقال النبي ﷺ: «لتسألنّ عن هذا يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا، فهذا من النعيم»^(١).

وعن محمود بن الربيع قال: لما نزلت: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ فقرأ حتى بلغ:

(١) تفسير الطبري (١٨٥/٣٠) وبنحوه في صحيح مسلم (٢٠٣٨).

﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قالوا: يا رسول الله، عن أي نعيم تُسأل؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر، وسيوفنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم نسأل؟ قال: «أما إن ذلك سيكون»^(١).

وعن معاذ بن عبد الله بن حُبَيْب، عن أبيه، عن عمه قال: كنا في مجلس فطلع علينا النبي ﷺ وعلى رأسه أثر ماء، فقلنا: يا رسول الله، نراك طيب النفس. قال: «أجل». قال: ثم خاض الناس في ذكر الغنى، فقال رسول الله ﷺ: «لا بأس بالغنى لمن اتقى الله، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم»^(٢).

وعن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «إن أول ما يسأل عنه - يعني يوم القيامة - العبد من النعيم أن يقال له: ألم نُصِحِّحْ لك جسمك، وتُروكَ من الماء البارد؟»^(٣).

وقال سعيد بن جبير: حتى عن شربة عسل. وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا. وقال الحسن البصري: نعيم الغداء والعشاء، وقال أبو قلابة: من النعيم أكل العسل والسمن بالخبز النقي. وقول مجاهد هذا أشمل هذه الأقوال.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾

(١) المسند (٤٢٩/٥).

(٢) المسند (٣٧٢/٥) وسنن ابن ماجه (٢١٤١) وقال البوصيري في الزوائد (١٥٨/٢):

«هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

(٣) سنن الترمذي (٣٣٥٨) وصحيح ابن حبان (٧٣٢٠).

قال: النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار، يسأل الله العباد فيما استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»^(١). ومعنى هذا: أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه، فهو مغبون»^(٢).

٤ - ضعف اليقين:

اليقين: هو قوة الإيثار والثبات، حتى كأن الإنسان يرى بعينه ما أخبر الله به ورسوله من شدة يقينه، وعلى قدر اليقين يكون رسوخ الثقة في الموعد الإلهي، وما أجمله وأبهاه وأحلاه. ومن الخطوب ما لا يداويه سوى موعود الآخرة.

واليقين من أكبر أسباب الثبات عند الزعازع والنوازع والرزايا والبلايا، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون علينا مصائب الدنيا، اللهم

(١) البخاري (٦٤١٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٧٣ - ٤٧٧) مختصراً.

متعنا بأسهاعنا، وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا^(١)، واجعل
ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا
تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا^(٢).

وفي وصية رسول الهدى ﷺ الشهيرة لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «احفظ الله
يحفظك».. «فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل، وإن لم تستطع
فإن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا^(٣)».

واليقين صمام أمان للنجاة غدا، وفي حديث فتنة القبر: «وإن قال: أشهد أن

-
- (١) أي: اجعلنا وارثين لقوانا، فموت حين نموت ونحن بكامل صحتنا، ولا نفقد منها شيئا.
(٢) رواه الترمذي (٣٥٠٢) وقال: حديث حسن غريب.
(٣) الترمذي ضمن جامع الأصول في أحاديث الرسول (٩٣١٥) (١١ / ٦٨٥) من رواية
رزين، وتامه: عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال: «كنت رَدِيفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فقال
لي: «يا غلام، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تحمدهُ مُجَاهَكَ - أو قال: أَمَامَكَ - تَعْرِفَ إِلَى اللَّهِ
فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَةِ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، فَإِنَّ الْعِبَادَ
لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوا بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتَبْهُ اللَّهُ لَكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى
أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتَبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ، جَعَلَتِ الْأَقْلَامُ، وَطُوِيَتِ
الْصُحُفُ. فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ لِلَّهِ بِالرِّضَا فِي الْيَقِينِ فَافْعَلْ، وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنَّ فِي
الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا. وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكُرْبِ، وَأَنَّ
مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، وَلَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرَيْنِ». وبنحوه عند أحمد (٣٠٧ / ١) قال الشيخ عبد
القادر الأرناؤوط في تحقيقه جامع الأصول ١١ / ٦٨٥: «وهو حديث حسن بمجموع
طرقه، بعضه عند أحمد، وبعضه عند الترمذي، وبعضه عند غيره».

لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. قيل: على اليقين عشت وعليه مت، هذا مقعدك من الجنة»^(١).

واليقين خير مطلوب وأجمل مرغوب، فعن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قام على المنبر ثم بكى، فقال: قام رسولُ الله ﷺ عام أول على المنبر، ثم بكى، فقال: «سَلُوا اللهَ العَفْوَ والعَافِيَةَ، فَإِنْ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بعد اليقين خيراً من العافية»^(٢).

أما ضعف اليقين فسرابٌ خيية، وباب حيرة، وبحرٌ شك، وسحابة ضلال، فليعتن الناصح لنفسه بهذا الباب العظيم، فلليقين شأن ليس كغيره، فهو أساس الدين الذي ترفع عليه أركانه، ويقوم عليه بنيانه، وهو فرقان الإيـان عن النفاق، فالإيـان يقين والنفاق ريبة.

فكيف يعتصم من كان في قلبه قلق من حسن العاقبة للمعتصمين، أو شكٌ وريبة في حقائق الدين؟! إن ضعف اليقين سُمُّ للروح، وظلام للبصيرة، ودهليز للخذلان، وزلزال للإيـان، والموفق حقاً والسعيد صدقاً هو من اعتصم بيقينه بموعود ربه تبارك وتعالى. وقد خاب من ولد آدم من حمل شكاً!

٥. الجزع:

الجزع ضعف وفشل وانهازم، وهو معيب حتى في الجاهلية. كما قال أبو طالب: «لولا أن تُعيرني قُرَيْش، يقولون: إنما حملهُ على ذلك الجزعُ، لأقررتُ بها

(١) أخرجه أحمد (٦/٣٥٤).

(٢) أخرجه أحمد (١/٣) (٥) بسند صحيح.

عَيْنَاكَ»^(١). وقد عزز الإسلام قيمة العزم والحزم والقوة، قال خبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لقریش لما أرادوا قتله: «دعوني أصلي ركعتين، فتركوه، فركع ركعتين فقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت»^(٢).

والجزع علامة ومظهر على وَهْنِ حبل الاعتصام في قلب العبد، وانحسارِ حقائق الآخرة عن أطراف بصيرة الفؤاد، فالجزع دَهَشٌ يزعج سكينه الروح إلى اضطرابٍ وتشويشٍ وشتاتٍ، فيرميها من علياء يقينها وطمأنينة موارد علمها إلى صخرات طيش العقل، وانفلات زمام أمر اللبِّ الحكيم في مهامه الفشل والحسرات. وعليه؛ فالجزع رِداءٌ رديءٌ على أكتاف المؤمن، وجدريٌّ قبيحٌ على مُحْيَاً المعتصم بربه الواثق بمعيته. فعليه من فوره الوضوء بقاء التوبة، والتطهر بغسل الأوبة من الحوبة، والله يغفر ويعفو ويرحم ويكرم، وهل من خير إلا منه كرمًا وفضلًا، وهل من دافع شرٍّ إلا هو عزةً ورحمةً واقتدارًا.

فالمعتصم بالله حقيقة قوي حازم صابر، غير هيَّاب ولا جزوع ولا قنوط، ومن رأى في نفسه جزع فليراجع اعتصامه بمولاه فثَمَّ خلل هناك، والله المستعان.

٦. ضعف الصبر:

لما كان الصبر رأس الأعمال كان ضعفه مؤثرًا فيها ضرورة، وعلى قدر ضعف الصبر يكون الانحدار في الخذلان، وما نال العباد خير دنيا ولا آخرة إلا

(١) أخرجه أحمد (٤٣٤/٢).

(٢) البخاري ١٠٠/٥ (٣٩٨٩).

بركوبهم راحلة الصبر بإذن الله وتوفيقه.

والاعتصام بالله يمدّ الصبر بمادّته، فمن كان بالله مستعصماً كان من الصابرين.

٧- التردد وعدم الثبات:

فالمعتصم ثابت الخطى، راسخ المبدأ، واثق المسير، نافذ البصيرة، فعنده من العلم بالله ما يهديه سواء السبيل، ومعه من مدد الله ولطفه ما يحوطه بالتوفيق والثبات.

والعالم بربه شديد الاعتصام به ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكَتَابِ ﴾ [الأعراف: ١٧٠] أي يعتصمون به فقد حفظهم الله لحفظهم دينه وعملهم بعلمهم واستمسكهم بحبله.

فالاعتصام جدار يسند المؤمن ظهره إليه وعليه، فما حال من ضعف جداره أو سقط؟!؟

فاشدّد يدك بحبل الله معتصماً فإنه الركن إن خانتك أركان

٨- موالاة أعداء الله تعالى:

ذلك أن المعتصم بالله موال لله ولحزبه المؤمنين، فهو لله وبالله ومع الله وإلى الله، يدور مع أمر ربه ومراده ومحابه ومراضيه، يوالي أوليائه ويعادي أعداءه. والله تعالى يحفظه ويحوطه ويجرسه ويوفقه.

أما من اعتصم بغير مولاه فقد دخل عليه عدوه من أبواب كثيرة واسعة،

من أكبرها باب ترك الاعتصام بالله أو ضعفه، فكيف حال من وكله الله لنفسه القاصرة أو خلقه العاجزين، بينما أعداؤه قد أحاطت بقلبه وروحه إحاطة السوار بالمعصم؟! ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨] ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]. ويا خيبة المعتزين!



عوائق تحقيق الاعتصام

أمرٌ بهذه العظمة ليس بغريب على الشيطان أن يسعى دون تحصيل العبد له بكل جهده وحوله وطاقته، وأن يُجلب على حرمانه منه جميع خيله ورجله، وعلى هذا فلا بد للمؤمن أن يكون يقظاً متنبهاً بصيراً.

فتحقيق الاعتصام هو في حقيقته تحقيق للتوحيد الذي هو مقصد الخليقة، فاقدر له قدره يا صاح.

وما مضى من مظاهر ضعفه هي راجعة كذلك لموانع تحقيقه، واعلم أن من موانع تحقيقه كذلك:

١- الشرك بالله تعالى، ذلك أن التعلق بغير الله هو نوع تشريك به حتى وإن لم يوصل للشرك الأكبر.

٢- التعلق بالدنيا والتهالك عليها والعيش في سبيلها، والغفلة عما خلقنا لأجله، فنحن في الحقيقة من نسل الآخرة لا الدنيا.

ولكننا سبي العدو فهل ترى نرد إلى أوطاننا ونسلم

٣- الكفر، وأقله كفران النعم ونسيان مسديها.

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ

يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] «لا ينبغي لمن أشرقت في

قلبه شمسُ العرفان أن يوقع الكفر عليه ظلّه، فإنه إذا أقبل النهارُ من ها هنا

أدبر الليل من ها هنا.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ﴾ الآية؛ إنما يعتصم بالله مَنْ وَجَدَ العصمة من الله، فأما مَنْ لم يَهْدِهِ اللهُ فمتى يعتصم بالله؟ فالهدايةُ منه في البداية توجبُ اعتصامك في النهاية، لا الاعتصام منك يوجب الهداية.

وحقيقةُ الاعتصام صدق اللُّجوءِ إليه، ودوامُ الفرارِ إليه، واستصحاب الاستغاثةِ إليه^(١).

ويزيد الأمر عند الكافر خبثاً إن جمع إليه نفاق. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾^(١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيماً﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦].

«وإنما كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار لأنهم شرُّ أهلها بما جمعوا بين الكفر والنفاق ومخادعة الله والمؤمنين وغشهم، فأرواحهم أسفل الأرواح وأنفسهم أخس الأنفس، وأكثر الكفار قد أفسد فطرتهم التقليد، وغلب عليهم الجهل بحقيقة التوحيد، فهم مع إيمانهم بالله يشركون به غيره، باتخاذهم شفعاء عنده، ووسطاء بينهم وبينه، قياساً على معاملة ملوكهم المستبدين، وأمرائهم الظالمين، وهم لا يرضون لأنفسهم النفاق في الدين ومخادعة الله والمؤمنين، والإصرار على الكذب والغش، ومقابلة هذا بوجه وذاك بوجه.

(١) تفسير القشيري (١/ ٣٦٣).

فلما كان المنافقون أسفل الناس أرواحًا وعقولاً؛ كانوا أجدر الناس بالدرك الأسفل من النار، ولن تجد لهم نصيرًا ينقذهم من عذابها أو يرفعهم من الطبقة السفلى إلى ما فوقها، ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ فاستثنى الله تعالى من ذلك الجزاء الشديد الذي أعده للمنافقين من تابوا من النفاق والكفر بالندم على ما كان منهم مع تركه والعزم على عدم مقارفته، وعززوا هذه التوبة بثلاثة أمور:

أحدها: الإصلاح، وهو إنما يكون بالاجتهاد في أعمال الإيثار التي تغسل ما تلوثت به النفس من أعماق النفاق، كالنزام الصدق والنصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، والأمانة التامة، والوفاء، وإقامة الصلاة بالخشوع والحضور، ومراقبة الله تعالى وما أشبه ذلك.

ثانيها: الاعتصام بالله، وهو إنما يكون بالتمسك بكتابه، تخلفًا بأخلاقه وتأديبًا بآدابه، واعتبارًا بمواعظه، ورجاءً في وعده، وخوفًا من وعيده، وانتهاء عن منهيته، واثمارة بأوامره بحسب الاستطاعة، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرَهُنَّ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (١٧٤) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤ - ١٧٥] أي: اعتصموا بهذا النور الذي أنزل إليهم وهو القرآن المجيد، وهو حبل الله في الآية الأخرى.

ثالثها: إخلاص الدين لله عز وجل بأن يتوجه إليه وحده فلا يدعى من دونه أحد، ولا يدعى معه أحد، لا لكشف ضر ولا لجلب نفع، ولا يتخذ من

دونه أولياء يجعلون وسطاء عنده، بل يكون كل ما يتعلق بالدين والعبادة - وأعظمها وأهم أركانها الدعاء - خالصاً له وحده، لا تتوجه فيه النفس إلى غيره ولا يسأل اللسان سواه، ولا يستعان فيما وراء الأسباب العامة بين البشر بمن عداه ﴿يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هذا هو أهم ما يقال في إخلاص الدين لله.

قال تعالى في أول سورة الزمر: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥] فكان بيانه في تشييد صرح الوجدانية، وتقويض بناء الوثنية بياناً لم يعهد مثله في كماله وتأثيره في كتاب بشري ولا إلهي.

إلا أن إدراك هذه الحقيقة العليا والإحاطة بها، والعلم بما كان من ضروب الشبهات عليها، والأباطيل المتخللة فيها، وبما لها من التمكّن في نفوس الناس، وما يتوقف عليها من فنون البيان، بحسب سنة الله تعالى في تحويل الأمم من حال إلى حال، كل ذلك مما لا يعقل أن يتفق لرجل أُمّي لم يقرأ كتاباً في الدين ولا في العلم، ولا عاشر أحدًا عارفاً بهما، كيف، وقد كان ذلك فوق علوم الذين صرفوا كل حياتهم في الدرس والقراءة.

بل نقول: إن هذا البيان الأكمل لتقرير التوحيد واجتثاث جذور الوثنية، الذي جاء به القرآن وأشرنا إليه آنفاً - لم يكن قط معهوداً من الحكماء الربانيين، ولا من النبيين المرسلين، دع من دونهم من الأميين أو المتعلمين، لهذا تعين أن يكون الله تعالى هو المنزل لهذا النور المبين ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ

الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٢﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

فمن تأمل ما قلناه بإنصاف ظهر له به على اختصاره: أن محمداً النبي الأُمِّي ﷺ كان نفسه برهاناً من الله تعالى - أي حجة قطعية - على حقية دينه، وأن كتابه القرآن العربي أنزل من العلم الإلهي عليه، ولم يكن لعلمه الكسبي أن يأتي بمثله، وإنما أنزل نوراً مبيناً إلى جميع الناس، ليروا بتدبيره حقيقة دين الله الذي يسعدون به حياتهم الدنيا، وينالون به في الآخرة ما هو خير وأبقى، ولذلك قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ [النساء: ١٧٥].

والاعتصام: هو الأخذ والتمسك بما يعصم ويحفظ، مأخوذ من العصام، وهو: الحبل الذي تشد به القربة والإداوة لتحمل به، والأعصم: الوعل يعتصم في شعاف الجبال وقننها، فالذين يعتصمون بهذا القرآن يدخلهم الله تعالى في رحمة خاصة منه لا يدخل فيها سواهم، وفضل خاص لا يتفضل به على غيرهم. ويدل على هذا التخصيص تنكير الفضل والرحمة، ورحمة الله وفضله غير محصورين، ولكنه يختص من يشاء بما شاء من أنواعها، وقد فسرت الرحمة هنا بالجنة، والفضل بما يزيد الله به أهلها على ما يستحقون من الجزاء، كما قال في آية أخرى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣].

ويمكن أن يفسر بما هو أعم من نعيم الآخرة جزاء وزيادة، فيشمل ما يكون لأهل الاعتصام بالقرآن الذي هو حبل الله المتين من الخصوصية في

الدنيا، إذ يكونون رحمة للناس بعلومهم وأعمالهم وفضائلهم واجتماعهم
وتعاونهم وتراحمهم، يرحم الناس بالافتداء بهم والافتباس منهم»^(١).



(١) تفسير المنار (٥ / ٣٨٥ - ٣٨٧).

العصمة من فتنة الشهوات

قلب المؤمن المسافر لربه والدار الآخرة يعترضه سبعان ضاريان؛ سبع الغضب وسبع الشهوة، والسعيد من وقاه ربه غائلتهما، فهما غريزتان ضروريتان لبقاء الجنس الإنساني، فالشهوة لبقاء نوعه، إذ لو بردت أو بادت لم يسع إلى الجماع المؤدّي إلى التناسل والبقاء بإذن الله تعالى، فالآدمي بطبعه أنانيّ ذاتيّ مالم تُحرّكه رغبة خارجة، وكذلك شهوة الطعام والشراب واللباس والعمل والإنجاز والجاه ونحوها، فلو لم تكون تلك الخلال فيه لخيف عليه العطب والضيعة والخمود حتى الهلاك، لكنها محرّكة همته لمصالحه، وإنما العلم والإيمان مهذبان ناصحان.

أما غريزة الغضب فضرورية لبقائه كذلك، لأنه إن لم يغضب لم يدفع عن نفسه الأذى، كما قال الشافعي رحمه الله تعالى: «من استغضب فلم يغضب فهو حمار». فالغضب والشهوة سلاحان له، وغريزتان لصلاحه وبقائه، فعليه ألاّ يقلبهما سلاحان عليه، إن لم يخطمهما بشرع ربه الأعلى.

فالغضب يُلجِمُ بالحلم وتذكّر مآل كاظمي الغيظ، والشهوة تلجم بالإيمان وتذكّر من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، ومن حرّك قلبه عندهما بتدبر قوله ربه: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الفرقان: ١٥] أوشك أن يفلح بإذن الله تعالى.

فشهوات النفس الأمارة وغرائزها المستعصية يمكن كبحها بعلم رسوليّ

وعقل روحاني، يسير مع دنيا الناس بجسده، وهو في الملا الأعلى بروحه وهمته. وشهوات النفس كثيرة كشهوة الجاه والرئاسة والمال والولد، وأشدها النساء، فهن حبائل الشيطان ومصارع الرجال. فعند مسلم عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَنَظَرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النَّسَاءَ». زاد في رواية: «فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النَّسَاءِ»^(١) وعند الشيخين: «ما تركت بعدي فتنة هي أضمر على الرجال من النساء»^(٢).

وقد نبهنا الله تعالى لتلك الفتن بقوله الأعز: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ الآية [آل عمران: ١٤]، فقدم النساء على جميع الشهوات، فينبغي للمؤمن الاعتصام بالله، والرغبة إليه في النجاة من فتنتهن، والسلامة من شرهن، وفي الأثر: لما خلق الله المرأة فرح الشيطان فرحاً عظيماً، وقال: هذه حباتي التي لا يكاد يخطئني من نصبتها له^(٣).

والعاقل مراقب لنفسه حارس لقلبه، ومتى ألم بقدر معصية عاد لربه من باب الانكسار والحياء قائلاً: «إلهي؛ لم يكن مني ما كان عن استهانة بحقك، ولا جهلاً به، ولا إنكاراً لا اطلاعك، ولا استهانة بوعيدك، وإنما كان من غلبة الهوى وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعاً في مغفرتك، واتكالا على

(١) أخرجه مسلم (٤٧/٧).

(٢) البخاري ١١/٧ (٥٠٩٦) ومسلم ٨٩/٨ (٢٧٤٠) (٩٧).

(٣) ذكره العيني في عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٢٩/٢٢٩).

عفوك، وحسن ظن بك، ورجاء لكرمك، وطمعاً في سعة حلمك ورحمتك.
وغرني بك الغرور، والنفس الأمارة بالسوء، وسترك المرخى علي، وأعانني
جهلي، ولا سبيل إلى الاعتصام لي إلا بك، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك..
ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطف والتذلل والافتقار والاعتراف
بالعجز والإقرار بالعبودية.

فهذا من تمام التوبة، وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل، والله
يجب من عبده أن يتملق له^(١).

وفي الصحيح: «لا أحدٌ أحبُّ إليه العذر من الله»^(٢) وإن كان معنى ذلك
الإعذار كما قال في آخر الحديث: «من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين
ومنذرين» وقال تعالى: ﴿فَالْمُؤَقِنَاتِ ذِكْرًا ۝ عُدْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ٥ - ٦] فإنه
من تمام عدله وإحسانه أن أعذر إلى عباده، وأن لا يؤاخذ ظالمهم إلا بعد كمال
الإعذار وإقامة الحجة عليه، فهو أيضاً يجب من عبده أن يعتذر إليه ويتنصل إليه

(١) أي يظهر له ضعفه وعجزه وضراوته وافتقاره إليه في كل أحواله.

(٢) صحيح البخاري (٩ / ١٢٣) وصحيح مسلم (٢ / ١١٣٦) وتامه بلفظ البخاري:
«أتعجبون من غيرة سعد، فوالله لأنا أغير منه، والله أغير مني من أجل غيرة الله حرم
الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شخص أغير من الله، ولا شخص أحب إليه العذر
من الله، من أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين، ولا شخص أحب إليه
المدحة من الله، من أجل ذلك وعد الله الجنة».

من ذنبه. فهذا هو الاعتذار المحمود النافع»^(١).

والعفيف معتصم بحبل ربه، موعود بحسن العاقبة، فهو يحب العفيفين، فالعفة نقاء وطهارة ونظافة وسلامة وعافية، وتأمل عفاف الصديقة مريم حين قالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨] «أي إن كنت تخاف الله وتعمل بتقواه فاترك التعرض لي، فجمعت بين الاعتصام بربها وبين تخوفه وترهيبه وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية والشباب والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها، وهذا أبلغ ما يكون من العفة والبعد عن الشر وأسبابه.

وهذه العفة - خصوصاً مع اجتماع الدواعي وعدم المانع - من أفضل الأعمال، ولذلك أثنى الله عليها فقال: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] فأعاضها الله بعفتها ولدًا من آيات الله ورسولاً من رسله»^(٢).

وتأمل حال الصديق يوسف عليه السلام حينما اعتصم بمولاه من الفاحشة فعصمه ربه ووهب له خزان مصر ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ

(١) مدارج السالكين (١/ ١٨٣) بتصرف يسير.

(٢) تفسير السعدي (١/ ٤٩١).

وَأَلْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ [يوسف: ٢٤]. فمن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه في الدنيا والآخرة. ومن اعتصم بالله حفظه وهدى قلبه وأنار قلبه قال سبحانه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨] «أي متى اعتصمتم به تولاكم ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان، وهما العدوَّان اللذان لا يفارقان العبد، وعداوتها أضر من عداوة العدو الخارج، فالنصر على هذا العدو أهم والعبد إليه أحوج، وكمال النصر على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله.

والإيمان لا يقوم إلا بالاعتصام، والهلكة في الانخلاع من عصمة الله للعبد، فمتى عرف هذا الانخلاع وعظم خطره عنده اشتدت عليه مفارقتة، وعلم أن الهلك كل الهلك بعده، وهو حقيقة الخذلان. فما خلى الله بينه وبين الذنب إلا بعد أن خذله وخلى بينه وبين نفسه، ولو عصمه ووقفه لما وجد الذنب إليه سبيلاً.

فقد أجمع العارفون بالله على أن الخذلان أن يكلك الله إلى نفسك ويخلي بينك وبينها، والتوفيق ألا يكلك الله إلى نفسك.

وإن الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها والجهل بقدر من عصاه والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرهما، وفرحه بها غطى عليه ذلك كله، وفرحه بها أشد ضرراً عليه من موافقتها.

والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبداً، ولا يكمل بها فرحه، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به، ومتى خلى قلبه

من هذا الحزن واشتدت غبطته وسروره فليتَّهم إيمانه وليبك على موت قلبه، فإنه لو كان حيًّا لأحزنه ارتكابه للذنوب وغازبه وصعب عليه، ولا يحس القلب بذلك، فحيث لم يحس به فما لجرح بميت إيلام!«^(١)

وبالجملة فالعبد لا ينفك عن ضرورة اعتصامه بالله من الذنب بالحفظ والعصمة، وبعده بالتوفيق للتوبة وقبولها، والله المستعان.



(١) مدارج السالكين (١ / ١٨١) بتصرف.

عاقبة ترك الاعتصام أو ضعفه

قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]

وعليه فمن اعتصم بغيره فقد ضل وخسر وهلك!

فكيف يكون حال من خُذِلَ من بيده مقاليد الأمور، وتصاريف الأقدار، ومفاتيح الأرزاق، ونهايات الأشياء، ومن أمره تبتدئ الأحداث وإليه تصير الأمور؟!!

إنَّ ترك الاعتصام هو عنوان الخذلان التام، ومقرّ الخيبة الكاملة، ومستودع الندامة الكبرى. فيا مؤمن؛ اتق الله وبه اعتصم.

وعلى قدر نقص الاعتصام بالرحمن يكون العبد مستحقاً للحرمان، فاعتن بنفسك، وحاسب خطراتك، وفتش قلبك، واراع هواجسك، واحرس أفكارك، فلا تلتفت لغير الله الأجلّ، ولا تتعلق بسواه، ولا تأمل غيره، ولا تحش سواه، فما ثمّ إلا رحمة الله أو الهلكة!

ومن تأمل أحوال المتعلقين بغير الله تعالى يجد الخذلان مضطرباً في حياتهم، ولا جرم؛ فمن ولّى دبره لحبل الله فلا تسل عن خذلانه في أعماله، وتعاسته في معاشه، ووحشته في حياته الأشبه بالموات، وعدم التوفيق في مساعيه وأمانيه.

وإن كانت هذه عاقبة، إلا أنها مظهرٌ كذلك في الأغلب، والجزاء من جنس العمل، ومن أدار ظهر قلبه لمادّة التوفيق ومعدن الفلاح فلا يلو من إلا نفسه عند انكشافه لكل غاشية وكاسحة. وتأمل المعوزات وحال المؤمن معها، وسنبسط

الكلام في ذلك فيما يُستقبل بإذن الله في الكلام على الاستعاذة بالله تعالى.

إن من لم يكتف بمنبع الهدى الرباني - كتابًا وسنة - فهو ضال زائع حتى وإن تلبست له شبهاتُه زيوف الحقائق، قال ابن تيمية: «لا بد من الاعتصام بالكتاب والسنة في العلم والعمل، ولا يمكن أن أحدًا بعد الرسول ﷺ يعلم ما أخبر به الرسول من الغيب بنفسه بلا واسطة الرسول، ولا يستغني أحد في معرفة الغيب عما جاء به الرسول ﷺ».

وكلام الرسول مبيّن للحق بنفسه، ليس كشف أحد ولا قياسه معيارًا عليه، فما وافق كشف الإنسان وقياسه وافقه، وما لم يكن كذلك خالفه، بل ما يسمى كشفًا وقياسًا وهو مخالف للرسول فهذا قياس فاسد وخيال فاسد، وهو الذي يقال فيه: نعوذ بالله من قياس فلسفي وخيال صوفي!

والإنسان قد يُصنّف نفسه ويلقي الشيطان في نفسه أشياء، فإن لم يعتصم بالذكر المنزل وإلا اقترن به الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِبْضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقوله: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعْ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] (١).

وهذا الكلام التيميّ المتين حوى ردًا موجزًا متقنًا على طائفتين ضالّتين: الفلاسفة الإلهيين، والمتصوفة الكشفيين، فهم قد راموا كشف غيوب السماء بخيال تائه وذوق تالف، فأمر الغيب حجّر لا يعلمها إلا الله وحده، ثم من

(١) الرد على المنطقيين (١/٥١٢).

شاء الله من كشفه له عبر الوحي، وعليه؛ فمن رام العلم النافع، والكشف المفيد، والخبر المبارك، والبصيرة النافذة فليعتصم بالوحي المنزل، ففيه الغنى كل الغنى، والكفاية التامة لكل ما يحتاجه العقل وترنو إليه الروح، أما من طلب ذلك من غير هذا الباب فهو يجمع جهلاً إلى جهل، ورُبَّ علمٍ الجهل خير منه، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

فلا مندوحة للمؤمن عن متابعة الوحي مهما كان وارد القلب: «..وحيثئذ سيكون حفظ الوحي بمتابعة الكتاب والسنة، ولا ريب أن السنة كما كان الزهري يذكر عمن مضى من سلف المؤمنين قال: كان من مضى من علمائنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة. وقال مالك: السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق.

وإن قُدِّرَ أن المُحدِّثَ ممن قبلنا كان ينسخ ما يلقيه الشيطان فيما يلقي إليه من غير استدلال بالنبوة؛ فيكون من كان قبلنا كانوا مأمورين باتباع المُحدِّث مطلقاً لعصمة الله إياه، ونحن لم نُؤمر بذلك.

وسبب ذلك أن من كان قبلنا لم تكن يكفيهم نبوة واحدة، بل كانوا يأخذون بعض الدين عن هذا النبي وبعضه عن هذا النبي بتصديق الآخر له، كما كان أنبياء بني إسرائيل مأمورين باتباع التوراة، وكما أن المسيح أحلَّ لهم بعض ما حرم عليهم وأحالهم في أكثر الأحكام على التوراة.

وأما نبوة محمد ﷺ فهي كافية لأمته كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِيَّاكَ فِي ذَٰلِكَ لَرْحَمَةٌ وَاذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ ﴿ [العنكبوت: ٥١] » (١).

فمعيار قبول العمل ثلاثة أمور: الإيثار والإخلاص والاتباع، فلا يقبل عمل كافر ولا مشرك ولا متعبد بغير ما شرع، «والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد، ولها أصولان: أحدهما: ألا يعبد الا الله، والثاني: ألا يعبده إلا بما أمر وشرع، لا يعبد بغير ذلك من الأهواء والظنون والبدع قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] وقال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]» (٢).

«ومعلوم إن كل من سلك إلى الله جل وعز علماً وعملاً بطريق ليست مشروعة موافقة للكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة وأئمتها فلا بد أن يقع في بدعة قولية أو عملية، فإن السائر إذا سار على غير الطريق المهيج فلا بد أن يسلك بُنيات الطريق، وإن كان ما يفعله الرجل من ذلك قد يكون مجتهداً فيه مخطئاً مغفوراً له خطؤه، وقد يكون ذنباً، وقد يكون فسقاً، وقد يكون كفرًا. بخلاف الطريقة المشروعة في العلم والعمل فإنها أقوم الطرق ليس فيها عوج

(١) الصفدية (١/ ٢٥٧).

(٢) العبودية (١/ ٧١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]»^(١).

وبعض الناس قد يُبتلى بمكاشفات وتأثيرات استدراجاً له لا رضا بحاله، ومعيار ذلك تقيده بالسنة، وقد تكون رحمة له وترغيباً إن ردّته للسنة، وثبتت فيه قواعد الإيمان للدوران مع وحي الله تعالى ومراده.

فرسول الله صلى الله عليه وسلم هو أعلم الناس وأتقاهم وأزكاهم وأنصحهم وأفصحهم، وقد جاء بالنور المبين، ووضح الله به الطريق المستقيم، «إن رسول الله ﷺ أعلم الخلق بطريق الله، وأنصح الخلق لعباد الله، وأفضل الخلق وأطوعهم له، وأتبعهم لسنته.

والأحوال التي تحصل عن أعمال فيها مخالفة للسنة أحوال غير محمودة، وإن كان فيها مكاشفات وتأثيرات، فمن كان خبيراً بهذا الباب علم أن الأحوال الحاصلة عن عبادات غير مشروعة كالأموال المكسوبة بطريق غير شرعي، والملك الحاصل بطريق غير شرعي. فإن لم يتدارك الله عبده بتوبة، يتبع بها الطريق الشرعية، وإلا كانت تلك الأمور سبباً لضرر يحصل له، ثم قد يكون مجتهداً مخطئاً مغفوراً له خطؤه، وقد يكون مذنباً ذنباً مغفوراً لحسنات ماحية، وقد يكون مبتلى بمصائب تكفر عنه، وقد يعاقب بسلب تلك الأحوال، وإذا أصر على ترك ما أمر به من السنة، وفعل ما نهي عنه، فقد يعاقب بسلب فعل الواجبات، حتى قد يصير فاسقاً أو داعياً إلى بدعة.

(١) العقيدة الأصفهانية (١/١٦٦).

وإن أصر على الكبائر، فقد يُخاف عليه أن يُسلب الإيمان، فإن البدع لا تزال تخرج الإنسان من صغير إلى كبير، حتى تخرجه إلى الإلحاد والزندقة، كما وقع هذا لغير واحد ممن كان لهم أحوال من المكاشفات والتأثيرات، وقد عرفنا من هذا ما ليس هذا موضع ذكره»^(١).

فالمؤمن معتصم بربه تعالى في كل أحواله، مستمسك بحبل شريعته، لا تزيف به الأهواء، قد وثق بالعلم الشرعي واكتفى به، وسلك به طريقه إلى ربه تبارك وتعالى، وأطر نفسه على لزوم جادة سيد المرسلين ﷺ.

تلك سنة المرسلين وأتباعهم لا يزيغ عنها إلا هالك، وكم وقعت طرائد بني آدم في حبائل الرجيم بتعليقهم بغير ربهم سبحانه، «وأما الحنفاء أهل ملة إبراهيم الخليل الذي جعله الله إمامًا، وأهل دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد دينًا غيره، المتبعون لشريعة خاتم الرسل محمد ﷺ فهو لاء ليس فيهم من يرغب في ذلك ولا يدعو إليه.

وهؤلاء هم أهل القرآن والإيمان والهدى والسعد والرشاد والنور والفلاح وأهل المعرفة والعلم واليقين والإخلاص والمحبة له والتوكل عليه والخشية له والإنابة إليه.. فإن القيام بحقائق الدين علمًا وحالًا وقولًا وعملاً ومعرفة وذوقًا وخبرة لا يستقل بها أكثر الناس، ولكن الدليل الجامع هو الاعتصام بالكتاب والسنة؛ فإن الله بعث محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدًا.

(١) الفتاوى الكبرى (٢/١٤١).

وقد قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وقد قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] فقد رضي الله عن السابقين رضا مطلقاً، ورضي عن اتبعهم بإحسان.

قال عبد الله بن مسعود: إن الله نظر في قلب محمد فوجد قلبه خير قلوب العباد فاصطفاه لرسالته، ثم نظر في قلوب الناس بعد قلبه فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فما رآه المؤمنون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوه قبيحاً فهو عند الله قبيح. وقال عبد الله بن مسعود: من كان منكم مستنّاً فليستنّ بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم^(١). فيا من عرفت وعلمت؛ الزم غرر الاعتصام بالرحمن، وافرح دوماً بالملك العلام.



(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٧٢ - ٥٧٤).

ليس من شرط الولاية العصمة من الخطأ

المؤمن يعتصم بالله تعالى ويبذل وسعه وجهده وطاقته في الاعتصام بدينه علماً وعملاً، فإن نَقَصَ علمه أو عمله لقصور أو تقصير فهذا حتم القضاء وسنة النقص على أهيل الدنيا والابتلاء لأهل العبودية.

وليس في هذا تبرير للمعصية، ولا إيهان للخطيئة، بل كل إنسان مسؤول عن علمه وعمله، وما استفرخ فيه عمره إلى منتهى أجله، فربُّه قد بين المحجة وأقام الحجة بإنزال الكتاب وإرسال الرسول وبسط القوى وتحريك الإرادة، وأمدّه بعلم الشرع والفطرة والعقل والملائكة، وابتلاه بالنفس الأمارة والشيطان الموسوس والدنيا الفاتنة، وكلُّ يردُّ يوم البعث على ما قدّم، إن خيراً فخير وليحمد الله، وإن شراً فلا يلو من إلا نفسه.

وبالجملة؛ فكل بني آدم خطاء، ولكن للمؤمن باب عظيم يرجع منه إلى رحمة ربه وعفوه وغفرانه ورضاه، وهو باب التوبة، فالله تواب يحب التوابين، وعلى قدر المعصية كما وكيفاً وإصراراً وحالاً يكون نقص ولاية العبد، وعلى قدر تكميل التوبة والعمل الصالح يكون تحصيل الولاية.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوماً لا يغلط ولا يخطئ؛ بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة، ويجوز أن تشتهه عليه بعض أمور الدين حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ومما نهى الله عنه، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى وتكون من الشيطان لبسها عليه لنقص درجته ولا يعرف أنها من الشيطان، وإن

لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى؛ فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه فقال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ؕ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لِطَاقَةِ لَنَا بِهِ ؕ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿البقرة: ٢٨٥-٢٨٦﴾ وقد ثبت في الصحيحين أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء وقال: «قد فعلت».

ففي صحيح مسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْفُرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها قبل ذلك شيء أشد منه، فقال النبي ﷺ: «قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا» قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال الله: «قد فعلت» ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال: «قد فعلت» ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ؕ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: «قد فعلت» (١).

(١) مسلم (٨١/١).

وقد قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ، وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]. وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعاً أنه قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر»^(١). فلم يؤثم المجتهد المخطئ؛ بل جعل له أجراً على اجتهاده، وجعل خطأه مغفوراً له، ولكن المجتهد المصيب له أجران فهو أفضل منه.

ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط لم يجب على الناس الإيثار بجميع ما يقوله من هو ولي الله لئلا يكون نبياً؛ بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يُلقى إليه في قلبه إلا أن يكون موافقاً للشرع، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاماً ومحادثة وخطاباً من الحق؛ بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ، فإن وافقه قبله وإن خالفه لم يقبله، وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف توقف فيه.

والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف طرفان ووسط: فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي الله وافقه في كل ما يظن أنه حدث به قلبه عن ربه، وسلم إليه جميع ما يفعله، ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع أخرجه عن ولاية الله بالكلية وإن كان مجتهداً مخطئاً، وخيار الأمور أوساطها وهو ألا يُجعل معصوماً ولا مأثوماً إذا كان مجتهداً مخطئاً، فلا يُتبع في كل ما يقوله، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده.

والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله، وأما إذا خالف قول

(١) البخاري ١٣٢/٩ (٧٣٥٢) ومسلم ١٣١/٥ (١٧١٦).

بعض الفقهاء ووافق قول آخرين لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ويقول هذا خالف الشرع. وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «قد كان في الأمم قبلكم مُحدِّثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر منهم»^(١) وكان علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر». ثبت هذا عنه من رواية الشعبي. وقال ابن عمر: «ما كان عمر يقول في شيء: إني لأراه كذا؛ إلا كان كما يقول». وعن قيس بن طارق قال: «كنا نتحدث أن عمر ينطق على لسانه مَلَك».

وكان عمر يقول: «اقتربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون، فإنه تتجلى لهم أمور صادقة».

وهذه الأمور الصادقة التي أخبر بها عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنها تتجلى للمطيعين هي الأمور التي يكشفها الله عز وجل لهم. فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات؛ فأفضل هؤلاء في هذه الأمة بعد أبي بكر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فإن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر.

وقد ثبت في الصحيح تعيين عمر بأنه محدِّثٌ في هذه الأمة، فأبي محدِّثٌ ومُخاطبٌ فرض في أمة محمد ﷺ فعمر أفضل منه، ومع هذا فكان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يفعل ما هو الواجب عليه فيعرض ما يقع له على ما جاء به الرسول ﷺ، فتارة يوافقه فيكون ذلك من فضائل عمر كما نزل القرآن بموافقته غير مرة، وتارة يخالفه فيرجع عمر عن ذلك كما رجع يوم الحديبية لما كان قد رأى محاربة

(١) مسلم (١١٥/٧).

المشركين، والحديث معروف في البخاري وغيره؛ فإن النبي ﷺ قد اعتمر سنة ست من الهجرة ومعه المسلمون نحو ألف وأربعمئة وهم الذين بايعوه تحت الشجرة، وكان قد صالح المشركين بعد مراجعة جرت بينه وبينهم على أن يرجع في ذلك العام ويعتمر من العام القابل، وشرط لهم شروطاً فيها نوع غضاضة على المسلمين في الظاهر، فشق ذلك على كثير من المسلمين، وكان الله ورسوله أعلم وأحكم بما في ذلك من المصلحة، وكان عمر فيمن كره ذلك حتى قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم: يا رسول الله، ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى» قال أفليس قتلانا في الجنة وقتلهم في النار؟ قال: «بلى» قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟! فقال له النبي ﷺ: «إني رسول الله، وهو نصري، ولست أعصيه». ثم قال: أفلم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى»، قال: «أقلت لك أنك تأتيه العام؟» قال: لا، قال: «إنك آتية ومطوف به» فذهب عمر إلى أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فقال له مثل ما قال النبي ﷺ وردّ عليه أبو بكر مثل جواب النبي ﷺ، ولم يكن أبو بكر يسمع جواب النبي ﷺ، فكان أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أكمل موافقة لله وللنبي ﷺ من عمر، وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رجع عن ذلك وقال: «فعملتُ لذلك أعمالاً»^(١).

وكذلك لما مات النبي ﷺ أنكر عمر موته أولاً، فلما قال أبو بكر: إنه مات، رجع عمر عن ذلك.

(١) أحمد (٤/٣٢٣، ٣٢٨) والبخاري (٣/١١) ومراده: أعمالاً يكفر الله تعالى بها صنيعي الذي ندمت عليه، وهذا من فقهه ودينه وورعه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وكذلك في قتال مانعي الزكاة قال عمر لأبي بكر: كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»^(١) فقال له أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ألم يقل: «إلا بحقها» فإن الزكاة من حقها، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعلمت أنه الحق.

ولهذا نظائر تبين تقدم أبي بكر على عمر مع أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُحَدَّثٌ؛ فإن مرتبة الصديق فوق مرتبة المحدث، لأن الصديق يتلقى عن الرسول المعصوم كل ما يقوله ويفعله، والمحدث يأخذ عن قلبه أشياء، وقلبه ليس بمعصوم فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي ﷺ.

ولهذا كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشاور الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ويناظرهم، ويرجع إليهم في بعض الأمور، وينازعونه في أشياء، فيحتج عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة، ويقررهم على منازعته ولا يقول لهم: أنا محدث ملهم مخاطب فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني.

فأيُّ أحدٍ ادعى أو ادعى له أصحابه أنه ولي لله وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله ولا يعارضوه ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة فهو وهم مخطئون، ومثل هذا من أضل الناس. فعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفضل منه وهو أمير المؤمنين وكان المسلمون ينازعونه فيما

(١) مسلم ١٢١/٧ (٢٤٠٥).

يقوله، وهو وهم على الكتاب والسنة، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ.

وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم، فإن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل، وتجب طاعتهم فيما يأمرون به؛ بخلاف الأولياء فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به؛ بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة، فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله وما خالف الكتاب والسنة كان مردوداً، وإن كان صاحبه من أولياء الله وكان مجتهداً معذوراً فيما قاله، له أجر على اجتهاده، لكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئاً وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وهذا تفسير قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قال ابن مسعود وغيره: «حق تقاته: أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر». أي بحسب استطاعتكم، فإن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢] وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢] (١).

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (١/ ٣٦ - ٤٠) باختصار يسير.

وقال العلامة الشيخ محمد رشيد رضا^(١) في تفسيره المنار عند قول الله تعالى:

(١) نشرت مقالاً في صحيفة الاقتصادية عن الشيخ محمد بعنوان: «الإمام محمد رشيد رضا..

فتى القلمون، والهَمُّ الإصلاحي».

وفيه: خلق الله تبارك وتعالى بني الإنسان بتمايز في القدرات العقلية والجسدية، وفاوت بينهم في المنح والأرزاق العلمية والإيمانية والمادية، وفرّقهم في أضيابير الأزمنة والأمكنة على امتداد التاريخ الإنساني السحيق، وحسابهم غداً على قدر النعمة.

من أولئك الأفضاذ النوادر رجل بحجم هَمِّ أمة كاملة، يقلقه وجع مسلمٍ في أقصى المشرق، ويفرحه سرور آخر على شاطئ الأطلنطي، ويقَلِّلهُ جهل فتام من أمته بحقائق الديانة، ويكيه بكاءً أرملة، ويشجيه دمعٌ يميم.

نظر إلى حال أمته في ذلك الزمان العصيب، وقد خيم عليهم الجهل، وثار بينهم العصبية والقوميات، واندرس وشي الإسلام أو كاد، واتخذت البدع سنناً وسنناً، وانقلب المنكرُ معروفاً، وتداعت أمم الكفر على الأمة كما تداعى الأكلة على قصعتها، وألقي الوهن على قادتها ساسةً وعلماء.. فصرخ بلسان حاله: أن للأمة النهوض، بل الوثوب.

ولم يكتف بتسطير الأحلام والأمانى، بل شدّ صلبه، ووجهَ همته وكفاحه، لتحقيق ما استطاع من ذلك الهَمِّ السامي.. همّ الإصلاح الحقيقي للأمة، والنهوض بكل متطلبات حضارتها، في الإيمان والعلم الشرعي والتجريبي، والوعي السياسي، والإصلاح الاجتماعي والصناعي والزراعي وكل ما يلزم من مفاتيح التقدم ديناً ودنيا.. أما كيف ذلك؟ وما هي نسبة تحقق مراده؟ لنرى:

ولد الإمام محمد رشيد رضا يوم ٢٧ / ٥ / ١٢٨٢ هـ في بلدة القلمون الشامية، ونشأ في بيت علم وفضيلة، وحفظ القرآن في صباه، وألحقه أبوه بالمدرسة الوطنية

الإسلامية في طرابلس، وقرأ على علماء طرابلس فنون العلم.. وكان المنعطف المهتم في وجهته الدعوية حينما قرأ عدد من مجلة العروة الوثقى، إذ اتفق أنه قرأها أثناء تقلبيه لأوراق والده. وهذه المجلة كان يحررها الشيخ محمد عبده، فبحث عن أعدادها الأخرى فقرأها بنهم، وقد تكوّنت لديه رؤية واسعة لما قد يستطيعه الداعية إلى الله إن وفقه الله للعلم والعمل والدعوة والصبر والحكمة.

فابتدأ مشروعه الكبير من قرينته القلمون، فوعظ ودرّس وعلم الناس حتى ظهرت ثمار دعوته في بلده وما حولها - ومن المفارقة أن دار الزمان حتى أصدر فيما بعد مجلة فيقرأ أحد أعدادها شابّ ألباني فتكون من أسباب توجّهه للحديث، فيتضلع منه حتى يصبح محدّث الدنيا في وقته ذلك هو الإمام الألباني..

ثم أزمع الهجرة لمصر لأمرين: أحدهما: لقاء أستاذه الشيخ محمد عبده، والقرب منه والإفادة من تجاربه وعلمه وتوجيهه، وكان قد التقاه مرتين في طرابلس إبان زيارة الشيخ للشام.

والثاني: البحث عن محضن حرّ لمشروعه الفكري الإعلامي النهضوي عبر إنشاء صحيفة قويّة البناء، صحيحة العلم، سليمة المنهج، صادقة الطرح، وقد كانت مصر خير من يمثل القالب لتحقيق ذلك الحلم لذلك الشاب الطموح. وفي هذا ملمح لأهل الإصلاح ألا يقبّعوا في مكان إن كان غيره أولى، وقد كانت مجلة العروة الوثقى بباريسية الصدور، فلم يضرها ذلك، كما حال مجلة البيان اللندنية الآن.

وصل القاهرة في رجب عام ١٣١٥ والتقى في اليوم الثاني شيخه وأستاذه محمد عبده، ومن هناك وضع لبنة مشروعه العظيم، فاستشار شيخه بعد مدة في إصدار مجلة أسبوعية تكون منبراً للإصلاح فوافق شيخه، وكان ذا حظوة عنده، وأهداه كتابي التوحيد وكشف الشبهات للإمام المجدد، فأثنى عليهما وعلى صاحبهما وأيدّهما - رحمهم الله - جميعاً، وكان مما قال أستاذه له على عصرانته: إنه لم تُظلم حركة إصلاحية =

قط كما ظلمت هذه الحركة الصافية.

ثم اختارا اسماً للمجلة هو المنار، تيمناً بحديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند الحاكم وغيره بسند صحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِلْإِسْلَامِ صُورِيَّ وَمَنَارًا كَمَنَارِ الطَّرِيقِ». وصدر العدد الأول في ١٠ / ١٣١٥؛ أي بعد ثلاثة أشهر من وصول الشيخ لمصر، وكان حينها في الثالثة والثلاثين من عمره. وتأمل انتقاد المهمة ومضاء العزم. فكان هو المحرّر لأكثر مقالاتها على تنوعها، مع استكنابه لقامات كبار كتّاب عصره. وهذا يذكرنا بمجلة العرب وصاحبها العلامة حمد الجاسر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كذلك الرسالة للزيات - وقد كان الشيخ محمد سيّال العلم والبيان.

ومع صدور العدد الثاني صودر في الشام من قبل الدولة العثمانية لمقالة فيها بعنوان: القول الفصل في سعادة الأمة. وتلا ذلك اضطهاد والد الشيخ وإخوته ومصادرة أملاكهم في القلمون، ولم يستطع زيارتهم إلا بعد أحد عشر عامًا.

وكتب الله تعالى القبول لهذه المجلة، فسارت في الناس مسير الشمس، وتلقفوها مستبشرين بما فيها من تحقيق وتحرير وغيره وصدق ونصح. مع ذلك فقد كانت متنوّعة المواضيع، إلا أن جامعها الرصانة والاستقامة. وهي أعظم آثار الشيخ، وقد استمرت من سنة ١٣١٦ إلى سنة ١٣٥٤ واستغرقت ثلاثة وثلاثين مجلدًا، ضمت ١٦٠,٠٠٠ صفحة. لم يكتف الشيخ بالتوجيه من خلف الأوراق، بل نزل بنفسه ميدان التربية والتعليم، وأسس دار الدعوة والإرشاد لتخريج الدعاة المؤصلين على منهج السلف الصالح ونشرهم في أقطار المسلمين. فافتتحها عام ١٣٣٠هـ لكن ضيق ذات يده حال دون استمرارها.

كان حريصًا على وحدة المسلمين واتحادهم ضد عدوهم، فأيد بعض الزعماء العرب محرّصًا لهم على خدمة الإسلام، ثم سحب تأييده لهم عندما تحولوا عن ذلك، وأخيرًا وجد ضالته المنشودة في الملك عبد العزيز باستقامته وصدقه والتزامه الكتاب

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]: هذه الولاية الخيالية المبتدعة من محدثات الصوفية، ألبسوها أولاً ثوب الشريعة وجعلوا للشريعة مقابلاً سموه الحقيقة، ثم صاروا يلبسونها عليها لبساً، ويعدون بها عنها معنىً وحسناً بقدر ما يبعدون عن الاتباع، ويوغلون في الابتداع.

واعتبر في ذلك بسيرة سلفهم الأولين كالحارث المحاسبي والسري السقطي ومنصور بن عمار والجنيد والشبلي وجمهور رجال رسالة القشيري، ومثل أبي إسماعيل الهروي وسيرة من بعدهم، فإن أكثر أولئك قدر وروا الحديث وتفقهوا في الدين، وكانوا يتحرون الاعتصام بالكتاب والسنة، ويحذرون ويحذرون أتباعهم من البدع، ويحثون على اتباع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة آل البيت وحفاظ السنة وعلماء الأمصار كالأربعة وطبقتهم، ولولا هذا لكان بينهم وبين غلاة متصوفة القرون الوسطى ومن بعدهم من المبتدعة والدجالين أصحاب الدعاوى العريضة والخرافات الشنيعة مثل ما بين صوفية البرهمية والإسلام، وكتابهم (الفيدا) وكتابه القرآن.

أمرر ببصرك على طبقات الشعراي الكبرى، فإنك لا ترى فيها فرقاً كبيراً

والسنة، ولم يترك الأمر للدعايات المضللة دونه، بل قابله وناقشه وبحثه، مما أثمر تأييده والدفاع عن منهجه، وظل وفياً حتى اللحظة الأخيرة.
تميز رَحْمَةُ اللَّهِ بثلاثة أمور: موسوعية العلم، واتقاد الغيرة على الدين، والشجاعة الأدبية.

توفي رَحْمَةُ اللَّهِ في مصر يوم الخميس ٢٣ / ٥ / ١٣٥٤ هـ، وكانت آخر عبارة قالها في تفسيره: «فنسأله تعالى أن يجعل لنا خير حظ منه بالموت على الإسلام».

بين سيرة أئمة الحديث والفقهاء وأئمة التصوف في العبادة والتقوى والعلم والحكمة، ثم انظر في سيرة من بعدهم من صوفية القرون الوسطى ثم قرن المؤلف وهو العاشر، وتأمل ووازن ترّ في أولياء الشعراي المجانين والمُجَّان والقذرين الذين تتناثر الحشرات من رءوسهم ولحاهم وثيابهم التي لا يغسلونها حتى تبلى، أو في السنة مرة واحدة، تجد ذلك البون الشاسع فيهم، وهم مع ذلك يفضلون أنفسهم على الأنبياء، ومنهم من يدعي الاتحاد بالله أو الألوهية!

تأمل ما كتبه في ترجمة الذين يسمونهم الأقطاب الأربعة، فإنك لا تجد فيه لأحد منهم أنه كان ينفع الناس بعلوم الشرع إلا الشيخ عبد القادر الجيلاني، وتجد أن الشيخ أحمد الرفاعي كان يوبخه علماء عصره، ويخاطبونه بلقب الدجال ويرمونه بالجمع بين النساء والرجال، وأما الدسوقي فكتب عنه أنه كان يتكلم بالعجمي والسرياني والعبراني والزنجي وسائر لغات الطيور والوحوش، ونقل عنه كتابًا من هذه اللغات أرسله إلى أحد مريديه، وهو خلط مخترع ليس منها في شيء.. وقال عن أحدهم: ويزعم الشعراي أن هذا الولي الشيطاني نفسه قد خطب خطبة الجمعة يومئذ في ثلاثين مسجدًا من مساجد القطر المصري، بناء على قاعدتهم أن الولي قد يتمثل بالصور الكثيرة في الأمكنة المختلفة، كالشياطين والملائكة، وهم لا يفرقون بينهما.

ومثله ذلك الولي الذي كان يعارض القرآن بالهذيان، والولي الذي كان يسكن في ماخور المومسات ليشفع لكل من يأتيهن عند الله ويمسكه عندهن إلى أن يخبره كشفه الشيطاني بقبول شفاعته فيه ومغفرة الله له، وكان من كراماته

إتيان الأتان!

فهذا الكفر والشرك والإلحاد ومعارضة القرآن، واجتراح كبائر الفسوق والعصيان، كله عنده وعند أمثاله من كرامات أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ويطيع أمرهم رضوان خازن الجنان، ومالك خازن النار، كما نقله الشعراي عن الدسوقي.

وجملة القول إنهم يتصرفون في أمور الدنيا والآخرة أحياء وأمواتاً، وقد رسخت هذه الخرافات في قلوب الملايين من مسلمي مصر وأمثالها من الأقطار، فهم يعتمدون على هؤلاء الأولياء في أمور دنياهم وآخرتهم.

وإنك لتجد أكثرهم يحتج على ذلك بالآية الكريمة: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] وبقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٣٤] فهم يزعمون أنه لهؤلاء الأولياء الخياليين، وأن الله تعالى يعطيهم كل ما أرادوا لأنفسهم ولغيرهم في الدنيا والآخرة، كما يزعم الذين يقولون إن منهم أقطاباً متصرفين (أو مدركين) بالكون كله، وهذا افتراء على الله وتحريف لكتابه العزيز بما هو شرك به سبحانه، وإنما وردت هذه الجملة في عدة سور في جزاء أهل الجنة في الجنة، لا في أولياء الخيال الخرافي المزعوم، راجع سورة النحل (١٦): ٣٠-٣٢) وسورة الفرقان (٢٥: ١٥، ١٦) وسورة الزمر (٣٩: ٣٣، ٣٤) وسورة الشورى (٤٢: ٢٢) وسورة ق (٥٠: ٣١-٣٥).

وجملة القول: إن جميع هذه الفتن المضلة لكثير من الناس عن الاعتصام بكتاب الله تعالى وسنة رسوله المبينة له على النهج الذي اهتدى به سلف هذه

الأمة الصالح لا يقوم لشيء منها حجة عقلية ظاهرة ولا كشفية باطنة، ولو صح أنها من الإسلام لكان ما جاء الرسول ناقصاً ثم كمل بها»^(١).

وقال شيخ الإسلام: «والذين يسجدون للشمس والقمر والكواكب ويدعونها تنزل عليهم أرواح من الجن، وتقضي لهم كثيراً من حوائجهم، ويسمونها روحانية ذلك الكوكب وهو شيطان، ومن الشياطين من يطير بصاحبه من الإنس في الهواء ويضعه على رأس السنّان، ويدخل به النار فيمنعه حرّها. فالسعادة والنجاة في الاعتصام بالكتاب والسنة واتباع ما شرع كما شرع. والدعاء من أجل العبادات، فينبغي للإنسان أن يلزم الأدعية المشروعة فإنها معصومة، كما يتحرى في سائر عباداته الصورة المشروعة، فإن هذا هو الصراط المستقيم والله تعالى يوفقنا وسائر إخواننا المؤمنين.

وليحذر العبد مسالك أهل الظلم والجهل الذين يرون أنهم يسلكون مسالك العلماء، تسمع من أحدهم جَعَجَعَةً ولا ترى طِحْنًا، فيرى أحدهم أنه في أعلى درجات العلم وهو إنما يعلم ظاهراً من الحياة الدنيا»^(٢). وهذه حروف في الغاية من العلم والنفاسة، حريٌّ بها أن تُنشر وتُذاع. والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.



(١) تفسير المنار (١١/ ٣٦٤-٣٦٩) باختصار يسير.

(٢) الرد على البكري (١/ ١٧٠).

الاعتصام بالجماعة وذم الافتراق

خلق الله عباده لعبادته وحده لا شريك له، وأمرهم بالجماعة، وجعل في الجماعة الرحمة، ونهاهم عن التفرق، وجعل في الفرقة العذاب. والجماعة ما وافق الحق وإن كان واحداً. وقد كان إمام الحنفاء وحيداً وقد مدحه الله بأنه جعله أمة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

وقد كتب الله الرحمة والتوفيق في الاعتصام به سبحانه، واتباع سنة نبيه ﷺ، ومن أفراد أتباعه الاعتصام بالجماعة والفرار عن الفرقة، والسعي من حفظ له ربُّه دينه حتى يلقاه به وهو عنه راضٍ. ويكفي للمؤمن هداية: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] فهو مهديٌ لاعتصامه، وتأمل التعبير عن هدايته بلفظ الماضي فالمسألة محسومة للمعتصمين، نسأل الله الكريم من فضله وإحسانه إنه هو البر الرحيم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [١١٨] إِلَّا مَنْ رَزَحَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿ [هود: ١١٨-١١٩] أي خلقهم لبيتهم، ومن الابتلاء الاختلاف، فمن لزم منهم الحق واعتصم به فهو المرحوم، فالابتلاء - ومنه الاختلاف - وسيلة، والرحمة غاية الغاية، فالله خلق الخلق لعبادته كما جاء في آية الذاريات، وجزاء العبادة الرحمة، وبهذا تجتمع حروف السلف في الآية، فمنهم من يفسر الآية بطرفٍ من معناها، ومنهم من يفسرها بالطرف الآخر بناء على ما يرى من تقديم كشف المعنى

وأولويته، أو وضوحه وغموضه للمتلقي وغير ذلك، وهذا جارٍ على ألسن العرب، قال ابن كثير رحمه الله تعالى (١): «يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة، من إيمان أو كفران كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِفينَ﴾ (١١٨) ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩] أي: ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم. قال عكرمة: ﴿مُخْلِفينَ﴾ في الهدى. وقال الحسن البصري: ﴿مُخْلِفينَ﴾ في الرزق، يُسخر بعضهم بعضًا، والمشهورُ الصحيح الأول.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾ أي: إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين. أخبرتهم به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبي ﷺ الأُمِّي خاتم الرسل والأنبياء، فاتبعوه وصدقوه، ونصروه ووازره، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية، كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسنن، من طرق يشد بعضها بعضًا: «إن اليهود افتترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة واحدة». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي» (٢).

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦١-٣٦٢).

(٢) صحيح الإسناد. أخرجه أحمد (٣٣٢/٢) وأبو داود (٤٥٩٦) وابن ماجه (٣٩٩١) والترمذي (٢٦٤٠) وقال: حديث حسن صحيح، وصححه ابن تيمية والألباني وغيرهما.

وقال عطاء: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ يعني: اليهود والنصارى والمجوس ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ يعني: الحنيفة. وقال قتادة: أهل رحمة الله أهل الجماعة، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم.

وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن البصري - في رواية عنه -: وللاختلاف خلقهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: خلقهم فريقين، كقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

وقيل: للرحمة خلقهم. قال ابن وهب: أخبرني مسلم بن خالد، عن ابن أبي نجيح، عن طاووس؛ أن رجلين اختصما إليه فأكثرنا فقال طاووس: اختلفتما فأكثرتما! فقال أحد الرجلين: لذلك خلقنا. فقال طاووس: كذبت. فقال: أليس الله يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: لم يخلقهم ليختلفوا، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة. كما قال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم، ولم يخلقهم للعذاب. وكذا قال مجاهد والضحاك وقاتادة. ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقيل: بل المراد: وللرحمة والاختلاف خلقهم، كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: الناس مختلفون على أديان شتى، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ فمن رحم ربك غير مختلف. قيل له: فلذلك خلقهم؟ قال خلق هؤلاء لجنته، وخلق هؤلاء لناره،

وخلق هؤلاء لرحمته، وخلق هؤلاء لعذابه. وكذا قال عطاء بن أبي رباح، والأعمش.

وقال ابن وهب: سألت مالكا عن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ قال: فريق في الجنة، وفريق في السعير. وقد اختار هذا القول ابن جرير، وأبو عبيدة والفراء.

وعن مالك فيما روينا عنه في التفسير: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ قال: للرحمة، وقال قوم: للاختلاف.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره، لعلمه التام وحكمته النافذة، أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقيلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة. وفي الصحيحين عن أبي هريرة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضَعْفَةُ الناس وَسَقَطُهُمْ؟ وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. فقال الله عز وجل للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء. وقال للنار: أنت عذابي، أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما الجنة فلا يزال فيها فَضْلٌ، حتى يُنشئ الله لها خلقاً يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع عليه رب العزة قَدَمَهُ،

فتقول: قَطُّ قط، وعزتك»^(١).

والأمة مأمورة برد نزاعها إلى الوحي المنزل لا لعقولهم مهما بلغت، قال شيخ الإسلام: «موارد النزاع لا تفصل بين المؤمنين إلا بالكتاب والسنة، وإن كان أحد المتنازعين يعرف ما يقوله بعقله، وذلك أن قوى العقول متفاوتة مختلفة، وكثيراً ما يشتبه المجهول بالمعقول فلا يمكن أن يفصل بين المتنازعين قول شخص معين ولا معقوله، وإنما يفصل بينهم الكتاب المنزل من السماء والرسول المبعوث المعصوم فيما بلغه عن الله تعالى.

ولهذا يوجد من خرج عن الاعتصام بالكتاب والسنة من الطوائف فإنهم يفترقون ويختلفون، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك. وأهل الرحمة هم أهل الإيمان والقرآن»^(٢).

وحديث الافتراق هذا حديث جليل عزيز، فقد بين الخطر الماحق لفراق السنة، كما أوضح طريق النجاة، وقد سئل شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ عَنْ حَدِيثِ الْاِفْتِرَاقِ فَأَجَابَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ، الْحَدِيثُ صَحِيحٌ مَشْهُورٌ فِي السُّنَنِ وَالْمَسَانِدِ؛ كَسَنَّ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ وَلَفْظُهُ: «اِفْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلِّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَاِفْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلِّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَسْتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلِّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً» وَفِي لَفْظٍ: «عَلَى ثَلَاثِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً» وَفِي رِوَايَةٍ:

(١) البخاري (٧٤٤٩) ومسلم (٢٨٤٦).

(٢) بيان تلييس الجهمية (١/٢٤٨).

قالوا: يا رسول الله من الفرقة الناجية؟ قال: «من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»^(١) وفي رواية قال: «هي الجماعة، يد الله على الجماعة». ولهذا وصف الفرقة الناجية بأنها أهل السنة والجماعة، وهم الجمهور الأكبر، والسواد الأعظم.

وأما الفرق الباقية فإنهم أهل الشذوذ والتفرق والبدع والأهواء، ولا تبلغ الفرقة من هؤلاء قريباً من مبلغ الفرقة الناجية، فضلاً عن أن تكون بقدرها، بل قد تكون الفرقة منها في غاية القلّة.

وشعار هذه الفرق: مفارقة الكتاب والسنة والإجماع. فمن قال بالكتاب والسنة والإجماع كان من أهل السنة والجماعة»^(٢).

وتأمل قوله رحمه الله تعالى: «ولا تبلغ الفرقة من هؤلاء قريباً من مبلغ الفرقة الناجية، فضلاً عن أن تكون بقدرها، بل قد تكون الفرقة منها في غاية القلّة». فهذا الحرف في غاية الأهمية، فأهل السنة والجماعة هم الأكثر عدداً، فمن حيث الكيف فهم الأفضل، ومن حيث الكم فهم الأكثر، ومردُّ كثيرهم بقاؤهم على الفطرة السويّة والفهم البسيط المباشر للقرآن والسنة، فإن سمعوا نصّاً شرعياً في الصفات أو القدر أو المعاد ونحو ذلك؛ فإنهم يفهمونه بسليقتهم الفطرية بلا تكلفٍ مقدّمات كلامية، أو اشتراطات فلسفية، أو تطويلات سوفسطائية، أو قرمطات إنشائية، أو خزعبلات خرافية، بل هم على النمط

(١) الطبراني في الصغير (٧٢٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/٣٤٥ - ٣٤٨) باختصار وتصرف يسير.

الأوسط والقصد الأقوم والمعتقد السالم من شوائب المبتدعين، بل حتى من يقول منهم جهلاً إنه على مذهب الشيخ فلان؛ فإنه إنما يقولها إحساناً للظن به من جهة أنه يراه صالحاً للتقليد الموصل بحسب ظنه للمعتقد الصحيح، فإن تلوت عليه الآيات والأحاديث التي فارق فيها ذلك الشيخ منهج السلف وطلبت من ذلك العامي إخبارك بما فهم منها؛ لوجدت فهمه لها موافقاً لمذهب السلف في إجراء النصوص على ظواهرها التي يفهمها العربي بسليقته دون تعطيل المبتدعة وتحريفهم وتكييفهم وإلحادهم.. وهذا هو المطلوب، حتى وإن أخطأ في نسبة نفسه لمذهب مبتدع جهلاً منه بحقيقة الحال، والله يعفو عن العبد خطأه إن صدق معه واستفرغ جهده لمرضاته حتى وإن قصر فهمه عن الإحاطة بما لم يدركه علمه، وهؤلاء العامة هم الجمهو الأكبر والسواد الأعظم.

ولا يعني هذا تزكيتهم بإطلاق، بل قد يسقط بعضهم في بدع مختلفة الدركات، فقد يخرج بعضهم بسببها من ربقة الملة، وقد يقع آخرون فيما دون ذلك، فقد يُبتلى بعضهم بقطاع الطريق بينهم وبين ربهم تعالى فيحرف فطرتهم بإفساد تصورهم عن ربهم وعن بعض أصول الدين كالقول بالاتحاد أو الحلول، وكدعاء الموتى والجن، أو الاستغاثة الشركية، أو اعتقاد أمور مخالفة للشرع سواء في صفات الله تعالى أو معالم دينه أو القدر أو النبوة أو الأسماء والأحكام أو الصحابة.. ونحو ذلك.

وقد يقع بعضهم في بعض بدع مسلكية كالتلبية الجماعية، أو التزام المصافحة بعد الصلاة، أو الالتزام بذكر غير وارد بعد الأذان، ونحو تلك البدع

المسلكية غير الغليظة - وإن كانت البدع كلها شرّ - فحالتها كحال غيرها من الذنوب ولا تخرج صاحبها من متابعة السلف في الجملة، وإن كانت - بلا شك - تنقص من تحقيقه الاتّباع الواجب، وقد تزيد به البدع حتى تلوث مشربه الاعتقادي والعملي فيخرج من السنة شيئاً فشيئاً، وتدرّس السنّة لديه كما يدرّس وشي الثوب، بحسب ما يردّ من موارد الإحداث في الدين، والمعصوم من عصمه مولاه.

فالمقصود؛ بيان أن الأصل في العامة أنهم من أهل السنة والجماعة مهما تسلّط على رئاستهم فئام من المبتدعة إلاّ إن تابعوهم حقيقة لا اسماً على بدعهم، فالعبرة بالحقائق والمعاني لا بالألقاب المباني، وكل هذا مع حفظ ضرورة الدخول في الدين كافة، والالتزام بالسنة المحضة، والاعتصام بالاتّباع التام، ومن ذلك المحافظة على المسميات الشرعية، وممايزة أهل الانحراف والإحداث، والبراءة من كل عدوّ لله تعالى، والهجرة إلى الله تعالى بالقلب والوجه والدين، وكلّ ميسّر لما خلق له.

أيضاً؛ فإن أئمة وعلماء الأمة من القرون الثلاثة المفضلة هم من أهل السنة والجماعة قبل أن تنبغ تلك النوابع البدعية التي تنسب السواد الأعظم لها.

وعليه؛ فلا تصح نسبة جمهور المسلمين وعامّتهم لمذاهب المبتدعة كالأشعرية والماتريدية ونحوها، بل هم من أهل السنة والجماعة في الجملة لما قدّمنا.

وكذلك الحال في أهل العلم الذين وافقوا مذهب السلف في أكثر حالهم

وأغلب علمياتهم ولكنهم انتحلوا بعض الأغلاط الرديئة من المبتدعة، فهم من أهل السنة إجمالاً، فيقال في توصيفهم: إنهم على مذهب السلف ولكن خالفوهم في كذا وكذا، فليس لهم وصف السنة المحضة ومدحتها التامة، ولكنهم لا يُخرجون من منهجهم واجتماعهم على السنة بعامة، وعلى ذلك كثير من أهل العلم والفضل والمقامات السنية في الإسلام ممن وقعوا في أغلاط علمية وشابوا صفاء أتباعهم بتلك الأمور مع استمساكهم لمجمل مذهب السلف.

أما من خالف أهل السنة في قواعدهم العامة كمصادر التلقي والاستدلال والاتباع، أو كثرة المفارقة لتفاصيل مذهب السلف ونحو ذلك مما خرجوا به عن طريقة السلف الصالح؛ فهم على ما طردوه من نسبة وضلال، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا، وبالله التوفيق.

قال الشيخ صالح آل الشيخ: «الأمر بالجماعة معه النهي عن الفرقة، لأنه لا يجتمع الناس إلا إذا انتهوا عن الافتراق والفرقة».

ولهذا نهى الله عن الافتراق فقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فقد دلت هذه الجملة من الآية على أن النهي عن الفرقة هنا المقصود به الفرقة في الأبدان، ثم قال: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وهذه الفرقة في الدين، وهذا كما في قوله مثلاً في سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، يعني في

الدين.

فَتَحَصَّلَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْأَدْلَةَ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْفُرْقَةَ قَسَمَانِ:

فُرْقَةٌ فِي الْأَبْدَانِ، وَفُرْقَةٌ فِي الدِّينِ. وَهِيَ مُقَابِلَةٌ لِلْجَمَاعَةِ الَّتِي هِيَ: جَمَاعَةٌ فِي الدِّينِ، وَجَمَاعَةٌ فِي الْأَبْدَانِ.

أَمَّا فُرْقَةُ الدِّينِ: فَتَكُونُ بَانْتِحَالِ الْأَهْوَاءِ وَالْأَخْذِ بِطَرِيقَةِ أَهْلِ الْهَوَى مِنْ الْخَوَارِجِ فَمَنْ بَعْدَهُمْ.

وَأَعْظَمُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ الْخَوَارِجُ - يَعْنِي مِمَّنْ خَرَجَ عَلَى الصَّحَابَةِ -، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ أَتَتْ الْأَقْوَالُ الْكُفْرِيَّةَ عِنْدَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْحُلُولِيَّةِ إِلَى آخِرِهِ. وَهَذَا أَعْظَمُ افْتِرَاقٍ فِي الدِّينِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الدِّينَ وَاضِحًا لَا لَبْسَ فِيهِ، فِي أَصُولِهِ وَعُقَائِدِهِ وَفِي قَوَاعِدِهِ الْعِلْمِيَّةِ لَا لَبْسَ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] (١).

لَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ التَّفَرُّقَ وَنَهَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْأَسْبَابِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَيْهِ. وَقَدْ جَاءَتْ النُّصُوصُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ الَّتِي تَحْذَرُ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ وَتَبِينُ سَوْءِ عَاقِبَتِهِ، وَأَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ سَبَابِ الْخِذْلَانِ فِي الدُّنْيَا، وَالْعَذَابِ وَالْخِزْيِ وَسَوَادِ الْوَجْهِ فِي الْآخِرَةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ

(١) مختصرًا عن: إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل (٣٦ / ١).

أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ
 أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ [آل عمران: ١٠٥ - ١٠٧] قال ابن
 عباس: «تبييض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة».
 وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ
 إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

فقد دلت الآيات على ذم التفرق وخطورته على الأمة في الدنيا والآخرة،
 وأنه سبب هلاك أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، وسبب كل انحراف وقع
 في الناس.

وأما السنة فقد جاءت فيها أحاديث كثيرة في ذم التفرق والاختلاف، والحث
 على الجماعة والاتلاف، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن
 معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: أَلَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ فِينَا فَقَالَ: «أَلَا إِنَّ مِنْ قَبْلِكُمْ
 مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنْ هَذِهِ الْأُمَّةُ سَتَفْرُقُ عَلَى ثَلَاثِ
 وَسَبْعِينَ مِلَّةً، اثْنَتَانِ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ»^(١).

فقد أخبر النبي ﷺ بافتراق أمته على ثلاث وسبعين فرقة، اثنتان وسبعون
 في النار، وهم الذين خاضوا كخوض الذين من قبلهم، ثم إنَّ هذا الاختلاف
 الذي أخبر به النبي ﷺ إما في الدين فقط، وإما في الدين والدنيا ثم يؤول إلى
 الدين.

(١) رواه أحمد (٤/١٥٢) وأبو داود (٥/٥) وغيرهما بسند صحيح.

وعلى كل حال؛ فإن الفرقة والاختلاف لا بد من وقوعهما في الأمة،
والرسول ﷺ يحذر أمته منه؛ لينجو من الوقوع فيه من شاء الله له السلامة
والعافية ممن اعتصموا بحبل الله جميعاً ولم يتفرقوا.



الاختلاف والتفرق سبب هلاك الأمم السابقة

إذا تأملنا القرآن والسنة وجدنا أن سبب هلاك الأمم السابقة هو التفرق وكثرة الاختلاف لاسيما الاختلاف في الكتاب المنزل عليهم، وأول التفرق هو فراقهم سنن أنبيائهم وتكذيبهم، ثم اختلاف أتباعهم بعدهم في كتابهم، وهذا ظاهر جداً في بني إسرائيل، كما بين يهوذا والسامرة، ثم افتراق أتباع كل شيعة منهما فيما بينهم حتى اكتسحهم بختنصر البابلي فسحقهم وأسرهم إلا قليلاً من الشاردين، ثم تسلط من بعدهم من الرومان وتنكيلهم بهم ورميهم في أركان الأرض في شتاتهم الشاسع المعلوم.

وكذلك تفرق النصارى في مجامعهم الكنسية الكبرى، وتكفير بعضهم بعضاً، وإراقة الدماء بينهم، وإلهاب الحروب الكثيرة بينهم على إثر تفرقهم في الكتاب. سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً. وإنما قص الله تعالى علينا أخبارهم وأسباب هلاكهم حتى لا نهلك هلاكهم، والله المستعان.

قال حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِعِثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أدرك هذه الأمة، لا تختلف في الكتاب كما اختلفت فيه الأمم قبلهم» لما رأى أهل الشام وأهل العراق يختلفون في حروف القرآن الاختلاف الذي نهى عنه رسول الله ﷺ. فأفادنا ذلك أمرين: أولاهما: تحريم الاختلاف في مثل هذا مما لا يحل الاختلاف فيه، ولأنه يجر إلى الاختلاف الأعظم.

والثاني: الاعتبار بمن كان قبلنا، وقياس الحال بالحال، والحذر من مشابهة

أحوالهم وأفعالهم. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]. وقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ذُرُونِي مَا تَرَكْتُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»^(١). فقد أمر النبي ﷺ في هذا الحديث بالإمساك عما لم يؤمروا به، معللاً ذلك بأن سبب هلاك الأولين وخيبتهم وضلالهم وعذابهم إنما كان كثرة السؤال تعنتاً أو لما لا فائده منه، ثم الاختلاف من بعد ذلك على الرسل بالمعصية، أي بمخالفتهم لما أمرتهم به أنبياءهم، وهذا عين الخذلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فالاجتماع على السنة والاعتصام بها نجاة، والتفرق فيها وترك الاستمسك بها وتوهين الاجتماع عليها هلاك، وبالله التوفيق والعصمة.



(١) صحيح البخاري (٧٢٨٨) وصحيح مسلم (١٣٣٧).

هل الاختلاف رحمة؟

يدعي بعض الناس أن الاختلاف رحمة اعتمادًا على حديث موضوع لا يصح: «اختلاف أممي رحمة»^(١)، وإن كان مرويًا من كلام القاسم بن محمد في اختلاف أصحاب النبي ﷺ قال: «ما أظنه إلا رحمة»، وليس بحديث. والخلاف سنة الله في خلقه، ولا يعني هذا أنه رحمة، بل هو ابتلاء، أما الرحمة فهي الوفاق والاجتماع على الحق.

وهذا القول مردود بالكتاب والسنة والعقل. وقد ذكرنا بعض الآيات

(١) ذكره البيهقي في رسالته الأشعرية تعليقا، وأسنده في المدخل من حديث ابن عباس: «اختلاف أصحابي لكم رحمة»، وذكره نصر المقدسي في الحجة، وأورده الحلبي والقاضي حسين وإمام الحرمين وغيرهم. قال المناوي في الفيض (١/ ٢٠٩): لم أقف له على سند صحيح. وقال الحافظ العراقي: سنده ضعيف، وقال الألباني: موضوع. وانظر الجامع الصغير وزيادته (١/ ١٢٥)، وتبيين كذب المفتري (١٠٦)، والأسرار المرفوعة (٥٠٦)، وتنزيه الشريعة (٢/ ٤٠٢)، والمقاصد الحسنة (٢٦-٢٧)، وكشف الخفاء (١/ ٦٤ - ٦٥). وقد فصل الألباني الكلام عليه حيث قال عنه في السلسلة الضعيفة والموضوعة ١/ ٧٦: «لا أصل له. ولقد جهد المحدثون في أن يقفوا له على سند فلم يوفقوا، حتى قال السيوطي في الجامع الصغير: «ولعله خرج في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا». وهذا بعيد عندي، إذ يلزم منه أنه ضاع على الأمة بعض أحاديثه ﷺ وهذا مما لا يليق بمسلم اعتقاده. ونقل المناوي عن السبكي أنه قال: «وليس بمعروف عند المحدثين، ولم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع». وأقره الشيخ زكريا الأنصاري في تعليقه على تفسير البيضاوي (ق ٩٢/ ٢)».

والأحاديث الواردة في ذم الاختلاف والتفرق. وفي ذلك كفاية لمن تدبر وتأمل. وقد دل القرآن على أن الاختلاف لا يتفق مع الرحمة، بل هو ضدها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ ﴿﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

والحديث الذي استدل به أصحاب هذه الدعوى باطل ولا يصح بحال، ولا يوجد في شيء من كتب السنة. وهذا كافٍ في بطلان هذه الدعوى، يضاف إلى ذلك مخالفته للمعقول، فإنه لا يتصور عاقل أن الاختلاف رحمة، بعدما عرفنا المفسد الخطيرة الناتجة عنه من التشاحن والتباغض والتهاجر، بل ربما أفضى إلى القتال والحروب التي كثيراً ما ثارت بين الناس بسبب الاختلاف حتى في بعض مسائل الفروع.

ومعنى قول بعض أهل العلم: «إن الإجماع حجة قاطعة، واختلاف الأمة رحمة واسعة»؛ محمول على أن أهل السنة يختلفون في العمليات ولا يختلفون في الأصول، واختلافهم في العمليات رحمة للأمة من حيث إنها سبب للتوسعة عليهم في العمل، لا على أنها في ذاتها رحمة. قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: «لم يسؤني أن أصحاب النبي ﷺ اختلفوا، فإن في اختلافهم رحمة»، وقال يحيى بن سعيد رحمه الله تعالى: «لم يكن الخلاف سبباً للهلاك فيمن كان قبلنا» يعني: من الصحابة، فإنهم كانوا يختلفون في المسألة، فلا يرى أحدهم هلاك صاحبه المختلف معه. وقال غير واحد من السلف: «في الخلاف توسعة». والمقصود بالخلاف هنا: الخلاف في مسائل العمل، لما فيه من التوسعة ورفع الحرج عن الناس.

وبالجملة؛ فالاتفاق والوفاق رحمة، لأنّ الحق في ذاته لا يتعدّد، والمحمود من أصابه، والأمة لا تجتمع على ضلالة، أما الاختلاف فهو محض ابتلاء؛ فإن أفضى إلى تقوى فهو رحمة، وإن أفضى لما لا يرضي الله فهو عذاب، ورُبَّ اتفاقٍ أدّى إلى اجتماع ووثام، واختلافٍ أفضى إلى تنازع وفشل وافتراق.

هذا؛ وإنّ في بعض الاختلاف نوع رحمة؛ وهو الخلاف الذي يبدأ وينتهي بالاجتماع حتى مع عدم الاتفاق، لما فيه من التوسعة على المجتهدين وعلى العاملين، فرحمة على المجتهدين من جهة رفع الحرج عن خطئهم إن بذلوا وسعهم في إدراك الحق، فهم بين الأجر والأجرين، ورحمة على العاملين من جهة ما يحصل لهم من السعة إذا أخذوا بقول أحد العلماء فيما ذهب إليه بدون نية تتبع الرخص. وبالله التوفيق، ومنه العون، وبه الاعتصام.



طريق الخلاص من الفرقة والاختلاف

من المعلوم أن الفرقة الناجية والطائفة المنصورة هي الجماعة. والجماعة هم الذين يسرون وفق منهج النبي ﷺ وأصحابه، لا يعدلون عن ذلك ولا يجحدون عنه يمينا أو شمالا.

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ فِي الاعتصام: «إن الجماعة ما كان عليه النبي وأصحابه والتابعون لهم بإحسان». فطريق الخلاص هو اتباع منهج أهل السنة والجماعة قولا وعملا واعتقادا، وعدم مخالفتهم أو الشذوذ عنهم.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وفي السنة ما رواه الترمذي وغيره عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ. أَوْ قَالَ: أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ عَلَى ضَلَالَةٍ. وَيَدُ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ»^(١).

وبهذا يستقيم لنا القول بأن طريق الخلاص وعنوان السعادة التمسك بكتاب الله تعالى، ذلك الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

(١) رواه الترمذي (٤/٤٦٦) وغيره بسند صحيح.

خلفه تنزيل من حكيم حميد، وكذلك التمسك بالسنة المطهرة الثابتة عن رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فإنها أي الكتاب والسنة هما المصدران الوحيدان لعقيدة الإسلام وشريعته.

فأي منهج جانب هذا الطريق فإنه منهج خاسر وسابله ضلال، فالتمسك بالسنة هو سبيل المؤمنين، ومنهاج المتقين، وصراط المنعم عليهم من الأبرار والسابقين، وطريق الوصول إلى مرضاة رب العالمين، وهو الحصن الحصين الآمن المتين، والمنهاج الذي يحفظ الله به الأمة من بدع المبتدعين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، وهو الطريق الذي صلحت به أحوال الأمة في صدر الإسلام، ولا فلاح لنا ولا نجاح إلا بالرجوع إليه. قال إمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» وما صلح به أولها هو العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ومما ينبغي على المسلم في هذا الجانب؛ أن يكون العمل بالكتاب والسنة مقيداً بفهم السلف الصالح ومنهجهم لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۗ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

فاتباع سبيل المؤمنين وهم الصحابة وأتباعهم من الأئمة المهديين بإحسان هو سبيل النجاة والفلاح والفوز في الدارين (١).

(١) وانظر: أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ١/٣٠٣

ويُروى عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبُدوها؛ فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً، فاتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم»، وروى البخاري (١) عن حذيفة أيضاً قال: «يا معشر القراء استقيموا؟ فقد سبقتم سبقاً بعيداً، فإن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتهم ضلالاً بعيداً»، وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «من كان مستنّاً فليستن بمن قد مات؛ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة؛ أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم» (٢). وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اتبعوا ولا تبدعوا فقد كفيتم، عليكم بالأمر العتيق».

وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ فِي التَّوَسُّلِ (٣): «يقول الفقهاء: الأصل في الأشياء الإباحة. وأما الوسائل الشرعية فلا يكفي في جواز الأخذ بها أن الشارع الحكيم لم ينهاها كما يتوهمه الكثيرون، بل لا بد فيها من ثبوت النص الشرعي المستلزم مشروعيته واستحبابها. لأن الاستحباب شيء زائد على الإباحة، فإنه مما يتقرب

(١) البخاري (٧٢٨٢).

(٢) رواه رزين كما في «المشكاة» (١/ ٦٧) وأخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٩٧) من طريق قتادة عنه وفيه انقطاع.

(٣) ص: (١٧ - ٢٨).

إلى الله تعالى، والقربات لا تثبت بمجرد عدم ورود النهي عنها، ومن هنا قال بعض السلف: «كل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تتعبدها»، وهذا مستفاد من أحاديث النهي عن الابتداع في الدين وهي معروفة، ومن هنا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «الأصل في العبادات المنع إلا لنص، وفي العادات الإباحة إلا لنص» فاحفظ هذا فإنه هام جداً يساعدك على استبصار الحق فيما اختلف فيه الناس^(١). وبالله التوفيق.



(١) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (١/ ٣٨٠ - ٣٩٣) باختصار وتصرف وزيادات.

ويلات الفرقة والاختلاف

نهى الله سبحانه وتعالى أمة الإسلام عن الفرقة والاختلاف، وحذر من الاكتواء بويلاتها مذكراً بما حصل للأمم السابقة من جراء فرقتهم ومحذراً من الويلات التي تنجم عن ذلك والتي من أخطرها:

أولاً: التشبه بالكافرين من أبناء الأمم الماضية:

كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

قال ابن كثير: «ينهى الله تبارك وتعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضين في افتراقهم واختلافهم وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم» (١).

وقال ابن عاشور: «قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ معطوف على قوله ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وفي هذا تمثيل لحال التفرق في أبشع صورته المعروفة لديهم عن مطالعة أحوال اليهود، وفيه إشارة إلى أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يفضي إلى التفرق والاختلاف إذ تكثر النزاعات والنزغات وتنشق الأمة بذلك انشقاقاً شديداً.

وأريد بالذين تفرقوا واختلَفوا الذين اختلفوا في أصول الدين من اليهود

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/٣٩٠).

والنصارى من بعد ما جاءهم من الدلائل المانعة من الاختلاف والافتراق،
وقدم الافتراق على الاختلاف للإيذان بأن الاختلاف علة التفرق، وهذا من
المفادات الحاصلة من ترتيب الكلام وذكر الأشياء مع مقارناتها، وفيه إشارة بأن
الاختلاف المذموم هو الذي يؤدي إلى الافتراق، وهو الاختلاف في أصول
الدين الذي يفضي إلى تكفير بعض الأمة بعضاً أو تفسيقه، دون الاختلاف في
الفروع المبنية على اختلاف مصالح الأمة في الأقطار والأعصار وهو المعبر عنه
بالاجتهاد.

ونحن إذا تقصينا تاريخ المذاهب الإسلامية لا نجد افتراقاً نشأ بين
المسلمين إلا عن اختلاف العقائد والأصول دون الاختلاف في الاجتهاد في
فروع الشريعة»^(١).

ولا شك أن مردّ الافتراق الحاصل في المسلمين راجع للاختلاف في
الأصول والعلميَّات، ولكن ليس هذا على إطلاقه؛ فثمّ افتراقات متفرقة نتجت
عن سوء التعامل مع بعض الخلاف في العمليات، فنشأ عن ذلك الجهل أو إرادة
العلوِّ بعضُ التفرّق المُرري كما حدث في بعض الأعصار من الشقاق بين طائفة
من الأحناف وأخرى من الشافعية، وكذا بين بعض الشافعية وبعض الحنابلة،
والله المستعان، وله الأمر من قبل ومن بعد.

ألا وإن من أدواء الأمة ضعفُ المناصحة فيما بينها، ووهنُ التواصي بالحق
والصبر، والتساهلُ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينها، وعدمُ أخذِ

(١) التحرير والتنوير (م ٣، ج ٤، ص ٤٢، ٤٣).

التعاون على البر والتقوى بالجدية الكافية، والتفريط في الاعتصام بالكتاب والسنة والاجتماع عليهما وردّ التنازع إليهما؛ فهذا كله مؤدّ لوقوع الأمة في الفرقة والتنازع والشقاق والفشل وذهاب الريح!

فترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو ضعفه، وترك المناصحة لولاية الأمور والأئمة وذوي الشأن في الأمة، ووقوع المداهنة في الدين، أو سلوك مسلك التشاؤم واليأس من الإصلاح، أو التعبد بترك المناصحة للولاية كما تفعل الفرق وأهل الأهواء، وعدم قيام طائفة من الأمة في أداء النصيحة ودرء الفساد والافتراق عنها يوقعها في الذل والهوان وفساد ذات البين والفرقة.

فالمناصحة والتواصي بالحق والصبر والتعاون على البر والتقوى باب عظيم من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد، كما أوصى بذلك الرسول ﷺ وأبدأ وأعاد، وبيّن أن الدين النصيحة، فقال ﷺ: «الدين النصيحة» قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم» (١) وكما في قوله: «وأن تُناصحوا من ولاة الله أمركم» (٢)، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وإنّ من بركة المناصحة أنها تزيل الغلّ من القلوب، وهي قوة للخير، وإعذار عند الله تعالى، وسبب لدفع البلاء والنقمة عن الأمة بحول الله وقوته

(١) مسلم (٨٢).

(٢) أحمد في المسند (٣٢٧، ٣٦٠/٢) وصححه أحمد شاكر والألباني، وأصله في مسلم دون

«وأن تُناصحوا من ولاة الله أمركم».

﴿قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَعَلَّاهُمْ يَنْتَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

واعلم أن أهل السنة لتمسكهم بالحق لا ينصرون باطلاً أبداً، فهم صادقون مخلصون ناصحون، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «فالواجب إذا كان الكلام بين طائفتين من هذه الطوائف أن يبين رجحان قول الفريق الذي هو أقرب إلى السنة بالعقل والنقل، ولا ننصر القول الباطل المخالف للشرع والعقل أبداً، فإن هذا محرم ومذموم، يُذم به صاحبه، ويتولد عنه من الشر ما لا يوصف، كما تولد من الأقوال المبتدعة مثل ذلك»^(١).

ثانياً: الفشل وذهاب القوة:

كما بيّن الله سبحانه وتعالى وهو ينهي عن الفرقة والتنازع والاختلاف أن مآل ذلك كله هو فشل الأمة وضعفها وهوانها على أعدائها وذلك في قوله: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

أي: ولا تختلفوا فإن التنازع والاختلاف يوجب الفشل والضعف والجبين، وقوله تعالى: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾^ط يعني قوتكم.

فالناس يتنازعون حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه، وحين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار، فإذا استسلم الناس لله ورسوله وداروا مع الوحي حيث دار انتفى السبب الأول الرئيس للنزاع بينهم - مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة - فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف

(١) منهاج السنة (٢/٣٤٣).

وجهاً النظر، إنما الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق، وإنما هو وضع الذات في كفة والحق في كفة وترجيح كفة الحق، عندئذ يزول التنازع ويتلاشى الخلاف ويحل الوفاق والوئام مكان النزاع والصدام فيبقى للدين هيئته وللإسلام قدسيته وللوحدة مكانتها^(١).

ولو تواضع الناس للهدى لانطفأت بإذن الله نيران إبليس في قلوبهم، وكردّهم الحق إلى نصاب جميل حظوظهم، لكن نفخة الشيطان في فؤاد المخذول بالغة النكاية، فليس للشيطان مطيتان أمضى في أوليائه من الكبر والحسد.

وردُّ الحق للهوى بابٌ من الكبر البغيض، لأن نصف الكبر بطرُ الحق وردّه، وهو من إرادة العلوّ في الأرض، والنظر في الأعطاف تيهًا، وتصعير الخدّ تعاضُّمًا، واشمخار الأنف بالباطل، وأخذ العزة له بالإثم، وكم لحسد الأقران من صيد!

والنهي عن التنازع - فاعلم - يقتضي الأمر بالتفاهم والتشاور وحسن الظن والمصابرة، ومراجعة بعضهم بعضًا بالتؤدة والحسنى حتى يصدروا عن رأي واحد، أو يختلفوا بمودة وإخاء دون افتراق وشقاق، فإن تنازعوا في شيء ردوه إلى الله بكتابه ورسوله بسنته فأفلحوا وأنجحوا وصدروا عن أمر رشيد وتوفيق وتسديد، وذلك الهدى لو كانوا يعلمون.

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: «ولقد كان التنازع مفضياً إلى الفشل لأنه

(١) انظر: الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات (١ / ٢١).

يشير التغاضب ويزيل التعاون بين القوم، ويحدث فيهم أن يتربص بعضهم ببعض الدوائر، فيحدث في نفوسهم الاشتغال باتقاء بعضهم بعضاً، وتوقع عدم إلقاء النصير عند مآزق القتال، فيصرف الأمة عن التوجه إلى شغل واحد فيما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم فيتمكن منهم العدو كما قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢] (١).

وهذا الفشل والضعف أدى إلى تفكك الأمة الإسلامية وضعفها وهوانها على أعدائها، فنقصت البركة، وذهبت الريح، واستبيحت الديار، وانتهكت الأعراض، وخذشت الكرامة، ودنست المقدسات، وعزّت النخوة، وقلّ النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

واعلم أن الاعتصام بالكتاب والسنة أمان بإذن ربنا من الفشل والشقاق والفرقة والتنازع، وإن من فروع ذلك (٢):

١ - معرفة هدي النبي ﷺ والتمسك به، والاهتداء بهديه، فقد تركنا على البيضاء الواضحة بالشمس الساطعة والحجة القاطعة.

٢ - السير على نهج السلف الصالح وهم الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة الدين أهل السنة والجماعة، فالراسخون في العلم أمان بإذن الله لمن لزم

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٦م، ج ١٠، ص ٣٠، ٣١) بتصرف.

(٢) وقد ذكرنا شيئاً منه في وسائل تحقيق الاعتصام.

غرزهم.

٣- التفقه في الدين بأخذه عن العلماء الربانيين مباشرة، والتأسي بأخلاقهم وحسن سمتهم وورعهم، وعدم تتبع الشذوذات والغرائب والمعائب.

٤- الالتفاف حول علماء الأمة، الأئمة المهديين الذين تثق الأمة بدينهم وعلمهم وأمانتهم، ومجانبة سوء الظن بهم، واحتمالهم على أحسن المحامل وأجمل الظنون، وحماية أعراضهم من مقاريض الجهلة أهل الرّهج والعجلة، فهم أولى الناس بذلك، وأعلمهم بما هنالك، وبخاصة عند إقبال أمارات التفرق وعصف الفتن وتطير شررها واستطالة ألسن لها.

٥- الحذر من التعالي على العلماء، ومعرفة خطر الاعتداد بالرأي والغرور والتعاضم والانتفاخ بزبد إبليس، والبعد عن العجلة والتسرع والرعونة والطيش، أو الشذوذ عنهم بأي نوع من أنواع الشذوذ التي تؤدي إلى الفتنة أو المفارقة.

٦- معالجة مظاهر الفرقة، وعدم التساهل مع بداياتها، فالحرب أوّلها كلام، ومعظم النار من مستصغر الشرر، خاصة عند بعض الأحداث أو المتعجلين والذين تخفى عليهم الحكمة في الدعوة، وينقصهم الفقه في الدين، وتجهلهم تجارب الزمان.

٧- الحرص على الجماعة والاجتماع والإصلاح، والتواصي بالحق والصبر، والتعاون على البر والتقوى، ونشر حسن الظن بالله تعالى والتفاؤل بنصره وحفظه ومعيتته وربوبيته وألوهيته وصدق وعده وعدله وإحسانه.

٨ - تجنب العصبية والحزبية وبخاصة في الدعوة إلى الله تعالى والعلم والتعليم، ومن فروع ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين أهل العلم والدعوة خاصة، والمناصحة من الجميع للجميع بحكمة ونصح وشفقة وموعظة حسنة.

٩ - الثقة المطلقة بالوحي المنزل كتابًا وسنة على فهم سلف الأمة، ومن لم يثق بالوحي ثقة مطلقه فلا ترّجّه.

١٠ - التفقه في علوم وأعمال وأقوال القلوب، والاهتمام الشديد بها وتفتيشها وحراستها وتغذيتها، فأول الخير صلاح القلوب، وسلامة العقائد، ونقاء الصدور، وطيب الظنون، وصفاء الطوايا، وإخلاص النوايا، وأول الشر فساد العلوم، وغلط البصائر، وسوء الظنون، ووَحَر الصدور، واختلال ميزان نظر القلوب، وتقديم حظوظ النفوس، والركون للعاجلة، وإيثار الحياة الدنيا، والله المستعان وبه العصمة والتوفيق.

ثالثاً: التشبه بالمشركين:

لقد بيّن الله سبحانه أن الفرقة والاختلاف هي صفة من صفات المشركين، ونهى وحذر أبناء الأمة من مغبة الوقوع في ذلك فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿[الروم: ٣١-٣٢].

«فالله عز وجل قد وصف المشركين بأنهم فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً، فالشرك ألوان وأنماط كثيرة، منهم من يشركون الجن، ومنهم من يشركون

الملائكة والأنبياء، ومنهم من يشركون الملوك والسلاطين والعظماء والآباء والمشايخ والأمراء، ومنهم من يشركون الشياطين، بل منهم من يعبد إبليس ذاته، ومنهم من يشركون الكهان والأحبار، ومنهم من يشركون الأشجار والأحجار، ولا تنتهي أنماط الشرك وأشكاله، وكل حزب منهم بما لديهم فرحون، بينما الدين القيم واحد لا يتبدل ولا يتفرق، ولا يقود أهله إلا إلى الله الواحد» (١).

رابعاً: تبرؤ رسول الله ﷺ منهم:

فقد برأ الله سبحانه رسول الله ﷺ من أصحاب البدع الذين تفرقوا في دينهم واختلفوا فيما بينهم فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] فمعنى شيعاً: «فرقاً وأحزاباً حيث أوجب الله براءة رسوله ﷺ منهم، أي هؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا لست منهم يا محمد وهم ليسوا منك» (٢).

وقال الحافظ ابن كثير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ «هم أصحاب البدع، والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه وكانوا شيعاً، أي فرقاً

(١) الاعتصام بحبل الله (١/٢٣) بتصرف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (ج٧، ص ١٤٨).

كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات فإن الله تعالى قد برأ رسوله ﷺ مما هم فيه»^(١).

خامساً: الخذلان المطلق ممن لا يأتي التوفيق إلا من قبله:

قال تعالى موصياً عباده بالتوحيد والاعتصام به ومحذراً من ضد ذلك: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. «أمرهم أن يكونوا ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾» أي: مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه. ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ فمثله ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: سقط منها ﴿فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ بسرعة ﴿أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد، كذلك المشرك، فالإيمان بمنزلة السماء، محفوظة مرفوعة.

ومن ترك الإيمان فهو بمنزلة الساقط من السماء، عرضة للآفات والبلبات، فإما أن تحطفه الطير فتقطعه أعضاء، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تحطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه، وأذهبوا عليه دينه ودينه»^(٢).



(١) تفسير القرآن العظيم (ج ٢، ص ١٩٦) وانظر: الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات (دراسة قرآنية واقعية) د. محمود هاشم عنبر (١/٢٠ - ٢٥).
(٢) تفسير السعدي (١/٥٣٨).

فضائل أهل السنة والجماعة وأوصافهم

أهل السنة والجماعة هم أهل الاتّباع التام لرسول الله ﷺ، قال شيخ الإسلام رَحْمَةُ اللَّهِ: «وأهل السنة والجماعة يتبعون الكتاب والسنة، ويطيعون الله ورسوله، فيتبعون الحق، ويرحمون الخلق»^(١). وقال رَحْمَةُ اللَّهِ عن أهل الحديث المشتغلين بسنة وسول الله ﷺ المعتصمين بسنته: «لم يجتمع قط أهل الحديث على خلاف قوله ﷺ في كلمة واحدة، والحق لا يخرج عنهم قط، وكل ما اجتمعوا عليه فهو مما جاء به الرسول، وكل من خالفهم من خارجي ورافضي ومعتزلي وجهمي وغيرهم من أهل البدع؛ فإنما يخالف رسول الله ﷺ، بل من خالف مذاهبهم في الشرائع العملية كان مخالفاً للسنة الثابتة، وكل من هؤلاء يوافقهم فيما خالف فيه الآخر، فأهل الأهواء معهم بمنزلة أهل الملل مع المسلمين؛ فإن أهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل»^(٢).

وأهل السنة والجماعة: «يعلمون أن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد، وبهذا سُمّوا: أهل الكتاب والسنة، وسُمّوا: أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة، وإن

(١) الفتاوى (٢٧٩/٣).

(٢) الفتاوى (١٧٢/٢٤).

كان لفظ الجماعة قد صار اسماً لنفس القوم المجتمعين»^(١).

«والهدى والرشاد والرحمة ليس في طائفة من طوائف الأمة أكثر منه في أهل الحديث والسنة المحضة، الذين لا ينتصرون إلا لرسول الله ﷺ، فإنهم خاصته، وهو إمامهم المطلق الذي لا يغضبون لقول غيره إلا إذا أتبع قوله، ومقصودهم نصر الله ورسوله»^(٢) «فأهل السنة لا ينتصرون إلا لقوله ﷺ، ولا يضافون إلا إليه، وهم أعلم الناس بسنته واتبع لها، وأكثر سلف الأمة كذلك، لكن التفرق والاختلاف كثير في المتأخرين، والذين رفع الله قدرهم في الأمة هو بما أحيوه من سنته ونصرته»^(٣).

واعلم - رحماني الله وإياك - أن الله تعالى ابتعث محمداً ﷺ بدين كامل، وشريعة تامة، فكان أتقى الخلق، وأعلم الخلق، وأفصح الخلق، وأنصح الخلق للخلق، ﷺ. ثم لم يقبضه إليه حتى رضي عن بلاغه الوافي، وبيانه الشافي، ونصحه الصافي، فكانت الأمة بعده على الصراط المستقيم، والمهيح القويم، لا تضل هدايتها عن سنته، ولا تزيغ بصائرهم عن شرعته، فهو إمامهم الذي يمشي أمامهم، ويناديهم بحب ورحمة ونصح من رأس الطريق إلى بحبوحة الجنة ورضوان رب العالمين.

كانوا على هذا زمناً حتى أذن الله بابتلاء هذه الأمة المرحومة، وتمييز

(١) الفتاوى (١٥٧/٣).

(٢) المنهاج (٣٦٨، ٣٦٩/٦).

(٣) المنهاج (١٨٢/٥).

المؤمنين، واستبانة سبيل المجرمين، فنبتت نابتات سوء، في العصر الأول من الأصحاب، فقاموا لله حق القيام، وصاروا نجومًا في حنادس الظلام، ورجومًا لكل مبطل، وسعوطًا لكل مبدل، ومن قصد البحر استقل السواقيا.

وعلى آثارهم مشى التابعون، ثم الأتباع، فتمت القرون المفضلة الثلاثة تمامًا على الذي أحسن، فدونت السنن، وحفظت الشريعة، وقمع المبتدعون، وهورب المشركون، ودون العلى ضربٌ يدمي النواصيا.

ما لاح برقٌ أو ترنم طائرٌ إلا انشيت ولي فؤاد شيقٌ

وقامت منارات العلم في حواضر الإسلام بالوحيين تشج، وأتتها النفوس الراجعة من كل فج، فقرروا في نفوس الناس عظمة توحيد رب العالمين، وخطر ضده من الشرك الذميم، وحدروهم من البدع بريد الكفر، ومن المعاصي بريد النفاق، فأمرهم بالمعروف، ونهوه عن المنكر، فأطاعهم الصالحون والعامّة ديانة، والفساق حياء أو مخافة، فمخرت سفينة الإسلام والإيمان البحر بعزّ وسلام، وكرامة وإقدام، ورحمة وشفقة، ولم تزل مُد سارت تُسالمٌ وتُسالم، وتُحاربٌ وتُحارب، من وقى لها وفّت له، ومن غدرها أوقعت به، ثبت فيها فئام، وتساقط منها آخرون، تعاون أهلها على حفظها بحفظ الله لها، كل على ما يسر الله له، فالعمل للدين قرين الانتماء إليه.

وهذه السفينة هي الإسلام، وهي التوحيد، وهي السنّة، وهي السلفية، وهي إن ركبها الأدعياء! فليس في السلفية الحقّة شيء سوى الإسلام، وليس من الإسلام الأصيل شيء سواها، فباطنها وظاهرها الالتزام والدعوة إلى ما كان

عليه نبينا صلوات الله وسلامه عليه، بلا وكس ولا شطط، مع قبول الاجتهاد المنضبط الدائر مع الدليل حيث دار، فهذا المنهاج السلفي هو عقد نظام الدين الصافي، والملة التالدة الخالدة، وهي البيضاء التي تركنا عليها رسول الله ﷺ، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وهذه الدعوة السلفية كمعادن الطيب النفيس، فكلمنا ازداد ضربها نصح طبيها وتضوُّع عبرها، وهذا عائد لأنها تتضمن حقيقة الإسلام الصافي الذي لم يُشب بلوثة خرافة، أو حوبة زندقة، أو تحريف للكلم عن مواضعه، بل رجعت بالأمر إلى أوله، وهو التوحيد والسنة، وانطلقت منه وانتهجته، فانتظم لها الدين جملة، وانسجمت تصورات العقول مع حاجات القلوب وأعمال الجوارح.

فكان من أراد محض الإسلام الذي لم يُشب؛ ناله بأيسر جهد، موافقاً فطرته السويّة، وعقله الذكيّ، خاليًا من الأكدار والتعقيدات والمقدمات والآصار والأغلال، فوجدت الفطرة طريقها السويّ فسكنت، وتاقت إليه الروح ونالته فخشعت، وأطلق العقل عنانه المنضبط في مهيعه وسُموّه.

وأظهرت هذه الدعوة للأمة المهدية المرحومة طريق نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، واضحة آثار سيره عليه، محفوظ المسلك، بين المعالم، يسير المرء فيه فيراه واضحًا جليًّا، فلا يستوحش ولو سار وحده، لكثرة من يرى من سلفه الذين قد ساروه وسلكوه، فيرى آثار نبيه ﷺ، وعلى إثرها الأصحاب والتابعون والأتباع، ومن سار على تلك المحجة القويمية، واستقام على ذلك الصراط المستقيم، ويرى الأئمة فيه بسيرهم وأقوالهم وفتاويهم يرشدونه حتى لا يضل،

ويبصرونه حتى لا يزيغ، ويعظونه حتى لا يتنكب صراط المنعم عليهم، الذي امتن الله به عليه، فتستأنس نفسه في ذلك الطريق المسلك بمعية من ساروا عليه من بدور الدجى وحرّاس الملة وحفّاظ الإسلام.

فيرى الواقف في طرف الطريق قوافل الأئمة والصالحين والصدّيقين والعبّاد والشهداء، يسبقهم نبيهم ﷺ، قد تركهم في أوله وابتظرهم في آخره. فليس في ذلك الطريق الجميل شرك ولا بدعة ولا فسق، بل توحيد وسنة وطاعة. جعلنا الله جميعاً ممن حقّق ذلك ومات عليه. إله الحقّ آمين.

وإذا تولاه امرؤ دون الوري طراً تولاه العظيم الشان

وأهل الإسلام كالجسد الواحد والبنان الشامخ يشد بعضه بعضاً، وقد مدحهم ربهم جل وعلا بقوله: ﴿رَحْمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] قال أيوب السخيتاني رَحْمَةُ اللَّهِ: «إنه ليلغني عن الرجل من أهل السنة أنه مات، فكأنها فقدت عضواً من أعضائي».

وأهل السنة يعرفون الحق، يرحمون الخلق ويمحضونهم النصح، وهل ذلك إلا بأن تتحقق الشهاداتان في النفوس ظاهراً وباطناً. فالحمد لله الذي أكمل لنا الدين ورضيه، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] «أكمل لهم الدين، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وأتمه فلا ينقصه أبداً، ورضيه فلا يسخطه أبداً».

قال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً». وقال بعض المشركين لسلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لقد علمكم

نبيكم كل شيء حتى الخراءة، فقال: «أجل...».

وبأسفٍ؛ فما زال بعض أبناء الملة وأهل القبلة، يغبشون صفاءها باستحسانات يقدحها الهوى في أفئدتهم، فيبشونها في العامة دون الرجوع لحكمة وعلم العلماء، لأنهم قد أسقطوهم من مرجعيتهم، إذ عنّ لهم أنهم رجال وهم رجال، وما الفقه لأحد دون أحد... أمّا الخيام فإنها كخيامهم!

ومن ثمّ بثوا شبههم التي ظنوها حججًا، ونفخ بعضهم في كيرها، فطار شررها إلى أطراف خيمة الإسلام، فإن لم يدركها أهل العلم والفضل وإلا فالخوف أن يدرك مارجها الأركان، فالشبهة تبدأ هزيلة سقيمة فتغذى بلبان الهوى، وتُنشر في الأنام كأنها حقيقة مسلمة، فتتلقف ممن قل نصيبه من الفقه، وما أكثرهم لا كثرهم! والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر.

ظنّوها ثهلان ذا الهضبات ما يتحلحل، فإذا بها سحابة صيف عن قليل تقشع، حقيقتها برق خلب، وإن زخرفوها بحسين الكلم، وورصفوها مكرًا لبادي الرأي، ثمّ العجب أنهم لها أحنّ من شارف، وعليها أحنّ من غراب، كأنهم لم يخلقوا إلا لها، ولن يسألوا عن سواها، فصيروها شعاراً عليه معاهد الولاء والبراء، فمن نبّههم أو أنكر باطلهم ردوا بحالهم ومقالهم: أساجلك العداوة ما بقينا! ثم استقبلهم أبو مرّة بلحيته، وتلفّع لهم بعمامته، فظنوه ناصحًا مشفقًا، وما دروا أنه من أزهم لذلك، وجمع لهم ما هنالك، والباقة أنهم ممن عدّ من أهل الدين، والفارس لا يغزو قومه، والرائد لا يكذب أهله، ولكن؛ إذا الله سنى عقد أمر تيسرا.

وظلمُ القريبِ يغصُّ الحلوقَ ويُجري من العين دمعا بدم
فضيمُ البعيدِ أذىً قد يُداوى وكيدُ القريبِ مُصابٌ أطم
إذا قدوةُ القومِ أمسى لئيمًا وباعَ بأخـراهُ دنيا أذم
فكبرٌ وسلّمٌ على أمتي فقبلَ الوفاةِ يكونُ السقمُ

وبالجملة؛ فالسنة كلها خير، والبدعة كلها شرّ مهما تلوّنت وتقلبت وتبهرجت، ووعد الله لأوليائه حقّ، وكلُّ وعد الله تعالى حقّ، فكلما رفعت بدعة كاهلها قيض الله لها دقًا وكسرًا بصوارم السنة على أيدي الأئمة الحنفاء وهل هم إلا أئمة السلف الصالح، وأتباعهم حملة ذلك العهد الرباني، والنهج النبوي؟ فلا تخلو الأرض من قائم لله بحجة.

فلما ارتد من ارتد من العرب، قصفهم الله بصارمه الصديق الأكبر، الذي قاد ألوية الموحدين من مدينة النبي الأمين ﷺ لكك معاقل الردة، وردّ الأمة لدين الله أفواجًا.

ولما بث الشيطان سراياه الفكرية الكفرية المبدلة للدين، والملوثة للملّة، قام عليهم إمام السنة المبجل أحمد بن حنبل معه أئمة جهابذة، حاربوا الفتن، ورد الله بهم الباطل.

تناثر العلمُ شهدًا من ثغورهمُ أكرمُ به منبعًا للدين ينسكبُ
ثم هدأ الناس زمانًا حتى تاب بعض من تلوّثَ ببدع القول لمذاهب منبوثة
من رفات الفلسفة الإغريقية، إذ لم يكتف بعضهم بتقريرات أئمة السنة ونقضهم
لها قرابة ثلاثة قرون منذ عهد أحمد وأقرانه، وراجت تلك المذاهب في بعض

المتسبة للعلم فتخطفت قلوبهم وبصائرهم فصنفوا وخطبوا ما أضلوا به الناس وفتنوا به العامة، وزينوا المنطق والفلسفة، وجعلوا مقدماتها الممتنعة وتقعيداتها المعقدة شروطاً للإيمان، وضرورة لكل متعلم، ورفعت الرافضة عقيرتها بالدعوة إلى وثنياتها، وتنادت عبدة الموتى لإغواء العامة، حتى عبّاد الصليب صار لهم طمع في ردة أهل الإسلام! وانتشرت الشبهة بين من رام العلم، وسقط في شباكها الكثير، فعظمت بهم البلية، وتكاملت بهم الرزية، حتى قيص الله للإسلام من هدد عروشهم، وزلزل صروحهم، وجعل أعاليها أسافلها، ودكّ معاقل إحداثهم وحصون فتنتهم فأوهاها وأسقطها، وفضح شبههم وكشفها وعراها، ذاك هو شيخ الإسلام الرباني وإمام السنة الثاني، أحمد بن تيمية الحراني، فما زال يصول بالله ويجول ويقا تل بعلمه وعمله، ولسانه وسنانه هو ومن تابعه من الأئمة وأهل الفضل، فما زال كذلك حتى قبّضه في ذات الله سجيناً صابراً راضياً شاكراً، ولا نزكاه على الله، قد جعل الله جنته وبستانه في صدره، فرحل إلى ربه وهو يتلو: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

ثم حمل الراية تلاميذه وكثير من أقرانه على سننه الحميد وفعله الرشيد، وليس به وحده جدّد الدين لكنه بزّ أهل زمانه في حمل لوائه وفاقهم في عظيم بلائه، وسار الناس على السنن المحمدي سنياً، ثم لم يلبث إبليس أن أغرى بعض الطغام بعبادة الطاغوت جهاراً، وبذبح الحنيفية عند عتبه نهاراً، كما قال شيخ الإسلام رَحْمَةُ اللَّهِ: «إذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا في ظلمة الفتن، وحدث البدع والفجور، ووقع الشر بينهم». حتى رحم الله تعالى الأمة بجيل

راشد، يقوده إمام هدى، فهبت صبا نجد بالعلم والإيمان، فكان نسيمها راحة وهداية وبصيرة للراغبين.

خليلي من نجدٍ قفا بي على الربى فقد هبّ من تلك الديار نسيمٌ

وكانت حصباؤها رغاما واجتثاها لصروح القبوريين، وكما صحّ عن أمير المؤمنين عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» فعاد الناس لدينهم، وآبوا لسنة نبيهم ﷺ. فلم يقبض الله الإمام المجدد حتى أقر عينيه برؤية ثمار دعوته وجهاده، وما عند الله خير وأبقى، ولا نزكي على الله أحداً.

عسى جدث يحوي رفاتاً لحبنا رياض جنان مترعات سواقيا

ثم أتم علماء الدعوة السنّية السُنّية ذلك التجديد، فزكت شجرة الإسلام بتيك الكوكبة من العلماء الذين قاموا بالحق وبه يعدلون، فأظهرهم الله وأعزهم، على قلة المعين وضعف الناصر، فما برحوا يقيمون الديانة، ويجرسون معالم الملة، ويزودون عن أصول السنّة، ويحلّون عرائس المعاني لراغبها، ويزقّون أبكار خرائد المعارف لخاطبيها، فله هم من أنجم وأقمار، ورواسٍ وأنهار!

أتاك حديثٌ لا يُملّ سماعه شهّيّ إلينا نشره ونظامه

إذا ذكرته النفس زال عناؤها وزال عن القلب المعنى قتامه (١)

«فأهل الحديث الفقهاء فيه العاملون به أخص الناس باتباع محمد ﷺ» (٢) «فلا

(١) ويكون الدين كله لله. للمؤلف (١-٦).

(٢) الفتاوى (٢٥/٢٥٢).

عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون، فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء والصالحين»^(١).

تعيين الفرق الهالكة:

قال تقي الدين ابن تيمية: «وأما تعيين هذه الفرق فقد صنف الناس فيهم مصنفات وذكرهم في كتب المقالات، لكن الجزم بأن هذه الفرقة الموصوفة هي إحدى الثنتين والسبعين لا بد له من دليل، فإن الله حرم القول بلا علم عموماً؛ وحرم القول عليه بلا علم خصوصاً؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بغيرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١١٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وأيضاً فكثير من الناس يخبر عن هذه الفرق بحكم الظن والهوى، فيجعل طائفته والمتسببة إلى متبوعه الموالية له هم أهل السنة والجماعة؛ ويجعل من خالفها أهل البدع، وهذا ضلال مبين. فإن أهل الحق والسنة لا يكون متبوعهم إلا رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فهو الذي يجب تصديقه في كل ما أخبر؛ وطاعته في كل ما أمر، وليست هذه المنزلة لغيره من الأئمة، بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ.

(١) الفتاوى (١٣٠/٣) وانظر: مفهوم أهل السنة والجماعة (١/٤٧-٥٦).

فمن جعل شخصاً من الأشخاص غير رسول الله ﷺ من أحبه ووافقته كان من أهل السنة والجماعة ومن خالفه كان من أهل البدعة والفرقة. كما يوجد ذلك في الطوائف من اتباع أئمة في الكلام في الدين وغير ذلك. كان من أهل البدع والضلال والتفرق.

وبهذا يتبين أن أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية أهل الحديث والسنة؛ الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ، وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله، وأعظمهم تمييزاً بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء فيها وأهل معرفة بمعانيها واتباعاً لها؛ تصديقاً وعملاً وحباً وموالاتة لمن والاهها ومعاداة لمن عاداهها، الذين يردون المقالات المجملة إلى ما جاء به من الكتاب والحكمة؛ فلا ينصبون مقالة ويجعلونها من أصول دينهم وجمل كلامهم إن لم تكن ثابتة فيما جاء به الرسول، بل يجعلون ما بعث به الرسول من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه.

وما تنازع فيه الناس من مسائل الصفات والقدر والوعيد والأسماء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك يردونه إلى الله ورسوله، ويفسرون الألفاظ المجملة التي تنازع فيها أهل التفرق والاختلاف؛ فما كان من معانيها موافقاً للكتاب والسنة أثبتوه؛ وما كان منها مخالفاً للكتاب والسنة أبطلوه؛ ولا يتبعون الظن وما تهوى الأنفس، فإن اتباع الظن جهل، واتباع هوى النفس بغير هدى من الله ظلم.

وجماع الشر الجهل والظلم، قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا

جَهُولًا ﴿ [الأحزاب: ٧٢] إلى آخر السورة. وذكر التوبة لعلمه سبحانه وتعالى أنه لا بد لكل إنسان من أن يكون فيه جهل وظلم ثم يتوب الله على من يشاء، فلا يزال العبد المؤمن دائماً يتبين له من الحق ما كان جاهلاً به، ويرجع عن عمل كان ظالماً فيه. وأدناه ظلمه لنفسه كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩] وقال تعالى ﴿الرَّكَّتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١].

ومما ينبغي أيضاً أن يعرف أن الطوائف المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام على درجات: منهم من يكون قد خالف السنة في أصول عظيمة، ومنهم من يكون إنما خالف السنة في أمور دقيقة. ومن يكون قد رد على غيره من الطوائف الذين هم أبعد عن السنة منه؛ فيكون محموداً فيما رده من الباطل وقاله من الحق؛ لكن يكون قد جاوز العدل في رده بحيث جحد بعض الحق وقال بعض الباطل، فيكون قد رد بدعة كبيرة ببدعة أخف منها؛ ورد باطلاً بباطل أخف منه، وهذه حال أكثر أهل الكلام المنتسبين إلى السنة والجماعة.

ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولاً يفارقون به جماعة المسلمين؛ يوالون عليه ويعادون؛ كان من نوع الخطأ. والله سبحانه وتعالى يغفر للمؤمنين خطأهم في مثل ذلك.

ولهذا وقع في مثل هذا كثير من سلف الأمة وأئمتها؛ لهم مقالات قالوها باجتهاد وهي تخالف ما ثبت في الكتاب والسنة؛ بخلاف من والى موافقه وعادى

مخالفة وفرّق بين جماعة المسلمين، وكفر وفسق مخالفه دون موافقه في مسائل الآراء والاجتهادات، واستحل قتال مخالفه دون موافقه، فهؤلاء من أهل التفرق والاختلاف. ولهذا كان أول من فارق جماعة المسلمين من أهل البدع الخوارج المارقون. وقد صح الحديث في الخوارج عن النبي ﷺ من عشرة أوجه خرجها مسلم في صحيحه؛ وخرج البخاري منها غير وجه. وقد قاتلهم أصحاب النبي ﷺ مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فلم يختلفوا في قتلهم كما اختلفوا في قتال الفتنة يوم الجمل وصفين، إذ كانوا في ذلك ثلاثة أصناف: صنف قاتلوا مع هؤلاء؛ وصنف قاتلوا مع هؤلاء؛ وصنف أمسكوا عن القتال وقعدوا. وجاءت النصوص بترجيح هذه الحال.

فالخوارج لما فارقوا جماعة المسلمين وكفروهم واستحلوا قتلهم جاءت السنة بما جاء فيهم؛ كقول النبي ﷺ: «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة»^(١).

وقد كان أولهم خرج على عهد رسول الله ﷺ، فلما رأى قسمة النبي ﷺ قال: يا محمد؛ اعدل فإنك لم تعدل! فقال له النبي ﷺ: «لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أعدل» فقال له بعض أصحابه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «إنه يخرج من ضئضئ هذا أقوام يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه

(١) البخاري (٣٦١٠) مسلم (١٠٦٤).

مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم» الحديث (١).

فكان مبدأ البدع هو الطعن في السنة بالظن والهوى؛ كما طعن إبليس في أمر ربه برأيه وهواه. وأما تعيين الفرق الهالكة فأقدم من بلغنا أنه تكلم في تضليلهم يوسف بن أسباط ثم عبد الله بن المبارك وهما إمامان جليلان من أجلاء أئمة المسلمين قالوا: أصول البدع أربعة: الروافض والخوارج والقدرية والمرجئة. ف قيل لابن المبارك: والجهمية؟ فأجاب: بأن أولئك ليسوا من أمة محمد ﷺ. وكان يقول: إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية (٢) وقال آخرون من أصحاب أحمد وغيرهم: بل الجهمية داخلون في الاثنتين والسبعين فرقة وجعلوا أصول البدع خمسة.

مسألة تكفير المبتدعة:

وهذا يبنى على أصل آخر وهو تكفير أهل البدع، ومن أصول أهل السنة

(١) مسلم (١٠٦٤) بنحوه والقاتل: دعني أضرب عنقه، هو عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في مسلم. وقيل: بل خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في مصنف عبد الرزاق. والضئى في الأصل: النسل، والمقصود النسل الفكري، أي يأتون على شاكلته وشبهه، وقد زاد الأمر فيهم واستجروهم الشيطان حتى وصل في هذا الزمان إلى أن كَفَّرَ بعضهم إمام الهدى وخاتم النبيين صراحة! حاشاه بأبي وأمي وولدي ونفسي، صلى الله وسلم وبارك وأنعم عليه وآله، وأبترَ شائتيه، فالخوارج لا منتهى لضلالهم لعدم وجود ضابط وقيد علمي ملجم لهم عن الخوض فيما تختاره عقولهم الضالة وتسويلات الشيطان الخبيثة عياداً بالله تعالى.

(٢) وأصولهم في نفي الأسماء والصفات تنتهي إلى الإلحاد المطلق ونفي الربوبية، وإن كان جلهم لا يلتزم تلك اللوازم.

والجماعة أنهم لا يكفرون أحدًا بذنب (١) كذلك لا يكفرون أحدًا ببدعة (٢) وفصل الخطاب في هذا الباب بذكر أصليين:

أحدهما: أن يعلم أن الكافر في نفس الأمر من أهل الصلاة لا يكون إلا منافقًا، فإن الله منذ بعث محمدًا ﷺ وأنزل عليه القرآن وهاجر إلى المدينة صار الناس ثلاثة أصناف: مؤمن به، وكافر به مظهر الكفر، ومنافق مستخفٍ بالكفر. ولهذا ذكر الله هذه الأصناف الثلاثة في أول سورة البقرة، ذكر أربع آيات في نعت المؤمنين؛ وآيتين في الكفار؛ وبضع عشر آية في المنافقين.

وقد ذكر الله الكفار والمنافقين في غير موضع من القرآن كقوله: ﴿وَلَا تُطْعِ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٨] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنٰفِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]. وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥]. وعطفهم على الكفار ليميزهم عنهم بإظهار الإسلام، وإلا فهم في الباطن شر من الكفار كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنٰفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] وكما قال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّا تَأْتِيهِمْ عَلَيْهِ وَلَا تَفْعَلْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٨٤] وكما قال: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَنْقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا

(١) أي: بكل ذنب، وإلا فمن الذنوب ما هو كفر إجماعًا، وهل الكفر إلا ذنب؟!

(٢) أي: بكل بدعة.

يُفْقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿ [التوبة: ٥٣ - ٥٤].

وإذا كان كذلك فأهل البدع فيهم المنافق الزنديق فهذا كافر، ويكثر مثل هذا في الرافضة والجهمية، فإن رؤسائهم كانوا منافقين زنادقة.

ومن أهل البدع من يكون فيه إيمان باطنًا وظاهرًا، لكن فيه جهل وظلم، حتى أخطأ ما أخطأ من السنة؛ فهذا ليس بكافر ولا منافق، ثم قد يكون منه عدوان وظلم يكون به فاسقًا أو عاصيًا؛ وقد يكون مخطئًا متأولًا مغفورًا له خطؤه؛ وقد يكون مع ذلك معه من الإيمان والتقوى ما يكون معه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه، فهذا أحد الأصلين.

والأصل الثاني: أن المقالة تكون كفرًا: كجحد وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج وتحليل الزنا والخمر والميسر ونكاح ذوات المحارم، ثم القائل بها قد يكون بحيث لم يبلغه الخطاب، وكذا لا يكفر به جاحده كمن هو حديث عهد بالإسلام أو نشأ ببادية بعيدة لم تبلغه شرائع الإسلام، فهذا لا يحكم بكفره بجحد شيء مما أنزل على الرسول إذا لم يعلم أنه أنزل على الرسول، ومقالات الجهمية هي من هذا النوع، فإنها جحد لما هو الرب تعالى عليه ولما أنزل الله على رسوله.

وتغلط مقالاتهم من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن النصوص المخالفة لقولهم في الكتاب والسنة والإجماع كثيرة جدًا مشهورة، وإنما يردونها بالتحريف.

الثاني: أن حقيقة قولهم تعطيل الصانع، وإن كان منهم من لا يعلم أن قولهم مستلزم تعطيل الصانع، فكما أن أصل الإيمان الإقرار بالله فأصل الكفر الإنكار لله.

الثالث: أنهم يخالفون ما اتفقت عليه الملل كلها وأهل الفطر السليمة كلها؛ لكن مع هذا قد يخفى كثير من مقالاتهم على كثير من أهل الإيمان حتى يظن أن الحق معهم لما يوردونه من الشبهات. ويكون أولئك المؤمنون مؤمنين بالله ورسوله باطنًا وظاهرًا؛ وإنما التبس عليهم واشتبه هذا كما التبس على غيرهم من أصناف المبتدعة، فهؤلاء ليسوا كفارًا قطعًا، بل قد يكون منهم الفاسق والعاصي؛ وقد يكون منهم المخطئ المغفور له؛ وقد يكون معه من الإيمان والتقوى ما يكون معه به من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه.

أصول البدع:

وأصل قول أهل السنة الذي فارقوا به الخوارج والجهمية والمعتزلة والمرجئة أن الإيمان يتفاضل ويتبعض؛ كما قال النبي ﷺ: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»^(١) وحينئذ فتفاضل ولاية الله وتتبعض بحسب ذلك.

فأصل قول الخوارج: أنهم يكفرون بالذنب، ويعتقدون ذنبًا ما ليس بذنب، ويرون اتباع الكتاب دون السنة التي تخالف ظاهر الكتاب. وإن كانت متواترة. ويكفرون من خالفهم ويستحلون منه لارتداده عندهم ما لا يستحلونه من

(١) مسلم ١/٦٥ (٩١) (١٤٧).

الكافر الأصلي، كما قال النبي ﷺ فيهم: «يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان»^(١) ولهذا كفّروا عثمان وعليًا وشيعتهما؛ وكفّروا أهل صفين - الطائفتين - في نحو ذلك من المقالات الخبيثة.

وأصل قول الرافضة: أن النبي ﷺ نصّ على عليّ نصًّا قاطعًا للعدر؛ وأنه إمام معصوم ومن خالفه كفر؛ وأن المهاجرين والأنصار كتموا النص وكفروا بالإمام المعصوم؛ واتبعوا أهواءهم وبدّلوا الدين وغيروا الشريعة وظلموا واعتدوا؛ بل كفروا إلا نفرًا قليلًا: بضعة عشر أو أكثر، ثم يقولون: إن أبا بكر وعمر ونحوهما ما زالا منافقين. وقد يقولون: بل آمنوا ثم كفروا.

وأكثرهم يكفر من خالف قولهم، ويسمون أنفسهم المؤمنين ومن خالفهم كفارًا، ويجعلون مدائن الإسلام التي لا تظهر فيها أقوالهم دار ردة، أسوأ حالًا من مدائن المشركين والنصارى، ولهذا يوالون اليهود والنصارى والمشركين على بعض جمهور المسلمين. وعلى معاداتهم ومحاربتهم، كما عرف من موالاتهم الكفار المشركين على جمهور المسلمين؛ ومن موالاتهم الإفرنج النصارى على جمهور المسلمين؛ ومن موالاتهم اليهود على جمهور المسلمين.

ومنهم ظهرت أمهات الزندقة والنفاق كزندقة القرامطة الباطنية وأمثالهم، ولا ريب أنهم أبعد طوائف المبتدعة عن الكتاب والسنة، ولهذا كانوا هم المشهورين عند العامة بالمخالفة للسنة، فجمهور العامة لا تعرف ضد السني إلا الرافضي، فإذا قال أحدهم: أنا سني فإنما معناه لست رافضيًّا. ولا ريب أنهم شر

(١) البخاري (٣٣٤٤) مسلم (١٠٦٤).

من الخوارج، لكن الخوارج كان لهم في مبدأ الإسلام سيف على أهل الجماعة. وموالاتهم الكفار أعظم من سيوف الخوارج، فإن القرامطة والإسماعيلية ونحوهم من أهل المحاربة لأهل الجماعة هم منتسبون إليهم، وأما الخوارج فهم معروفون بالصدق؛ والروافض معروفون بالكذب. والخوارج مرقوا من الإسلام وهؤلاء نابذوا الإسلام.

وأما القدرية المحضة فهم خير من هؤلاء بكثير، وأقرب إلى الكتاب والسنة، لكن المعتزلة وغيرهم من القدرية هم جهمية أيضاً، وقد يكفرون من خالفهم ويستحلون دماء المسلمين فيقربون من أولئك.

وأما المرجئة فليسوا من هذه البدع المغلظة، بل قد دخل في قولهم طوائف من أهل الفقه والعبادة؛ وما كانوا يُعدّون إلا من أهل السنة؛ حتى تغلّظ أمرهم بما زادوه من الأقوال المغلظة.

ولما كان قد نسب إلى الإرجاء والتفضيل قوم مشاهير متبعون؛ تكلم أئمة السنة المشاهير في ذم المرجئة المفضّلة تنفيراً عن مقالتهم كقول سفيان الثوري: «من قدم علياً على أبي بكر والشيخين فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار؛ وما أرى يصعد له إلى الله عمل مع ذلك». أو نحو هذا القول. قاله لما نسب إلى تقديم عليٍّ بعض أئمة الكوفيين. وكذلك قول أيوب السختياني: «من قدم علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار»، قاله لما بلغه ذلك عن بعض أئمة الكوفيين. وقد روي أنه رجع عن ذلك. وكذلك قول الثوري ومالك والشافعي وغيرهم في ذم المرجئة لما نسب إلى الإرجاء بعض المشهورين.

وكلام الإمام أحمد في هذا الباب جار على كلام من تقدم من أئمة الهدى، ليس له قول ابتدعه، ولكن أظهر السنة وبيّنها؛ وذوّب عنها وبين حال مخالفيها وجاهد عليها؛ وصبر على الأذى فيها لما أظهرت الأهواء والبدع؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فالصبر واليقين بهما تنال الإمامة في الدين، فلما قام بذلك قرنت باسمه من الإمامة في السنة ما شهر به وصار متبوعاً لمن بعده، كما كان تابعاً لمن قبله. وإلا فالسنة هي ما تلقاه الصحابة عن رسول الله ﷺ وتلقاه عنهم التابعون ثم تابعوهم إلى يوم القيامة، وإن كان بعض الأئمة بها أعلم وعليها أصبر^(١).

من هدايات حديث الافتراق:

قال الشاطبي رحمه الله تعالى: «حقيقة هذا الافتراق: يحتمل أن يكون افتراقاً على ما يعطيه اللفظ، ويحتمل أن يكون مع زيادة قيد لا يقتضيه اللفظ بإطلاقه ولكن يحتمله.

وهذه الفرق تحتمل من جهة النظر أن يكونوا خارجين عن الملة بسبب ما أحدثوا، فهم قد فارقوا أهل الإسلام بإطلاق، وليس ذلك إلا الكفر، إذ ليس بين المنزلتين منزلة ثالثة تتصور.

ويحتمل ألا يكونوا خارجين عن الإسلام جملة، وإن كانوا قد خرجوا عن جملة من شرائعه وأصوله.

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٠ - ٣٥٩) باختصار وتصرف يسير.

ويحتمل وجهاً ثالثاً، وهو أن يكون منهم من فارق الإسلام، ومنهم من لم يفارقه، بل انسحب عليه حكم الإسلام وإن عظم مقاله وشنع مذهبه، لكنه لم يبلغ به مبلغ الخروج إلى الكفر المحض والتبديل الصريح.

وهذه الفرق إنما تصير فرقاً بخلافها للفرقة الناجية في معنى كُلِّ في الدين وقاعدة من قواعد الشريعة، لا في جزئيٍّ من الجزئيات، إذ الجزئي والفرع الشاذ لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببها التفرق شيعاً، وإنما ينشأ التفرق عند وقوع المخالفة في الأمور الكلية.

وهذه الفرق غير معيّنة، ولكن لها خواص وعلامات تعرف بها، وهي على قسمين: علامات إجمالية، وعلامات تفصيلية.

فأما العلامات الإجمالية فثلاثة:

أحدها: الفرقة التي نبه عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

الثانية: هي التي نبه عليها قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ الآية [آل عمران: ٧]، فبينت الآية أن أهل الزيغ يتبعون متشابهات القرآن، وجعلوا ممن شأنه أن يتبع المتشابه لا المحكم، ومعنى المتشابه: ما أشكل معناه، ولم يبين مغزاه.

الثالثة: اتباع الهوى، الذي نبه عليه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾؛ والزيغ هو الميل عن الحق اتباعاً للهوى، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ

اتَّبَعَ هَوْنَهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴿ [القصص: ٥٠]؛ وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجن: ٢٣].

وأما العلامة التفصيلية في كل فرقة:

فقد نُبِّهَ عليها وأشيرَ إلى جملة منها في الكتاب والسنة، وفي ظني أن من تأملها في كتاب الله وجدها منبهاً عليها ومشاراً إليها.

هذا وإنه عليه الصلاة والسلام أخبر أنها كلها في النار، وهذا وعيد يدل على أن تلك الفرق قد ارتكبت كل واحدة منها معصية كبيرة أو ذنباً عظيماً، إذ قد تقرر في الأصول أن ما يتوعد الشر عليه فخصوصيته كبيرة؛ إذ لم يقل: كلها في النار إلا من جهة الوصف الذي افتقرت بسببه عن السواد الأعظم وعن جماعته، وليس ذلك إلا للبدعة المفرقة.

معنى الجماعة:

وقد اختلف الناس في معنى الجماعة المرادة في هذه الأحاديث على خمسة أقوال:

أحدها: إنها السواد الأعظم من أهل الإسلام.

الثاني: إنها جماعة أئمة العلماء المجتهدين.

الثالث: إن الجماعة هي الصحابة على الخصوص.

الرابع: إن الجماعة هي جماعة أهل الإسلام، إذا أجمعوا على أمر فواجب على غيرهم من أهل الملل اتباعهم.

الخامس: أن الجماعة جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير.

فهذه خمسة أقوال دائرة على اعتبار أهل السنة والاتباع، وأنهم المرادون بالأحاديث.

معنى الصراط المستقيم الذي انحرفت عنه سبيل أهل الابتداع:

الإحداث في الشريعة إنما يقع:

١- إما من جهة الجهل.

٢- وإما من جهة تحسين الظن بالعقل.

٣- وإما من جهة اتباع الهوى في طلب الحق.

وهذا الحصر بحسب الاستقراء من الكتاب والسنة، فعلى الناظر في

الشريعة أمران:

أحدهما: أن ينظر إليها بعين الكمال لا بعين النقصان، ويعتبرها اعتباراً كلياً في العبادات والعبادات، ولا يخرج عنها البتة، لأن الخروج عنها تيه وضلال ورَمِيٍّ في عَمَايَةٍ، كيف وقد ثبت كمالها وتمامها؟ فالزائد والمنقص في جهتها هو المبتدع بإطلاق، والمنحرف عن الجادة إلى بُنْيَاتِ الطرق.

الثاني: أن يوقن أنه لا تضاد بين آيات القرآن ولا بين الأخبار النبوية ولا

بين أحدهما مع الآخر، بل الجميع جار على مهيع واحد، ومنتظم إلى معنى واحد، فإذا أداه بادي الرأي إلى ظاهر اختلاف؛ فواجب عليه أن يعتقد انتفاء الاختلاف، لأن الله قد شهد له أن لا اختلاف فيه.

وليعلم أن الله جعل للعقول في إدراكها حداً تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك في كل مطلوب.

ولما ثبت أن العقل قاصر الإدراك في علمه، فما ادّعى علمه لم يخرج عن تلك الأحكام الشرعية التي زعم أنه أدركها، لإمكان أن يدركها من وجه دون وجه، وعلى حال دون حال.

فالإنسان - وإن زعم في الأمر أنه أدركه وقتله علماً - لا يأتي عليه الزمان إلا وقد عقل فيه ما لم يكن عقل، وأدرك من علمه ما لم يكن أدرك قبل ذلك، كل أحد يشاهد ذلك من نفسه عياناً، ولا يختص ذلك عنده بمعلوم دون معلوم، ولا بذات دون صفة، ولا فعل دون حكم، فكيف يصح دعوى الاستقلال في الأحكام الشرعية - وهي نوع من أنواع ما يتعلق به علم العبد؟ لا سبيل له إلى دعوى الاستقلال البتة حتى يستظهر في مسأله بالشرع - إن كانت شرعية - لأن أوصاف الشارع لا تختلف فيها البتة، ولا قصور ولا نقص، بل مبادئها موضوعة على وفق الغايات، وهي من الحكمة.

وليعلم أن الشريعة موضوعة لإخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبداً لله. فالله تعالى وضع هذه الشريعة حجة على الخلق كبيرهم وصغيرهم، مطيعهم وعاصيهم، برهم وفاجرهم.

وكذلك سائر الشرائع إنما وضعت لتكون حجة على جميع الأمم التي تنزل فيهم تلك الشريعة، حتى إن المرسلين بها صلوات الله عليهم داخلون تحت أحكامها.

فأنت ترى أن نبينا محمداً ﷺ مخاطب بها في جميع أحواله وتقلباته، مما اختص به دون أمته، أو كان عاماً له ولأمته.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]؛ فهو عليه الصلاة والسلام أول من هداه الله بالكتاب والإيمان، ثم من اتبعه فيه. والكتاب هو الهادي، والوحي المنزل عليه مرشد ومبين لذلك الهدى، والخلق مهتدون بالجميع.

وإذا كان كذلك؛ فسائر الخلق حريون بأن تكون الشريعة حجة حاکمة عليهم، ومنازراً يهتدون بها إلى الحق، وشرفهم إنما يثبت بحسب ما اتصفوا به من الدخول تحت أحكامها والعمل بها قولاً واعتقاداً وعملاً، لا بحسب عقولهم فقط، ولا بحسب شرفهم في قومهم فقط، لأن الله تعالى إنما أثبت الشرف بالتقوى لا غيرها لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ فمن كان أشد محافظة على اتباع الشريعة فهو أولى بالشرف والكرم، ومن كان دون ذلك لم يمكن أن يبلغ في الشرف مبلغ الأعلى في اتباعها، فالشرف إذاً إنما هو بحسب المبالغة في تحكيم الشريعة.

ثم نقول بعد هذا: إن الله سبحانه شرف أهل العلم ورفع أقدارهم، وعظم مقدارهم، ودل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع، بل قد اتفق العقلاء على فضيلة العلم وأهله، وأنهم المستحقون شرف المنازل، وهو مما لا ينزع فيه عاقل.

واتفق أهل الشرائع على أن علوم الشريعة أفضل العلوم، وأعظمها أجراً عند الله يوم القيامة.

وأيضاً فإن علوم الشريعة منها ما يجري مجرى الوسائل بالنسبة إلى السعادة الأخروية، ومنها ما يجري مجرى المقاصد، والذي يجري مجرى المقاصد أعلى مما ليس كذلك، كعلم العربية بالنسبة إلى علم الفقه، فإنه كالوسيلة، فعلم الفقه أعلى.

وإذا ثبت هذا؛ فأهل العلم أشرف الناس وأعظم منزلة بلا إشكال ولا نزاع، وإنما وقع الثناء في الشريعة على أهل العلم من حيث اتصافهم بالعلم لا من جهة أخرى، ودل على ذلك وقوع الثناء عليهم مقيّداً بالاتصاف به، فهو إذاً العلة في الثناء؛ ولولا ذلك الاتصاف لم يكن لهم مزية على غيرهم.

ولذلك إذا وقع النزاع في مسألة شرعية وجب ردها إلى الشريعة حيث يثبت الحق فيها، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ نُنزِعُكَ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية [النساء: ٥٩].

فالمكلف بأحكامها لا يخلو من أحد أمور ثلاثة:

أحدها: أن يكون مجتهداً فيها: فحكمه ما أداه إليه اجتهاده فيها، لأن اجتهاده في الأمور التي ليست دلالتها واضحة إنما يقع موقعه على فرض أن يكون ما ظهر له هو الأقرب إلى قصد الشارع والأولى بأدلة الشريعة، دون ما ظهر لغيره من المجتهدين، فيجب عليه اتباع ما هو الأقرب.

الثاني: أن يكون مقلداً صرفاً، خَلِيّاً من العلم الحاكم جملة، فلا بد له من قائد يقوده، وحاكم يحكم عليه، وعالم يقتدى به.

الثالث: أن يكون غير بالغ مبلغ المجتهدين، لكنه يفهم الدليل وموقعه، ويصلح فهمه للترجيح بالمرجحات المعتبرة في تحقيق المناط ونحوه، فلا يخلو إما أن يُعتبر ترجيحه أو نظره، أو لا؛ فإن اعتبرناه صار مثل المجتهد في ذلك الوجه، والمجتهد إنما هو تابع للعلم الحاكم ناظرٌ نحوه، متوجهٌ شطره؛ فالذي يشبهه كذلك.

وإن لم نعتبره فلا بد من رجوعه إلى درجة العامي، والعامي إنما اتبع المجتهد من جهة توجهه إلى صوب العلم الحاكم، فكذلك من نزل منزلته.

فالحاصل أن تحكيم الرجال من غير التفات إلى كونهم وسائل للحكم الشرعي المطلوب شرعاً ضلالاً، وإن الحجة القاطعة والحاكم الأعلى هو الشرع لا غيره.

ثم نقول: إن هذا مذهب أصحاب رسول الله ﷺ، ومن رأى سيرهم والنقل عنهم وطالع أحوالهم علم ذلك علماً يقيناً، ألا ترى أصحاب السقيفة لما تنازعوا في الإمارة - حتى قال بعض الأنصار -: «منا أمير ومنكم أمير» فأتى الخبر عن رسول الله ﷺ بأن: «الأئمة من قريش»^(١) أذعنوا لطاعة الله ورسوله ولم يعبأوا برأي من رأى غير ذلك، لعلمهم بأن الحق هو المقدم على آراء الرجال.

(١) أخرجه أحمد (١٢٩/٣) وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل

إذا ثبت أن الحق هو المعبر دون الرجال؛ فالحق أيضاً لا يعرف دون وسائطهم، بل بهم يتوصل إليه وهم الأدلاء على طريقه»^(١).

الهوى آخية الافتراق:

الدنيا دار ابتلاء وميدان امتحان، وربنا تعالى خلقنا ليلبونا أينما أحسن عملاً إخلاصاً وتقوى واتباعاً، ومن عظيم حكمته تبارك وتعالى أن جعل صراطه واضحاً جلياً يقبله العقل، وترتاح إليه الفطرة، وتفرح به النفوس الطيبة، ويجد في سلوكه كل ذي هممة ورغبة في سعادته وفلاحه.

وإن من موارد الابتلاء الرباني أن جعل في بعض حروفه المنزلة مواطن تختلف فيها الأفهام، فمن وفقه الله تعالى من عباده لاستفراغ وسعه وفق شرعه بلّغه المنزل، فإن أصاب ظفر بالأجرين، فبذل الوسع في ذك الحق إرضاءً لله تعالى في ذاته فضيلة، وإدراكه وتحصيله فضيلة أخرى، والله قد جعل العلماء مراتب، وكلُّ محض فضل الله تعالى، وإن أخطأ المجتهد الصادق فله أجر سعيه، وهو غير مؤاخذ بخطئه غير المقصود رحمةً من الله تعالى وعدلاً وإحساناً، فمايزر سبحانه عباده بما خص بعضهم بإصابة الحق كرامة منه ورحمة، وقصر بعضهم عن إدراكه إما لتقصير في طريقة تحصيله، أو لما شاءه سبحانه من أمور لا تبلغها العقول ولا تدركها البصائر، فلا مانع لفضله وعطائه وكرامته، ولا رادّ لعدله وخذلانه وحرمانه، وسع كل شيء رحمة وعلماً، وهو العزيز الحكيم. والمقطوع به؛ أن كل ذلك لحكم ربانية باهرة لا تحيطها الأفهام، ولا تدركها الأبواب

(١) الاعتصام للشاطبي (١/١٠١، ٤٧٣، ٤٧٤) بتصرف يسير.

والعلوم، فلا يُسأل عما يفعل، وهو يخلق ما يشاء ويختار. والسعيد من رضي بالله رباً وإلهاً ومدبراً مُتصِراً فاحيماً كريماً حكيماً.

وقد يدرك بعضهم موطن الحق فيستنكف عنه لهوى، من زيعة كبر، أو حظّ نفس، أو لعاعة دنيا، وهؤلاء هم أهل الزيغ والفرقة الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وما أكثرهم لو كانوا يعقلون، والله المستعان. قال شيخنا صالح آل الشيخ حفظه الله تعالى: «كل أنواع الافتراق التي حدثت إنما كانت لأجل الهوى، ولذلك سُموا أهل الأهواء.

هل وجود المتشابه في القرآن والسنة يُعتبر سبباً في خروج أهل الأهواء؟:

الجواب: ليس كذلك؛ لأن الله تعالى بيّن أنّ أهل الأهواء في قلوبهم زيغ قبل أن ينظروا إلى الأدلة، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧]، قال سبحانه في أول الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ فيبين أنّه جعل كتابه منه محكم ومنه متشابه، يعني يشتهه على المرء العلم به.

ما الذي حصل؟

أنّ الذين في قلوبهم زيغ اتبعوا المتشابه، قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ﴾ فأثبت الزيغ في قلوبهم ثم وصفهم باتباع المتشابه.

فإذا المتشابه في الكتاب والسنة ابتلاء ليظهر أهل الأهواء من أهل السنة والجماعة، فحُصُولُ الهوى والزيغ في القلب ينتج عنه أن يبحث عما يُؤيد به هواه

وَيُؤَيِّدُ بِهِ زَيْغَهُ، وهذا ما نصت عليه الآية قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ﴾^(١) بالفناء الترتيبية. ولهذا قال الأئمة: «إِنَّ أَعْظَمَ مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْجَمَاعَةَ، وَأَعْظَمَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ الْإِفْتِرَاقَ» لأنَّ حقيقة الاجتماع اجتماع في الدين وفي الأبدان وبهما صلاح العباد، وأعظم المصائب الافتراق وبهما يحصل البلاء كله.

فالشرك فُرْقَةٌ، والتوحيد جماعة. والبدعة فُرْقَةٌ، والسنة جماعة. والعقائد الصحيحة جماعة، والعقائد الفاسدة فُرْقَةٌ. والاستدلال بالكتاب والسنة وصحة منهج التلقي جماعة، والاستدلال بالأهواء والعقول وما أَلْفَ المرء آباءه وأقوامه عليه فُرْقَةٌ؛ لأنَّه خالف المنهج الصحيح في الاستدلال. والاجتماع مع جماعة المسلمين وأئمتهم جماعة، والافتراق وترك أئمة المسلمين وجماعتهم فُرْقَةٌ، وهكذا، فكل خير في الجماعة والسنة، وكل شر في الشذوذ والخلاف والفُرْقَةُ»^(١).

العصبية الجاهلية والفُرْقَةُ:

أَنَّ مَا يَتَعَجَّبُ لَهُ النَّازِرُ فِي أَحْوَالِ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَانِ وَمَا قَبْلَهُ - وبخاصة لدى أهل العلم والدعوة والسلوك - أن يرى فئامًا منهم قد فارقوا مسميات الشرع الجميلة الجامعة المانعة المُسَدِّدَةَ المحمودة ورغبوا عنها إلى مسميات لا تخلو من غلط في مبانيها أو معانيها، ثم بنوا على ذلك اجتماعهم عليها دون ما وضعت لهم الشريعة من مسميات كاملة جامعة، فالقوالب العَلَمِيَّةُ من تلك المسميات تتضمن بداخلها بذور الفرقة والنزاع والشقاق والخصومة، لأنها

(١) إتخاف السائل بما في الطحاوية من مسائل (٣٦ / ٣).

اجتماع على غير سبيل السنة لما فيها من تخصيص فئة دون أخرى مما يفضي إلى النزاع بأحرّة، ولما فيها من هجر ألقاب الشريعة المحمودة بكل حال، حتى وإن كان ظاهر بعض ما أحدثوه من مسميات بخلاف ذلك، ومن لم تُغنه مسميات ربه فلا أغناه الله.

والمقصود؛ أن الغاية هي الاجتماع على الحق من الجميع، فإن دَاخَلَ ذلك المُسَمَّى تفریقٌ للجماعة مُنْع، بل حتى مسميات الشريعة وألقابها الفاضلة التي عُنيت بالتمييز المصلحي لأجل التعريف لا يجوز أن تُتخذ وسيلة لتفريق الجماعة، واعتبر ذلك بغضب رسول الله ﷺ على من هتَفَ للمهاجرين والآخر الذي هتَفَ للأنصار لأنَّ حُرَّكَ ذلك النداء عصبية جاهلية لا دينية، مع أن لقب المهاجرين والأنصار قرآنيٌّ فاضل شريف، وهذا من اعتبار المقاصد والمآلات.

وبالجملة؛ فالعبرة بالاجتماع اللقبى بمسميات الشرع والعملى باجتماع القلوب والأبدان، فكيف بألقابٍ هي عينُ المضاهاة أو المشاقّة لألقاب الشريعة؟! «واعلم أنّه لا يُشرع أن يُحدَثُ ألفاظٌ وأسماءٌ يُجمَعُ الناسُ عليها وَيَتَعَصَّبُونَ لها، وهي ليست من الألفاظ الشرعية؛ لأنَّ هذا نوع من الفرقة والخلاف والافتراق.

ولهذا قال العلماء: الله تعالى سَمَّى أتباع محمد ﷺ مسلمين ومؤمنين، وَسَمَّى منهم المهاجرين، وَسَمَّى منهم الأنصار، وَسَمَّى منهم الأعراب، وَسَمَّى منهم إلى آخره، وهذه التسميات لأجل مجيئها في القرآن فهي شرعية، وهذه التسميات الشرعية إذا تُعَصَّبَ لها مع أنّها شرعية صارت مذمومة حاشا اسم

الإسلام والإيمان.

لهذا لما قام رجل من المهاجرين لأجل خلاف وقال: يا للمهاجرين . يتتخي بهم، وقام غلام من الأنصار فقال: يا للأنصار. يتتخي بهم فقال النبي ﷺ: «ما بَأَلْ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ»^(١). لم؟

لأنَّ النخوة هنا والتَّعَصُّب صار لطائفة من المؤمنين وللفظ ليس هو لفظ الإسلام والإيمان أو المسلمين والمؤمنين فصار هذا مُحدثًا للتفرقة، ولهذا قال «ما بَأَلْ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ» لأنَّ الجاهلية هم الذين يتتخون ويتعصبون للأسماء دون غيرهم.

فكذلك الأسماء المحدثَّة في الأمة إذا تُعَصَّبَ لها دون غيرها فإنه يكون ذلك مردوداً على أصحابه، مثلاً اسم الحنابلة، اسم الشافعية، اسم المالكية، اسم السعوديين، اسم المصريين، اسم الشرقيين المغاربة الشُّوام إلى آخره، هذه أسماء إذا كانت في الأمة لأجل التعريف فإنَّ هذا الأمر فيه واسع؛ لكن إن كان ثَمَّ تَعَصُّبٌ عليها وذم لما خالفها لأجل الاسم، أن يمدح الشافعية لأجل أنهم شافعية، أو يذم الحنابلة لأنهم ليسوا بشافعية، أو العكس فإنَّ هذا من التعصُّب المذموم، وهو من التفرقة والأخذ بالشعارات أو الأسماء التي لم يُدَلَّ عليها الدليل»^(٢).

(١) البخاري (٤/١٨٣).

(٢) إتحاف السائل (١١/٣٦) بتصرف يسير.

قال الإمام الشاطبي^(١): «قال عبد الرحمن بن مهدي: قد سئل مالك بن أنس عن السنة؟ قال: هي ما لا اسم له غيره السنة، وتلا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].»

وقال ابن القيم^(٢): «وقد سئل بعض الأئمة عن السنة؟ قال: ما لا اسم له سوى السنة. يعني أن أهل السنة ليس لهم اسم يُنسبون إليه سواها». وفي كتاب الانتقاء لابن عبد البر^(٣): «أن رجلاً سأل مالكا فقال: من أهل السنة؟ قال: «أهل السنة الذين ليس لهم لقب يُعرفون به؛ لا جهمي ولا قدري ولا رافضي.»

متى ظهر الاعتناء بأهل السنة والجماعة؟

«ظهر ذلك لما ظهر الاختلاف.

والاعتناء بالاسم تمييزاً ليس ثناءً فقط لمن اتبع للسنة والجماعة؛ ولكن هو أيضاً عدل مع من خالف؛ لأن الذي خالف لو قلنا هؤلاء مسلمون؛ لكان أولئك نقول كفار، كيف تُحْصُونَ أنتم بالمسلمين؟

فإذا صار عند السلف من كان على الطريقة الأولى يقال له من أهل السنة والجماعة، ومن كان مُخَالَفاً يقال له من أهل الأهواء كالمرجئة الخوارج إلى آخر ذلك.

(١) الاعتصام (١/٧٩).

(٢) مدارج السالكين (٣/١٧٩).

(٣) الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء (ص: ٣٥).

ولهذا أجمع أئمة الإسلام على صحة هذه التسمية من أهل الحديث؛ بل ومن غيرهم من الأشاعرة والماتريديّة على أنّ تسمية أهل السنة والجماعة صحيحة، وهذا اتفاقٌ منهم على ذلك، فالتسمية صحيحةٌ مُجمَعٌ عليها؛ لكن دلالتهَا مُخْتَلَفٌ فيها.

قال الإمام الطحاوي: «وَنَرَى الْجَمَاعَةَ حَقًّا وَصَوَابًا، وَالْفُرْقَةَ زَيْغًا وَعَدَابًا». ويريد العلامة الطحاوي رَحْمَةُ اللَّهِ وَأَجْزَلُ لَهُ الْمَثُوبَةُ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنْ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ النَّافِعَةِ بِأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَهْلَ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ أَتْبَاعِ السَّلَفِ الصَّالِحِ يَرُونَ الْجَمَاعَةَ حَقًّا أَحَقَّهُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَحَقَّهُ رَسُولُهُ ﷺ ثَابِتٌ وَخِلَافُهُ بَاطِلٌ. وَأَنَّهُمْ يَرُونَ الْجَمَاعَةَ صَوَابًا فِي الْإِلْتِمَازِ بِهَا وَفِي التَّمَسُّكِ بِهَا فِي الْحَالِ وَالْمَالِ وَفِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنَّ خِلَافَ الْجَمَاعَةِ بَاطِلٌ وَغُلَطٌ وَضَلَالٌ.

وسبب إيراد هذه الجملة في العقائد أمران:

الأول: أن أعظم ما حصل به الزيغ والذم في الأمة وإضعاف الأمة والبدع والمحدثات والشرك وجميع الموبقات بأنواعها إنما حصل من جرّاء ترك الجماعة والأخذ بالفرقة أو استحسان الفرقة.

الثاني: أن الفرق الضالة رأت الفرقة خيراً وطلبتها ورأت الجماعة ضعفاً فنبتتها»^(١).

(١) إتحاف السائل (٥٠ / ٥).

معنى الجماعة:

لفظ الجماعة مأخوذ من الاجتماع، فإذا جاء على لسان الشرع فهو الاجتماع في الدين أولاً باجتماع القلوب والجوارح على الهدى ثم باجتماع الأبدان على التعاون على البر والتقوى، لذا جاء الزجر شديداً في المفارقة بالقلوب أو الأبدان، وجاء تقديم الاجتماع ولو على حساب تحصيل بعض الكمالات الدينية الخاصة، ومن ذلك أن ابن مسعود أتمّ خلف عثمان رضي الله عنهما في منى واسترجع لأنه يرى أن السنة قصر الصلاة في ذلك الموطن، فلما روجع في ذلك وكيف ترك الفاضل من القصر للمفضول من الإتمام ذكر لهم وجه ذلك بقوله: «الخلافة شر»،^(١) ولما سئل الإمام أحمد رحمه الله تعالى عمّن يأتّم بإمام شافعي يقنت في الفجر أمر بمتابعته، وهذا من الفقه العميق لذلك الإمام الرباني رحمه الله تعالى، فاجتماع الأبدان مطلب شرعي ولو كان في تحصيله فوات بعض الكمالات، وهذا من مراعاة الشريعة لفضيلة الاجتماع، وهذا فيما بين الفاضل والمفضول، أو الراجح والمرجوح فيما ساغ فيه الخلاف، وليس بالمتابعة على الضلال أو المعصية، لذلك لا يعني ما ذكرناه من المتابعة الشروع في فعل المعصية أو المتابعة على بدعة، والموفق من راعى مصالح الشرع بتحصيل المصالح وتكميلها ودرء الفاسد وتقليلها، ويدرء المفسدة الكبرى بالصغرى، وليس الحكيم هو من يعرف الخير والشر، وإنما الحكيم هو من يعرف خير الخيرين، وشر الشرين ويُتبع حكمة علمه حكمة عمله.

(١) أبو داود (١٩٦٠) وصححه الألباني.

وإن أنس لا أنس غضب شيخنا العثيمين رحمه الله تعالى في درسه بعد صلاة التراويح في سطح المسجد الحرام لما شغب بعضهم اعتراضاً على دعاء ختم القرآن أثناء الصلاة حتى إن بعضهم فارق الإمام أو رفع يديه واستغفر بعد التأمين إلى غير ذلك؛ فبين رحمه الله تعالى وجه دعاء الختم في الصلاة والأدلة في ذلك، وأنها من مسائل الاجتهاد التي يُتباع فيها الإمام، ثم مثل لهم بخبر الفقيه ابن مسعود مع أمير المؤمنين الراشد عثمان رضي الله عنهما في إتمام الصلاة بمنى وبين لهم خطر المخالفة وشؤم المفارقة.

ومن فروع ذلك ما قرره أهل علماء أهل السنة من قبول ولاية المتغلب، وأنه في حقيقته قوّة وليست ضعفاً، فمما يتميز به النهج السنّي العتيق الحرص الشديد على حفظ بيضة المسلمين، واجتماعهم على إمام مطاع يسوسهم بالشرع الحنيف، لذا فقد شدد الشرع في شأن الخروج غير المبرر على من انعقدت له البيعة وصحّ له الحكم، فلا يحل خروج ونبد إلا بشرطي كفر الإمام وغلبة الظن على تغييره، وتقرير الشرطين إنما هو بيد الراسخين في العلم.

ومن هنا فينبز بعضهم هذا المنهاج بالضعف والخنوع لقوله بانعقاد ولاية المتغلب المسلم، والجواب من وجهين:

أولاً: أن هذا مقتضى الشرع، والأدلة في ذلك صحيحة صريحة كثيرة متنوعة، وبما أنها كذلك فيكفي المؤمن علمه بها ليستيقن قلبه وتطمئن نفسه ويعلم أن أمر الله كله خير. ولكن لا يعني هذا ترك الإنكار على السلطان وإبراء الذمة بنصحه ونصح الأمة، والعمل على إقامة دين الله تعالى بحسب الوسع

والطاقة.

ثانياً: أنها قوة وعزة في الحقيقة، وليست بضعف ووهن وخنوع، وهذا جليٌّ لمن تأمله، فالقبول للمتغلب ومبايعته ليس لشخصه، بل لمركزه الذي يخوله القيام بأمر الناس، فإن غلبه غيره ببيع المتغلب الآخر، لأن القبول بالأول ليس لشخصه بل لمكانه الذي يقيم به دين الناس وديانهم.

وتأمل حال الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ مفتي الرياض في وقت إمارة ابن رشيد للرياض فقد قاتل بشراسة وأفتى لأهل الرياض بالقتال ضد الملك عبد العزيز حينما أراد دخول الرياض للمرة الأولى إبان معركة الصريف المشهورة. وبعد ذلك لم يعتذر الشيخ، بل قال: «قد كانت لهؤلاء بيعة في أعناقنا». فالقضية إذن هي قضية مبدأ ودين، لا رغب ورهب.

وتأمل حال ابن عمر رضي الله عنهما وغيره من الصحابة مع السلطان المتغلب المسلم والتزام بيعته والتشديد في نكثها، حتى لا تروج الفتن في الناس بسبب القتال على الإمرة.

ذلك أن الولاية - ملكاً كانت أو إمرة أو سلطنة - فهي بمنظور الشرع إنما هي تكليف محض شاق يليه حساب شديد يوم الدين، وليست تشريعاً ومغناً، ولكن من وليّ وعدل فإنه يستحق أن يكون من السبعة الذين يكرمهم الله غداً بأن يجعلهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ذلك أن ولايات السلطة المطلقة سمّ للروح نافع لا يسلم منه إلا من كان شديد التحصين بالإيمان والورع.

هذا، وخطر مقام السلطان وخطر زعزعته على أمن الناس وسكيتهم

ودينهم فقد شدد الشرع في حرمة الخروج عليه أو نقض بيعته أو شق عصاه بلا مبرر ومسوغ من الشريعة.

وبالجملة فالمنهج السلفي ليس بدعاً من الأقوال والأفعال والمناهج، بل هو المثل للإسلام الصافي والسنة النقية من شوائب البدع وغوائل المحدثات، وهو التلادُّ حقاً للأمة.

لذا فلا تعجب من كثرة الخصوم لمنهج السلف وكثرة التغبيش حول هدايته؛ فلشموخه ووضوحه ورسوخه وقوة حججه وقرب معانيه لم يبق لهم سوى ضجيج التائهين، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق. (١)

وبعد؛ فالعلم - رحماني الله تعالى وإياك - أن من ألف بآء فهم المسائل حسن التصور لها إجمالاً، أما تحقيق حدود التفاصيل فهو ميدان اختلاف الرأي، وفي دائرته يكون السجال مؤيداً بالبراهين.

فنحن كمسلمين لدينا كلية مطلقة لا تقبل الجدل والتمحك، ولا الضبابية والتمحل، تلك هي محورية تحقيق العبادة لله جل وعلا. فهذا القدر الكلي مجمع عليه، لذا فمنه المنطلق في الحوار وإليه العود في الترجيح.

فموضوع الغاية من الخلق محسوم بأية الداريات، إنما الشقاق يكون بالقفز الفكري أو الشعوري خارجه! لذلك فطريقة القرآن هي رد الناس إلى هذه الغاية

(١) ولمزيد تفصيل انظر: «ولا تفرقوا» للمؤلف.

مهما تلونت سبلهم وأسبابهم، فيستحيل أن يتعدد الحق في نفسه، إذن فلا بد من مرجعية مهيمنة وحاسمة، تلك بلا تردد هي حاكمية الوحي المنزل.

ودعنا نقف على أمثلة متنوعة الألوان والرسوم حتى ندرك خداع النفس الأمانة لصاحبها حينما تتلفع له بقناع النصح والوداد المخفي لما تحته من وجه الحقيقة الآثمة! وثم خمسة أمثلة:

الأول: مثال الفقيه المبرر بلي أعناق النصوص لما يراه من تقديم مصلحة دنيا الناس على دينهم بتضخيم جانب أمن الجسد على أمن الديانة.

فحينما يتوسع الفقيه في منطق تسويغ فعل سياسي خارج حدود المقبول، وينشغل بترقيع خلال السياسي في مقابل تضخيم خوف المآلات بحجة - أو شبهة - دفع ورفع الفتن المتوهمة، فنحن هنا أمام مثال لتقزيم الأصل وهو تحقيق العبادة لرب العالمين في سبيل حفظ دنيا لفرد أو جماعة. وكم من مبطل بلباس ناصح!

ولا نعني بذلك إلغاء القصد النبيل للفقيه، فهو أمر قد جاءت به الشريعة وعظمت شأنه، فلا يقوم الدين إلا بدنيا صالحة، والتاريخ شاهد صدق، إنما المطلوب أن يُججَم الأمر بقدره الشرعي، فلا يكون هو الأصل دون تحقيق العبادة لله جل وعلا.

والمؤمن كَيْسُ فطن، فلا بد من مراعاة الحكمة والمصلحة الشرعية في ذلك، فربَّ إلقاءٍ لمفسدة صغرى تُدفعُ بها مفسدة كبرى، فليعلم ذلك؛ حتى لا يكون فساد عمل المرء من جهة إصلاحه، فلا بد من مراعاة قاعدة المصالح والمفاسد

ودرء المفسدة الكبرى بالصغرى ونحو ذلك، علمًا أن حال السعة والراحة والأمن في أحوال الناس ليس كحال الضيق والخوف والضرورة، وعلى المؤمن قصد السبيل المستقيم دون الجائر، والموفق من وفقه الله تعالى.

وللتوضيح نقول: تحقيق العبودية عبادة محضة، ومحور لا يقبل التجزئة، أما غير ذلك فهي وسائل لتحقيقها لا غير، فهذه الوسائل ملحقة بالعبادات من جهة أنها تفضي إليها لا أنها هي.

قال تعالى: ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ١٩١] فالفتنة حينما تصرف عن الأصل الأعظم وهو الإيمان؛ فهي بلا ريب أشدُّ من قتل يُتلف الجسد وتبقى بعده حياة الإيمان. وفرض الوقت هو أن تُحفظ العبادات ووسائلها، بحيث لا تنقلب الوسيلة غاية ولا الفرع أصلًا، وبالمقابل لا يجوز أن تلغى الوسيلة بحيث لا يبقى للمرء بعدها لغايتها وصول.

الثاني: الغيور المنكر المتحمس الذي ترتاح نفسه للجاج والخصام، والعجلة، والبداة بالتغيير بسلاطة اللسان وسوء الظن وتفتيش النيات وكشف العورات والفرح - عمليًا - بالزلات، ونشر المنكرات وإشاعتها بقصد حربها وكسرها، والتساهل في اتهام أهل العلم والفضل بالتقصير في القيام بأمر الدين، ووصمهم بالمداهنة وبيع الآخرة نظير عمالة من سلطان.. ونحو ذلك مما قد كُفّيه ولم يكلف به، ولكن أبت عثرته إلا أن تُكرعه حمأة البغي!

وقد يزيد هذا العجولُ بلا علم ولا حلم فينكر باليد ما ليس تحت يده ومما ليس مأذونًا له فيه، وقد يستطيل بغيًا فيستطيب إشهار السيف على من حرم الله

في سبيل إقامة أمنيّة لا يراها خارج جمجته الحيرى! فيفرح بدرس نواقض الإسلام دون درس موانع التكفير، بل يرعياها أذنًا صماء، فيكتفي بالأولى ليركض بها في نكيره، ويتعمّد الإغماض عن الثانية لأنها تقيد حرية طيشه! ويكأنما نسي أن شارع الأولى والثانية واحد. وكم من مرید للخير لم يبلغه، وكم من كارثة لا ترقؤها الأيام ابتدأها من يظن فعله صالحًا! ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ [النساء: ٦٦].

يا صاحبي: إنكار المنكر فرض على الأعيان أو الكفريات بحسب الأحوال، فاحرص على اعتدال رمانة ميزانك بلا وكس ولا شطط، فلا تقعد عن إنكار مشروع، ولا تتخوض ما لم تأمرك به الشريعة ولم يأذن لك به الله تعالى.

الثالث: الداعي إلى سبيل ربه ولكن عبر التوسع فيما يراه وسيلة جاذبة للناس للخير الذي يدعوهم إليه، فيركب المشتبه، ويتوسع فيما اختلف فيه، وينسلخ من ضوابط من أجازوا له ما هوي مرحلة بعد أخرى حتى تظهر عورة منهجه بعد سقوط آخر ورقة للتوت ولو من غيره ممن استنوا طريقته، بل ربما عصى ربه في سبيل طاعته! والله طيب لا يقبل إلا طيبًا، ولم يجعل هداية خلقه وطبّ قلوبهم وأجسادهم فيما حرّم عليهم، وليس كل طريقٍ للحق موصلٌ وإن نبل هدف سالكيه.

فقف إذن حيث وقف سلفك الصالح، فإنهم عن علم وورع وحكمة وتوفيق كفوا ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

الرابع: المرء مع أسرته من زوج وذرية، فيسعى لأن يملأ أعمارهم بهجة

وسرورًا، ويتذكر فصول الحب وحسن المعشر والرحمة والكرم ونحوها، ولكنه في غفلة هائلة عن النصح الحقيقي، والشفقة التامة، والحب الصادق الذي يفضي به إلى أن يأخذ بأيدهم إلى رضوان الله تعالى والجنة.

جميل جدًا أن ترسم الضحكة والبسمة على محياهم شريطة أن تعمل على أن يستمر هذا معهم بعد رحيلهم عن هذه الدار الصغيرة الزائفة الزائلة الفانية، فاعمل على رسم الهدف النهائي الأخرى لك ولهم، وصله بمباهج الدنيا التي لا تحلو أصلًا إلا مع طاعة الله تعالى. فإن رأيت يومًا فرعًا أمارًا بالسوء فاهتف به: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧] ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

الخامس: المؤمن مع نفسه في حال زجرها أو إكرامها، فمن شقَّ عليها بأطرها على مسيرٍ لم تؤمر به، ولم يرفق بها في طريقٍ صالحٍ حتى كَلَّتْه وملَّتْه، فحبسَ غريزته تأثمًا دون إفراغها فيما سخر لها خالقها من المباح، أو أطلقها حول الحمى، ثم أوجها الحمى، حتى إذا طرقت الحرام وألفت العصيان لم يسمع لنداء الإيمان في قلبه ركزًا!

وكما أن الإيمان لا يصح دون علم؛ فكذلك العلم لا ينفع دون إيمان، وتأمل كيف جمعها ربنا بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم: ٥٦].

فإحسان العبادة غاية الصديقين، والرفق بالنفس مع الخزم معها وسيلة تحقيق هذا المقصد الأعلى بإذن ربنا الأعلى، ومتى طغت الوسيلة على الغاية هلكت الراحلة والراحل. فالمؤمن فطنٌ نبيه، وحكيم عليم، وحازم لطيف، يرى الشرع بمنظار الشرع، ويستعيد بالله من هواه هُداه، فيحرص على

الاعتصام بحبل الله تعالى في نفسه وما أطاق من أمته، والدنيا كلها ابتلاء، والآخرة ميعادُ المؤمنين ووعيدُ الكافرين، والسعيد من ولد آدم من رضي الله تعالى عنه. فضع يدك على فؤادك ثم اسأله: أي فؤادي، متى خفقتك الأخيرة؟! اللهم اجعلها على الإيمان، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

هذا؛ وإنَّ الجماعة قد «اختلف السلف في تفسيرها على عدة أقوال، والذي يجمع كلام السلف أنَّ الجماعة نوعان: جماعةٌ في الدين، وجماعةٌ في الأبدان والدنيا.

والنصوص تشمل هذا وهذا، ومن فسَّر من السلف (الجماعة) بجماعة الدين فإنه تفسيرٌ للشيء ببعض أفرادهِ، كما هو عادة السلف، ومن فسَّرها بأنها جماعة الأبدان والاجتماع على الإمام وولي الأمر فإنه يعني بها فرداً أو بعض أفراد الجماعة. فالجماعة نوعان:

أولاً: جماعة في الدين: وهي الأساس الأعظم لما أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله، فإنَّ الله أرسل الرسل وأنزل الكتب لأجل أن يجتمع الناس في دينهم، وهو توحيد الله، عبادته وحده دون ما سواه والبراءة من الشرك وأهله.

وهذا هو الذي جاء في نحو قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] يعني واجتمعوا عليه، وهو المذكور في قوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وهذا الاجتماع في الدين هو أعظم أمرٍ لأجله بُعثت الرسل وأنزلت الكتب، وهو الذي من أجله يجاهد المجاهد ويدعو الداعي، وهو الذي من أجله أتى الله تعالى الرسل الآيات والبينات، أن يجتمعوا لأجل تحقيق الدين، لأجل ألا يفترق الناس في الالتزام بما يُرضي الله تعالى فيما يستحقه في العبادة والطاعة له ولرسوله ﷺ.

فيدخل هنا في الاجتماع: الاجتماع في ملازمة الإسلام، والالتزام به، وألا نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعضٍ، وأن يُدخَلَ في الإسلام كافة دون تفریقٍ ما بين مسألة ومسألة. أي من حيث الاعتقاد والإقرار والإذعان والالتزام..

ثانياً: جماعة الأبدان: أي اجتماع الأبدان والدنيا بملازمة طاعة من ولّاه الله الأمر، والسمع والطاعة في غير معصية الله.

وهذا النوع وسيلة لتحقيق الأوّل، فالأمرُ به والنهي عن الخروج عن الولاية والأمر بالاجتماع فيما أحبّ الإنسان وكرهه، كما جاء في الحديث: «على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره»^(١) هذا به يتحقق الاجتماع في الدين.

والتفريط في الأول أو في بعضه يُعاقبُ الله تعالى به بالفرقة في الثاني أو بعضه، وكذلك التفريط في الثاني وهو: السمع والطاعة لولاة الأمور في غير المعصية، والاجتماع وعدم الخروج، التفريط في الثاني يُنتجُ التفريط في الأول أو في بعضه.

(١) مسلم (١٨٣٩).

ولهذا ما مِنْ فُرْقَةٍ فِي الْأَبْدَانِ حَصَلَتْ فِي الْأُمَّةِ إِلَّا وَكَانَ مَعَهَا وَبَعْدَهَا مِنْ الْإِفْتِرَاقِ فِي الْعَقَائِدِ وَنَفُوذِ الْبَدْعِ وَالْمُحَدَّثَاتِ مَا لَا يَدْخُلُ فِي حُسْبَانٍ.

فَالْأَمْرَانِ مِتْرَابِطَانِ، وَالْجَمَاعَةُ مَطْلُوبَةٌ فِي هَذَا وَهَذَا، وَمَأْمُورٌ بِهَا، وَجَمَاعَةُ الدِّينِ وَاجْتِمَاعُ النَّاسِ فِي دِينِهِمْ حَقٌّ وَصَوَابٌ، وَإِحْدَاثُ الْمُحَدَّثَاتِ بَاطِلٌ وَغَلَطٌ وَضَلَالٌ، وَكَذَلِكَ الْاجْتِمَاعُ فِي الْأَبْدَانِ وَالْدُنْيَا حَقٌّ وَصَوَابٌ، وَخِلَافُهُ بِالْفُرْقَةِ وَالْخُرُوجِ بَاطِلٌ وَزَيْغٌ وَضَلَالٌ.

هَذَا؛ وَجَمَاعَةُ الدِّينِ حَصَلَتْ فِيهَا الْإِفْتِرَاقُ أَوْ حَصَلَ فِيهَا الْخِلَلُ وَوَقَعَتْ الْفُرْقَةُ قَبْلَ الْإِفْتِرَاقِ فِي الْأَبْدَانِ أَوْ قَبْلَ اخْتِلَالِ جَمَاعَةِ الْأَبْدَانِ، وَذَلِكَ حِينَ نَشَأَتْ الْخَوَارِجُ فِي عَهْدِ عَثْمَانَ، وَحَدَثَ مِنْهُمْ مَا حَدَثَ حَتَّى آلِ الْأَمْرِ إِلَى قَتْلِ عَثْمَانَ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَعَتْ الْفُرْقَةُ وَاخْتَلَّتْ الْجَمَاعَةُ.

وَهَذَا يُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ مَنْ دَعَا إِلَى الدِّينِ وَالْاجْتِمَاعِ عَلَيْهِ وَتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ وَنَبَذَ الْبَدْعَ وَوَسَائِلَ الشَّرْكِ وَالْبَدْعَ وَإِحْلَالَ الْحِلَالِ وَتَحْرِيمَ الْحَرَامِ وَالْأَمْرَ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ تَعَالَى وَالنَّهْيَ عَنِ ضِدِّ ذَلِكَ أَنَّ هَذَا فِي الْحَقِيقَةِ يَدْعُو إِلَى الْاجْتِمَاعِ فِي الْأَبْدَانِ، لِأَنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي دِينِهِمْ آلِ الْأَمْرِ إِلَى اجْتِمَاعِهِمْ فِي أَبْدَانِهِمْ، وَالْمَسَائِلُ مَرْتَبِطَةٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ.

لِهَذَا كَانَ مِنَ اللَّوَاظِمِ عَلَى كُلِّ مَنْ يَطْلُبُ مَعْرِفَةَ مَنْهَجِ السَّلَفِ وَالْأُمَّةِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى التَّلَازِمِ الْعَظِيمِ مَا بَيْنَ الْجَمَاعَةِ الْأُولَى وَالْجَمَاعَةِ الثَّانِيَةِ، أَوْ الْاجْتِمَاعِ الْأَوَّلِ وَالْاجْتِمَاعِ الثَّانِي.

وَالتَّوَاظُنُ فِيهَا بَيْنَهُمَا هُوَ سَبِيلُ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَإِنَّ النَّاسَ فِي هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ عَلَى

ثلاثة أنحاء:

الفئة الأولى: منهم من قَدَّمَ تحقيق المطالب الدينية ورَعَاهُ حتى ولو حصل خلل في الاجتماع في الأبدان - بحسب اعتقادهم ..

وهذه طريقة من ضل في هذا الباب وغلا من الخوارج والمعتزلة، ومن رأى رأياً يشابه ما قاله الخوارج والمعتزلة ونحوهما.

الفئة الثانية: من تساهلت فرأت المحافظة على الجماعة في الأبدان والدنيا سبيلاً لترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة الواجبة وإعلان الحق بضوابطه الشرعية في أمر الجماعة، فَتَرَكَوا إنكار المنكر من الشرك والبدع تَسَاهُلاً وَضَعْفاً.

الفئة الثالثة: هم الراسخون في العلم ومن تَوَلَّاهُ اللهُ بتوفيقه، فإنهم أخذوا بهذا وهذا، فدعوا إلى الاجتماع في الدين وتحقيق ذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبنشر العلم النافع والدعوة إلى ذلك وبالنصيحة بطرقها الشرعية، ولم يروا ذلك مُخَالَفاً لما أوجب الله من الاجتماع في الأبدان والدنيا، فوازنوا بين هذا وهذا وأَجْرُوا الحكمة في هذا وهذا.

ولا شك أنَّ أحوال الناس تختلف في مثل هذه المقامات ما بين مقام الأمن ومقام الخوف، ومقام الفتنة ومقام الاستقرار.

والراسخون في العلم ومن تبعهم يضعون لكل شيء موضعاً، فلا يتركون الأمر والنهي والدعوة والنصيحة لأجل تَوَهُّمِ أَنَّ هذا يُفَرِّقُ، ولا يأمرن مع

مَظَنَّةٌ وجود الفرقة.

ولهذا يقول ابن تيمية في رسالته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «الأمر والناهي إذا ظَنَّ أنه ستحدث مفسدة لأمره ونهيه أكبر مما أَمَرَ به ونَهَى، فإنه لا يُنكِر، وقال: يَأْتُم إذا أنكر» لأنَّ الشريعة جاءت لتحقيق المصالح وتكميلها ودرء المفاصد وتقليلها.

وهذا بخلاف التَّوَهُّم، لأنَّ التَّوَهُّم غير الظن الراجح، غير ما يعلمه أهل العلم مما سَتُحَدِّثُهُ الأمور. فَالتَّوَهُّم هذا راجع للخوف، فمن الناس من يخاف أن يقول لفلان: اتق الله في كذا وكذا أو صلِّ الصلاة، يَتَوَهُّم أَنَّ كلَّ شيءٍ سيؤثر على النفوس وأنَّ كلَّ شيءٍ سَيَغَيِّرُ.. الخ. وهذه حيلة وطريقة مَنْ تَرَكَ ما أوجب الله، وهي طريقة بني إسرائيل التي ذم الله الناس عليها.

لهذا يجب في هذه المسائل أن يؤخذ بطريقة أئمة الإسلام الراسخين في العلم ممن رَعَوْا هذا وهذا، وأنَّ الاجتماع في الدين هو الأصل الذي يجب أن يُدْعَى إليه، وأنَّ الاجتماع في الأبدان والدنيا أصل عظيم يجب المحافظة عليه، والموازنة بين هذا وهذا إنما يدركه أهل العلم الراسخون.

وما ضلت الخوارج - أي في أصلها - إلا لأجل أنهم رأوا أنَّ تحقيق ما يَظُنُّون من الشريعة يحصل بقتل عثمان وجمع الناس على ما يرون، ثم حصل من المعتزلة ما حصل.. الخ. فَحَصَلَ الفساد والشرُّ بسبب التفريط في الموازنة

والوسط في هاتين المسألتين العظيمنتين»^(١). وبالله الاستعانة والاعتصام، ومنه التوفيق والسداد، ولا حول ولا قوة إلا به.



(١) أنحاف اسائل، صالح آل الشيخ (١٠ / ٨ - ٥٠).

الفرقة في الدين التي حصلت في الأمة على مراتب وأنواع

للذنوب دركات كما للطاعات مراتب ودرجات، فالجنة درجاتها لأعلى عليين، وجهنم درجاتها لأسفل سافلين، والعباد في الدنيا يسعون لمصائرهم في الآخرة على ما ييسرهم الحكيم الرحيم العدل تبارك وتعالى.

وإنَّ الفرقَةَ في الدين على أنواع:

«الأول: هو أعظمها، وهو مخالفة أصل الدين بحدوث البدع المختلفة الشركية الكفرية، كإنكار صفات الله تعالى وكعبادة غير الله وإقامة المشاهد والحج إليها وتقريب القرابين لها ودعاء الأموات أو التقرب للكواكب أو نحو ذلك، كما حصل من الفرق الباطنية أو فرق الرافضة ومن شابههم.

الثاني: الافتراق البدعي غير الكفري، الذي حصل من الخوارج والمرجئة والقدرية ومن نحا نحوهم.

وهذان النوعان مذمومان مُتَّفَقٌ على ذمِّهما.

النوع الثالث: الافتراق في المسائل العملية؛ في مسائل الفقه في أحكام الطهارة والآنية أحكام الصلاة الصيام البيوع الجنائيات.. إلخ.

ونقول عن الاختلاف والفرقة التي حصلت في المسائل العملية:

أولاً: هي مذمومة من حيث الأصل، وإن كان الذي قال قولاً باجتهاده معذور ويؤجّر؛ لكن في الجملة الافتراق مذموم لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ

مُخْلِفينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ ﴿١١٩﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

ثانياً: أنَّ الفرقة في المسائل الفقهية، والاختلاف الذي وقع بين الصحابة وبين الأئمة المجتهدين اختلافٌ لأصحابه فيه إما أجران وإما أجر واحد، فإذا اجتهد وتحرى الحق وأصاب فله أجران، وإذا اجتهد وتحرى الحق فأخطأ فله أجرٌ واحد على اجتهاده وتحرية الحق.

وأما من قال قولاً ليس فيه بمتحرٍ للحق، وإنما هو نتيجة عن هوى ونتيجة عن شهوة، فهذا يَأْثَمُ ولا يُؤْجَرُ، فإنَّ الذي يُؤْجَرُ هو المجتهد الذي يبحث عن الحق، كما هو صنيع السلف، أما إذا كان ميدانه الهوى والشهوة فإنَّ هذا مذمومٌ على كل حال.

ثالثاً: العلماء إذا اختلفوا في الفقهيات فالواجب أن يُرعى معه ألا يكون افتراقٌ في الأبدان ولا افتراقٌ في القلوب؛ لأنَّ هذا الخلاف الذي يُوجد ابتلاء من الله ابتلى به الناس أن يختلف العلماء؛ فهذا يقول بقول وهذا يقول بقول، ويكون لهم فيه سعة في بعض البلاد ونحو ذلك، لكن هو ابتلاء يُبتلى به الناس.

فالواجب إذا وقع هذا الاختلاف في الأقوال الفقهية أن ينظر الناس إلى أنَّ المختلفين إذا اجتهدوا وتحرَّوا الحق وخاصةً من الأئمة الذين شُهدَ لهم بتحري الحق وطلبه أنَّهم ما بين أجرٍ وأجرين، وأنَّ من وثق بإمام فاتبعه على ذلك ولم يَسْتَبِنْ له الحق، فهو معذور في اتِّباعه له، وأنَّ الله تعالى إذا أراد بالعباد عقوبة فإنه يجعل هذا الخلاف سبباً للتفريط في الجماعة الثانية وهي جماعة الأبدان.

والله تعالى لما ذَكَرَ أهل الكتاب قال: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ

وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَدْسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴿١٣﴾ [المائدة: ١٣]. ﴿وَتَسُوا حَظًّا﴾ يعني تركوا نصيباً ﴿مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾

يعني مما جاءهم في كتاب الله. فما النتيجة؟

قال: ﴿فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ١٤]، ومما أمر الله به وذكرنا به أن نحرص على الاجتماع، الاجتماع في النفوس والاجتماع أيضاً في الأبدان.

فإذا صار اختلاف أهل العلم سبباً لوقوع الفرقة، ولوقوع التلاعن والتباغض والسبِّ والشتيم، وطعن كل فئة في أتباع العالم الذي اجتهد وتحرى الحق؛ فإن هذا لا شك أنه بغيٌّ وظلم يُعاقب عليه الإنسان، وهذا مما نهى الله تعالى عنه.

وهذا هو الذي حصل، وهو الذي يحصل عند من لم يعلم حدود ما أنزل الله على رسوله، فإنه قلَّ أن يحصل اختلاف إلا ويبغي بعض الناس على بعض، إما بتجهيلٍ أو بسبِّ أو بوقوع فيه أو نحو ذلك من الأقوال.

والواجب أن يُنصر الحق، وأن يُعذر من خالف في الفقهيات، ويُعلم أنه إذا اجتهد وتحرى الحق فإنه له أجر لكن لا يُتابع على ذلك.

ولا شك أن زلة العالم زلة العالم، ولكن هذا قضاء الله وحكمته، فكم من مسائل ثم من الأئمة المشهورين من خالفوا فيها السنة وخالفوا فيها الدليل باجتهادهم فهم معذورون، ومن أتبعهم بلا معرفة للحق وإنما ثقةً بذلك الإمام معذور.

ولكن الواجب تحري الحق بإتباع ما دَلَّ عليه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله أو وافق القواعد والأصول العامة للشريعة التي يعلمها أهل العلم.

وهذا في الحقيقة هو أعظم ما حصل في كل زمان إلى زماننا الحاضر؛ بل وإلى يومنا هذا، فقلَّ من يعذر في المسائل المُخْتَلَف فيها في الفقهيات؛ يعني التي فيها بحث، فيَنْظُرُ هذا فيه فيجتهد في كذا وهذا يجتهد في كذا، حتى رمى بعضهم بعضاً بالضلال، ورمى بعضهم بعضاً بمخالفة ما أمر الله به؛ بل حُكِمَ على بعضهم بالبدع والمحدثات لأجل بعض المسائل الفقهية التي اختلف فيها الناس.

وهذا مما ينبغي أن يُعْلَمَ كعقيدة: أَنَّهُ إذا كانت الفرقة في الفقهيات والعمليات والاختلاف في ذلك إذا كانت سبباً للفرقة في الأبدان فقد بَعِيَ العباد بعضهم على بعض، ووقعت الفتنة، ووقع البلاء فيهم.

والواجب ألا يقع فيهم البغضاء والشحناء لأجل ذلك، كيف إذا زاد الأمر؟! إذا حصل القتال؟! وحصل التكفير؟! ونحو ذلك كما حصل من بعض في بعض الأزمان حيث كَفَرَ بعض الشافعية بعض الحنفية في مسائل، وكَفَرَ بعضهم بعض الحنابلة في مسائل ونحو ذلك مما وقع فيه طائفة في أعلى درجات الظلم والبغي والعدوان من الناس بعضهم على بعض، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذا لا يزال يوجد إلى يومنا هذا، فكلما زاد العلم زادت البصيرة بأمور:

الأول: أن يحرص طالب العلم على تحري الحق.

والثاني: ألا يجعل تحريه للحق سبباً لفرقة العباد، ولا سبباً في وقوع الشحناء والبغضاء بينهم؛ بل يتودد في ذلك كثيراً، ولا يجادل في ذلك مجادلة الذي يريد الانتصار والقوة؛ بل يتكلم في ذلك بسكينة وهدوء.

وما أجمل قول الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ في نحو هذا لما قيل له: الرجل تكون عنده السنة أيجادل عنها؟ قال: «لا» يعني يرى من يخالف السنة ويذهب إلى قولٍ آخر، والمدينة كان فيها مدرسة الرأي أتباع ربيعة الرأي ومن معه، وهي مدرسة قريبة من مدرسة الكوفة في الأخذ بالرأي وعدم العلم بتفاصيل السنة، فقيل له: الرجل تكون عنده السنة أيجادل عنها؟ قال «لا، يُخْبِرُ بالسنة، فإن قُبِلَتْ منه وإلا سكت»^(١) لماذا؟

لأن الشيطان يأتي فيجعل الإنسان ينتصر لنفسه لا للسنة، وهذا مسلكٌ شائك في النفوس، ويُنافي الإخلاص، وينافي ما يجب، فيبحث فإذا هو يريد ينتصر للحق، ثم تنقلب المسألة في النقاش أو في المجادلة أو في الإخبار بالصواب إلى انتصارٍ للنفس دون انتصارٍ للحق وهذا مما ينبغي تداركه^(٢).

(١) جامع العلوم والحكم (١/٩٣).

(٢) وهذا مسرب خفي للنفس، ومسلك دقيق للهوى، ينبغي لطالب العلم أن يتنبه له من دسيسته، وأن يجتاط من غلوائه، ولك أن تنظر لأي حوار ونقاش ساخن بين طلبة العلم حتى ترى خطر ذلك الباب الخفي على نفوس الصالحين، وحضور الشيطان بعمامة الناصح الحادب، فالأمر خطير جداً، ولا يشمل التساهل والتواني، فعلى الناصح أن يتتد وترث و يتمهل ويراجع مساقط نيته وخوافي قصوده، ولا يكن همه =

معنى لا إنكار في مسائل الخلاف:

ومما يدخل أيضاً في مثل هذا أنّ اختلاف الفقهاء في المسائل العملية اختلافٌ كبيرٌ جداً، حتى إنّ المسائل المُجمَع عليها قليلة، وليس كل قولٍ من الأقوال المختلفة يصحُّ أن يكونَ في الخلافِ المُعتبر. وليس كل خلافٍ جاء مُعتَبَراً إلاّ خلافٌ له حظٌّ من النظر وإذا وقع الخلافُ فإنّ الخلافَ على نوعين: خلافٌ قوي، وضابطه: ما كان الخلافُ فيه في فهم الدليل ولا مُرَجِّح. وخلافٌ ضعيف، وضابطه ما كان الخلافُ فيه بمخالفة الدليل أو بالغلطِ في فهم الدليل.

العلوُّ على الأقران والمفاخرة على الإخوان والانتصار للنفس الأمارة، وأن ينظر هل من الحكمة المبادرة أو التأجيل أو الإلغاء، وكما قيل: «الانتهاض لمجرد الاعتراض من جملة الأمراض». وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى إذا رأى أن كلامه أعجبه سكت ولم يتممه مخافة التسميع. وعلى المنصوح كذلك ألا يستكبر عن قبول الحق أياً كان حال قائله، فالحقُّ أحقُّ أن يُتَّبَع، وأن يتَّضَع لنور الحق الأبلج، ولا يغطيه بسواد كبره، ولا يُعْنَق في باطلٍ خشية أن يُقال: إن فلاناً غلبه أو قطع حجته ونحو تلك الأشرار الشيطانية للنفس الضعيفة المندفعة في الباطل، الحُرُون عن الهدى، وكلُّ الناس يغدو فمعتق نفسه أو موبقها.

فعلى الموفق تأمل ذلك، وله أسوة في أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فإنه لما برك على المشرك وأهوى عليه بالسيف بصق المشرك على وجهه فرفع عنه السيف وقام عنه وتركه، فسئل عن ذلك فقال: «كان غضبي لله لما رفعت عليه السيف، فلما بصق علي خشيت أن أنتصر لنفسي»، فله دره ما أحسن علمه وعمله.

والخلاف القوي لا إنكار فيه، فإذا كانت المسألة فيها خلافٌ قوي فلا عتَبَ من الأصل لمن أخذَ بأحد القولين، أخذ بهذا أو أخذ بهذا، هذا يرى كذا وهذا يرى كذا، المسألة فيها سعة. وأما الخلاف الضعيف فإنَّ فيه الإنكار.

وقول العلماء «لا إنكار في مسائل الخلاف» يعنون به الخلاف القوي على الصواب دون الخلاف الضعيف، لأنَّ الخلاف الضعيف خلافٌ بلا دليل أو غَلَطٌ في فهم الدليل. وأقل من الضعيف الخلاف الشاذ المنكر، ويجب فيه الإنكار.

ويشتبه هذا. أي الخلاف. بمسألةٍ مهمة وهي مسائل الاجتهاد.

والصواب: التفريق ما بين مسائل الخلاف ومسائل الاجتهاد، فمسائل الخلاف التي مرجعها الخلاف في فهم الأدلة، وهذه هي التي فيها التفصيل الذي ذكرت لك: في أنَّ الخلاف القوي لا إشكال فيه، وأما الخلاف الضعيف فيلزم فيه البيان والإيضاح بدون أن يُجِدَّثَ الفُرْقَةُ وتنافر القلوب.

أما المسألة الثانية وهي مسائل الاجتهاد في النوازل: فإذا نَزَلَتْ نازلة واجتهد العلماء فيها، هل هذه تُلْحَقُ بكذا وهذه تُلْحَقُ بكذا، فإنه لا إنكار في مسائل الاجتهاد.

وشيخ الإسلام ابن تيمية قال في بعض كلامه: «لا إنكار في مسائل الخلاف يُعْنَى بها مسائل الاجتهاد» لأنَّ مسائل الاجتهاد ليست هي مسائل الخلاف. فقولهم: «لا إنكار في مسائل الخلاف» يعنون بها: لا إنكار في مسائل الاجتهاد، ويعنون كذلك: لا إنكار في مسائل الخلاف. أي الخلاف القوي.

أما مسائل الاجتهاد التي تحدث في الناس فهذه لا إنكار فيها من باب أولى؛ لأن كل مجتهد له اجتهاده ونصيبه في إلحاق النازلة ببعض الأصول والقواعد التي تدل عليها.

ونختم هذا الموضوع بوصية في هذا الموطن: بأن طالب العلم يتسع صدره للعلم، وهذا إذا حباك الله تعالى اتساع الصدر في العلم فإنك تؤتى علماً جديداً، وهذا هو الواقع والمشاهد، أما من يضيق بالأقوال، أو من يضيق باختلاف العلماء ولا يبحث في مأخذ هذا ومأخذ هذا، وإذا أورد عليه أحد قولاً نظراً في كلامه وتأملاً فإنه يُجرم بعض العلم.

لهذا كلما اتسع صدر طالب العلم كلما أوتي الصواب في العلم، وأوتي الصواب أيضاً في العمل، وفي عدم التعدي على المسلمين والتعدي على العلماء أو على طلبة العلم أو نحو ذلك، والله تعالى يقول لعباده: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٥٣]، والفرقة والخلاف يحصل فيه التعدي في كثير من الأحيان، ولا يقول: العبد التي هي أحسن، والله تعالى أمر بأن تقول التي هي أحسن.

وأنا ألحظ وربما منكم كثير لحظوا أن أحداً منا قد يقول قولاً يكون غير واضح، فيأتي أحد ويعترض عليه فهو يتألم ويتحرج لنفسه أنه أخطأ أو أنه ما أدرك الصواب، فيأتي الشيطان فيصرفه من تقرير المسألة إلى وجود مخرج لنفسه. وهذه من وسائل الحرمان، وإذا قوى الله طالب العلم على أن يكون قوياً على نفسه في أنه إذا ما اتضحت له صورة المسألة: لا يتكلم فيها، بل ينتظر، ويسكت.

فِيَعْلَمُ نَفْسَهُ التَّوَدَّةَ، وَيُعَلِّمُ نَفْسَهُ عَدَمَ الاسْتِعْجَالِ فِي الْكَلَامِ، وَعَدَمَ إِقَاءِ الْكَلَامِ عَلَى عَوَاهِنِهِ، وَالدَّقَّةَ فِي الْأَلْفَاظِ، وَكَيْفَ يُعَبِّرُ عَنِ الْمَسَائِلِ. وَإِذَا غَلَطَ يَقُولُ: غَلَطْتُ. وَمَا أَسْهَلَهَا عِنْدَ مَنْ يَرَى تَحْقِيقَ الْحَقِّ - فَعَلًا. وَلَيْسَ مِنْ شَرَطِ طَالِبِ الْعِلْمِ إِلَّا يَخْطِئُ.

لهذا عَوِّدْ نَفْسَكَ عَلَى الْحِلْمِ، عَوِّدْ نَفْسَكَ عَلَى الصَّبْرِ، تَعَوِّدْ عَلَى أَلَّا تَنْتَصِرَ لِنَفْسِكَ فِي الْمَسَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ.

حتى لو جاء المَقَابِلِ وطعن في علمك، وطعن في طريقة الإيراد، لا تتأثر بهذا واجعل الكلام على العلم، لأنك مُبَلِّغٌ للعلم ولستَ منتصراً لنفسك، والمنتصر لنفسه يَحْرِمُ نَفْسَهُ انتصار الله تعالى له»^(١).

هذا وقد وفق الله العلامة يوسف بن محمد الغفيص لكلام متين مؤصل حين شرح حديث الافتراق، وعلق على تأصيل شيخ الإسلام الأنف له، ولأهميته وشدة الحاجة له خاصة ممن تصدى للعلم والجهاد. وسألخص ما تيسر من مهماته مع زيادات نافعة بعون الله تعالى. قال وفقه الله تعالى:

الكفر ضد الإيمان:

«لا شك أن الإيمان والكفر - الذي هو الكفر بالله - لا يجتمعان، فإن كل من كان كافراً من الممتنع أن يكون مؤمناً، وكل من كان مؤمناً من الممتنع أن يكون كافراً.

(١) السابق (١٥-١٧، ٥٠).

وعليه: فإن من المسائل التي ينبه إليها - ولا سيما في حال كثرة البحث في مسائل التكفير - أن من أخص المقاصد لضبط هذا الباب من الشريعة، ومتى يقع الكفر، ومتى يقع التكفير.. إلى غير ذلك، يعتبر بتحقيق أصول، أخصها: تحقيق القول في الإيمان عند السلف، ومراد السلف بقولهم: الإيمان قولٌ وعمل، وزيادة الإيمان ونقصانه، والنفاق مع الإسلام.. إلى غير ذلك من المسائل.

فالقصد هنا: بيان أن التناسب متينٌ بين كتاب الإيمان وهذه الرسالة من هذا الوجه؛ فإنه لا يفقه القول بالتكفير إلا من كان فقيهاً بقول السلف في باب الإيمان وقولهم فيه.

مذهب السلف، حقيقته وكيفية ضبطه:

إن الناظر في منهج السلف الذي بدأ ببعثة النبي ﷺ، والمتأمل في سيرة السلف الأول وأخصهم الصحابة الذين قال الله فيهم: ﴿وَالسَّيِّقُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة: ١٠٠] يجد عليه سؤالين فاضلين:

السؤال الأول: ماذا يقصد بالقول عن قولٍ ما، أو فعلٍ، أو تصديقٍ، إنه مذهبٌ للسلف؟

السؤال الثاني: بم يُضبط مذهب السلف؟

هذان سؤالان لا بد لطالب العلم أن يكون على فقهٍ متينٍ فيهما؛ لأن ثمة فواتاً لفقه هاتين المسألتين - ولا سيما في هذا العصر - عند كثيرٍ من السلفيين، وعن

هذا ترى أن السلفيين - ولا سيما في بعض الأمصار - صار لهم تجمعات متعددة، وصار كل جمعٍ يسير يعتبر أنه هو المحقق للسلفية.

والسلفية لم تكن يوماً ما مسألة معقدة، أو مسألة من دقائق الحقائق، أو من دقائق المعارف، أو التراتيب، بل هي مسألة بينة، فهي الإسلام والحق الذي بُعث به محمد ﷺ، هي هدي صاحب الرسالة الذي كان يقول: «أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور مُحدثاتها، وكل محدثة بدعة»^(١) فكل ما خالف هديه ﷺ فهو الخارج عن ذلك.

ولفظ السلفية لفظٌ قد استعمل في كلام أهل السنة، وإن لم يطرده القصد إليه في كلام السلف أو محققي أهل السنة، وهو نسبةٌ فاضلة، حيث إنه إضافةٌ إلى السلف الأول الذين أثنى الله عليهم وامتدحهم، وأمر باتباعهم بإحسان، وهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أو: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار كما هو حرف القرآن.

حقيقة مذهب السلف والأمر المترتبة على نسبة فعل ما إليه :

إذا أخذنا السؤال الأول، وهو: ماذا يقصد بالقول عن قولٍ ما، أو فعلٍ، أو تصديق: إنه مذهب للسلف؟

قيل: هذا السؤال يترتب على إجابته عدة أمور فيها تعدد: قد يكون مترادفاً، وقد يكون متنوعاً:

(١) مسلم ١١/٣ (٨٦٧) (٤٣).

الأمر الأول: أن هذه المسألة سنة لازمة لا يجوز لأحد أن يخالفها، وأن ما خالفها يكون بدعةً وضلالةً.

الأمر الثاني: أن من تقمص مخالفة هذه المسألة فقد تقمص ضلالةً، ومن دعا إليها فقد دعا إلى ضلالة.

الأمر الثالث: أنه لا يجوز الاجتهاد بخلاف ما قيل عنه أنه قول أو مذهب للسلف.

هذه حقائق لا بد أن تكون بينةً لطالب العلم، وهي تترتب على القول عن قولٍ ما أو فعلٍ ما: إن هذا مذهبٌ للسلف، أو من مذهب السلف كذا، أو السلف يقولون كذا، فضلاً عن القول: إن قولاً ما أو فعلاً ما مخالفٌ للسلف، فإن هذا أكد في التصريح، حيث إن وصف المخالفة بأنها مخالفةٌ للسلف أو لمذهب السلف - سواء كانت مخالفةً قولية أو فعلية أو تصديقية - يعني أن هذه المخالفة من البدع، ومن الضلال، ومما لا يعذر أحد بمخالفته، ولا يجوز أن يقال عن صاحبها أنه على الاجتهاد المأذون فيه، بل لا بد أن يكون عند صاحبها - وإن سمي مجتهداً من وجهٍ آخر - تفريط، وتقصير في تحقيق الحق، وفي اتباع السنة، إلى غير ذلك من اللوازم، والمتضمنات لهذه الجملة.

إذا عرف هذا المعنى؛ تبين أن ما يقال فيه: إنه مذهب للسلف، فإن معناه: أنه من جنس مسائل الإجماع، أي أنه إجماعٌ وهدىٌ ولزومٌ لا يجوز لأحد الاجتهاد بخلافه، حتى لو فرض أن مبنى الاجتهاد ظاهر من الكتاب أو السنة، فإن هذا الاجتهاد لا بد أن يكون غلطاً، ولا بد أن يكون هذا الفهم لما استدل به من

الكتاب أو السنة فهماً باطلاً، وضلالاً عن الحق، إلى غير ذلك من اللوازم.

وهذه المسألة لا بد من ضبطها على هذا التقدير، وإذا تم ضبطها تبين أنه لا يجوز القول عن مسألة من مسائل الخلاف بين الأئمة: إن هذا القول هو طريقة السلف؛ مع العلم أن في المسألة خلافاً بين فقهاء السلف أنفسهم.

وعليه: فإن عامة المسائل المتعلقة بالعبادات وتفصيلها وإن رجح المرجح فيها، وإن كان قوله قد نطقت به جملة من النصوص إلى درجة تحاكي الظاهر عنده أو الصريح، ورأى أن القول الثاني بعيداً عن هدي السنة أو ظاهرها أو عما يتعلق بذلك من أوجه الاستدلال، مع هذا كله لا يجوز له أن يقول عن هذا القول: إنه مذهبٌ للسلف، أو هذه سنة السلفين، ومن خالفها فقد خالف طريقة السلف أو السنة السلفية.

وأضرب لذلك مثلاً قد يستعمل كثيراً في هذا العصر، ولا بد من التنبيه إلى مثله، مثال ذلك: الإشارة بالإصبع في التشهد.

هذه المسألة الجهور من علماء السلف على شرعيتها، وإن اختلفوا في تحديد ما يتعلق به المقام من الإشارة، فهذه مسألة خلافٍ بينهم، ولكن من الفقهاء المتقدمين من لا يذهب إلى ذلك.

فهذا الفعل يصح أن يقال فيه: إن هذا ثابتٌ بسنةٍ صريحة، وأن من خالفها فقد خالف ظاهر هذه السنة، إما لكونها لم تبلغه أو لم تصح عنده، وأن قوله غير معتبر، أي لا يصار إليه، ولا يفتى به، ولا يدعى إليه، مع بيان أن السنة هي الإشارة وإن اختلف في تحديد مقامها.

لكن أن يقال: إن هذه من السنن السلفية، وأنه لا يتركها إلا من هو خارج عن مذهب السلف، فهذا غلط.

وهذا وإن تعلق ببعض الأحناف إلا أن له مثلاً في سائر الأئمة، بمعنى: أنه إذا تتبعت أقوال الأئمة - كالأئمة الأربعة: مالك، والشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد - فإننا نجد أن لكل إمام في الجملة بعض المسائل التي تخالف بعض ظواهر النصوص البينة، وهذا لكون هذه النصوص إما أنها لم تبلغه أو لم تصح عنده، أو لسبب من أسباب التردد فيها، أو عدم الأخذ بظواهرها أو ما إلى ذلك.

من أمثلة ذلك: أن الإمام مالكاً يذهب إلى أنه لا يستفتح بدعاء الاستفتاح المعروف في الصلاة، مع أن دعاء الاستفتاح روي عن النبي ﷺ من أوجه متعددة محققة في الصحيحين وغيرهما، فهذا لا شك أنه مخالف لظاهر السنة، لكنه لا يجوز أن يقال: إن ترك الاستفتاح مخالفة لمذهب السلف.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «الإنكار في مسائل الخلاف غير سائغ، لا سيما على من كان متقيداً بمذهب من يرخص فيها، أو قد تفقه فيها ورأى الدليل يقتضي جوازها، وقد شاع العمل بها عن جماعات من الفقهاء، والقول بها معزواً إلى مذهب أبي حنيفة والشافعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وما قاله مثل هؤلاء الأئمة لا ينبغي الإنكار البليغ فيه، لا سيما على من يعتقد أن الأئمة المجوزين لها أفضل من غيرهم، وقد ترجح عنده متابعة مذهبهم إما على سبيل الألف والاعتقاد، أو على طريق النظر والاجتهاد.

وهب هذا الاعتقاد باطلاً، أستم تعرفون فضل هؤلاء الأئمة ومكانهم من

العلم والفقہ والتقوى وكون بعضهم أرجح من غيره، أو مساوياً له أو قريباً منه؟ فإذا قلد العامي أو المتفقه واحداً منهم إما على القول بأن العامي لا يجب عليه الاجتهاد في أعيان المفتين، أو على القول بوجوبه إذا ترجح عنده أن من يقلد فيهما هو الأفضل، لا سيما إن كان هو المذهب الذي التزمه، فلا وجه للإنكار عليه إلا أن يقال: إن المسألة قطعية لا يسوغ فيها الاجتهاد. وهذا إن قيل كان فيه طعن على الأئمة لمخالفة القواطع وهذا قدح في إمامتهم، وحاشا لله أن يقولوا ما يتضمن مثل هذا.

ثم قد يفضي ذلك إلى المقابلة بمثله، أو بأكثر منه، لا سيما ممن يحمله هوى دينه أو دنياه على ما هو أبلغ من ذلك، وفي ذلك خروج عن الاعتصام بحبل الله سبحانه، وركوب للتفرق المنهي عنه، وإفساد ذات البين، وحينئذ فتصير مسائل الفقه من باب الأهواء، وهذا غير سائغ. وقد علمتم أن السلف كانوا يختلفون في المسائل الفرعية، مع بقاء الألفة والعصمة وصلاح ذات البين.

نعوذ بالله سبحانه مما يقضي إلى الوقيعة في أعراض الأئمة، أو انتقاص بأحد منهم، أو عدم المعرفة بمقاديرهم وفضلهم، أو محادتهم وترك محبتهم وموالاتهم، ونرجو من الله سبحانه أن نكون ممن يحبهم ويواليهم ويعرف من حقوقهم وفضلهم ما لا يعرفه أكثر الأتباع، وأن يكون نصيبنا من ذلك أوفر نصيب وأعظم حظ. ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(١).

(١) الفتاوى الكبرى (٦/٩٢) باختصار يسير.

حكم إضافة القول في المسألة المختلف فيها إلى مذهب السلف:

كل مسألة تنازع فيها المتقدمون كالأئمة الأربعة أو من قبلهم، ولم يغلط المنازع بالتبديع أو بوصف قوله بكونه بدعة فإنه لا يجوز إضافتها إلى مذهب السلف المطلق، أي أن يقال: هذه مسألة من مذهب السلف؛ لأن معنى هذا أن هذه مسألة لازمة، وأن الاجتهاد بخلافها اجتهادٌ محرم، وأن من اجتهد وخالف ولو كان إماماً كالشافعي أو مالك أو أحمد فإن اجتهاده غلط، وأن عنده تفريطاً في تحقيق الحق واتباع النصوص، ويعني هذا أيضاً: أن المالكية من بعد مالك أو من يقتدي بهالك لا يجوز له أن يعتبر قوله، إلى غير ذلك من اللوازم. والإمام أحمد نُقل عنه روايات في بعض المسائل تخالف ظواهر من النصوص، وإن كانت الرواية لا تطرد في الغالب في مسائل أحمد، بل يأتي عنه رواية توافق الظاهر من النصوص.

القصد: أن مسائل الفقه التي حصل فيها نزاع لا تضاف إلى السلف، ولو كان الخلاف يسيراً، فضلاً عن أن بعض المسائل التي يضيفها بعض طلبة العلم أو الشيوخ الفضلاء من السلفيين اليوم إلى السلفية مسائل هي على خلاف قول الجمهور من فقهاء السلف، فقد يظهر لهم ظاهراً من بعض النصوص يستدلون به على هذا القول، مع أن ظاهر أقوال السلف تكون بخلاف هذا القول، وهذا أكثر إشكالاً.

مخالفة قول الجماهير للظاهر الذي يراه بعض المتأخرين:

ننبه هنا - وإن كان المقام لا يستدعي؛ لأن هذا في منهج الاستدلال الفقهي - إلى مسألة لبيان صحة هذا:

مسألة الاستدلال على الأقوال الفقهية هي مسألة فيها قدر من الإغلاق - أي: من جهة ضبطها - ويراد بهذا الإغلاق أنه أحياناً تظهر بعض الظواهر من النصوص، ومع ذلك الجماهير من أئمة السلف على خلاف هذا الظاهر الذي بلغ المتأخرين، وصار عندهم من صريح الاستدلال.

وأضرب لذلك مثلاً: طلاق الثلاث، من المعلوم أن مسلماً رَجَمَهُ اللهُ^(١) وغيره روى في صحيحه من حديث طاووس عن ابن عباس أنه قال: «كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر، طلاق الثلاث واحدة. فقال عمر بن الخطاب: إن الناس قد استعجلوا في أمرٍ قد كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم. فأمضاه عليهم».

فظاهر السياق أن عمر فعل ذلك من باب التعزير، وعمر لم يستقر عند هذا المذهب؛ لأن طلاق الثلاث في صدر خلافته كما يروي طاووس عن ابن عباس واحدة.

وهنا سؤال على هذه المسألة: هل هناك سنة صريحة عن النبي ﷺ وقبل ذلك في كتاب الله أن طلاق الثلاث ثلاث؟ أي: إذا طلق الرجل ثلاثاً في مجلسٍ

(١) في صحيحه (١٤٧٢).

واحد أو نحو ذلك من الصور هل يكون ثلاثاً؟

أو هل هناك سنةٌ صريحةٌ تعارض ما رواه طاووس عن ابن عباس؟

ليست هناك سنةٌ صريحةٌ.

ومن هنا: قد يظهر لطالب العلم أن السلفية النبوية الصديقية العمرية أن طلاق الثلاث واحدة، وأن عمر إنما فعل ما فعل تعزيراً؛ وهذا إذا سُلمَّ يكون من باب حقوق السلطان في تقرير مسألة التعازير واجتماعه بالفقهاء وتشاوره معهم.

لكن الذي نراه: أن الجمهور من أئمة السلف يقولون: إن طلاق الثلاث

ثلاث.

وهنا السؤال: لماذا ترك الجماهير من السلف ظاهر حديث ابن عباس؟

هنا أجوبة يستعملها بعض طلبة العلم ولا سيما المبتدئين في الطلب، يقول:

نحن متعبدون بالحق لا بقول الرجال.

وهذا الجواب جوابٌ إيمانيٌّ صحيح لا جدل فيه، ومن أنكره فقد خرج عن

السنة، ولربما لو التزمه التزاماً مطرداً قد يخرج إلى حد الكفر؛ فإن من قال: إننا

متعبدون بالرجال لا بالحق؛ فهذا كافر.

فهذا جوابٌ سلفيٌّ أو إيمانيٌّ أو شرعي لا جدل حوله، ولكنه متأخر عن

التحقيق من جهة أن السؤال ليس عن هذا، إنما السؤال: ما الذي جعل الأئمة

المحققين السلفيين الكبار من الطبقة الأولى المتقدمة لا يعملون بهذا الحديث؟

إن كنت تقول: نحن متعبدون باتباع الكتاب، فهم كذلك متعبدون، ولا يستطيع أحد أن يزعم أنه أضبط تحقيقاً للتعبد بالكتاب والسنة من الأئمة لا علماً ولا عملاً. وإن كان هذا في الجملة، ولا ينبغي أن يلتزم في الأعيان، فقد يكون من المعاصرين من هو أتقى عند الله سبحانه وتعالى وأكثر تحقيقاً من بعض المتقدمين، أي: أن هذا ليس بلازم. فهذا الجواب جوابٌ صحيح في نفسه، لكنه ليس في محل النزاع.

وهذا التوارد مسألة مهمة؛ لأن طالب العلم ولا سيما الدارس في الفقهيات يقف أمام هذا الحديث على أنه تسليم، ولذلك يقول: الصواب أن طلاق الثلاث واحدة، وهذا سنة النبي ﷺ وأبي بكر وصدر خلافة عمر، والقول بأن طلاق الثلاث ثلاث لا دليل عليه.

فنقول: هذا منهج غلط، ولا ينبغي أن يعبر عن قولٍ درج عليه الأكابر من جمهور السلف أنه قولٌ لا دليل عليه؛ فإن في هذا تعدياً على السلف؛ فإنه لا يمكن أن يجتمع جمهورهم مع اختلاف أمصارهم على قول يكون عرياً عن الدليل، قد يقال: إنه مرجوح، هذا لا بأس، لكن أن يصادر بالقول: هذا قولٌ لا دليل عليه، أو خلاف السنة أو خلاف المهدي؛ فهذا تجنُّ وغلط كبير.

القصد: أن المسألة تأخذ بعداً إلى درجة أن ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ قال: «اعلم أنه لم يصح عن أحد من الصحابة ولا التابعين ولا الأئمة المتبوعين أنه جعل طلاق الثلاث واحدة»^(١) فهو رَحِمَهُ اللهُ يميل إلى أن هذا من قول الشيعة، وأنه

(١) وهذا غير مسلم، فالخلاف محفوظ عند السلف من الصحابة ومن بعدهم.

دخل على بعض المتأخرين من أهل السنة.

وليس المقصود هنا الترجيح في المسألة، لكن القصد: أن مسألة الاستدلال مسألة فيها إغلاق على المتأخر في الغالب، بمعنى أن لها استقراءً.

وقد شاع في هذا العصر بين طلبة العلم بحوثٌ فاضلة في مسألة الفرق بين منهج المتقدمين ومنهج المتأخرين في مسألة الحديث والتصحيح والتضعيف والإعلال إلى غير ذلك، ويقال مثله أو أجل منه: الفرق بين منهج المتقدمين والمتأخرين في مفهوم ونظم الاستدلال الفقهي.

ونبه إلى أن مذهب الأئمة الأربعة والسواد من فقهاء السلف أن طلاق الثلاث ثلاث، وأن الجمهور من الأئمة جاءوا لأثرٍ آخر قال فيه ابن عباس: «من نسي من نسكه شيئاً أو تركه فليهرق دماً»^(١) فأبيها أصرح من جهة السنة: كلمته في الطلاق أو كلمته في النُسك؟

كلمته في الطلاق؛ لأنه كان يقول: «على عهد رسول الله». وهنا ما قال كل هذا، إنما قال: «من نسي من نسكه شيئاً أو تركه فليهرق دماً». وكأنه اجتهد من ابن عباس، فهو لم يضيفها إلى رسول الله ﷺ ولا إلى أبي بكر ولا إلى عمر، ومع ذلك الجمهور من الأئمة بما فيهم الأئمة الأربعة أطبقوا على أن من ترك واجباً في الحج فإنه يلزمه دم.

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٤١٩/١) (٢٤٠) والشافعي في الأم (١٨٠/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (١٥٢/٥) من حديث ابن عباس موقوفاً، وصححه الألباني في الإرواء (١١٠٠).

فهذه المسائل وإن لم يكن هذا محلاً لذكرها، لكن الذي ينبه إليه هو: أنه إذا قيل عن مسألة ما إنها مذهب للسلف فهذا يعني اللزوم، ولهذا إذا اختلف فقهاؤهم لا يجوز أن يقال عن أحد الأقوال المرجحة: إنه مذهبٌ للسلف.

وعليه: ما أدخله بعض السلفيين اليوم في بعض حركات الصلاة، أو العبادات، أو اللباس، أو نحو ذلك من مسائل النزاع والخلاف بين السلف، وإن ظهر لها دليلٌ ما؛ فإنها تُرَجَّحُ بظاهر الدليل لا بكون هذا من مذهب السلف، وأن من لم يفعل ذلك فليس سلفياً؛ فإن هذا هو التقرير الغلط والصعب، بل هو من التكلف الذي لم يدرج عليه السلف رحمهم الله، فقد كان فقهاؤهم يختلفون، حتى إنه قد اختلف الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، ولم يصرح أحدهم أن من خالفه فقد خرج عن السلفية.

كيفية ضبط مذهب السلف:

السؤال الثاني: بم يضبط مذهب السلف؟

وهذه المسألة لا بد من تقريرها فهي مسألة غاية في الأهمية ولا سيما في عصرنا هذا، وهنا تقرير لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ، نقف معه لمناسبته لرسالته.

تحصيل مذهب السلف وضبطه بالنقل:

يتكلم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عن مسائل خالف فيها بعض الفقهاء من أصحاب الأئمة بعض مقالات السلف، ثم قال قولاً حسناً، قال: «إن معرفة مذهب السلف للناس فيه من المتتبعين إلى السنة والجماعة من أصحابنا وغيرهم طريقان في ضبطه وتحقيقه:

الطريق الأول: تحصيل مذهب السلف وضبطه بالنقل؛ فإن ما قيل فيه إنه مذهبٌ للسلف، فهذا يعني إطباق السلف عليه، قال: وتحصيله من جهة النقل يكون بوجهين:

الوجه الأول: أن يستفيض ذكر هذا القول أو هذه المسألة في كلام الأئمة المتقدمين، ولا يظهر بينهم من أعيانهم منازع».

وهذا ظاهر - مثلاً - في كتاب شرح أصول السنة للالكائي والإبانة لابن بطة وما إلى ذلك من الكتب، فإن الناظر فيها يجد هذا التوارد، أو كما يذكر البخاري في خلق أفعال العباد حيث يقول: «لقيت أكثر من ألف أستاذ في الأمصار، كلهم يقول: الإيمان قولٌ وعمل» فهذا توارد، واستفاضة، ولهذا يكفي هذا في إثبات كون هذا القول مذهباً للسلف، ولا يلزم بعد ذلك أن تأتي عبارات أصرح من هذا.

إذاً: إذا استفاض قولٌ ما بين المتقدمين وشاع وقرروه ووصف ما خالفه بكونه مخالفاً للسنة، أو جعلوا هذا القول من السنة اللازمة، فهذا يعني أنه سنةٌ سلفية لازمة، وهذا ظاهر في معتقد الأئمة الذي ذكره اللالكائي في مقدمة كتابه، فإن الناظر في هذا الكتاب يرى أنهم يقولون - مثلاً -: ومن السنة اللازمة عندنا.. ثم يذكرون مسائل.

هذه المسائل التي وصفها الكبار كأبي حاتم وأبي زرعة وأحمد والبخاري بأنها من السنة اللازمة تعد من أقوال السلف اللازمة، فهذا الوجه الأول في ضبط النقل.

الوجه الثاني في ضبط النقل: أن ينص بعض علماء الإسلام الكبار من المعروفين بالسنة على أن هذا إجماعاً عند السلف، كنص أبي عمر ابن عبد البر، والإمام ابن تيمية، والحافظ ابن رجب، وأمثال هؤلاء، أو نص من هو أجل من هؤلاء كمحمد بن نصر رَحِمَهُ اللهُ.

فإذا نص أمثال هؤلاء الأكابر أو ممن جاء بعدهم من كبار الفقهاء من الطبقة التي بعد طبقة الأئمة، على أن هذا إجماع للسلف، ولم يعارض هذا الإجماع من عالم آخر، أو من شيوخ سلفي آخر، فإن هذا هو الضبط لمذهب السلف. إذاً: هذان وجهان في ضبط مذهب السلف.

قال شيخ الإسلام: «وهذا الطريق هو الطريق المستعمل عند الأئمة، وهو المراد في كلام الله ورسوله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥].»

لذلك كل من خرج عن سنة سلفية فإن عنده قدرأ من مشاقة الله ورسوله، وهذا محقق بالشرط المذكور في الآية: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ﴾.

وعليه: يمتنع القول عن قول لمالك - ومالك وسط الهدى والأئمة - أنه خارج عن هدي السلف؛ لأنه يلزم من ذلك أن مالكا تبين له الهدى وتركه؛ لأنه يسمع الهدى من شيوخه ومن أساتذته ومن علماء الأمصار إلى غير ذلك.

فلا يصح أن يوصف واحد من علماء السلف بأنه قد شاق الله ورسوله من بعد ما تبين له الهدى؛ لأن هذا تكلف، ومن يقول كثيراً من هذا الأقوال لا

يستطيع أن يلتزم مثل هذا أبداً، وإن التزمه لأسقط سلفيته.

إذاً: هذا الطريق الأول، وهو الطريق المحقق والصواب، وبهذا الطريق يظهر أن مذهب السلف رجع في الأخير إلى الإجماع؛ فإذا تحقق الإجماع كان المذهب مذهباً لازماً وسنة ماضية؛ لأنه لا يتصور إلا أحد أمرين: إما أن أئمة السلف يتفقون أو يختلفون، ولا يوجد ولا يتصور في العقل غير هذين القسمين، فإذا اختلفوا فاختلافهم مورد اجتهاد يرجح بحسب الأدلة، ولا يلتزم قول واحد، ومن التزم قول واحد منهم - أحمد أو مالك أو الشافعي - فقد خرج عن السنة والهدي؛ فإن هذا من تكلف بعض المتعصبة من المذهبيين الذين يرجحون قول إمام على الاطراد، وقد كان السلف كما لك وأمثاله ينكرون هذه البدعة، وهذا لا يعني إنكار التمدد بجملة وتفصيلاً.

إذاً تبين أن القول: إما أن يكون اتفاقاً عندهم، وهذا هو السنة والمذهب السلفي اللازم، وإما أن يختلفوا فيه فهذا اختلاف لا يجوز معه أن يخص أحد هذه الأقوال بالقول عنه: إنه هو مذهب السلف أو السنة اللازمة وما خلافه يكون بدعة، فإن التبديع إنما يكون لما خالف مذهب السلف، لأن البدعة مخالفة لهدي صاحب النبوة، فإنه يقول ﷺ: «خير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها»^(١) ويقول ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٢).

(١) مسلم ١١/٣ (٨٦٧) (٤٣).

(٢) مسلم ٢١٣/٦ (١٧١٨) قال النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي شَرْحِهِ لِهَذَا الْحَدِيثِ فِي الْمَنْهَاجِ: «هَذَا الْحَدِيثُ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ مِنْ جَوَامِعِ كَلِمَةِ ﷺ، فَإِنَّهُ صَرِيحٌ فِي رَدِّ

لكن السؤال الآن: كيف يتم تعيين مخالفة هدي الرسول ﷺ؟ هل تكون بالإجماع أو بالاجتهاد؟

هذه هي مسألة الجوهر في بيان ضبط المسألة، فقد تحقق لنا بالسنة الصريحة وبالأصول الشرعية أن مخالفة هدي النبي ﷺ بدعة، لكن السؤال: هل تعيين هذه المخالفة يكون بالاجتهاد أو بالإجماع؟ هذا هو محل الإشكال عند بعض السلفيين في هذا العصر.

والصواب: إنه بالإجماع، وأما إذا اجتهد مجتهد في دراسة قول مالك أو أبي حنيفة أو الثوري أو فلان وفلان من الفقهاء، وبأن له أن قوله مخالف لسنة، ولهدي نبوي، فلا يجوز له أن يصف قول هذا الإمام بهذه المخالفة، أو أن يقول: إن قوله بدعة، فإن الضبط لهذه المخالفة إنما يجزم به إذا صار الإجماع إليه؛ لأنه لو صدق هذا المنهج للزم من ذلك أن كل واحدٍ من الأئمة يجعل ما خالفه بدعة، لأن مالكا حين يذهب إلى قول ما ويجعله في الشريعة والديانة فإنه يعتقد أن هذا هدي؛ فهل قال مالك والأئمة من قبله - حتى من الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ -: أن ما خالف ما انتصروا له من السنة وظهورها من الأقوال أنه بدعة؟

إذاً: لا تُحَدَّدُ أو تُعَيَّنُ المخالفة بالاجتهاد، بل بالإجماع.

وبهذه الطريقة يظهر أن أقوال السلف المعتمدة اللازمة هي الإجماعات المنضبطة، بل إن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ يذهب إلى أكثر من هذا، فهو يقول: «إن

الإجماع المنضبط الذي يلزم به مذهب السلف هو إجماع الصدر الأول كالصحابية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومن لزم قولهم، إذ بعدهم كثر الاختلاف». فعند شيخ الإسلام ضبطٌ وتحقيقٌ لمسألة الإجماع، وأنها معتبرة بإجماع الصدر الأول كالصحابية وأئمة التابعين، وأمثال هؤلاء من طبقات الأئمة الذين انضبط إجماعهم.

هذا هو الطريق الأول، وهو النقل بوجهيه، وهو الطريق الوحيد الذي يعرف به مذهب السلف، ومرده في الجملة إلى الإجماع المنضبط.

هل يُدرك ويضبط مذهب السلف بالفهم:

الطريق الثاني^(١): قال شيخ الإسلام: «وقد استعمل طائفة من متكلمي الصفاتية المتسبين للسنة والجماعة، واعتبر ذلك طائفة من الفقهاء - من أصحابنا وغيرهم - أنهم يعتبرون مذهب السلف بالفهم، فإذا تحصل لواحدٍ منهم في مسائل من النظر أن هذا هو الموافق للكتاب والسنة، أو لبعض أصول السلف، جعل هذا قولاً للسلف. لأن السلف عنده لا يخرجون عن الكتاب والسنة، فإذا تحقق له جزءاً في قولٍ ما أنه موافق للكتاب والسنة جعله قولاً للسلف».

محصل هذا الطريق: هو تحصيل مذهب السلف بالفهم. أي: أن يقول قائل عن قولٍ ما أو فعلٍ ما أو تصورٍ ما: هذا مذهب للسلف، ومن خرج عنه فقد خرج عن مذهب السلف، وهو من أهل البدع أو ما إلى ذلك.

(١) وهو باطل كما سيأتي.

فإذا أورد عليه سؤال: أين استفاضة ذكر هذا المفهوم أو هذا القول أو هذا التقرير في كلام الأئمة؟ أو من نقل الإجماع؟

قال: هذا محصل بدراسة أصول السلفية وبضبطها وبظاهر الكتاب والسنة، والسلف لا يخرجون عن الكتاب والسنة.. إلخ.

ولذلك: مَنْ يعيّن مسائل من اجتهاده وفهمه أنها مذهبٌ للسلف يجد عند التحقيق - ولا بد - مخالفاً من السلف لقوله، كمن يقول - مثلاً -: إن وضع اليدين على الصدر بعد الركوع مخالفٌ للسلفية، نجد أن من أئمة السلف من يذهب إلى شرعية وضع اليدين على الصدر بعد الركوع. وليس المقصود من هذا الترجيح في المسألة، فهي على كل حال مسألة سهلة، مترددة من جهة الاستدلال.

وهذا لا يعني التهوين من شأن السنن والاتباع؛ فإن المسلم مأمورٌ باتباع أوامر الله سبحانه وتعالى، والاقتراء بهدي النبي ﷺ الظاهر والباطن، ولكن العزمات أمرٌ شديد؛ فالصحابه بعد نبينهم ﷺ اختلفوا كثيراً، مع أنهم أدركوا صاحب النبوة، وأدركوا هديه وأقواله، ومع ذلك ترددوا واختلفوا في مسائل كثيرة.

فالعزمات ليست من المقامات الفاضلة، وليست من تحقيق العبادة؛ لأن في العزمات قدراً من الجزم على صاحب الشريعة، والإبطال للقول الآخر بأنه بدعة، والذي قد يكون في نفس الأمر هو من السنن، ولهذا من ورع السلف أنهم ما كانوا يصيرون إلى العزمات إلا في الأمور البينة التي انضبط دليلها أو إجماعها.

التحذير من تحصيل مذهب السلف بالفهم:

إذاً: الطريق الثاني: تحصيل مذهب السلف بطريق الفهم، وهذا هو الذي يحذر منه، قال شيخ الإسلام: «وهذا الطريق أصله من كلام طائفة من أهل البدع المنتسبين للسنّة والجماعة، ثم دخل على طائفة من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم».

ولذلك لا يجوز إضافة مسائل إلى مذهب السلف إلا وقد انضبط دليلها وإجماعها، إما استفاضة وإما نقلاً.

ولو أن السلفيين في هذا العصر التزموا المنهج الذي قرره شيخ الإسلام، والذي قد درج عليه الأئمة، فإنهم لا يمكن أن يختلفوا في مسائل تصنف على أنها سلفية، بمعنى أن كل طائفة تقول: نحن السلفيون، ومن خالفنا خارج عن مذهب السلف.

ولذلك ظاهرة تعدد التجمعات السلفية، وكلّ منها يزعم أنه السلفي وحده أو بجماعته أو بطائفته ليست ظاهرة شرعية؛ لأن هذه الجماعة المؤمنة المنصورة الناجية هي جماعة واحدة، ولو انضبطت على الإجماع لاتفتت.

من أسباب الفرقة تحصيل مذهب السلف بالفهم:

ولهذا: من أسباب انقسام السلفيين فيما بعد عصر الأئمة أو في العصور الفقهية المتأخرة أو في عصرنا هذا: هو أنهم استعملوا طريق الفهم لتحصيل مذهب السلف.

وهذا التحقيق لا نعتبره لكونه كلاماً لشيخ الإسلام حتى يأتي شخص

ويقول: إن في كلامه نظراً، بل هو معتبر لكونه موافقاً للأصول؛ لكلام الله ورسوله؛ فقد وصف النبي ﷺ هذه الطائفة - وإن كان الحرف فيه ضعيفاً، إلا أن معناه صحيح بالإجماع - بأنها: «هي من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»^(١) وفي حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وهو في صحيح مسلم - كان عليه الصلاة والسلام يردد في الخطب: «أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد»^(٢).

فما كان منضبطاً عند الأئمة أنه هدي لرسول الله فهذا مذهبٌ للسلف، وما تردد فيه الأئمة من السلفِ على تعيين هديه ﷺ أو الجزم به، فهذا مما يرجح فيه ولا يوصف أحد الأقوال بأنه سنةٌ سلفية.

وبهذا الطريق يصح أن يقال: إن مذهب السلف مذهب واسع.

خلاصة الكلام عن حقيقة مذهب السلف وضبطه:

هاتان مسألتان لا بد من ضبطهما:

المسألة الأولى: ماذا يقصد بمذهب السلف؟

والمقصود به أنه سنةٌ لازمة، وأن الاجتهاد بخلافه محرم، وأن تقليد المجتهد

(١) أحمد (٢/٣٣٢) والطبراني في الصغير (٧٢٤) وأبو داود (٤٥٩٦) وابن ماجه (٣٩٩١) والترمذي (٢٦٤٣) والحاكم (١/١٢٨)، والآجري في الشريعة (٢٥)، وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/٢٣٠): «حديث افتراق الأمة أسانيداً جيداً». وحسن إسنادها الحافظ في «تخريج الكشاف» (١٧).

(٢) مسلم ١١/٣ (٨٦٧) (٤٣).

بخلافه محرم، وأن القول المخالف يكون بدعةً وضلالاً، ويلزم من هذا أن يكون عند المجتهد المخالف له - ولا بد - تفريطاً، وإذا كان بعد شيوع القول السلفي وبلوغه إياه لم يتبعه فإنه يكون مشاقاً لله ورسوله. فهذه لزومات تلزم في كل ما قيل عنه مذهب السلف.

وهذه اللزومات إذا ما اعتبرناها بالمسألة الثانية، وهي أن مذهب السلف هو الإجماع لا تُشكّل؛ لأن كل من خرج عن الإجماع المنضبط يسوغ أن يقال عنه: إنه مفرط، وأن اجتهاده لا يجوز، ويسوغ كذلك أن يقال عنه: إنه لا يجوز متابعتة في اجتهاده. حتى لو عرض هذا من إمام فاضل كحماد بن أبي سليمان، قيل: إن قوله بدعة خارج عن الإجماع.

ولذلك نجد أن الذين خرجوا عن الإجماع المنضبط هم أئمة أهل البدع من الخوارج والشيعة والمتكلمين وأمثال هؤلاء، وإن كان قد يعرض أن يخرج بعض أئمة السنة عن بعض مسائل السلف كخروج حماد، لكن هذا نادر، فإن الذي كان مطرداً عند الأئمة هو أن الذي يخرج عن سنتهم ولزومهم هم أئمة أهل البدع، الذين لا يعتبرون منهجهم وطريقة هدي صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام.

المسألة الثانية: بم يحصل مذهب السلف؟

بأحد طريقتين: الطريق الأول: النقل، وله وجهان:

الوجه الأول: الاستفاضة، كاستفاضة قولهم: الإيذان قولٌ وعملٌ، وتواردتهم على ذلك، لذلك لما جاء حماد بعد هذه الاستفاضة أصبح قوله بدعةً.

الوجه الثاني: أن ينص بعض علماء الإسلام المعتبرين في ضبط مذهب السلف أن هذا إجماع ولا ينخرم.

والطريق الثاني لتحصيل مذهب السلف ليس طريقاً لأهل البدع؛ لأن الغلاة من أهل البدع وأهل البدع المغلظة أصلاً ما كانوا ينتسبون إلى مذهب السلف، وإنما هذا طريق طائفة من أهل البدع من متكلمة الصفاتية، وإذا قال الإمام ابن تيمية: متكلمة الصفاتية فإنه يقصد ابن كلاب والأشعري وأمثالهم، ممن يحصلون مذهب السلف بطريق الفهم.

ومن أمثلة ذلك التحصيل: أن الأشعري في كتبه قال: «أجمع أهل السنة أن الله ليس بجسم» لأنه وجد أن أئمة السلف ينكرون التجسيم والتشبيه، وهذا ليس تحصيلاً بالنص؛ فإنه لم يصرح أحد من السلف أن الله ليس بجسم، لكن الأشعري حصله فهماً، وقد تكون أدوات الفهم أحياناً - وهذا هو الذي يشكل - عاصفة، أي: ملزمة في عقل الإنسان أو في عقل الناظر، فهو قد وجد أن السلف أطبقوا على ذم التشبيه، فقال: إنهم يذهبون إلى أن الله ليس بجسم، مع أن مذهب السلف هو التوقف عن هذا الحرف أصلاً، وأن هذا حرف مبتدع إثباتاً ونفيًا، وإذا ذكره ذاك سئل عن مراده به، فإذا أراد بالنفي مراداً باطلاً، قيل: المراد ليس صحيحاً، وإن كان النفي يتوقف فيه، وإن أراد بنفي التجسيم عن الله أي: أن الله ليس كالمخلوق وليس كالمحدثات وليس كجسم من الأجسام فهذا المعنى صحيح؛ لأن الله سبحانه وتعالى منزّه عن هذا، لكن الحرف حرفٌ مشكّلٌ متردد فيه؛ لظهور مادة الإجمال فيه عند كلام المتكلمين فيه.

بعد هذه المقدمة اللازمة، أرى ضرورةً من طلبه العلم أن يعتنوا بالتفقه في هاتين المسألتين ليحصل اجتماع أهل السنة والسلفيين كما كان أصلهم وطريقتهم السالفة، ولا يتناذبوا ويتنازوا بالألقاب والهجران من القول نتيجة غلط في تقرير المنهج الذي يعتبر منهجاً سلفياً.

المذهبية:

القول بأن من السلفية ترك التمذهب ليس بصحيح، كما أنه يقال: ليس من السلفية لزوم التمذهب، ولكن التمذهب ترتيب علمي لا جدل حوله، فحين يصبح تقليداً لمعين أو لطائفة أو مذهب من أجل الانتصار له فلا شك أنه غلط، أما حين يكون التقليد مبني على الأخذ بالتراتب العلمية للأئمة فعندها يكون التمذهب جائزاً.

وهل يصح أن يقال عن مجرد انتساب من ينتسب إلى مذهب من المذاهب - الحنبلي أو الشافعي أو المالكي أو الحنفي - أنه انتساب بدعي مخالفٌ للسلفية؟ أحياناً مثل هذه المسائل من المهم أن تضبط بالإجماعات وبالاطراد، فإن الاطراد إذا درج لا يمكن أن يكون غلطاً.

الانتساب إلى المذاهب الأربعة المعروفة، والتي استقرت عند المسلمين ابتداءً من القرن الرابع، بمعنى: أن جماهير علماء المسلمين حتى السلفيين منهم - أي: من عقيدتهم ومنهجهم سلفية محضة - كانوا إما حنابلة أو شافعية أو مالكية أو حنفية.

قد يقول قائل: وجد في تلك القرون بعض العلماء الذين كانوا يعتبرون

طريقة أهل الحديث، فما الجواب؟

يقال: ليس المقصود هنا أن نقول إن الانتساب للمذاهب هو الشرعي أو هو المقصود، فإن بقاء طائفة من العلماء في كل القرون السابقة متمسكة بالاستقلال والاستدلال بالأثر، وعدم الاتصال بمذهبٍ ما، أمر لا ينكر، إذا كان القائم به أهلاً له، لكن قد حصل التوارد في الانتساب للمذاهب، وبالقطع الضروري والعلم الضروري أن المتمذهبين أكثر من غير المتمذهبين ولا شك؛ فإن علماء الأمصار أكثرهم متمذهبون.

وهنا سؤال: إذا افترضنا أنه وجد اطراد في ترك المذهبيات بعد القرون الفاضلة، أو في القرن الرابع وما بعده، فهل أنكر أحد من العلماء السلفيين المعتبرين التمدّيب كمجرد انتساب وانتحال؟ فالجواب: هذا ليس له شيوع أبداً.

إذاً: تحصل من هذا أن ثمة إقراراً عاماً على مبدأ الانتحال. وأما الذي يفصل فيه فهو أن التمدّيب يراد به أحد وجهين مذموم وجائز:

التمذّيب المذموم:

إما أن يكون تقليداً لمعينٍ أو لطائفة، تقليداً للشافعي أو للشافعية، تقليداً لأحمد أو للحنبلية، أي: يأتي المجتهد بعد أبي يعلى ليعتبر أقوال أبي يعلى وأقوال أحمد ولا يخرج عنها ويكون مقصوده ومراده الانتصار للمذهب والاتباع له، فمن كان هذا غرضه وهذا مقصوده فلا شك أنه ليس محقق؛ لأن المقصود: الانتصار للحق، والحق ليس محصوراً في الحنابلة أو غيرهم. وقد يقول قائل:

هذا موجود عند الفقهاء وبكثرة. فنقول: نعم، موجود بكثرة وبكثرة، لكن لا يُقر.

إذاً: إذا ما فُسر التمدُّب: بأنه التقليد والاتباع والانتصار فهذا لا شك أنه لا يجوز، وهو حرام بالأدلة الشرعية، وبإجماع أئمة السلف الذين نصوا على تحريم اعتبار أقوال الرجال وترك الأدلة.

التمدُّب الجائز:

وهو المقصود بالتمدُّب عند المحققين، وهو الأخذ بالتراتب العلمية للأئمة.

وإذا قيل: إن ثمة متعصبين من أتباع الفقهاء الأربعة، قيل: ثمة أقوام عندهم اعتدال وليسوا من أهل التعصب.

وإذا قيل: إذا كانوا ليسوا منتصرين لأقوال الأئمة الأربعة، كابن تيمية مثلاً ليس منتصراً لمذهب الحنابلة، إذاً ما معنى أنه حنبلي؟ فنقول: هذه تراتيب علمية.

إذاً: إما أن يُفسر التمدُّب بالتقليد والانتصار والاتباع، فهذا مؤاخذ بإجماع السلف وبالكتاب والسنة، وإما أن يُفسر التمدُّب بأنه تراتيب علمية فهذا سائغ، ولا يجوز أن يقال: من استعمله فقد خرج عن السلفية، وإلا يلزم من ينتصر لأقوال عالم باطراد - كبعض الشيوخ المعاصرين - ما يلزم من انتصر للشافعي ومالك.

وإن قال: لا، فأنا أريد منهج الشيخ بشكل عام، وأما الاتباع لأحد المسائل فيعتبر بالأدلة. فإنه يقال: وهذا هو الذي أراده المحققون من أصحاب الأئمة، وهو ما نسميه التراتيب العلمية.

المقصود بالتمذهب من باب التراتيب العلمية:

من المعلوم أن الفقه ليس كمسائل أصول الدين، فمسائل أصول الدين مضبوطة بالكتاب والسنة والإجماع فقط. ولا بد من الإجماع.. أما مسائل الفقه فثمة الأصول الثلاثة لمعرفة، ولكن هناك قدرٌ واسع من أوجه الاستدلال، أي: إن صريح الكتاب وصريح السنة والإجماع، لا جدل حولها، ونحن لا نجد اختلافاً بين الأئمة في صريح أو إجماع، إلا أحياناً، يكون فواتاً، أي: لم يبلغ، وهذه مسألة أخرى.

لكن هناك ما يسمى عند الأصوليين بالأدلة المختلف فيها، كالقياس، وأقوال الصحابة، والاستصحاب، والاستحسان إلى آخر هذه الأدلة، وسوف نضرب مثلاً باثنين من هذه الأدلة، وهما: القياس، وأقوال الصحابة. فما موقف أئمة السلف - بما فيهم الأئمة الأربعة - من القياس وقول الصحابي؟

النتيجة الضرورية هي: إن تقديرهم لهذين الدليلين ليس تقديراً واحداً، أي: أن استعمال الإمام أحمد للقياس ليس كاستعمال أبي حنيفة أو حتى كاستعمال الشافعي، واعتبار الشافعي أو أبي حنيفة لأقوال الصحابة ليس كاعتبار أحمد وأئمة الحديث.

وباختصار: إنه عند مراجعة النظم الفقهي عند السلف نجد أنهم ينقسمون

إلى أقسام، فمنهم: فقهاء غلب عليهم الفقه ولم يعرفوا بعلم الحديث والرواية، أي: ليسوا من أربابها المعروفين، وإن كانوا ينسبون إلى أهل الحديث في أصولهم، كأبي حنيفة؛ فإنه لم يكن محدثاً، ولم يكن عارفاً بكثير من السنن؛ لأسباب اقتضاها مقامه في الكوفة، ولكنه إمام في الفقه، حتى إن الشافعي يقول: «الناس عيال على أبي حنيفة في الفقه»، وقد أثنى عليه مالك وغيره.

ومنهم: محدثون انشغلوا بعلم الحديث والرواية ولم يشتغلوا بكثير من الفقه، ليس عجزاً، وإنما لأن الرواية شغلتهم عن الفقه، كما أن أبا حنيفة شغله الفقه عن الرواية.

وهذا له مثالات: كبعض الأئمة الذين اشتدوا في تتبع الطرق والبحث في العلل وما إلى ذلك كيحيى بن معين وابن المديني، وإن كان هذا لا يعني أن ابن معين ليس فقيهاً، فهو فقيه، لكنه اشتغل بعلم الرواية وغلب عليه علم الرواية عن الدراية.

ومنهم: فقهاء غلب عليهم الفقه، ولكنهم معروفون بقدر من الحديث، وهؤلاء من يمكن أن يسمون «المحدثون من الفقهاء» أو «محدثو الفقهاء» ومن أخص مثالات محدثي الفقهاء: الإمام الشافعي، فإن مقامه في الفقه أبلغ من مقامه في الحديث، وهذا لا يختلف فيه.

والعكس: وهو القسم الرابع، فقهاء المحدثين، وهذا له أعيانٌ كثيرون، من أخصهم الإمام أحمد والبخاري رحمهما الله.

وهذا لا يعني أن الطبقة الأولى لا علم لهم بالحديث، ولا يعني أن المحدثين

كابن معين ليس فقيهاً، إنما يعني: أن ثمة تفاوتاً في طبقات هذا العلم.

وقد تقدم أنه من المتحقق ضرورة أن ثمة فرقاً بين الأئمة في تقدير الاستدلال بالقياس وبقول الصحابي. فالإمام أحمد يقدم قول الصحابي على القياس، وهناك من الأئمة من قال: يصار قبل قول الصحابي إلى القياس. وهناك من قال: يصار إلى عمل أهل المدينة قبل هذين.

فهذه التراتيب تراتيب مختلفة، فإذا ما جاء علماء من بعد الأئمة، ونظروا في أصول أحمد فوجدوا أنه يرتب الأدلة بهذا الشكل: الإجماع والكتاب والسنة ثم قول الصحابي، ووجدت طائفة أن أبا حنيفة يقول: ثم القياس، ووجدوا مالكا يقول: ثم عمل أهل المدينة، والإمام أحمد لا يعتبر الاستدلال بعمل أهل المدينة بنفس درجة مالك، ولا يعتبر القياس كأبي حنيفة، وأبو حنيفة لا يعتبر قول الصحابي كأحمد.

فإذا تخير العالم بعد هؤلاء تراتيب علمية له ليطردها في مسائله الفقهية، فإذا تكلم في مسألة في الطهارة، أو الصلاة، أو الحج، أو الديات، أو الجنائز، أو القضاء، أو الشهادات والهبة.. إلخ، يكون له منهج مطرد: أن القياس يقدم على قول آحاد الصحابة، أو أن قول الصحابي يقدم على القياس.. فإن هذا هو الذي يعطي الأقوال الفقهية اطراداً.

ولذلك من يبطل المذهبية في هذا العصر ويقول: الكتاب والسنة والإجماع، نقول له: لم تكن التراتيب المذهبية من أجل مسألة الكتاب والسنة والإجماع؛ لأن هذه مسألة متفق عليها، لكن السؤال: إذا جئت بعد الكتاب والسنة والإجماع.

أي: بعد ظواهر الكتاب والسنة والإجماع - فإنك تجد مسائل كثيرة مبنية على أقوال الصحابة، ومسائل مبنية على القياس.. إلخ، فبماذا سوف تأخذ؟ إذا: المراد بالتمذهب هو هذا الوجه: الترتيب العلمي.

إذا: ليس من الممنوع أن العالم يقول: أنا أقدم طريقة الإمام أحمد أو منهجه الفقهي على منهج الشافعي، أو يقول: أنا حنبلي.

على هذا الاعتبار، فإن هذا غير مخالف للسلفية، بل هو انتصار لقول من أقوال السلف، كما أنه لو ظهر لفقهاء أن الإمام أحمد أصاب في مسألة واحدة من مسائل الفقه فانتصر له، فإنه لا يعتبر مخطئاً؛ فكذلك إذا ما نظر في تراتيب الأئمة في العراق، في الحجاز، في الكوفة، في بغداد.. إلخ، وظهر له من تراتيب الأئمة جملة من التراتيب، لما بعد الأصول المنضبطة - وهي الكتاب والسنة والإجماع - فقدم تراتيب الشافعي على أحمد، فهذا معنى أنه شافعي، لكن إذا ما زاد وبدأ ينتصر لآحاد أقوال الشافعي، ويهجر السنن فهذا على ضلال، لكن يبقى أصل التراتيب لا بأس به. فهذا هو المقصود بالتمذهب السائغ، ولا نقول المشروع.

وبهذا: يظهر أن القول بأن من السلفية ترك التمذهب ليس بصحيح، كما أنه يقال: ليس من السلفية لزوم التمذهب، ولكن التمذهب ترتيب علمي لا جدل حوله، لكن إذا زاد عن القدر الترتيبي والترجيحي السابق كان غلطاً، كما أن هذا قد يقع عند غير المتمذهبين بالمذاهب الأربعة.

ولكون هذه النظرة استقرت عند بعض المعاصرين، حيث بدأوا يعتبرون في استدلالاتهم الفقهية الكتاب والسنة والإجماع فقط، ومن هنا تفرع عندهم -

أحياناً- القول بأن هذه المسألة- وهي مسألة فقهية متنازع فيها- سنة سلفية.. ومن السلفية كذا. وترتب على هذا أن من لم يفعل ذلك - عندهم - فهو متمذهب متعصب مقلد، مخالف لسنة النبي ﷺ!

ويلزم من هذا أن ينطبق هذا الكلام على إمام هذه المقالة من المجتهدين الأوائل، اللهم إلا إذا كان المعاصر أو الطالب المتأخر يقلد هذا تقليداً محضاً وهو يرى أن الدليل بخلافه، فهذا مقام آخر لا جدل حوله.

القصد: أن بعض الشيوخ الفضلاء وطلبة العلم من السلفيين المعاصرين، لما رفضوا التمدد بدأوا يصيرون في استدلالهم إلى الكتاب والسنة والإجماع، وبالطبع ضاق عليهم الاستدلال في مسائل الفقه؛ لأنه ليس كل مسألة فقهية عليها دليل صريح أو حتى ظاهر من الكتاب والسنة، فضلاً عن الإجماع، مما أدى إلى حاجتهم إلى قياس، أو أقوال الصحابة إلخ، ولهذا تغلب عليهم الطريقة التي يقدمها ابن حزم رَحْمَةُ اللَّهِ، وتقديمه إياها فرع عن مذهب سابق لداود بن علي، وهي مسألة البراءة الأصلية واستصحاب الأصل؛ ولذلك نجد أنهم يرجعون كثيراً من المسائل التي لا دليل عليها من الكتاب والسنة والإجماع إلى البراءة الأصلية، فإن كانت عادات قيل: الأصل الحل، وإن كانت عبادات قيل: الأصل براءة الذمة.

وهذه الطريقة التي يستعملها ابن حزم أقل ما يقال فيها: إنها مذهبية؛ لأنها إما أنها مذهبية من ابن حزم، وابن حزم ليس أشرف من الشافعي ومالك وأحمد، وإما أنها مذهبية من داود بن علي، وداود بن علي وإن عاصر الإمام أحمد إلا أنه

ليس أجل من الأئمة الأربعة، بل جميع الأئمة الأربعة أجل فقهاً من داود بن علي رَحِمَهُ اللهُ.

فلا بد لطالب العلم - ولا سيما السلفي - أن يعتبر مثل هذه الإدراكات: أن عند ابن حزم أثراً ظاهرياً، وهو إنما نقل عن داود بن علي أصولاً عامة في الاستدلال، ثم قام بشرحها، وأحياناً قد يكون تجاوز في شرحها، فليس بالضرورة أن يكون شرحه قد صرح به داود بن علي.

وهو - أي: ابن حزم - إمام، قد أجمع المتأخرون على إمامته، ولم يطعن فيه إلا متكلف ومتعصب من المذهبيين، وكتابه المحلى لا يستغني عنه طالب العلم أبداً، لكن على طالب العلم أن يترفق في قراءة كلام الإمام ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ؛ لأنه يأخذ عقل القارئ - ولا سيما عقل المبتدئ - إلى لزومات يرى أنها من صريح السنن وهي ليست كذلك، ويمكن أن يقال: إن المبتدئ لا يبتدئ بكتب ابن حزم، وإنما يقصد إليها بعد تعديه لمرحلة الابتداء.

الشيخ محمد بن عبد الوهاب والمذهبية:

إذاً: التمذهب الذي ليس على تعصبٍ وانتصار مطلق ليس غلطاً، بل هو أمر سائغ ليس بمشروع، ولا يجوز أن ينقسم السلفيون إلى قسمين: هؤلاء مذهبيون وهؤلاء ليسوا بمذهبيين، حتى قيل عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب: إنه سلفي العقيدة ليس سلفي المنهج. وهذا القول غير صحيح؛ لأنه ما كان حنبلياً متعصباً.

قد يقول قائل: إنا سبرنا أقواله فلم نجد له خروجاً عن المذهب الحنبلي أو

عن روايات أحمد. فيقال: الكلام عن المذهب الحنبلي موضوع طويل، وقد قال الإمام ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ: «إني تأملت المسائل فلم يظهر مسألة فيها رجحان من الكتاب والسنة إلا ولأحمد فيها رواية في الجملة».

فقد يظهر للباحث أن الراجح أو ما يراه راجحاً، أنه خلاف المذهب الحنبلي، لكن عندما يعود إلى روايات الإمام أحمد أو ما ذكره الأصحاب من رواياته كصاحب الفروع أو الإنصاف، في الغالب. لا نقول: دائماً في الفروضات الجدلية. أن الإمام أحمد رَحْمَةُ اللَّهِ يكون له رواية.

فالشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحْمَةُ اللَّهِ لم يخرج عن روايات أحمد، إلا أنه قال كلمة تبين أنه ليس متعصباً، وإنما متمذهب على التراتيب العلمية فقط.

ومن المعلوم أن أجل كتابين عند الحنابلة المتأخرين في ضبط المذهب الحنبلي هما الإقناع والمنتهى، فما اتفق عليه صاحب الإقناع والمنتهى يقول المتأخرون عنه مباشرة: هذا مذهب الإمام أحمد، ولهذا تفاصيل ليست مهمة عندنا الآن. لكن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحْمَةُ اللَّهِ يقول: «أكثر ما في الإقناع والمنتهى مخالف لمذهب أحمد ونصه»، فهل هذا القول يصدر عن متعصب؟!؟

فالقصد: أن طلبة العلم من السلفيين لا ينبغي أن يختلفوا على مثل هذه المسائل، وأن يكون فيها خفضٌ ورفعٌ ليس على هدي سالف، بل لا بد من ضبط الأمور، وكل من خرج عن هدي صاحب الرسالة البين، قيل: خرج عن السنة والجماعة.

هذه المقدمة بتواضعها كان لابد منها، وينبغي أن يجري فيها نقاش معتدل ومتحرر ومنصف ومنضبط.

عدم الإنكار على المتمذبهين وغير المتمذبهين:

كما يُراعى بعض العلماء المعاصرين وطريقتهم في ترك التمذبه فينبغي أن يراعى مئات من الأئمة درجوا على التمذبه، وفي المقابل لا ضرر ولا ضرار، أي: لا يزداد ويغلط العالم بأنه خرج عن المذاهب الأربعة كما يقوله بعض المتمذبهين؛ حيث يقولون: إن من أخطاء فلان أنه لم ينتسب إلى واحد من المذاهب الأربعة! ومن قال: إنه يجب على المسلم أن ينتسب إلى واحد من المذاهب الأربعة! بل إن من المسائل المختلف فيها: هل يلزم العوام هذا الانتساب أو لا يلزمهم، فضلاً عن الأكابر؟

ومما يقرب هذه المسألة للفهم: أن هناك أصولاً أو كلمات - وهذا يرجع بنا إلى مسألة تحصيل مذهب السلف بطريق الفهم - سلفية، إما قالها أئمة سلفيون قديماً، أو قالها أئمة محققون في السنة كابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، لكنها تحتاج إلى فقه، وأضرب لذلك مثلاً شائعاً:

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ما انعقد سبب فعله زمن النبي ﷺ ثم لم يفعله، ففعله بعده من البدع والمحدثات» فهذه كلمة قالها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، وذكرها الشاطبي أيضاً في تقريره لمسألة السنة والبدعة. فماذا نقول عن هذه الكلمة؟ هل هي صحيحة أو خطأ؟

كمقدمات في المسائل المجملة المحتملة الصادرة من أرباب العلم

المعتبرين: نقول: صحيحة، وهذه ليست قضية مشكلة، لكن المشكل هو فقهاها. فهذه كلمة صحيحة من شيخ الإسلام ابن تيمية، لكن يأتي أحياناً بعض الترتيب لها عند بعض الشيوخ، وأحياناً يرون أن هذا الترتيب لزومي.

مثلاً: وضع مكان للنساء في المساجد، يقولون: لقد انعقد سببه زمن النبي ﷺ، فقد كان النساء يصلين مع رسول الله ﷺ أكثر مما يصلين اليوم، ولا سيما في بعض الأمصار، كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في البخاري وغيره: «كان نساء المسلمين يشهدن صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ»^(١). فهل جعل النبي ﷺ مكاناً مختصاً بهن؟ أو هل وضع جريداً من النخل أو رواقاً ساتراً؟ الجواب: لا. لم يضع شيئاً.

فقالوا: إن سبب الفتنة بالنساء موجود في الرجال، سواء كانوا صحابة أو غير صحابة، وإن كان الصحابة - لا شك - أذكى وأطهر وأبعد عن الفتنة وعن النظر إلى النساء، لكن أيضاً كان يحضر الصلاة أحياناً حُذَاءَ عهد، وأعراب، وكان يحضر الصلاة من هم من أهل النفاق، والمرأة في الإسلام - حتى في زمن الصحابة - مأمورة بالحجاب، وهو لم يقل لها: لا تتحجبي أمام الورعين من الصحابة.

المهم: أن النبي ﷺ لم يفعله، فيأتي بعض الفقهاء اليوم ممن يأخذ كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ بترتيب لزومي، فيقول على قاعدة شيخ الإسلام: إن وضع مكان في هذا العصر للنساء بدعة. ويأتي بمثل هذه التراتيب المتكلف فيها، وهذا

(١) البخاري (٣٧٢) ومسلم (٦٤٥) (٢٣٠).

ليس بصحيح.

فالإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ الَّذِي قَالَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ لَهُ مَسَائِلٌ فِي الْفَتَاوَى أذْكَرَ جَمَلَةً مِنْهَا: حُكْمُ اسْتِخْدَامِ السَّبْحَةِ لِلتَّسْبِيحِ، لَقَدْ انْعَقَدَ سَبَبُ التَّسْبِيحِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ، لَكِنَّهُ كَانَ يَسْبَحُ بِأَصَابِعِهِ أَوْ بِأَنَامِلِهِ، وَكَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَسْتَعْمَلَ مِثْلَ هَذِهِ الْأَدْوَاتِ، كَالْأَحْجَارِ أَوْ الْخُرْزِ أَوْ غَيْرِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَفْعَلِ ﷺ ذَلِكَ، فَعَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ أَنَّ التَّسْبِيحَ بِالسَّبْحَةِ بَدْعَةٌ، وَمَعَ ذَلِكَ عِنْدَمَا سُئِلَ الْإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ عَنِ مَسْأَلَةِ التَّسْبِيحِ بِالسَّبْحَةِ، قَالَ: «إِنَّ التَّسْبِيحَ بِهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَى قَصْدِ الرِّيَاءِ أَوْ هِجْرَانِ مَا جَاءَتْ بِهِ السَّنَةُ مِنَ الْأَصَابِعِ وَالْأَنَامِلِ، فَالتَّسْبِيحُ بِهَا حَسَنٌ». فَهُوَ لَمْ يَقُلْ: جَائِزٌ، بَلْ قَالَ: حَسَنٌ، بِشَرَطِ أَلَّا يَكُونَ رِيَاءً وَلَا يَكُونَ هِجْرَانًا لِفِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ. إِذَا: أَيْنَ كَلَامِهِ السَّابِقِ، وَتَطْبِيقِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ؟ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شَيْخَ الْإِسْلَامِ مُتَنَاقِضًا فِي تَقْرِيرِهِ.

وَأَشَدُّ مِنْ هَذَا: حُكْمُ تَلْقِينِ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ: هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي أَغْلَقَهَا الشَّارِعُ إِغْلَاقًا شَدِيدًا، فَهِيَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى قَاعِدَةِ سَدِّ الذَّرَائِعِ، وَهِيَ كَذَلِكَ لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ، وَزِيَادَةٌ عَلَى ذَلِكَ هِيَ مَسْأَلَةُ مَخَالَفَةِ لِلْعَقْلِ؛ لِأَنَّ الْمَلِكِينَ حِينَ يَقُولَانِ لِلْمَيِّتِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ هَلِ الْقَضِيَّةُ قَضِيَّةٌ أَنَّهُ يَسْمَعُ أَحَدًا فَيَقْلُدُهُ؟ لَا.

قَدْ يَكُونُ هَذَا الْمَيِّتُ يَقُولُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ وَفَصِيحًا فِيهَا، لَكِنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا حَقًّا يَصْرَفُ عَنْهَا فِي مَقَامِ الْإِبْتِلَاءِ وَالْفِتْنَةِ. إِذَا: التَّلْقِينِ مَخَالَفٌ حَتَّى لِمَبَادِئِ الْعَقْلِ، وَمَقَاصِدِ الشَّارِعِ مِنَ الْإِفْتِتَانِ الَّذِي يَقَعُ فِي الْقَبْرِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمَّا سُئِلَ ابْنُ

تيمية عنها قال: «وهذه المسألة فيها للفقهاء ثلاثة أقوال: منهم من استحَبها، ومنهم من أجازها، ومنهم من نهى عنها إما نهى تنزيه أو نهى تحريم. قال: وقد كان واثلة بن الأسقع يرخص في هذا، قال: والصحيح أنها جائزة، وإذا قيل بالنهى عنها فهي مكروهة، وليست بمحرمة». ثم قال: «ومع هذا فإنه ينبغي ترك ذلك، وليس هذا من السنن الواردة عن النبي ﷺ» (١).

إذاً: هو أبعد المسألة عن البدع والتحريم، فقد قال: إنها جائزة، ثم رجع وقال: وإذا نُهي عنها فهذا نهى كراهة، وإن كانت مع ذلك ليست من السنة، ولا ينبغي أن يصار إليها.. إلخ، وكان من المفترض على القاعدة السابقة: أن يقول: هذا بدعة أو من المحدثات. وهناك أمثلة أخرى لشيخ الإسلام في هذا لا يتسع المقام لذكرها.

والقصد من هذا أن جملته السابقة لما قال: «ما انعقد سببه..» هي جملة مجملة ينبغي أن تنزل تنزيلاً مناسباً للنصوص، أما أن تجعل كقاعدة - إن صح التعبير - رياضية مطردة، وتُبدع كثير من الأقوال والأفعال على هذه الطريقة فهذا فيه تكلف، فإن شيخ الإسلام قد خالف هذا الافتراض أو هذا الفهم في كلامه نفسه، ولا يمكن أن يكون متناقضاً في تقريره للأصول والتفريع عليها.

الافتراق واقع:

الافتراق في أهل القبلة افتراق واقع، لا مجال لرفعه أو التكلف في ادعاء أنه ليس له وجود، فقد أثبتت الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ حصوله، ولو لم تثبت

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/٢٥) بمعناه.

الأحاديث فإنه أمر بيّن من جهة الوقوع منذ قرون ماضية، بل من آخر عهد الخلفاء الراشدين الأربعة، والعلم بالواقع علم ضروري يمتنع رفعه.

مدى صحة حديث الافتراق:

حديث الافتراق ليس من الأحاديث الصحاح البينة الصحة مما خرّج في الصحيحين، أو مما ظهرت واستفاضت صحته عند الأئمة، وإن كان قد روى هذا الحديث الإمام أحمد في مسنده وأهل السنن وغيرهم، وصححه جماعة من الحفاظ، واعتبره جماعة من أصحاب السنة فيما صنفوه في مسائل الافتراق ومسائل أهل البدع، وبيان مخالفتهم للسلف^(١).

فإن هذا الحديث ثمة خلافٌ بين الحفاظ في ثبوته، فمنهم من يذهب إلى تضعيفه بأوجهه، ومنهم من يذهب إلى تقويته، وهذا هو المشهور والأظهر عند المتأخرين من الحفاظ.

وهنا مسألة لا بد أن تعتبر في مثل هذا النوع من البحوث، وهو أنه ليس مهماً - فيما يظهر - أن يتوصل إلى جزم بصحة هذا الحديث أو عدم صحته، فإن الوصول إلى هذا الجزم ليس له نتيجة محققة في تقرير المسائل المقصودة في هذا الباب، فإن هذا الحديث قد جاء من رواية أبي هريرة وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر -

(١) أحمد (٣٣٢ / ٢) والطبراني في الصغير (٧٢٤) وأبو داود (٤٥٩٦) وابن ماجه (٣٩٩١) والترمذي (٢٦٤٣) والحاكم (١ / ١٢٨)، والآجري في الشريعة (٢٥)، وغيرهم، وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٢٣٠ / ٣): «حديث افتراق الأمة أسانيداً جياداً». وحسن إسنادها الحفاظ في «تخريج الكشاف» (١٧).

أي: من رواية جماعة من الصحابة - عن النبي ﷺ، وكما أسلفت قد اختلف الحفاظ في ثبوته وعدمه، فذهب ابن حزم إلى الطعن فيه، وهذا قول جماعة، وذهب شيخ الإسلام وجماعة إلى تقويته.

لكن هذا الحديث لا يقال فيه: إن صحته تدل على جملة من المسائل المعتمدة في منهج التقرير لعقيدة السلف أو منهجهم أو أحكام المخالفين، فإن ما تضمنه من المعاني المعتمدة هي ثابتة في الشرع بأدلة أخرى، ولهذا ما يذهب إليه بعض المعاصرين من أن تفريق الأمة بهذا الحديث، أو إن ثبوت اختلاف الأمة مبني على صحة الحديث، وإن الحديث ليس بصحيح، هذا ليس فيه نتيجة محققة، لوجهين:

الوجه الأول: أن افتراق أهل القبلة - أي: اختلاف المسلمين في مسائل أصول الدين - أمر بين من جهة الوقوع، فإنه بين وقوعاً من قرون ماضية، بل من آخر عهد الخلفاء الأربعة الراشدين، لما ظهرت الخوارج، والشيعنة، ثم بعد ذلك القدرية.. إلخ.

إذاً الافتراق في أهل القبلة افتراق واقع، لا مجال لرفعه أو التكلف بأنه ليس له وجود، حتى لو لم يحدث به الرسول ﷺ، فما دام أنه وقع فيجب أن يعلم أنه وقع؛ لأن العلم بالواقع علمٌ ضروري يمتنع رفعه.

الوجه الثاني: أن النبي ﷺ قد انضبط إليه من جهة الرواية ثبوت الافتراق في هذه الأمة، فإنه تواتر عنه عليه الصلاة والسلام في الصحيحين وغيرهما أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا

من خالفهم، حتى يأتي أمر الله»^(١) وفي وجه في الصحيح: «حتى تقوم الساعة» فهذا الحديث حديث ثابت متواتر من جهة استفاضة ثبوته عند الأئمة، ومخرج - كما تقدم - في الصحيحين من غير وجه وفي غيرهما. وهذا الحديث فيه تقرير لكون الأمة سيدخلها افتراق واختلاف في مسائل أصول الدين، ولهذا وصف عليه الصلاة والسلام هذه الطائفة بأنها الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، وأنهم على أمر الله ورسوله ﷺ. وعليه: فتقرير افتراق الأمة ثابت بهذا الحديث المتواتر الصحة.

إذاً: قوله في مبدأ هذا الحديث: «وستفترق هذه الأمة» يقال فيه: إن العلم بهذا الافتراق ليس معلوماً من هذا الحرف من الحديث فقط، بل هو علم ضروري من جهة الوقوع، ومن جهة الخبر النبوي الآخر أيضاً.

ما اختص به حديث الافتراق:

أما قوله: «على ثلاثٍ وسبعين فرقة» فهذا التحديد للعدد هو الذي اختص به هذا الحديث، فإن كان الحديث غير ثابت، فلا يجوز أن يقال: إن الأمة ستفترق على ثلاثٍ وسبعين، أو افتقرت على ثلاثٍ وسبعين.

إذاً: في هذا الحديث امتياز ذكر عدد الطوائف المخالفة، وأنهم ثلاثٌ وسبعون فرقة، وهذا الامتياز ليس تحته حقيقة كثيرة؛ لأنه علم كلي. ومعنى أنه علم كلي أي: أنه لا يستطيع أحدٌ لا من السلف ولا من الخلف أن يحدد هذه الفرق الثلاث والسبعين على القول بصحة الحديث، ولهذا قال شيخ

(١) البخاري (٩) مسلم (١٥٦).

الإسلام رَحْمَةًُ اللَّهِ: «إنه لم يكن من طريقة السلف الجزم بتعيين هذه الفرق، وإن عَيَّنوا أصولها كقولهم: أصول البدع أربع: المرجئة، والقدرية، والجهمية، والشيعية، أو ما إلى ذلك من جمل السلف»، فهم قد يعينون أصول البدع.

أما أنهم اشتغلوا بتسمية الفرق المخالفة للسلف - وهم ثنتان وسبعون فرقة - فإن هذا الاشتغال لم يقع من أحد من السلف، وإنما اشتغل به بعض المتأخرين، وأصل الاشتغال به من طريقة متكلمة أهل الإثبات كأصحاب أبي الحسن الأشعري المنتسبين إلى السنة والجماعة، فإنهم سموا الطوائف الثلاث والسبعين، واستعمل هذا أيضاً بعض الفقهاء من أصحاب الأئمة رحمهم الله الذين يجانبون طريقة المتكلمين.

لكن هذا الاشتغال ليس اشتغالاً سلفياً، بل هو من القول على الله بغير علم؛ لأنه إن اعتبرت أسماء الطوائف التي ظهرت في تاريخ المسلمين فإن العدد لا يمكن أن ينضب عليها، بل قد يزيد عنها إذا اعتبر تفرق الطوائف، كأن يقال الخوارج: خمس عشرة طائفة والمرجئة: ثنتا عشرة طائفة، إذا اعتبر هذا التقرير كما هي طريقة أهل المقالات فإن الفرق تزيد كثيراً عن ثلاث وسبعين. وإذا اعتبرت أصول الطوائف فإن الفرق تقل عن ثلاث وسبعين؛ ولذلك إن صح هذا الحرف عن النبي ﷺ فإنه حرفٌ يُعلمُ علماً مجملاً كلياً، فيُعلمُ أن الفرق ستكثر، وكأن المراد من كلمته ﷺ: أن البدع ستكثر، وأنه سيكون لها أوجهاً متعددة.

وأما أن المكلفين يعلمون أسماء هذه الفرق فهذا ليس بصحيح، وقد

أوضحنا في شرح كتاب الإيمان لأبي عبيد أنه لم يصح عن الرسول ﷺ أنه سمي طائفةً بدعيةً باسمها، كاسم المرجئة أو القدرية أو الشيعة، أو ما إلى ذلك، بل كل ما روي مرفوعاً إليه لا يصح، وإنما صح كلامه ﷺ في الخوارج.

إذاً قوله: «على ثلاث وسبعين فرقة» هذا التحديد هو الذي أفاده هذا الحديث. فإن صح قيل: هذا من العلم المجمل الكلي، وإن لم يصح فالاعتبار بثبوت الافتراق، وليس بباهية العدد.

الجمل المذكورة في حديث الافتراق:

هذا الحديث فيه سبع جمل:

الجملة الأولى: «افترقت اليهود»، وافتراق اليهود معلوم من الكتاب والسنة.

الجملة الثانية: «على إحدى وسبعين فرقة» فإن صح هذا الحديث علم عدد فرق اليهود علماً مجملاً، وإن لم يصح علم افتراق اليهود من الكتاب والسنة.

الجملة الثالثة: «وافترقت النصارى» وافتراق النصارى معلوم من الكتاب والسنة.

الجملة الرابعة: «على اثنتين وسبعين فرقة» فإن صح هذا الحديث علم عدد فرق النصارى علماً مجملاً، وإن لم يصح علم افتراق النصارى من الكتاب والسنة. وبقي في الحديث ثلاث جمل تتعلق بهذه الأمة:

الجملة الأولى: «وستفترق هذه الأمة» وهذا معلوم من جهة متواتر الشرع،

ومن جهة الوقوع.

الجملة الثانية: «على ثلاث وسبعين» تحديد العدد أفاده هذا الحديث، فإن صح فهذه الإفادة إفادة كلية مجملة، ليس تحتها تعيين ممكن.

الجملة الثالثة: «كلها في النار إلا واحدة» هذه جملة مهمة، لكن نقول: هذه الجملة - وقد ذكرت في هذه الأمة، وذكرت في اليهود والنصارى - أفادتها دلائل الشريعة من الكتاب والسنة، ولم يختص بذكرها هذا الحديث، فهي ليست كالجملة الثانية التي قلنا: إن هذا الحديث أفادها؛ فثبوتها مبني على ثبوته، لكنها كالجملة الأولى.

حكم الفرق المخالفة لأهل السنة:

بهذا يتبين أن هذا الحديث ليس فيه زيادة في حكم المخالفين للسلف؛ فإن قوله ﷺ: «كلها في النار إلا واحدة» لا يراد به عند السلف أن جميع من خالفهم يكون من أهل النار أو من أهل الوعيد جزماً، وإنما هذا من أحاديث الوعيد العامة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] وقوله عليه الصلاة والسلام: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار»^(١). وقوله في حديث ابن مسعود: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال

(١) مسلم (١٣٧).

ذرة من كبر»^(١) وغيرها من النصوص.

فهذا الحديث فيه بيان لكون المفارقة للسنة والجماعة من موجبات الوعيد، فإن من فارق السنة والجماعة لا بد أن تكون مفارقتة في الجملة عن تفريط منه، ولا شك أن المفرط يكون تاركاً لواجب من الواجبات، ومن ترك واجباً من الواجبات أو قصر فيه فإنه يكون مُعَرَّضاً لوعيده سبحانه وتعالى، وهذا لا يمنع أن يكون بعض من انتحل البدع وطرق أهل الأهواء على قدر من الزندقة والكفر والخروج من الملة، وهذا مقام آخر.

المقصود: أن حكمه عليه الصلاة والسلام - إن ثبت هذا الحرف عنه - على جميع هذه الفرق أنها في النار إلا واحدة، وهي الفرقة الناجية، لا يراد به التعيين، لا للطوائف، ولا التعيين - من باب أولى - للأعيان.

بل يقال: هذا وعيد؛ لأن من فارق السنة والجماعة لا بد أن تكون مفارقتة بسبب قدر من التفريط في الجملة، والمفرط تارك لواجب، والتارك للواجب العلمي من جنس التارك للواجب العملي، بل تركه للواجب العلمي أشد من ترك الواجب العملي، ولهذا كان السلف يَعدُّون جنس البدع أعظم من جنس المعاصي والكبائر العملية.

هذا هو المراد من هذا الحرف، وهو مرادٌ لا ينبغي أن يختلف فيه، ومن فسر الحديث بأن هذا حكم على أصحاب هذه الطوائف بأنهم من أهل النار وأنهم

(١) مسلم ٦٥/١ (٩١) (١٤٧).

كفار، أو أنهم من أهل التخليد في النار، أو عيّن طائفة الخوارج، أو طائفة المعتزلة، أو الأشعرية أو غيرها بأنها من أهل النار؛ لأن النبي ﷺ قال: «كلها في النار» فهذا فهمٌ غلطٌ لكلامه ﷺ، وهذا لا يمنع أن أهل البدع المغلظة، قد يقع في أعيانهم من هو من أهل الكفر والزندقة والخروج من الملة، فهذا مقام آخر له قدر من الثبوت كما ذكره الأئمة رحمهم الله، وكما هو المعروف في الواقع التاريخي لبعض غلاة أهل البدع.

إذًا: هذا هو الذي يراد بهذا الحديث، وعليه ترى أن الجملة الثالثة ليست مما اختص به هذا الحديث، فهي معلومة بكليات وبمفصل دلائل الشريعة، فقد دلت دلائل الشريعة على أن أصحاب الكبائر العلمية من جنس أصحاب الكبائر العملية، بل هم أولى في الوعيد من أصحاب الكبائر العملية.

منزلة الاجتماع عند أهل السنة والجماعة:

وصف الفرقة الناجية بأنها أهل السنة والجماعة وهذا في قوله ﷺ: «من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»، وهذا الوصف من جهة الثبوت فيه نظر، فإن هذا الحرف فيه كلام للحفاظ من جهة ثبوته، لكن معناه معنى صحيح، فلا شك أن الطائفة المنصورة الناجية هم من كان على هدي النبي ﷺ وأصحابه.

ولم يثبت عن النبي ﷺ أنه جمع الاسمين - السنة والجماعة - في سياق واحد؛ أي: أن هذا التركيب بهذا السياق لم يثبت، وإنما ثبتت الأفراد، ولثبوت الأفراد استعمل هذا الاسم في تعيين هذه الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة.

وهذا الاسم حين يقال: إنهم هم أهل السنة وهذا بيان لاتباعهم، والجماعة

وهذا بيان لاجتماعهم، فإن السنة لا بد فيها من اجتماع، والاجتماع لا بد فيه من سنة، فهما أصلان متلازمان، ولذلك يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «ولهذا كان الإجماع من أشرف أصول الاستدلال عند الأئمة، ومخالفه يكون على قدر من الضلال والبدعة بخلاف من خالف ما لم يظهر له من دلائل أو من آحاد الدلائل، فإن هذا مقام يقع فيه اجتهاد».

إذاً: لا يمكن أن تتحقق هذه الطائفة إلا بهاذين الأصلين: الاتباع للسنة، والاجتماع على ذلك. ولذلك من لم يحقق مقام الاجتماع فقد فاتته كثير من السنة.

وهنا تنبيه: إلى أنك قد ترى بعض السلفيين اليوم، وهذا لا يقع من علمائهم أو شيوخهم الكبار، بل يقع كنوع من - إن صح التعبير - الاندفاع أو التعجل من بعض الطلبة في بعض المدارس، فقد يقومون بتحصيل سنة مختلف فيها بين الفقهاء، وهذا التحصيل يستلزم تفويت مصلحة الاجتماع، فيكونون حصلوا سنةً يسيرةً مختلف فيها كالشهادة أو كالإشارة بالإصبع أو وضع اليدين على الصدر، وفوتوا في هذا مصلحة الاجتماع.

وهذا لم يكن من هدي السلف، فإن ابن مسعود - وهو من كبار أئمة السلف؛ لأنه إمام صحابي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أتم خلف عثمان، وما كان إتمام عثمان موافقاً للسنة؛ فإن النبي ﷺ لم يتم الصلاة في سفر قط، لكن عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أتم وتأول، وليس المقصود هنا بتم تأول، بل المقصود: أن ابن مسعود وجملة الصحابة من بعده أتموا خلف عثمان، ولما قيل لابن مسعود في ذلك، قال: «الخلافاً شر».

فمع أن هذه سنة مقصودة التحصيل إلا أن الاجتماع أيضاً شريعة وسنة مقصودة التحصيل لا بد من ضبطها، وهذه من قواعد الفقه: أنه لا تحصل مصلحة يسيرة مختلف فيها بتفويت مصلحة كلية مجمع عليها؛ والعناية بالسنة مقام بين عند السلفيين اليوم، لكن ينبغي أن يؤكد على العناية بالاجتماع على السنة؛ ولهذا ما يقع من افتراق كثير من السلفيين اليوم ليس افتراقاً شرعياً، ولا موجب له من الشريعة، ومسائل السلفية هي الإجماعات، والإجماعات لا ينبغي أن يختلف فيها، وليس فيها مادة قابلة للاختلاف.

أهل السنة هم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم:

وهذه مسألة يخطئ فيها كثير من أهل البدع، وذلك حين تزعم بعض طوائف أهل البدع: بأن طائفتهم عليها أكثر المسلمين.

وقد قال جملة من متكلمي الأشعرية: إن النبي ﷺ جاء عنه في ذكر الفرقة الناجية المنصورة أنهم السواد الأعظم، قالوا: وأصحابنا الأشاعرة هم السواد الأعظم، فإن جمهور العلماء أصحاب المذاهب الأربعة - أي: فقهاء المذاهب الأربعة، أتباع أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد - إما أشعري، أو سالك مسلك بعض أئمتهم، أو متأثر بهم - ومن هنا زعم جملة من متكلمي الأشاعرة أن طائفتهم هي الطائفة التي يمكن أن توصف بأنها السواد الأعظم. وهذا لا شك أنه خطأ.

ومن قال: إن أكثر علماء المسلمين من الأشاعرة فقد أخطأ، فإن أئمة العلماء هم القرون الثلاثة الفاضلة، وهؤلاء ليس فيهم أشعري، بل هؤلاء وجدوا قبل

أن يوجد المذهب الأشعري، فالصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ جميعهم أئمة سنة، والتابعون كذلك.. إلخ.

إذاً هذا خطأ في التقدير التاريخي، وخطأ في تقرير الحقائق الشرعية، فإن أئمة المسلمين وجمهور علمائهم هم أئمة السنة والجماعة، هذه جهة.

وجهة أخرى: أن السواد الأعظم من المسلمين هم على السنة والجماعة، فإن طرق المتكلمين كالأشاعرة - فضلاً عن المعتزلة - في تحصيل عقائدهم طرق نظرية، وهي طرق علم الكلام، كتقرير دليل الأعراض، ودليل الاختصاص، ودليل التركيب إلى آخر هذه الطرق الجدلية النظرية، فإذا تكلموا في الصفات جاءوا بدليل الأعراض، وإذا تكلموا في القدر جاءوا بنظرية الكسب التي أعيا تفسيرها أئمة الكلام من الأشاعرة. وهذه الطرق لا يمكن عقلاً ولا جدلاً أن العامة من المسلمين يعرفونها ويفهمونها؛ فهي متعذرة الفهم على العامة.

ولهذا اختلف علماء الأشاعرة أنفسهم في حكم إيمان العوام، فمنهم من يقول بفساد إيمان العامة - وهذا عليه بعض غلاتهم - ومنهم من يقول: إنهم تاركون لواجب في الإيمان، وهي الطرق التي اخترعوها وابتدعوها ودخلت عليهم من المعتزلة، ومنهم من يقول: إن إيمانهم صحيح ولم يتركوا واجباً فيه، لكنه إيمان مجمل، ليس الإيمان التام المحقق، فالإيمان التام المحقق لا يحققه أو يعرفه إلا أرباب العلم الكلامي.

وبما أن طرق المتكلمين، متعذرة التحقق عند العامة؛ إذاً سواد المسلمين وعامتهم أهل سنة؛ لأن سواد المسلمين ليس لهم مرادٌ إلا الإسلام، والسنة

والجماعة هي الإسلام، وليس فيها زيادة عن الإسلام، حتى بعد حدوث الفرق والبدع، لم تزد السنة بزيادة هذه الفرق، بل السنة واحدة، السنة والجماعة والسلفية هي الإسلام الذي بعث الله به رسوله ﷺ، وقال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

هذا هو المنهج السني السلفي، وهو الإسلام الحق التام المحقق ظاهراً وباطناً. وعليه: فسواد المسلمين وعامتهم أهل سنة، قد يتأثرون ببعض علماء بلدهم، فهذا التأثير يؤخذ بقدره، ويكون تقصيراً، ولا يلزم أن تُغَلَّبَ الحالة على العامة؛ نظراً لأن علماء البلد أشاعرة.

خطأ القول بأن العامة والجمهور ليسوا من أهل السنة:

وعليه: ما يقع فيه بعض الأشعرية أو من ينتصر لمذهبهم ويقول: إن بلاد كذا، وبلاد كذا، وبلاد كذا، وأكثر أمصار المسلمين اليوم أشاعرة، بحجة أن الظاهر في علماء بلدها أنهم أشاعرة، هذا ليس متيناً؛ لأنه والله الحمد ما من بلد اليوم إلا وفيه علماء من السنة والسلفيين، هذه جهة.

الجهة الثانية: لو فرض جدلاً عدم ذلك، فإن العامة قد بقوا على أصل الديانة وأصل الإسلام، ولم يسمعوا بهذه المعارف الكلامية الفلسفية السفسطية.. إلخ. فهذا الباب لا بد من إدراكه.

ويقابل ذلك بعض السلفيين أحياناً، حيث يقول: إن السلفية مختصة بمكان كذا وكذا، وأما جمهور الأمصار فهي على البدعة والضلال، وهذا أيضاً خطأ وليس بصحيح، بل أمصار المسلمين في الجملة هي على السنة والجماعة، وأكثر

ما يغلب على المسلمين هو التقصير في تحقيق الاتباع لله ورسوله ﷺ، وأما التقصد إلى معارضة الكتاب والسنة والخروج عن طريقة السلف، فهذا - في الجملة - ليس مقصوداً للعامّة وإن كانوا يخالفون، وفرق بين من اختص بطائفة، وبين من يخالف وهو لم يقصد الخروج عن طائفة أهل السنة والجماعة.

إذاً: لا شك أن أهل السنة والجماعة هم السواد الأعظم، وهم الذين فيهم الأئمة، وهم أئمة الصحابة والقرون الثلاثة، وفيهم المجاهدون، والأولياء إلى غير ذلك. فهذا من المسائل التي لا ينبغي أن ينازع فيها، ولا يتكلف في التوهم فيها.

أما أن الأشعرية هم أكثر علماء المسلمين، أو هم جمهور المسلمين.. إلخ، فهذا ليس له حقيقة، بل هم طائفة نظرية امتدت بعض القرون، وكثرت في بعض أتباع المذاهب، ولكنها لا يمكن أن تصنف على هذا التصنيف المتكلف، وهي طائفةٌ كما قيل فيها: هي أقرب الطوائف إلى الكتاب والسنة بعد السلف، أو هم أقرب طوائف المتكلمين إلى أهل السنة والجماعة.

أما القصد إلى تقليل الطائفة السلفية - أهل السنة والجماعة - بأي نوع من أنواع القصد فليس قصداً شرعياً ولا قصداً حكيماً ولا قصداً فاضلاً.

وهذا القصد إما أن يقع فيه بعض الأشاعرة وهذه فكرة قديمة عند الأشاعرة، أو يقع فيه بعض طلبة العلم السلفيين الذين لم يكتملوا، وذلك حين يبالغون في تقييد المذهب السلفي بتقييدات كثيرة، ويجعلون من خرج عن هذه التقييدات ليس سلفياً، وكتيجة لهذا فعلاً يصبح الأكثر من المسلمين ليس

سلفياً، ولا من أهل السنة والجماعة، إنما قد يقال: عنده سنة، ولكن عنده بدعة.. إلخ. فهذا التضييق ليس مقصوداً.

السواد الأعظم:

وإذا قيل: لم يكن مقصوداً؟ هل لكون النبي عليه الصلاة والسلام، قال: «هي السواد الأعظم»^(١) فإنه قد يقال: هذا الحرف لم يثبت عنه عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث؟ فيقال: كلا، لا يقصد إلى تضييقه لهذا الحرف، إنما لأن المراد من الطائفة التي قال النبي ﷺ فيها: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله» هذه الطائفة التي على الحق هي طائفة أهل السنة والجماعة، هم السلفيون، ومن أسماء هذه الطائفة التي تقال في حقهم هم أهل الإسلام حقاً.

وقد يقول قائل: إن المراد بالحق في قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق»^(٢) يراد به السلفية، نقول: أجل من كلمة السلفية كلمة الإسلام، فهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام يقول: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]. وقد يقول البعض: إذا سُميت باسم الإسلام؛ فإنه يشمل جميع المسلمين من أهل السنة وأهل البدعة.

قيل: هذا يستدعي قدرًا من التمييز كاسم أهل السنة والجماعة، لكن هذا لا

(١) البيهقي (١٨٨ / ٨) ولفظه: «كلها في النار، إلا السواد الأعظم» بسند حسن.

(٢) البخاري (٩) ومسلم (١٥٦) وأبو داود (٢٤٨٤) بسند صحيح.

يستدعي هجران الاسم الأول، ولا يستلزمه، والدليل على ذلك أن الله عظم اسم الإسلام، مع أن اسم الإسلام كان يدخل فيه زمن النبوة المنافقون الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] وقد قال شيخ الإسلام: «وقد اتفق العلماء على أن المنافقين يدخلون في اسم الإسلام إذا ذكر».

إذاً؛ كون هذا الاسم يدخل فيه قوم ليسوا أهلاً له أمر لم يظهر بظهور البدع، بل هو موجود حتى في زمن النبوة من جهة اسم النفاق؛ ولهذا كان المقصود بأهل السنة المحققين للإسلام حقاً، وكما أن فيهم المحقق القاصد فيهم الظالم لنفسه، وفيهم المقتصد، وفيهم السابق بالخيرات.

ولهذا لا ينبغي أن يضيق هذا الاسم بحال من الأحوال، بل كل من اعتبر الكتاب والسنة وأخذ بإجماع الصدر الأول، فهذا يعد من أهل السنة والجماعة، وليس هناك شروط لسلفيته يجتهد فيها المجتهدون، أو يتكلف فيها أحياناً بعض أصحاب الردود والمخالفات والمناقشات التي لا معنى تحتها ولا حقيقة.

قال شيخ الإسلام: «وأما الفرق الباقية فإنهم أهل الشذوذ والتفرق والبدع والأهواء، ولا تبلغ الفرقة من هؤلاء قريباً من مبلغ الفرقة الناجية، فضلاً عن أن تكون بقدرها، بل قد تكون الفرقة منها في غاية القلة، وشعار هذه الفرق: مفارقة الكتاب والسنة والإجماع» وهذا من فقه شيخ الإسلام، مع أنه رَحِمَهُ اللهُ جاء في القرن السابع وأدرك من القرن الثامن، وقد كان المذهب الأشعري هو الغالب في - إن صح التعبير - الدوائر الرسمية في الدولة الإسلامية آنذاك، أي هو

الممثل الرسمي للدولة إذ ذاك من جهة القضاء ومن جهة الفتيا، فكان كبار أئمة الشافعية خاصة على المذهب الأشعري، فمع هذا الانتشار وهذا الشيوع في بعض الفترات وبعض المراحل من القرون الإسلامية، إلا أن شيخ الإسلام كان يقرر هذه الحقيقة: أن أهل السنة هم السواد الأعظم، وأن الطوائف هم أهل الشذوذ والابتداع والافتراق، وهم في الغالب على قدرٍ من القلة إلى غير ذلك.

حكم زيادة لفظ: (على فهم السلف الصالح):

هنا طريقة يقررها البعض أحياناً وهي أنه لا بد أن يقال: الكتاب والسنة والإجماع على فهم السلف الصالح، فيذكرون هذا القيد وهو: على فهم السلف الصالح.

وهذا القيد هو قيدٌ بياني على الصحيح، وليس قيداً لازماً، بمعنى أنه قيد فاضل صحيح إذا اقتضت الحاجة إلى ذكره ذكر، وهو من جنس كلمة سهل بن عبد الله في الإيمان، حيث قال: «الإيمان قولٌ وعملٌ ونيةٌ واتباعٌ». فقوله: «اتباعٌ» أي: للسنة، ليس خطأ، لكنه ليس قيداً لازماً؛ لأننا لو قلنا: الإيمان قولٌ وعملٌ ونيةٌ كان كافياً، ولا يلزم أن نقول: «اتباعٌ»؛ لأننا نقصد بلفظة «قول» القول الشرعي، وبلفظة «وعملٌ»: العمل الشرعي وهكذا، فهذا من القيود البيانية. لكن هل الأفضل ذكره أو عدم ذكره؟

يقال: هذا بحسب الاقتضاء، فإذا شاع عند كثيرين دعوى الاتباع للكتاب والسنة على خلاف منهج السلف وفهمهم كان استدعاء ذكره استدعاءً مشروعاً ومقصوداً.. إلخ. وهذا هو المقصود، فإنه لا يقصد من هذا أن طالب العلم لا بد

أن ينفك عن هذا التعبير، حتى من التزم هذا التعبير في كلامه وتقاريره وكتبه ودروسه، فإن التزامه صحيح، وقد كان الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ يلتزم هذا التعبير في الغالب. فيما أحسب، وهو التزام سلفي صحيح.

لكن إذا عبر معبر من علماء السنة والجماعة فقال: ومذهب السلف معتبر بالكتاب والسنة، فإنه لا يجوز أن يقال: إنه قد أخطأ، أو فاته التقرير للكلمة على فهم السلف الصالح، إلا إذا علم أنه كان يقصد عدم الاعتبار لفهم السلف. أما من يحتج ويقول: إننا إن قلنا الكتاب والسنة لم نميز أهل السنة؛ لأن أهل البدع يقولون: الكتاب والسنة.

نقول: حتى لو قالوا ذلك؛ فإن هذا لا يستدعي هجر هذه الاستعمالات؛ لأنها مستعملة في كلام الله ورسوله قبل أن نقول: إنها مستعملة في كلام أعيان السلف؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: «ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه»^(١)، وقال: «فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله»^(٢) ولم يقل ﷺ في حجة الوداع: وستي، إنما قال: «وأنتم تسألون عني»^(٣) فكان عليه الصلاة والسلام تارة يذكر القرآن، وتارة يذكر هديه، وتارة يذكر الكتاب والسنة.. إلخ، وكل هذا حق.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] قال جملة

(١) أبو داود (٤٦٠٦) وصححه الألباني.

(٢) مسلم ١٢٢/٧ (٢٤٠٨) (٣٦) و(٣٧) بنحوه.

(٣) مسلم (١٢١٨) في حديث جابر الطويل في صفة حجة الوداع.

من السلف: حبل الله القرآن، ومنهم من قال: حبل الله الإسلام، ومنهم من قال: حبل الله السنة وهدى محمد، فهل نأتي ونقول: هذا تقصير في التحقيق، كان يجب أن يقولوا: حبل الله القرآن والسنة وفهم السلف؟ لا؛ فإن كل هذه المعاني صحيحة.

وكمثال على هذا: قال الإمام أحمد: «نصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله لا يتجاوز القرآن والحديث». فهل يحق لأحد أن يأتي ويقول: فات الإمام ذكر الإجماع؟ الجواب: لا.

إذاً: هذه التعابير هي قيود بيانية إذا استدعت المصلحة إلى ذكرها ذكرت، وإذا لم تستدع المصلحة لا نقول: إنها لا تذكر، وإنما نقول: إن ذكرها أو عدم ذكرها أمر فيه سعة.

الأسماء الشرعية لأهل السنة والجماعة:

مما ينبه إليه هنا: هو أن الأسماء المضافة لهذه الطائفة كلها شرعية، فإذا قيل: السلفيون، أو قيل: أهل السنة والجماعة، أو قيل: المسلمون، أو قيل: المحققون، أو قيل: المؤمنون، أو قيل: الصالحون، فكلها أسماء شرعية، ولهذا ينبغي ألا يختص اسم واحد من هذه الأسماء بالالتزام، ويكون الذكر لغيره ليس تحقيقاً، فلا شك أن اسم المؤمنين والصالحين والصدّيقين والشهداء إلى غير ذلك أشرف وأعظم من اسم السلفية، فإن هذه أسماء عظمها الله سبحانه وتعالى في كتابه.

وهذا لا يعني المنع من استعمال هذا الاسم -السلفية أو السلفيون- فإنه اسم شرعي، وهو يدل على الاتباع للسلف الذين هم القرون الثلاثة الفاضلة، لكن

القصد: أنه ليس وحده المستعمل، بل يستعمل هو ويستعمل غيره.

دعوى بعض أهل البدع أنهم يلتزمون بفهم السلف الصالح:

كثير من أهل البدع يقولون فهم السلف الصالح ويخطئون في فهمهم، كما أنهم غلطوا في فهمهم لكلام الله والمراد من كلامه ومراد الرسول، فإنهم يغلطون في فهمهم لكلام السلف.

مثلاً: الإمام أبو الحسن الأشعري أول ما ترك الاعتزال بعد ما أمضى فيه ما يقارب الأربعين سنة - كان فيها تلميذاً لشيخه وزوج أمه أبي علي الجبائي، الذي كان من كبار شيوخ المعتزلة - انتسب إلى مذهب الإمام أحمد مباشرة، أما ما يقرره بعض الباحثين من أنه رجع إلى طريقة ابن كلاب أولاً فهذا خطأ، فإنه لا توجد مسألة كلابية في الانتساب الأشعري أساساً، وهذا الخطأ دخل على بعض الباحثين من كلام الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ، فالصحيح هو الذي يقرره ابن تيمية، وهو المعروف في طريقة الأشعري رَحِمَهُ اللهُ: أن الأشعري أول ما ترك الاعتزال صرح أنه على مذهب الصحابة والتابعين والأئمة، وأنه على مذهب الإمام أحمد؛ لأن الإمام أحمد وقتها كان هو المعروف بإمامة السنة أكثر من غيره. لكن بقي سؤال، وهو: هل حقق الأشعري مذهب أهل السنة؟

الجواب: إن الإمام الأشعري كان عارفاً بعلم الكلام وطرق المعتزلة والجدل علماً مفصلاً، وعارفاً بكلام السلف علماً مجملًا، ولذلك إذا تكلم في المجملات ففي الغالب أنه يحسن، وإذا تكلم في المفصلات ففي الغالب أنه يخطئ، وذلك لأن علمه بكلام أهل السنة علم قليل، والدليل على هذا: أنك إذا

قرأت في كتابه مقالات الإسلاميين - والذي يعد من آخر كتبه - تجد أنه تكلم عن المعتزلة بكلام تفصيلي، وفند آراءهم وذكر الفروقات الدقيقة بين أعيان المعتزلة، وشرح مذهب المعتزلة ومقالات المعتزلة في جوهر الكلام شرحاً دقيقاً؛ لكن لما جاء إلى مذهب أهل السنة ما استوعب عنده حتى ثلاث صفحات، فتراه جاء بجمل عامة، فقال: «جملة مقالة أهل السنة والحديث: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، يدينون بدين الإسلام، يؤمنون بالصلاة والزكاة، يؤمنون بصفات الله، يؤمنون بكمال الله، يؤمنون بالقدر خيره وشره» فهي جمل عامة، ثم قال في الأخير: «وبكل ما قال أهل السنة نقول». فهو في كتبه الكلامية المفصلة بعد الاعتزال ما استطاع أن يفصل تفصيلاً سلفياً؛ لأن من يعرف الشيء مجملًا لا يعني أنه يعرفه على التفصيل.

والمقصود من هذا: أن الأشعري وجملة أصحابه - ولا سيما المتقدمون من الأشاعرة - جميعهم ينتسبون إلى الكتاب والسنة وإلى فهم السلف؛ فالأشعري في مقدمة الإبانة لما زجر أقوال أهل البدع قال: «فإن قيل: فما قولكم الذي تقولون به ودينكم الذي تدينون الله به؟ قال: هو ما كان عليه أصحاب محمد.. إلخ»، ثم قال: «ونحن بكل ما قال به أبو عبد الله أحمد بن حنبل قائلون، ولما يعتقدونه معتقدون، فإنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل.. إلخ». فكان يتوهم أن فهمه فهمٌ مناسب لفهم السلف.

إذاً مسألة أن الناس قد يدعون هذا فلا بد أن نزيد التمييزات، يقال: هذه زيادات مناسبة إذا استدعت الحاجة ذكرها، وأما أنها لازمة فلا؛ فإن الرسول

عليه الصلاة والسلام لما ظهر النفاق في المدينة النبوية لم يقل: سنغير اسم الإسلام أو سنهجر اسم الإسلام إلى اسم لا يدخل فيه المنافق وهو اسم الإيمان - مثلاً، فإن اسم الإيمان لا يدخل فيه المنافق، ولم يقل ﷺ كذلك للمسلمين من بعده: التزموا اسم الإيمان ولا تلتزموا اسم الإسلام.

امتناع تعيين الثنتين والسبعين فرقة:

قال شيخ الإسلام: «وأما تعيين هذه الفرق فقد صنف الناس فيهم مصنفات، وذكرهم في كتب المقالات؛ لكن الجزم بأن هذه الفرقة الموصوفة هي إحدى الثنتين والسبعين لا بد له من دليل»، ولا يمكن أن يكون عليه دليل. إذاً العلم بتعيين أسماء هذه الطوائف على التفصيل والتمام علم ممتنع؛ لأنك إذا اعتبرت الطوائف من جهة أصولها قلت، وإذا اعتبرتها من جهة مفضلها زادت وكثرت، هذه جهة.

الجهة الثانية: لو فرض جدلاً أن ثمة ثنتين وسبعين طائفة، فإن الجزم بأنها هي المقصودة في الحديث فيه أيضاً تأخرٌ من جهة العلم والإمكان؛ لأنه قد يكون مقصوداً في كلامه ﷺ بعض الطوائف التي لم تظهر بعد، والنبي ﷺ ذكر أن كثيراً من الافتراق سيقع في آخر هذه الأمة، كما أن بعضه أدرك صدر هذه الأمة، وقال في حديث عبد الله بن عمرو الثابت في صحيح مسلم في سياق طويل: «وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها»^(١)

(١) خرجه مسلم في الصحيح ١٨/٦ (١٨٤٤) (٤٦) وهو حديث عظيم رواه عبد الله بن

فهناك افتراق سيقع في آخر الأمة. إذاً الجزم متعذر من أوجه متعددة.

أهل السنة لا يتبعون إلا رسول الله ﷺ:

قال شيخ الإسلام: «فإن أهل الحق والسنة لا يكون متبوعهم إلا رسول الله ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فهو الذي يجب تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، وليست هذه المنزلة لغيره من الأئمة».

وهذه مسألة لا بد أن تحقق عند الخاصة والعامة، وهي أنه لا يمكن أن

عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلنا منزلاً، فمنا من يصلح خبائه، ومنا من يتنצל، ومنا من هو في جَشْرِهِ - أي: الدواب في مرعاها القريب وهو المَفْلَى -، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة. فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم. وإن أمتكم هذه جُعِلَ عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة يرقق بعضها بعضاً، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه! فمن أحب أن يرحل عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يجب أن يؤتى إليه. ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده، وثمره قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر» قال النووي في شرح مسلم (١٢: ٢٣٣): «الجشْر: هي الدواب التي ترعى وتبيت مكانها»، وفي اللسان: «قال أبو عبيد: الجشْر: القوم يخرجون بدواهم إلى المرعى ويبيتون مكانهم ولا يأوون إلى البيوت». وقوله: «ومنا من يتنצל» أي: يرمون بالسهام.

تجتمع الأمة على رجل واحد، مهما بلغ من العلم والإدراك والتقوى، فالأمة لا تصدر عن رجل واحد أبداً إلا أن يكون محمداً ﷺ، أما من بعده فلا، حتى الخلفاء، فإن الخلفاء من سنتهم المراجعة، ولهذا لما قدم عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الشام وأُخبر أن الطاعون قد وقع فيها - كما في حديث ابن عباس^(١) - أمر أن ينادى بالمهاجرين، فاستشارهم فاختلّفوا عليه، منهم من يقول: أقدم، ومنهم من يقول: ارجع، ثم استشار الأنصار، فاختلّفوا كاختلاف المهاجرين، ثم أمر أن ينادى بمشيخة قريش من مهاجرة الفتح فاستشارهم فاتفقوا أن يرجع، فقال عمر: إني مصبّحٌ على ظهرٍ فأصبحوا عليه. فقال أبو عبيدة - وكان ممن يرى الإقدام -: أفراراً من قدر الله؟! فقال عمر: «لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله».

الشاهد من ذلك: أن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان يسعه الاجتهاد في هذه المسألة، لكنه مع ذلك جمع؛ لأن الأمة في القضايا الكلية لا يجوز أن تصدر عن واحد، نقول: في القضايا الكلية، وهذا أمر يقصّر فيه لا نقول العامة أو بعض طلبة العلم، بل - مع الأسف - يقصر فيه بعض الشيوخ، وذلك حين يضع له منزلة مطّردة، فيتصدّر الأمة في أمور كلية عامة.

الأمر الكلية لا بد أن تكون مدروسة بين علماء الأمة، وأن تكون معنية بالتقرير والاستدلالات، وأما الصدور عن الواحد صدوراً كلياً في كل شؤون الأمة، في كل مصر من أمصار المسلمين فهذا لا يتحصّل، وإن ما كان يتحصّل

(١) البخاري ١٦٨/٧ (٥٧٢٩) ومسلم ٢٩/٧ (٢٢١٩).

فيما سلف من الأزمنة أن بغداد كان لها إمام معروف فيها يعتبر هو إمام بغداد ومفتيها فهذا أمر جرى عليه عمل كثير من المسلمين في دولهم وأمصارهم، هذا - مثلاً - مفتي بلاد مصر، وهذا مفتي الشام، وهذا مفتي الحجاز، وهذا مفتي المملكة، وهذا مفتي كذا، هذه الإفتاءات المختصة في مسائل الفقه مما يسوغ تصدُّر شخص لها، وقد انتشر هذا منذ زمن بعيد في الأمة.

لكن الأمور الكلية العامة التي تمس جميع الأمة في شرقها وغربها، عربها وعجمها لا يُصدر فيها عن رجل واحد، ولا ينبغي لرجل واحد أن يستصدر وأن يفتت على الأمة في تصرف يختص به، المنزلة الكلية التي تكون للأمة هي منزلة محمد ﷺ، وأما من بعده فلا بد أن يراجع غيره من أهل العلم، وأن يكون على قدر من التشاور والمراجعة والبحث إلى غير ذلك. وهذه كلمة فاضلة في كلام الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ لَمَّا قَالَ: «ولست هذه المنزلة لغيره من الأئمة».

ولهذا لا ينبغي أن يُعظَّم عالمٌ من العلماء لا معاصر ولا سابق تعظيماً مطلقاً، ويلتف على جميع أقواله أو جميع ما يقرر، فإن هذا من التكلف، ومما لا يشرع أبداً، وهو من التقليد المذموم الذي ذمه السلف رحمهم الله.

كل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله عليه الصلاة والسلام:

قال شيخ الإسلام: «بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، فمن جعل شخصاً من الأشخاص غير رسول الله ﷺ من أحبه ووافقه كان من أهل السنة والجماعة، ومن خالفه كان من أهل البدعة والفرقة - كما يوجد ذلك في الطوائف من أتباع أئمة في الكلام في الدين وغير ذلك - كان

من أهل البدع والضلال والتفرق».

وهذا من فقهه رَحِمَهُ اللهُ: أنه لا يجوز أن يُبتلى المسلمون بالأعيان، حتى لو كان هذا المعين عالماً من علماء السنة؛ لأن المخاطب لم يكلف شرعاً أن يعرف هذا الرجل بعينه، وإنما كلف شرعاً أن يعرف من الأشخاص محمداً ﷺ، فإذا ما استجاب لرسول الله وأقر بسنته والتزم هديه؛ فإنه لا يلزمه أن يعرف فلاناً أو فلاناً من أعيان العلماء، فضلاً عن أن يلتزم الثناء عليه ومدحه والتعظيم له، اللهم إلا إذا ذكر له إمام من أئمة السنة، فطعن عليه، مع أنه يعرف أنه من علماء السنة، فهذا لا يصدر إلا عن صاحب بدعة. وأما الجهل فالجهل كثير، وقد كان كثير من عامة المغاربة لا يعرفون كثيراً من أئمة المشاركة، والعكس.

فابتلاء الناس بالأسماء المعينة من أهل العلم هذا ليس ابتلاءً فاضلاً، إنما يبتلى الناس بالحق، ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكُفُّمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] فمن قال بالحق: الكتاب والسنة والاتباع لهدي النبي ﷺ وهدي صحابته؛ كان من أهل الحق.

وكذلك يكون الابتلاء لمن عُرف وعرف الله به في كتابه من أعيان أصحاب نبيه محمد ﷺ؛ لذلك من طعن في الصحابة لا بد أن يكون صاحب بدعة؛ لأن الله يقول: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] أما أعيان العلماء من بعدهم فلا يلزم المسلمين العلم بهم.

وقد تقدم: أن هذه مسائل صار فيها كثير من الزيادة على المذهب السلفي، وظهر بعض المتعصبين من أتباع الأئمة الأربعة ولا سيما من بعض شيوخ

المذهب رحمهم الله - أي: من الحنابلة - وإن كان الحنابلة هم أجل الطوائف في السلامة من البدع، وهم أسلم الطوائف من علم الكلام، لكن في بعض شيوخهم قدر من الزيادة، ولهذا وضعوا بعض السؤالات التي يُعرف بها السني من البدعي، وزادوا بعض الزيادات التي قد تكون - إن صحّت - مناسبة لزمن ما أو لوقت ما، ولكن الأصول الشرعية هي أصول الإسلام، والإيمان، الذي كان عليه الصحابة في مكة والمدينة النبوية.

الحكم على المخالفين لأهل السنة:

قال شيخ الإسلام: «ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولاً يفارقون به جماعة المسلمين، يوالون عليه ويعادون؛ كان من نوع الخطأ. والله سبحانه وتعالى يغفر للمؤمنين خطأهم في مثل ذلك»

وهذه إشارة إلى معنى في فقه السلف رحمهم الله لأحكام المخالفين، وهو: أن من اختص ببدعة من البدع ونصبها شعاراً يوالي ويعادي عليه، وفارق به الجماعة - أي: الإجماع الذي عليه الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - فهذا الانتصار لا يكون إلا من طرق أهل البدع الخارجين عن السنة والجماعة، وهؤلاء في الجملة على قدر من التفريط والتقصير في تحقيق ما يجب عليهم من العلم والعمل.

من قال قولاً مبتدعاً لا يلزم أن يكون مبتدعاً:

ثمة أقوال لبعض الأعيان هي من البدع المخالفة للإجماع، ومع ذلك تعرض هذه الأقوال عَرَضاً في أقوالهم وفي أحوالهم العامة، بمعنى: أن هذا المعين يكون في جمهور أمره على السنة والجماعة من جهة الموالاة والمعادة، فهو

يوالي السلف وأهل السنة، وينبذ البدع والابتداع، وهو في أقواله في مسائل الأصول على أقوال السلف، ولكن عرض له شيء من الخطأ في بعض مقامات أصول الدين عروفاً قد يخفى فيما هو من مثل هذا. (١)

فهذا وإن كان قوله الذي عرض له بدعة مخالفة للإجماع، وقد أنكره السلف وشددوا فيه؛ إلا أن صاحبه لا يخرج به عن السنة والجماعة، ويصبح من أصحاب البدع، بل يعد من أصحاب السنة على هذا القدر من التعليق في شأنه. ويكون خطأه في الجملة من باب الخطأ الذي اجتهد فيه. والنبى ﷺ قال: «وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» (٢) وهذا يعني: أن ثمة أقوالاً هي في الأصل من أقوال أهل البدع والضلال عرضت لبعض الفضلاء من الفقهاء أو من أصحاب السنة والجماعة، فهذه الأقوال وإن سماها السلف بأسماء (٣) إلا أن من عرضت له لا يجوز أن يسمى بأسماء هذه الكلمات.

فلا يلزم من تسمية السلف لهذه أن من عرضت له هذه الكلمات يسمى بهذه الأسماء من جهة الخروج من السنة، فضلاً عن جهة التكفير، فضلاً عما هو فوق ذلك كالمآلات في الآخرة.

ومن مثال ذلك: أن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ لما سُئِلَ عن حديث الصورة، ومن

(١) كالنووي وابن حجر وأمثالهما رحمهما الله تعالى، وقد مرت الإشارة لذلك.

(٢) البخاري (٤٣٨) ومسلم (١٣١/٥).

(٣) أي: ألقاب البدع كالجهمية والرافضة والخوارج ونحوها.

يقول فيه: «إن الله خلق آدم على صورته»^(١). أي: على صورة آدم - أو على صورة

(١) مسلم (٢٦١٢)، والمسند (٢٥١/٢) ويسمى حديث الصورة، وروى بلفظ: «إن الله خلق آدم على صورة الرحمن». أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٢٢٨) (٥١٧) والطبراني في الكبير (٣٢٩/١٢) (١٣٥٨٠)، والسنة لعبد الله بن أحمد (٢/ ٤٧٢) (١٩٠)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٨٥) (٤١)، والآجري في الشريعة (٣/ ١١٥٢) (٧٢٥)، وابن بطة في الإبانة (المختار ٢٤٤) (١٨٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٦٤) (٦٤٠)، والحاكم في مستدرکه (٢/ ٣٤٩) (٣٢٤٣)، وأبو يعلى في إبطال التأويلات (١/ ٩٦) (٨١). وصححه الإمام أحمد وإسحاق وابن تيمية والذهبي وابن حجر وابن باز، وضعفه الألباني. وقد نص الإمام أحمد على أن إعادة الضمير فيه إلى آدم أو إلى المضروب هو قول الجهمية. فقال: «من قال إن الله خلق آدم على صورة آدم فهو جهمي، وأيُّ صورة كانت لآدم قبل أن يخلقه؟!»، وقال عبد الله بن الإمام أحمد: «قال رجل لأبي: إن فلانًا يقول في حديث رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته»، فقال: على صورة الرجل! قال أبي: كذب هذا، هذا قول الجهمية، وأي فائدة في هذا؟». إبطال التأويلات للقاضي أبي يعلى (١/ ٩٠: ٨٨). وقد عقد الآجري بابًا بعنوان: «الإيمان بأن الله تعالى خلق آدم على صورته بلا كيف»، ثم ساق هذا الحديث بطرق متعددة، ثم قال: «هذه من السنن التي يجب على المسلمين الإيمان بها، ولا يُقال فيها: كيف؟ ولم؟ بل تستقبل بالتسليم والتصديق وترك النظر». الشريعة (٣/ ١١٥٣). وممن نص على ذلك أيضًا ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (٢٠٦)، والقاضي أبي يعلى في إبطال التأويلات (١/ ٨١)، وأبو إسماعيل الهروي في الأربعين في دلائل التوحيد (٦٣). فقد عقد بابًا بعنوان: «إثبات الصورة له تعالى»، وإسماعيل التيمي الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة (١/ ٣١٠ - ٣١١). وسئل ابن باز رحمه الله تعالى عن تصحيح ابن حجر له فقال: «هذا هو الصواب، الحديث صحيح مثل ما قال إسحاق وأحمد وغيرهم. معناه: سميع بصير، وليس معناه: =

المضروب أو نحو ذلك؛ قال: «هذا قول الجهمية». وكان أحمد وأمثاله يذهبون إلى أن المراد: على صورة الرحمن.

ومع هذا فإن إمام الأئمة ابن خزيمة رَحِمَهُ اللهُ عرض له هذا القول، ولم يكن تجهماً من ابن خزيمة، ولا يجوز أن يسمى جهمياً، ولا أن يقال: إن حكمه حكم الجهمية، ولا أن يقال: إنه يذم بما ذم السلف به الجهمية إلى أمثال ذلك، وإن كان قول ابن خزيمة ليس من أقوال أهل السنة، وإنما دخل عليه من أقوال أهل البدع، فإن أهل السنة قولهم في هذا معروف محفوظ، هذه جهة.

مثل سمع ابن آدم وبصره، يقول الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ يعني أن الله خلق آدم على صورته سمياً بصيراً متكلاً، له يد، وله قدم، وليس مثل ابن آدم، تعالى الله عن الشبيه والنظير». أهد. مجموع فتاوى ومقالات متنوعة ١٢٧/٢٥ وقال العثيمين رحمه الله تعالى: «الهاء تعود على الله تعالى، أي: أن الله خلق آدم على صورته، كما جاء ذلك مفسراً في بعض الروايات «على صورة الرحمن»، ولا يلزم من هذا أن يكون مماثلاً لله تعالى لأن الله قال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فنقول: إن الله خلق آدم على صورته دون مماثلة. وهذا ليس بغريب، فهؤلاء الزمرة الأولى من أهل الجنة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، بدون مماثلة، فإذا جاز هذا بين المخلوقين؛ فيبين الخالق والمخلوق من باب أولى.

واعلم أن ما ورد في الكتاب والسنة في كتاب الله الواجب إجراؤه على ظاهره بدون تمثيل، ولا يحق لنا أن نتصرف فيه بتحريفٍ عن معناه، بل نقول بإثبات المعنى ونفي المماثلة، وبذلك نسلم من الشر ومن تحريف الكلم عن مواضعه». فتاوى نور على الدرب للعثيمين (٢/٦). وللشيخ حمود بن عبد الله التويجري رسالة محررة في الموضوع بعنوان: «عقيدة أهل الإيثار في خلق آدم على صورة الرحمن».

الاشترك في مقالة واحدة لا يستلزم الاشتراك في تفاصيلها:

الجهة الثانية: أن الاشتراك بين جملة من الأعيان في مقالة واحدة لا يلزم منه الاشتراك في تفاصيلها، وإنما الاشتراك في التفصيل يكون بين أصحاب الطائفة الواحدة، بمعنى: أنه إذا نفى إمام من أئمة المعتزلة الصفات، وجاء آخر من المعتزلة فنفاها، وجاء الثالث والرابع.. وهلم جرا، ففي الغالب أن من توارد على هذه الكلمة وهو منتسب إلى طائفة معينة كالمعتزلة يكون اشتراكهم في تقرير نفي الصفات مفصلاً، وإن كانوا قد يختلفون في التفصيل، لكنهم يحققون النفي - أي: يلتزمون النفي - بخلاف من عرض له قول كلي من أقوال أهل البدع، فإنه لا يلزم بالضرورة أنه يلتزمه بجميع تفاصيله.

إذاً النتيجة: أنه قد يشترك بعض الفقهاء من أصحاب السنة والجماعة الذين لم يحققوا مذهب السلف تحقيقاً تاماً، أو من يقاربه، أو من يشاركهم حتى من المتقدمين في بعض الألفاظ المجملة، فيقولون قولاً قاله أرباب أهل البدع الذين أجمع السلف على ذمهم، لكن لا يلزم من الاشتراك في جملة قولية الاشتراك في تفاصيلها.

الاشترك في الحروف لا يستلزم الاشتراك في المعاني:

بل ثمة مقام آخر: أن الاشتراك في الحروف لا يستلزم الاشتراك في المعاني لا مجماً ولا مفصلاً، ونضرب لذلك مثلاً: الجهمية كانوا يقولون: اللفظ بالقرآن مخلوق. ويريدون باللفظ القرآن نفسه، وقد قال بعض أئمة السلف في هذه المسألة: اللفظ بالقرآن مخلوق، كما قاله البخاري، ومن أنكر أن البخاري

قال هذا فقد أخطأ، لكنه كان يريد اللفظ الذي هو من أفعال العباد، فإن البخاري عني بتقرير مسألة خلق أفعال العباد.

وكذلك قال بعض أهل البدع من القدرية: اللفظ بالقرآن غير مخلوق، وأرادوا به نفي الخلق لأفعال العباد، فقال بعض أئمة السنة كمحمد بن يحيى الذهلي - وهو شيخ البخاري -: اللفظ بالقرآن غير مخلوق، أراد بقوله هذا أن القرآن نفسه - أي: كلام الله - ليس مخلوقاً.

إذاً: ثمة اشتراك في الحروف بين بعض أئمة السنة وبين بعض أرباب البدع الذين قصدوا بحروفهم هذه مقاصد بدعية تصل إلى حد الكفر، وهو التقرير لخلق القرآن مثلاً، وقد أجمع السلف على أن من قال: القرآن مخلوق؛ فإن قوله كفر. وليس المراد هنا أن نقول: إن الذهلي أو البخاري أصابا، بل كان الصواب - كما هو مذهب جمهور السلف - التمسك لهذه الجمل كما هو تقرير الإمام أحمد.

لكن الشاهد: أنه قد يقع في كلام بعض أئمة السنة مشاركة لبعض المجمل من كلام أهل البدع - بل أهل البدع المغلظة كالجهمية - ومع ذلك لا يجوز أن ينسب هذا القائل إلى مقاصد ومعاني أهل البدع، فضلاً عن أن ينسب إلى طريقتهم، وإنما يقال: هذا غلط في الألفاظ. هذه جهة.

الاشتراك في الحروف والمعاني الكلية:

الجهة الثانية: أنه قد يقع بين بعض أصحاب السنة والجماعة - الذين هم في جمهور أمرهم على السنة - وبين مقالات أهل البدع اشتراك في الحروف واشتراك في المعنى، ولكنه من جهة الاشتراك في المعنى اشتراك كلي، فلا يلزم أن يطرد

فيهم سائر التفصيل في هذا المعنى، فضلاً عن غيره؛ فإن ابن خزيمة لما قال ما قال في حديث الصورة لم يكن مبنى - وإن كان أراد اللفظ وأراد المعنى - المعنى عنده من جنس مبنى المعنى في تفسير الجهمية، فإن الجهمية إنما قالوا: على صورته - أي: على صورة آدم، أو لم يفسروه بما فسره السلف به - لأن هذا مبنى عندهم على نفي الصفات عموماً، والصورة منها. بخلاف ابن خزيمة رَحِمَهُ اللهُ؛ فإنه من أئمة التحقيق في إثبات الصفات، ولكنه في هذا الحرف من الحديث خرج على هذا التوجيه، وهذا قد عُلِمَ التعقب عليه عند السلف رحمهم الله.

إذاً: هذه مسألة ينبغي أن تضبط على هذا الوجه: وهي أن من شارك أهل البدع في بعض الحروف لا يلزم أن يكون مشاركاً في المعاني، ومن شارك في مجمل المعنى لا يلزم أن يكون مشاركاً في مفصله، وحتى من شارك في مجمله ومفصله فلا يلزم من ذلك - أي: في مفصل المعنى الواحد - أن يكون قد خرج بهذا التفصيل عن السنة والجماعة.

تأكيد على قاعدة: من قال قولاً بدعاً لا يلزم أن يكون مبتدعاً:

وهذه قاعدة قطعية منضبطة، بل قال شيخ الإسلام في المجلد التاسع عشر: «وكثير من مجتهدى السلف والخلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة، لكن لم تقم عندهم الحجة الرسالية في مفارقة ما قالوه أو فعلوه للسنة والهدى».

وهذا المعنى لا بد من ضبطه في مسألة التبديع وما يتعلق بها، فإن كثيراً من الأعيان من أصحاب السنة والجماعة عرضت لهم أقوال بدعية - ولا سيما بعد طبقة الأئمة من القرون الثلاثة الفاضلة - ومقالات شاركوا فيها بعض أهل

البدع، ودخلت عليهم من أصحابها، فهؤلاء لا يضافون إلى أهل البدع، وإنما يضافون إلى أهل السنة والجماعة.

فلا بد أن تحقق هذه القاعدة، وهي: أن الاشتراك في الحرف لا يستلزم الاشتراك في المعنى، والاشتراك في مجمل المعنى لا يستلزم الاشتراك في مفصله، وقد تم توضيح هذا في شرح كتاب الإيمان لأبي عبيد، فقد بينا أن القول بأن الإيمان قول واعتقاد اشترك فيه كثير من مرجئة الفقهاء والمرجئة المتكلمون، أي: حصل اشتراك بين بينهم في مجمل المعنى ومجمل الحرف، لكن لا يلزم منه أن مفصل المعاني كذلك.

كذلك بعض رجال الرواية والإسناد قالوا: إن أفعال العباد ليست مخلوقة. حتى قال الإمام أحمد: «لو تركنا الرواية عن القدرية لتركناها عن أكثر أهل البصرة» وهذا الأصل قد قرره أئمة البدع من المعتزلة. فاشتراك المعتزلة وهؤلاء الرواة في أن أفعال العباد ليست مخلوقة، نقول فيه: هو اشتراك في مجمل المعنى وليس في مفصله؛ ولهذا قول المعتزلة في هذه المسألة أغلظ وأشنع من قول هؤلاء.. وهكذا.

وقوع بعض الأئمة في القول بأقوال مبتدعة:

قال شيخ الإسلام: «ولهذا وقع في مثل هذا كثير من سلف الأمة وأئمتها». أي في مثل هذا النوع من البدع التي تعرض عروضاً لمن هو في جمهور أصوله على السنة والجماعة. وهذا حرف لا بد من الوقوف معه، ومن يلتزم من المعاصرين التبديع لبعض الأعيان المعروفين بالسنة والجماعة لخطأ عرض له،

بل لبدعة عرضت له من البدع القولية التي لا تعد من كليات الأصول، وفي أنه لم يلتزم أصلاً مطرداً يعارض السلف في حرفه ومعناه، من التزم تبديع أمثال هؤلاء فإنه يلزمه أن يطرد هذه القاعدة؛ لأن القاعدة لا تفرق بين المعاصر وبين السالف.

فمن قال قولاً باجتهاد ولو كان خطأ، ولم يوال ويعاد عليه، وهو في جمهور حاله على السنة فهذا من أهل السنة، بخلاف من والى موافقه وعادى من خالفه فهذا هو طريق أهل البدع، فإن من أخص الأصول: الاجتماع على السنة والجماعة.

قال شيخ الإسلام: «من كفر وفسق مخالفه دون موافقه في مسائل الآراء والاجتهادات، واستحل قتال مخالفه دون موافقه، فهو من أهل التفرق والاختلافات». أي: من يلتزم التحيز. وهذه القاعدة تطرد، وهي: أن كل من التزم التحيز بقول من الأقوال، مع معاداة من خالفه فيه، فإنه ينظر في هذا القول، وهو أحد أنواع ثلاثة:

النوع الأول: إما أن يكون من صريح السنن وبينات الهدي وإجماعات السلف القطعية كإجماعهم على الصفات، وعلى أن القرآن ليس مخلوقاً، وعلى أن الإيمان قول وعمل، فالتحيز لمثل هذه الأقوال والانتصاب لها طريق صحيح.

النوع الثاني: أن تكون مقالة هذا المعين الذي انتصب لها وتحيز بها مقالة بدعية، يعلم خطأها ومخالفتها لقول السلف، فهذا لا شك أنه يكون ببدعته وتحيزه وامتناعه بها صاحب بدعة.

وقد يقول قائل: لماذا جمعت بين كون مقالته بدعة وانتصابه لها؟ أي: لم لم يكن بواحد منهما؟ قيل: هذا من فقه الشريعة! ألسنت ترى أن الصحابة لم يكن من ظاهر مذهبهم التكفير لتارك الزكاة، والنبى ﷺ قال: «ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»^(١) والأئمة كمالك وأمثاله ما كانوا يكفرون تارك الزكاة، وهو الذي عليه الجمهور من السلف.

لكن لما امتنع من امتنع ممن ترك الزكاة، ونصبوا امتناعهم، وعادوا به، وقاتلوا عليه كفروا. فإن قيل: بم كفروا؟ هل بالامتناع أم بالترك؟ قيل: بهما، فهم إنما كفروا باجتماع الموجب الذي اقتضى التكفير^(٢).

النوع الثالث: ولا بد من ضبطه وتفطّن طالب العلم له؛ وهو من يقول قولاً هو اجتهاد. أي: ليس على قوله إجماع للسلف، وليس هو على خلافه وضده، بل هو اجتهاد. واستطاع أن يستدل لهذا الاجتهاد بظاهر من الأدلة الشرعية، فإن الانتصاب لقول من أقوال أهل الاجتهاد في المسائل العلمية أو المسائل العملية، تحيزاً وموالاتاً ومعاداةً يعتبر من طرق أهل البدع.

وهذا يقع أحياناً من كثير من التجمعات العلمية أو الحركية: حيث إنهم قد ينتصبون لقول من أقوال أهل الاجتهاد، أو هو قول اجتهادي، يوالون ويعادون عليه، وهذا لا شك أنه خطأ.

وإذا قيل: متى يعرف أن هذا القول من مقامات أهل الاجتهاد؟ قيل: إذا لم

(١) أبو داود (١٦٥٨) وصححه الألباني وابن باز.

(٢) وهو اختيار الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ.

ينضببط فيه إجماع، فهو مما يسوغ فيه الاجتهاد في الجملة، وإن كان قد يقال: إن بعض المجتهدين قد أخطئوا، فهذا مقام آخر.

إذاً المتحصل من هذا: أن الانتصاب والتحيز هو في كثير من الموارد أشد ضللاً وخروجاً عن مذهب السلف من بعض الحروف القولية أو الفعلية؛ ولهذا من يعظم شأن الحروف ولا يعظم التحيز الذي يصاحب قدرها من الافتراق عن دائرة أهل السنة الشاملة العامة نقول له: هذا التحيز هو أيضاً من البدع؛ لأنه لا موجب له؛ فالذي ينتسب إلى أصول أهل السنة المحققة المجمع عليها لا يحتاج إلى تحيز خاص يختص به هو وجماعته؛ لأن غيره يشاركه في الإجماعات المنضبطة.

وهذا التحيز لا يقع إلا عند من يختص بمقام من الاجتهاد المختص به، وهذا الاجتهاد لا بأس به، لكن التحيز الذي يصاحبه موالاته ومعاداة وتصنيف للآخر وما إلى ذلك من الملاحقة، فهذا ليس من طرق أهل السنة، بل هو من طرق أهل البدع، وهو مخالف لقول الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] فإن الحبل الذي أمر بالاعتصام به هو المحكم من الشريعة، وهو الأصول المجمع عليها علمية أو عملية.

الغلو في الرد على الفرق المخالفة لأهل السنة:

قد بدأ يكثر من بعض الشباب - وأحياناً من طلبة العلم - أنه إذا اشتد في الرد على طائفة بدعية قال: وهذه الطائفة أكفر من اليهود والنصارى.. ويحتجون بأن شيخ الإسلام كان يذكر مثل ذلك - وهذه فوضى في الغالب؛ فإن ابن تيمية قد استعمل هذا في كلمات معينة، فمثلاً: لما تكلم عن وحدة الوجود قال: «إن قول

أهل وحدة الوجود أن الوجود واحد، وليس ثمة امتياز بين وجود العبد وبين وجود الرب.. قال: إن هذا القول الكفري أكفر من قول اليهود والنصارى» وهذه قضية شرعية واضحة لا جدل حولها.

أما جمع طوائف بغلاتها ومتوسطيها ومقتصديها والقول فيهم: الطائفة الفلانية أكفر من اليهود والنصارى على الإطلاق. فهذه الإطلاقات ما كان السلف ينطقون بها، فاليهود والنصارى ماذا بقي لهم من الخير وهم يقولون كما قال الله عنهم: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [التوبة: ٣٠] و: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَكِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [آل عمران: ١٨١] ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ ﴾ [المائدة: ٦٤] وبعد ذلك تأتي إلى طائفة من أهل البدع لا تستطيع تحقيق إجماع السلف على تكفيرها وتقول: هم أكفر من اليهود والنصارى؟! هذا في الغالب فيه قدر من الزيادة.

والصواب: هو أن توزن الأمور بميزان الحق، فالطائفة تبعد وبين خروجها عن السنة وتدم بما ذمها به السلف، أما الحروف المفردة فلا تلزم. وأنبه إلى أنه قد يوجد عند بعض المتأخرين من فضلاء أهل السنة القاصدين إلى تعظيم السنة والجماعة بعض الزيادة، فبعض الحنابلة خاصة. وهذا ليس عيباً لهم، فقد قلت سابقاً: إن الحنابلة أشرف الطوائف الأربع في السلامة من البدع، لكن لما صاحب بعض أئمتهم من قصد التحقيق حصل عندهم قدر من الزيادة. من الفقهاء المنتسبين والمعظمين للسنة الداميين لأهل البدع، يقول كلمة، مثلاً: وكان الأئمة يذهبون إلى أن فلان أكفر من اليهود والنصارى، أو هؤلاء أكفر من اليهود والنصارى وفرعون.. فهذه الكلمات إذا اجتهد بها قائل

فقالها فهذا قول يخصه هو، ولا يلزم أن يكون قاعدة ومنهجاً للسلف؛ لأن منهج السلف: هو النقل الإجماعي إما استفاضةً وإما تصريحاً بالإجماع. فإطلاق هذه الكلمة في الغالب لا يكون صحيحاً، لا نقول: دائماً، وإنما نقول: في الغالب»^(١).
وبالله التوفيق.



(١) شرح حديث الافتراق للعلامة الشيخ يوسف الغفيص، باختصار واقتصار وتصرف وزيادات. وأصله شرح لفتوى شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في حديث الافتراق وهي ضمن مجموع الفتاوى (٣/ ٢٦٢-٣٤٥).

ذم البدع وسوء منقلب أصحابها

البدعة والابتداع والإحداث: هو تأسيس عبادة لم تُشرع، أو تغيير في عبادة مشروعة على وجه التعبد.

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: «لا خفاء أن البدع من حيث تصورهما يعلم العاقل ذمها، لأن أتباعها خروج عن الصراط المستقيم ورمي في عمية، وبيان ذلك من جهة النظر، والنقل الشرعي العام. أما النظر فمن وجوه:

أحدها: أنه قد علم بالتجارب والخبرة أن العقول غير مستقلة بمصالحها، استجلاباً لها، أو مفاسدها، استدفاعاً لها. لأنها إما دنيوية أو أخروية.

فأما الدنيوية فلا يستقل باستدراكها على التفصيل البتة لا في ابتداء وضعها أوّلاً، ولا في استدراك ما عسى أن يعرض في طريقها، إما في السوابق، وإما في اللواحق، لأن وضعها أوّلاً لم يكن إلا بتعليم الله تعالى.

فلولا أن من الله على الخلق ببعثه الأنبياء لم تستقم لهم حياة، ولا جرت أحوالهم على كمال مصالحهم، وهذا معلوم بالنظر في أخبار الأولين والآخرين.

وأما المصالح الأخروية، فأبعد عن مصالح المعقول من جهة وضع أسبابها، وهي العبادات مثلاً. فإن العقل لا يشعر بها على الجملة، فضلاً عن العلم بها على التفصيل.

فعلى الجملة، العقول لا تستقل بإدراك مصالحها دون الوحي. فالابتداع مضاد لهذا الأصل، لأنه ليس له مستنداً شرعي بالفرض، فلا يبقى إلا ما ادّعوه

من العقل.

فالمبتدع ليس على ثقة من بدعته أن ينال بسبب العمل بها ما رام تحصيله من جهتها، فصارت كالعبث.

الثاني: أن الشريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزيادة ولا النقصان، لأن الله تعالى قال فيها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وفي حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْأَعْيُنُ وَوَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مَوْدِعٌ فَمَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: «تَرَكَتُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلَهَا كُنْهَارَهَا، وَلَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسِيرِي اخْتِلافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي..» الحديث (١).

فالمبتدع إنما محصول قوله بلسان حاله أو مقاله: إن الشريعة لم تتم، وإنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها، لأنه لو كان معتقداً لكمالها وتمامها من كل وجه، لم يبتدع ولا استدرك عليها. وقائل هذا ضال عن الصراط المستقيم.

قال ابن الماجشون: سمعت مالكا يقول: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فما لم يكن يومئذ ديناً، فلا يكون اليوم ديناً».

(١) أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤) وهو صحيح.

الثالث: أن المبتدع معاند للشرع ومشاقق له، لأن الشارع قد عيّن لمطالب العبد طرقاً خاصة على وجوه خاصة، وقصر الخلق عليها بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وأخبر أن الخير فيها، وأن الشر في تعديها إلى غير ذلك، لأن الله يعلم ونحن لا نعلم، وأنه إنما أرسل الرسول ﷺ رحمة للعالمين. فالمبتدع رادُّ لهذا كله، فإنه يزعم أنَّ ثمَّ طرقاً أخرى، ليس ما حصره الشارع بمحصور، ولا ما عيَّنه بمتعين، كأن الشارع يعلم ونحن أيضاً نعلم. بل ربما يفهم من استدراكه الطرق على الشارع، أنه علم ما لم يعلمه الشارع.

وهذا إن كان مقصوداً للمبتدع فهو كفر بالشرعية والشارع، وإن كان غير مقصود، فهو ضلال مبين.

الرابع: أن المبتدع قد نزل نفسه منزلة المضاهي للشارع، لأن الشارع وضع الشرائع، وألزم الخلق الجري على سننها، وصار هو المنفرد بذلك، لأنه حكم بين الخلق فيما كانوا فيه يختلفون. وإلا فلو كان التشريع من مدركات الخلق لم تنزل الشرائع، ولم يبق الخلاف بين الناس. ولا احتيج إلى بعث الرسل عليهم السلام. هذا الذي ابتدع في دين الله قد صير نفسه نظيراً ومضاهياً لله حيث شرع مع الشارع، وفتح للاختلاف باباً؛ ورد قصد الشارع في الانفراد بالتشريع.

الخامس: أنه اتباع للهوى، لأن العقل إذا لك يكن متبعاً للشرع لم يبق له إلا الهوى والشهوة؛ وأنت تعلم ما في اتباع الهوى وأنه ضلال مبين، ألا ترى قول الله تعالى: ﴿يٰۤاٰوْدُ اِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيْفَةً فِى الْاَرْضِ فَاٰمُرُكَ بِالنَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوٰى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ اِنَّ الَّذِيْنَ يَضِلُّوْنَ عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْدٌۢ بِمَا نَسُوْا يَوْمَ

أَلْحَسَابِ ﴿ [ص: ٢٦].

فحصّر الحكم في أمرين لا ثالث لهما عنده، وهو الحق والهوى، وعزل العقل مجرداً إذ لا يمكن في العادة إلا ذلك. وقال ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف: ٢٨] فجعل الأمر محصوراً بين أمرين، اتباع الذكر، واتباع الهوى، وقال ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وهي مثل ما قبلها. وتأملوا هذه الآية فإنها صريحة في أن من لم يتبع هدى الله في هوى نفسه، فلا أحد أضل منه. وهذا شأن المبتدع، فإنه اتبع هواه بغير هدى من الله، وهدى الله هو القرآن. وما بينته الشريعة وبينته الآية أن اتباع الهوى على ضربين:

أحدهما: أن يكون تابِعاً للأمر والنهي فليس بمذموم ولا صاحبه بضال.

والآخر: أن يكون هواه هو المقدم بالقصد الأول، والمبتدع قدم هوى نفسه على هدى الله، فكان أضل الناس وهو يظن أنه على هدى.

وقد انجرّ هنا معنى يتأكد التنبيه عليه، وهو أن الآية المذكورة عينت للاتباع في الأحكام الشرعية طريقتين:

أحدهما: الشريعة، ولا مرية في أنها علم وحق وهدى؛ والآخر: الهوى، وهو المذموم، لأنه لم يذكر في القرآن إلا في سياق الذم، ولم يجعل ثمّ طريقاً ثالثاً. ومن تتبع الآيات، ألقى ذلك كذلك.

الأدلة من النقل على ذم البدع:

وهي من وجوه:

أحدها: ما جاء في القرآن الكريم مما يدل على ذم من ابتدع في دين الله في الجملة. فمن ذلك:

١ - قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]
فالصراط المستقيم: هو سبيل الله الذي دعا إليه، وهو السنة. والسبيل: هي سبل أهل الاختلاف الحائدين عن الصراط المستقيم وهم أهل البدع. وليس المراد سبل المعاصي، لأن المعاصي من حيث هي معاص لم يضعها أحد طريقاً تُسلك دائماً على مضاهاة التشريع، وإنما هذا الوصف خاص بالبدع المحدثات.

ويدل على هذا حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا خَطًّا طَوِيلًا، وَخَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ فَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ» ثُمَّ خَطَّ لَنَا خَطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَيَسَارِهِ وَقَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ، وَعَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ - يَعْنِي الْخَطُوطَ - ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (١).

(١) أحمد (٤١٤٢، ٤٤٣٧) الدارمي (٢٠٢) والسنة لمحمد بن نصر المروزي ٩/١، ومسند أبي داود الطيالسي ١/١٩٧، والسنن الكبرى للنسائي ١٠/٩٥ (١١١١٠)، وصححه الحاكم (٨١٣/٢) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، من طريق عاصم بن أبي النجود =

قال بكر بن العلاء: أحسبه أراد شيطاناً من الإنس وهي البدع والله أعلم.
وعن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ قال: البدع والشبهات.

٢ - قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ
أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩] فالسبيل القصد هو طريق الحق، وما سواه جائر عن الحق؛
أي عادل عنه، وهي طرق البدع والضلالات، أعاذنا الله من سلوكها بفضله،
وكفى بالجائر أن يحذر منه، فالمساق يدل على التحذير والنهي.

وعن التستري: ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ طريق السنة، ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ يعني إلى
النار، وذلك الملل والبدع. وعن مجاهد ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي المقتصد منها بين
الغلو والتقصير، وذلك يفيد أن الجائر هو الغالي أو المقصر، وكلاهما من
أوصاف البدع.

٣ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ
يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

قال ابن عطية: هذه الآية تعم أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع
وغير ذلك من أهل التعمق في الجدال والخوض في الكلام. هذه كلها عرضة
للزلل ومظنة لسوء المعتقد. وقال القاضي إسماعيل: ظاهر القرآن يدل على أن

عن أبي وائل عن ابن مسعود، فذكره، وأقره الذهبي، ومسنند الدارمي ٢٨٥/١ وحسنه
حسن أسد، وابن حبان (١ / ١٨١) وقال الألباني في ظلال الجنة (١٦ و١٧): حسن
صحيح.

كل من ابتدع في الدين بدعة من الخوارج وغيرهم فهو داخل في هذه الآية؛ لأنهم إذا ابتدعوا تجادلوا وتخاصموا وتفرقوا وكانوا شيعاً.

الوجه الثاني من النقل: ما جاء في الأحاديث المنقولة عن رسول الله ﷺ، وهي كثيرة تكاد تفوت الحصر، إلا أنا نذكر منها ما تيسر مما يدل على الباقي، فمن ذلك:

١ - ما في الصحيح من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن النبي ﷺ قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»^(١) وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»^(٢) وهذا الحديث عدّة العلماء ثلث الإسلام، لأنه جمع وجوه المخالفة لأمره عليه الصلاة والسلام، ويستوي في ذلك ما كان بدعة أو معصية.

٢ - وخرّج مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»^(٣)، وفي رواية قال كان رسول الله ﷺ يخطب الناس، يحمد الله ويثنى عليه بما هو أهله، ثم يقول: «من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يُضلل الله فلا هادي له، وخير الحديث كتاب الله، وخير الهدى

(١) البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨).

(٢) مسلم (١٧١٨).

(٣) مسلم (٨٦٧).

هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة»^(١).

٣- وفي الصحيح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى الهدى كان له من الأجر مثل أجزور من يتبعه لا ينقص ذلك من أجزورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من يتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(٢).

٤- وروى الترمذي وأبو داود وغيرهما عن العرباض بن سارية وفيه: «فإنه من يعيش منكم بعدي فسيري اختلافاً كثيراً، فعليكم بستتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعصّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»^(٣).

٥- وفي الصحيح عن حذيفة أنه قال: يا رسول الله! هل بعد هذا الخير شر؟ قال: «نعم، قوم يستنون بغير ستي، ويهتدون بغير هديي» قال فقلت: هل بعد ذلك الشر من شر؟ قال: «نعم، دعاة على نار جهنم من أجابهم قذفوه فيها» قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. قال: «نعم، هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا» قلت: فما تأمرني إن أدركت ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم» قلت: فإن لم يكن إمام ولا جماعة؟ قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها،

(١) مسلم (٨٦٧).

(٢) مسلم (٢٦٧٤).

(٣) أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤) وهو صحيح.

ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»^(١).

٦- ومما جاء في هذا الباب أيضاً ما خرج ابن وضاح ونحوه لابن وهب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «سيكون في أمتي دجالون كذابون يأتونكم ببدع من الحديث لم تسمعهو أنتم ولا آباؤكم، فإياكم إياهم لا يفتنونكم»^(٢).

الوجه الثالث من النقل: ما جاء عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في ذم البدع وأهلها وهو كثير، فمن ذلك:

١- عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: «اتبعوا آثارنا ولا تبتدعوا فقد كفيتم»^(٣).

٢- عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال يوماً: «إن من ورائكم فتناً يكثر فيها المال، ويفتح فيه القرآن، حتى يأخذه المؤمن والمنافق، والرجل، والمرأة، والصغير، والكبير، والعبد، والحر، فيوشك قائل أن يقول: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن؟ ما هم بمُتَّبِعِيَّ حتى أبتدع لهم غيره»^(٤)، وإياكم وما ابتدع فإن ما ابتدع ضلالة. وأحذركم زيغة الحكيم فإن الشيطان قد يقول كلمة

(١) البخاري (٣٦٠٦، ٧٠٨٤) ومسلم (١٨٤٧).

(٢) مسلم (٧) بلفظ: «يكون في آخر الزمان دجالون كذابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، ولا يضلونكم ولا يفتنونكم».

(٣) رواه اللالكائي في شرح السنة (١٠٤) وأبو خيثمة في كتاب (العلم) بإسناد صححه الألباني.

(٤) وقد ابتليت الأمة في زمننا بمثل هؤلاء، فقد كثروا لا كثرهم الله.

الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق».

قال الراوي: قلت لمعاذ: وما يدريني يرحمك الله إن الحكيم قد يقول كلمة ضلالة، وإن المنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال: «بلى! اجتنب من كلام الحكيم غير المُشْتَهَرَاتِ التي يُقال فيها: ما هذه؟ ولا يثنيك ذلك عنه»^(١)، فإنه لعله أن يُرَاجِعَ، وتلقَّ الحقَّ إذا سمعته فإن على الحق نوراً»^(٢).

ومما جاء عن بعد الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

١- عن أبي إدريس الخولاني أنه قال: «لأن أرى في المسجد ناراً لا أستطيع إطفاءها، أحب إلي من أن أرى فيه بدعة لا أستطيع تغييرها»^(٣).

٢- وعن الفضيل بن عياض: «اتَّبِعْ طرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين»^(٤).

٣- وعن ابن المبارك قال: «اعلم أي أخي! إن الموت كرامة لكل مسلم لقي الله على السنة، فإننا لله وإنا إليه راجعون، فإلى الله نشكو وحشتنا وذهاب الإخوان، وقلة الأعوان، وظهور البدع. وإلى الله نشكو عظيم ما حل بهذه الأمة

(١) وهذا إنصاف ونصح عزيز جداً، ولا عجب فهو من مدرسة رسول الهدى صلوات الله عليه وسلامه وبركاته.

(٢) أبو داود (٤٦١١).

(٣) فنار البدعة أشد لأنها تأكل الدين.

(٤) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾.

من ذهاب العلماء وأهل السنة، وظهور البدع»^(١).

توقير المبتدع هدم للإسلام:

الماشي إلى المبتدع الموقر له معين على هدم الإسلام، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من أحدث حدثاً، أو آوى محدثاً؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»^(٢). والتوقير من الإيواء، ووجه ذلك ظاهر لأن المشي إليه والتوقير له تعظيم له لأجل بدعته، والشرع يأمر بزجره وإهانته وإذلاله بما هو أشد من هذا، كالضرب والقتل، فصار توقيره صدوداً عن العمل بشرع الإسلام، وإقبالاً على ما يصاده وينافيه، والإسلام لا ينهدم إلا بترك العمل به والعمل بما ينافيه.

وأيضاً فإن توقير صاحب البدعة مظنة لمفسدتين تعودان على الإسلام بالهدم:

إحداهما: التفات الجهال والعامّة إلى ذلك التوقير، فيعتقدون في المبتدع أنه أفضل الناس، وأن ما هو عليه خير مما عليه غيره، فيؤدي ذلك إلى اتباعه على بدعته دون اتباع أهل السنة على سنتهم.

والثانية: أنه إذا وُقِّر من أجل بدعته صار ذلك كالحادي المحرّض له على إنشاء الابتداع في كل شيء.

فتحيا البدع وتموت السنن، وهو هدم الإسلام بعينه، وعلى ذلك دلّ النقل

(١) الاعتصام للشاطبي (١/١٠٣-١٠٩) مختصراً.

(٢) البخاري (١٨٧٠، ٣١٧٩) ومسلم (١٣٧٠).

عن السلف زيادة إلى صحة الاعتبار، لأن الباطل إذا عمل به لزم ترك العمل بالحق كما في العكس، لأن المحل الواحد لا يشتغل إلا بأحد الضدين»^(١).



(١) الاعتصام للشاطبي ١٥٢/١

شؤم البدعة وشر أهلها

شؤمها وبيل وُسْمُها مُميت، وشرها مستطير، وإن لم يمن الله على صاحبها بتوبة فيخشى عليه سوء عاقبتها ووبال تبعثها وحريق شررها، فمن ذلك:

١- أن يُوكَل إلى نفسه، فإن الله تعالى ابتعث إلينا محمداً ﷺ رحمة للعالمين وهداية للسالكين، وقد كنا قبل طلوع ذلك النور الأعظم لا نهتدي سبيلاً، ولا نعرف من مصالحنا الدنيوية إلا قليلاً، ولا من مصالحنا الأخروية قليلاً ولا كثيراً إلا بقايا مما اندرس من الملة الإبراهيمية الحنيفية وخبايا مما انطم تحت الجهل من البقية الفطرية، حتى بعث الله نبيه ﷺ لإضاءة ما بين الخافقين هدى ورشاداً، فأذن الله تعالى بزوال الجهل والريب والالتباس، وارتفاع الخلاف الواقع بين الناس.

فإذا ترك المبتدع هذه الهبات العظيمة، والعطايا الجزيلة، وأخذ في استصلاح نفسه أو دنياه بنفسه بما لم يجعل الشرع عليه دليلاً، فكيف له بالعصمة والدخول تحت هذه الرحمة؟ وقد حل يده من حبل العصمة إلى تدبير نفسه، فهو حقيق بالبعد عن الرحمة. قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] بعد قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] فأشعر أن الاعتصام بحبل الله هو تقوى الله حقاً، وأن ما سوى ذلك تفرقة، لقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ والفرقة من أحس أوصاف المبتدعة، لأنه خرج عن حكم الله وباين جماعة أهل الإسلام.

٢- أن صاحب البدعة متوعدّ باللعنة - عياداً بالله تعالى - لقوله عليه الصلاة والسلام: «من أحدث حدثاً، أو آوى محدثاً؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»^(١) وعُدّ من الإحداث الاستئناس بسنة سوء لم تكن.

٣- أن صاحبها يزداد من الله بعداً. فعن الحسن أنه قال: «صاحب البدعة ما يزداد الله اجتهاداً صياماً وصلاة؛ إلا ازداد من الله بعداً»، وعن أيوب السخيتاني قال: «ما ازداد صاحب بدعة اجتهاداً؛ إلا ازداد من الله بعداً».

ويصحح هذا النقل ما أشار إليه الحديث الصحيح في قوله عليه الصلاة والسلام في الخوارج: «يخرج من ضنضيء هذا قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم - إلى أن قال - يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»^(٢) فبين أولاً اجتهادهم ثم بين آخراً بُعدهم من الله تعالى.

٤- أنها مظنة إلقاء العداوة والبغضاء بين أهل الإسلام، وهذا لأنها تقتضي التفرق شيعاً، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقد بين عليه الصلاة والسلام أن فساد ذات البين هي الحالقة، وأنها تحلق الدين، هذه الشواهد تدل على وقوع الافتراق والعداوة عند وقوع الابتداع.

(١) البخاري (١٨٧٠، ٣١٧٩) ومسلم (١٣٧٠).

(٢) مسلم (١٠٦٤) بنحوه، والمقصود أنه يخرج على شاكلته وشبهه ونسله الفكري أولئك القوم المذكورون، عياداً بالله من حالهم وضلالهم.

وأول شاهد عليه في الواقع قصة الخوارج إذ عادوا أهل الإسلام حتى صاروا يقتلونهم ويدعون الكفار، ثم يليهم كل من كان له صولة منهم بقرب الملوك فإنهم تناولوا أهل السنة بكل نكال وعذاب وقتل. ثم يليهم كل من ابتدع بدعة فإن من شأنهم أن يثبطوا الناس عن اتباع الشريعة ويذمونهم^(١).

وأيضاً فإن أهل السنة مأمورون بعبادة أهل البدع، وقد حذر العلماء من مصاحبتهم ومجالستهم، وذلك مظنة إلقاء العداوة والبغضاء، لكن الدرك فيها على من تسبب في الخروج عن الجماعة مما أحدثه من اتباع غير سبيل المؤمنين لا على التعادي مطلقاً، كيف ونحن مأمورون بمعاداتهم وهم مأمورون بموالاةنا والرجوع إلى الجماعة؟

٥ - أنه يخشى على صاحبها الحرمان من شفاعة محمد ﷺ لقوله ﷺ: «أول من يكسى يوم القيامة إبراهيم، وإنه سيؤتى برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال - إلى قوله - فيقال لم يزالوا مرتدين على أعقابهم..» الحديث^(٢). ففيه أنه لم يذكر لهم شفاعة رسول الله ﷺ، ويظهر من أول الحديث أن ذلك الارتداد لم يكن كفر لقوله: «وإنه سيؤتى برجال من أمتي» ولو كانوا مرتدين عن الإسلام لما نسبوا إلى أمته، ولأنه عليه الصلاة والسلام أتى بالآية وفيها: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَاِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] ولو علم النبي ﷺ أنهم خارجون عن

(١) وذكر الشاطبي رحمه الله تعالى في الاعتصام أمثلة شنيعة من ذمهم لأعيان الصحابة والسلف (١٥٨/١) رضي الله عن السلف وقاتل شائنيهم، أتى يؤفكون؟!
(٢) رواه البخاري (٦٥٢٦، ٣٣٤٩، ٣٤٤٧) ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

الإسلام جملة لما ذكرها، لأن من مات على الكفر لا غفران له البتة، وإنما يرجى الغفران لمن لم يخرج عمله عن الإسلام لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

٦. أن على مبتدع البدعة إثم من عمل بها إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] ولما في الصحيح من قوله عليه الصلاة والسلام: «من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها»^(١).

وقد ورد أن صاحبها ليست له من توبة^(٢) قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله حجر التوبة على كل صاحب بدعة»^(٣). ويدل على ذلك أيضاً حديث الفرق إذ قال فيه: «وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء، كما يتجارى الكلبُ بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله»^(٤)، وهذا النفي يقتضي

(١) مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أي لا يوفق لها في الغالب والله أعلم لرغبته عن السنة.

(٣) رواه أبو الشيخ في تاريخ أصبهان، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب، وغيرهم. انظر السلسلة الصحيحة (١٦٢٠) وقد ورد بلفظ: «حجب» و«احتجز» و«احتجب» وصححه السقاف.

(٤) أبو داود (٤٥٩٧) وأحمد (١٠٢/٤) وهو صحيح. ومعنى يتجارى الكلب: التجارى، تفاعل من الجري، وهو الوقوع في الأهواء الفاسدة، والتداعي فيها، تشبيهاً بجري الفرس. والكلبُ: داء معروف يعرض للكلب، إذا عض حيواناً عرض له أعراض رديئة =

العموم بإطلاق، ولكنه قد يحمل على العموم العادي، إذ لا يبعد أن يتوب عما رأى ويرجع إلى الحق، كما نقل عن عبد الله بن الحسن العنبري، وما نقلوه في مناظرة ابن عباس الحرورية الخارجين على علي رضي الله عنه، وفي مناظرة عمر بن عبد العزيز لبعضهم. ولكن الغالب في الواقع الإصرار.

ومن هنا قلنا: يبعد أن يتوب بعضهم لأن الحديث يقتضي العموم بظاهره، وسبب بعده عن التوبة: أن الدخول تحت تكاليف الشريعة صعب على النفس لأنه أمر مخالف للهوى، وصاد عن سبيل الشهوات، فيثقل عليها جداً لأن الحق ثقيل، والنفس إنما تنشط بما يوافق هواها لا بما يخالفه، وكل بدعة فللهوى فيها مدخل، لأنها راجعة إلى نظر مخترعها لا إلى نظر الشارع.

مع ضميمة أخرى: وهي أن المبتدع لا بد له من تعلق بشبهة دليل ينسبها إلى الشارع، ويدعي أن ما ذكره هو مقصود الشارع، فصار هواه مقصوداً بدليل شرعي في زعمه، فكيف يمكنه الخروج عن ذلك وداعى الهوى مستمسك بحسن ما يتمسك به؟ وهو الدليل الشرعي في الجملة.

٧ - أن صاحبها معرض لأن يلقى عليه الذل في الدنيا والغضب من الله تعالى. لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢] قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ فهو عمومٌ فيهم وفيمن أشبههم، من حيث كانت البدع كلها

فاسدة قاتلة، فإذا تجارى بالإنسان وتمادى هلك. وتسميه العامة: غلات ومغلوث، والتشبيه ظاهر.

افتراء على الله حسبما أخبر في كتابه في قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا
أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أُفْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

فإذا كل من ابتدع في دين الله فهو ذليل حقير بسبب بدعته، وإن ظهر لبادي
الرأي في عزه وجبريته فهم في أنفسهم خنعةٌ أذلاء، وأيضاً فإن الذلة الحاضرة
بين أيدينا موجودة في غالب الأحوال.

ألا ترى أحوال المبتدعة في زمان التابعين، وفيما بعد ذلك؟ حتى تلبسوا
بالسلطين ولاذوا بأهل الدنيا، ومن لم يقدر على ذلك استخفى بدعته وهرب
بها عن مخالطة الجمهور، وعمل بأعمالها على التقيّة.

٨- التعرّض للبعد عن حوض رسول الله ﷺ لحديث أساء عن النبي ﷺ
أنه قال: «أنا على حوضي انتظر من يرد عليّ، فيؤخذ بناس من دوني، فأقول:
أمّتي، فيقال: إنك لا تدري، مشوا القهقريّ»^(١).

٩- ومن شؤمها أنه يُخاف على صاحبها سوء الخاتمة - والعياذ بالله - لأن
صاحبها مرتكب إثماً، وعاصٍ لله تعالى حتماً، ومن مات مصراً على المعصية
فيخاف عليه.

فالمبتدع مع كونه مصراً على ما نهى عنه يزيد على المصر بأنه معارض
للشريعة بعقله، غير مسلّم لها في تحصيل أمره، معتقداً في المعصية أنها طاعة،
حيث حسن ما قبحه الشارع، وفي الطاعة أنها لا تكون طاعة إلا بضميمة نظره،
فهو قد قبح ما حسنه الشارع، ومن كان هكذا فحقيق بالقرب من سوء الخاتمة
إلا من رحم الله.

(١) البخاري (٧٠٤٨) ومسلم (٢٢٩٣).

١٠ - يخشى على المبتدع من اسوداد وجهه في الآخرة، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] (١).

١١ - أن رسول الله ﷺ بريء من بدعته، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وقد كان الصحابة يتبرؤون من المبتدعة، قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَهْلِ الْقَدْرِ: إِذَا لَقِيتَ أَوْلِيكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنْهُمْ بَرَاءٌ مِنِّي» (٢). والآثار في ذلك كثيرة. ويعضدها ما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخلل» (٣) ووجه ذلك ظاهر.

١٢ - المبتدع يُخشى عليه من الفتنة في دينه. فعن سفيان بن عيينة أنه قال: سألت مالكا عما عمن أحرم من المدينة وراء الميقات؟ فقال: هذا مخالف لله ورسوله، أخشى عليه الفتنة في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة. أما سمعت قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٦٣] وقد أمر النبي ﷺ أَنْ يُهَلَّ مِنَ الْمَوَاقِيتِ (٤).



(١) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ثُمَّ قَالَ: «تَبْيَضُّ وُجُوهٌ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ أَهْلِ الْبِدْعَةِ». تفسير البغوي (٢/ ٨٧).

(٢) مسلم (٨).

(٣) رواه أبو داود (٤٨٣٣) والترمذي (٢٣٧٨).

(٤) ينظر: الاعتصام للشاطبي (١/ ١٦٧-١٧٤) باختصار وانتخاب وتصرف.

الفرق بين البدعة والمعصية والخطأ الفقهي

البدعة مضاهاة للشرع وصاحبها مؤاخذ بتفريطه، والخطأ الفقهي عفوٌ إذ ليس فيه مضاهاة للشرع، وصاحبه غير مؤاخذ إن كان من أهل الاجتهاد ولم يفرط، وأما معصية الشهوة المحضة فليس فيها مضاهاة للشرع، ولكن صاحبها مؤاخذ من جهة تقحّم العصيان وركوب المخالفة. و«البدع ضلالة»، والمبتدع ضال ومضل، بخلاف سائر المعاصي، فإنها لم توصف في الغالب بوصف الضلالة إلا أن تكون بدعة أو شبه البدعة. وكذلك الخطأ الواقع في المشروعات - وهو المعفو - لا يسمى ضلالاً، ولا يطلق على المخطئ اسم ضال، كما لا يطلق على المعتمد لسائر المعاصي.

وذلك أن الضلال والضلالة ضد الهدى والهدى، فصاحب البدعة لما غلب عليه الهوى مع الجهل بطريق السنة توهم أن ما ظهر له بعقله هو الطريق القويم دون غيره، فمضى عليه فحاد بسببه عن الطريق المستقيم، فهو ضال من حيث ظن أنه راكب للجدادة.

فالمبتدع من هذه الأمة إنما ضلّ في أدلتها حيث أخذها مأخذ الهوى والشهوة لا مأخذ الانقياد تحت أحكام الله. وهذا هو الفرق بين المبتدع وغيره، لأن المبتدع جعل الهوى أول مطالبه، وأخذ الأدلة بالتبع، فإذا انضم إلى ذلك الجهل بأصول الشريعة وعدم الاضطلاع بمقاصدها، كان الأمر أشد وأقرب إلى التحريف والخروج عن مقاصد الشرع.

والدليل على ذلك أنك لا تجد مبتدعاً ممن ينسب إلى الملة إلا وهو يستشهد على بدعته بدليل شرعي فينزله على ما وافق عقله وشهوته، بخلاف غير المبتدع فإنه إنما جعل الهداية إلى الحق أول مطالبه؛ وأخر هواه فجعله بالتبع.

وفیصل القضية بينهما قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ ۗ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] فلا يصح أن يسمى من هذه حاله مبتدعاً ولا ضالاً، وإن حصل في الخلاف أو خفي عليه.

فأما أنه غير مبتدع فلأنه اتبع الأدلة، مؤخراً هواه، ومقدماتاً لأمر الله. وأما كونه غير ضال فلأنه على الجادة سلك، وإليها لجأ، فإن خرج عنها يوماً فأخطأ فلا حرج عليه، بل يكون مأجوراً حسبما بيّنه الحديث الصحيح: «إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجرٌ وإن أصاب فله أجران»^(١) وإن خرج متعمداً فليس على أن يجعل خروجه طريقاً مسلوفاً له أو لغيره، وشرعاً يدان به»^(٢).

وأما معصية الشهوة فراكبتها عالمٌ بمخالفته مقرٌّ بها، غير ناسبها إلى الشريعة، فلا يجعلها مضاهية للمشروع، لذلك كان هو أقرب في العادة رجوعاً للجادة من صاحب البدعة المصير عليها، فلا يزداد صاحب البدعة بها مسيراً إلا ازداد بها ولعاً وعن ربه بُعداً! لذا كانت أحب إلى إبليس من المعصية المحضة، فإن في

(١) البخاري (٧٣٥٢) ومسلم (١٧١٦).

(٢) الاعتصام للشاطبي (١٧٨/١)

معصية الشهوة تأنيب الضمير ووازع الإيمان، ولا يزال به ينغص عليه معصيته
ويقرب له توبته، وربما وُقِّقَ للتوبة والأوبة بعد الذنب والحوبة، والله المستعان،
ولا حول ولا قوة إلا بالله.



إثم المتدعين ليس على رتبة واحدة

الله تعالى عدل، وشريعته عدل، وميزانه عدل، وحسابه عدل، فهو العدل ومنه العدل تبارك وتعالى، ولما شرع سبحانه الشرع، وأقام نظام الإسلام لوجهه والتعبد له؛ رتب على ذلك عطايا وعقوبات، وجعل طاعته درجات، ومعاصيه دركات، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. وأهل البدعة ليسوا سواء، لا في حال ابتداعهم ولا في نوازعهم ولا في علمهم ولا في تفریطهم أو اجتهادهم في رضا الله تعالى وبذل الوسع في اتباع السنة.

و«إذا ثبت أن المبتدع آثم فليس الإثم الواقع عليه على رتبة واحدة، بل هو على مراتب مختلفة، من جهة كون صاحبها مستتراً بها أو معلناً، ومن جهة الدعوة إليها وعدمها، ومن جهة كون البدعة حقيقية أو إضافية، ومن جهة كونها بينة أو مشككة، ومن جهة كونها كفراً أو غير كفر، ومن جهة الإصرار عليها أو عدمه، إلى غير ذلك من الوجوه التي تتفاوت بها المؤاخذة.

١ - أما الاختلاف من جهة الإسرار والإعلان، فظاهر أن المسرّ بها ضرره مقصور عليه لا يتعداه إلى غيره، فعلى أي صورة فرضت البدعة من كونها كبيرة أو صغيرة أو مكروهة. هي باقية على أصل حكمها، فإذا أعلن بها - وإن لم يدعُ إليها - فأعلانه بها ذريعة إلى الاقتداء به.

٢ - وأما الاختلاف من جهة الدعوة إليها وعدمها فظاهر أيضاً، لأن غير الداعي وإن كان عرضة بالاقتداء فقد لا يقتدي به، ويختلف الناس في توفر دواعيهم على الاقتداء به، إذ قد يكون حامل الذكر، وقد يكون مشتهداً ولا

يقتدي به، لشهرة من هو أعظم عند الناس منزلة منه.

٣- وأما الاختلاف من جهة كون البدعة حقيقية أو إضافية، فإن الحقيقية أعظم وزراً، لأنها مخالفة محضة وخروج عن السنة ظاهراً.

٤- وأما الاختلاف من جهة كونها ظاهرة المأخذ أو مشكلة، فلأن الظاهر عند الإقدام عليها محض مخالفة، فإن كانت مشكلة فليست بمحض مخالفة، لإمكان ألا تكون بدعة، والإقدام على المحتمل أخفض رتبة من الإقدام على الظاهر.

٥- وأما الاختلاف بحسب الإصرار عليها أو عدمه، فلأن الذنب قد يكون صغيراً فيعظم بالإصرار عليه، كذلك البدعة تكون صغيرة فتعظم بالإصرار عليها، فإذا كانت فلتة فهي أهون منها إذا داوم عليها.

٦- وأما الاختلاف من جهة كونها كفراً وعدمه فظاهر أيضاً، لأن ما هو كفر جزاؤه التخليد في العذاب- عافانا الله- فلا بدعة أعظم وزراً من بدعة تخرج عن الإسلام، والله المستعان^(١). وقد جعل الله لكل شيء قدراً.



(١) الاعتصام للشاطبي (١/٢١٦).

طريق الحق وطرق الضلال

من رحمة الله تعالى إقامة الحجة على العالمين بإيضاح المحجة للسالكين، فمن أراد السعادة فسبيلها واضح وصراتها مستقيم وشريعته ميسرة، ولم يرحل نبينا صلى الله عليه وسلم لربه حتى أتمَّ الله تعالى به النعمة بتمام البلاغ للشريعة الحنيفية المثلى، الموصلة بفضل الله تعالى إلى العلى. قال الشاطبي رحمه الله تعالى: «قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فأفادت الآية أن طريق الحق واحدة، وأن للباطل طرقاً متعددة لا واحدة، وتعددتها لم يُخصَّ بعدد مخصوص، وهكذا الحديث المفسر للآية وهو قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خط لنا رسول الله ﷺ خطأ فقال: «هذا سبيل الله مستقيماً» ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال: «هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم تلا هذه الآية (١).

ففي الحديث أنها خطوط متعددة غير محصورة بعدد، فلم يكن لنا سبيل إلى

(١) أحمد (٤١٤٢، ٤٤٣٧) الدارمي (٢٠٢) والسنة لمحمد بن نصر المروزي ٩/١، ومسنده أبي داود الطيالسي ١/١٩٧، والسنن الكبرى للنسائي ١٠/٩٥ (١١١١٠)، وصححه الحاكم (٨١٣/٢) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، من طريق عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن ابن مسعود، فذكره، وأقره الذهبي، ومسنده الدارمي ١/٢٨٥ وحسنه حسن أسد، وابن حبان (١ / ١٨١) وقال الألباني في ظلال الجنة (١٦ و١٧): حسن صحيح.

حصر عددها من جهة النقل، ولا لنا أيضاً سبيلاً إلى حصرها من جهة العقل أو الاستقراء، لكننا نذكر من ذلك أوجهاً كلية يقاس عليها ما سواها.

١- اعتمادهم على الأحاديث الواهية الضعيفة، والمكذوب فيها على رسول

الله ﷺ.

٢- ردهم للأحاديث التي جرت غير موافقة لأغراضهم ومذاهبهم.

٣- تحرُّصهم في الكلام في القرآن والسنة العربيين بلا رسوخ في اللغة

العربية.

٤- انحرافهم عن الأصول الواضحة إلى اتباع المتشابهات.

٥- تحريف الأدلة عن مواضعها: بأن يرد الدليل على مناط^(١) فيصرف عن

ذلك المنط إلى أمر آخر موهماً أن المنطين واحد، وهو من خفيات تحريف الكلم عن مواضعه والعياذ بالله.

٦- بناء طائفة منهم الظواهر الشرعية على تأويلات لا تعقل.

٧- التغالي في تعظيم شيوخهم حتى الحقوهم بما لا يستحقونه.

٨- الاحتجاج بالمنامات.

ومن نظر إلى طريق أهل البدع في الاستدلالات عرف أنها لا تنضبط، لأنها

(١) المنط عند اللغويين هو التعليق، وعند الأصوليين والفقهاء هو العلة، لأن الحكم لما تعلق

بها صار كالشيء المتعلق بغيره.

سيّالة لا تقف عند حدّ، وعلى كل وجه يصح لكل زائغ وكافر أن يستدل على زيغته وكفره حتى ينسب النحلة التي التزمها إلى الشريعة.

فمن طلب خلاص نفسه حتى يتضح له الطريق، ومن تساهل رتمته أيدي الهوى في معاطب لا مخلص له منها إلا ما شاء الله^(١). ولكل نهاية بداية، ولكل شيء غاية، ولكل سبيل عاقبة، والله الموعود.



(١) الاعتصام للشاطبي (١/٣٦٥).

البدعة قذح في الشريعة

لما كانت الشريعة كاملة غير منقوصة؛ صار المبتدع المرید زيادة فيها قاذح لها، «وذلك من جانين:

أحدهما: أنها مضادة للشارع ومراغمة له، حيث نصب المبتدع نفسه نصب المستدرك على الشريعة.

والثاني: أن كل بدعة - وإن قلَّت - تشريع زائد أو ناقص، أو تغيير للأصل الصحيح، فيكون قاذحاً في المشروع.

فليتأمل هذا الموضوع أشد التأمل ويعط من الإنصاف حقه، ولا ينظر إلى خفة الأمر في البدعة بالنسبة إلى صورتها وإن دقت، بل ينظر إلى مصادمتها للشريعة ورميها لها بالنقص والاستدراك، وأنها لم تكمل بعد حتى يوضع فيها، بخلاف سائر المعاصي فإنها لا تعود على الشريعة بتنقيص ولا غض من جانبها، بل صاحب المعصية متنصل منها، مقر لله بمخالفته لحكمها»^(١).

نشوء البدع:

«البدعة تنشأ عن أربعة أوجه:

أحدها: - وهو أظهر الأقسام - أن يخترعها المبتدع.

الثاني: أن يعمل بها العالم على وجه المخالفة، فيفهمها الجاهل مشروعة.

(١) الاعتصام للشاطبي (٥٤٦/٢) باختصار.

الثالث: أن يعمل بها الجاهل مع سكوت العالم عن الإنكار، وهو قادر عليه، فيفهم الجاهل أنها ليست بمخالفة.

الرابع: من باب الذرائع، وهي أن يكون العمل في أصله معروفاً، إلا أنه يتبدل الاعتقاد فيه مع طول العهد بالذكري^(١).

رد شبهة استفتاء القلب:

خَرَجَ مسلم عن النّوَّاس بن سمعان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه»^(٢).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دع ما يريبك»^(٣) وعن ابصه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «يا ابصه! استفت قلبك، واستفت نفسك، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»^(٤).

والمعنى أن فتاوي القلوب وما اطمأنت إليه النفوس معتبر في الأحكام الشرعية بما وافق الدليل، لأن فتوى القلب مجردة عن الدليل غير معتبرة، وإلا

(١) الاعتصام للشاطبي (٤٩٣/٢).

(٢) رواه مسلم (٢٥٥٣).

(٣) حديث صحيح رواه أحمد في المسند (٣٥١/٣).

(٤) حديث حسن رواه أحمد (٢٢٧/٤، ٢٢٨) والدارمي (٢٤٥/٢) وأبو يعلى (١٥٨٦).

صار هناك قسم ثالث غير الكتاب والسنة.

تزيين النفس للبدعة:

مكرُّ النفس بحرٌّ لا ساحل له، وشبكةٌ لا انتهاء لها، ومداراتٌ لا حصر لها، ولها مع النيَّة ألفٌ وجهٌ كلُّها خائبة، فهي كسولٌ حرونٌ هلوغٌ منوعٌ عجولٌ، ولكن مع الترفق الحازم معها فإن قيادها يلين بإذن الله تعالى، وجوُّها يصفو برحمة الله تعالى، ومشرَّبها ينقى بلطف الله تعالى، فلا بد لها من حسن سياسة، من علم وحكمة ورفق وحزم وصبر وتؤدة، والموفق من وفقه الله تعالى. «إن الدخول تحت التكاليف في الشريعة صعب على الأنفس؛ لأنه أمر مخالف للهوى، ومحادٌّ للشهوات، فيثقل عليها جدًّا، لأن الحق ثقيل، والنفس إنما تنشط بما يوافق هواها، لا بما يخالفه، وكل بدعة للهوى فيها مدخل؛ لأنها راجعة إلى نظر مخترعها وهواه، لا إلى الشارع وحجته.

والمبتدع لا بد له من تعلق بشبهة دليل، ينسبها إلى الشارع، ويدعي أن ما ذكره هو مقصود الشارع فصار هواه مقصوداً بدليل شرعي في زعمه، فكيف يمكن الخروج من ذلك، وداعي الهوى مستمسك بأحسن ما يتمسك به؟ وهو الدليل الشرعي في الجملة، ويزيد في الاجتهاد لينال في الدنيا التعظيم والمال والجاه، وغير ذلك من أصناف الشهوات، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]. وقال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلِّي نَارًا حَامِيَةً ﴿ [الغاشية: ٢-٤] فسبب ما داخل أنفسهم من الهوى يجد المبتدعة في ذلك الالتزام

والاجتهاد خفة ونشاطاً، يستسهلون به الصعب، ويرون أعمالهم أفضل من عمل غيرهم ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [المدثر: ٣١].

وسائل الوقاية من البدع:

للوفاية من البدع وسائل عدة، نذكر منها على سبيل الإيجاز:

- ١- الاعتصام بالكتاب والسنة.
- ٢- تطبيق السنة في سلوك الفرد وسلوك المجتمع.
- ٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- ٤- القضاء على أسباب البدع وذلك بأمر عدة، منها:
 - أ- منع العامة من القول في الدين، وعدم اعتبار آرائهم مهما كانت مناصبهم فيه.
 - ب- الرد على ما يوجه إلى الدين من حملات ظاهرة أو خفية، وكشف مظاهر الابتداع، وتسليط الضوء عليها من القرآن والسنة لمنعها من التغلغل والانتشار.
 - ج- الاحتراز من كل خروج عن حدود السنة مهما قل أثره أو صغر أمره.
 - د- صدّ تيارات الفكر العقائدي والتي لا حاجة للمسلم فيها، بل ورد النصّ بالتحذير منها، كأراء غير المسلمين فيها يتصل بالعقيدة، أو الأمور الغيبية ونحوها.
 - هـ- الاعتماد على الكتاب والسنة فقط في أمور العقيدة التي لا مجال للاجتهاد

والاستحسان والقياس فيها، وعدم الاعتماد على ما يعده بعض أهل الضلال مستنداً كالعقل ونحوه، وما هو أوهى من ذلك كالمنامات ونحوها.

و- ترك الخوض في المشابه؛ لأن الخوض فيه علامة على أهل الزيغ والبدع. وسبب كل بلاء ومصيبة دخلت على المسلمين»^(١).

ولا بد من الاحتساب في ذلك كله، والتعاون على البر والتقوى، والتواصي على الخير والهدى، والاعتصام بحبل الله المتين، والله المستعان.

التحذير من الرأي المذموم:

الوحي معصوم من الخطأ، لأن مصدره إلهي، أما الرأي فقاصر ضعيف ناقص كثير الخطأ، فلا تقابل أصلاً بين الوحي والرأي، وإنما يكون الرأي مذمومًا إن خالف الوحي بمعارضة أو مضاهاة، فالرأي المذموم: «هو المبني على غير أسس، والمستند إلى غير أصل من كتاب ولا سنة، لكنه وجه تشريعي فصار نوعاً من الابتداع، بل هو الجنس فيها، فإن جميع البدع إنما هي رأي على غير أصل، ولذلك وصف بوصف الضلال. ففي الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا ينتزع العلم من الناس بعد إذ أعطاهموه انتزاعاً. ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال يُسْتَفْتُونَ فيُفْتُونَ برأيهم فيضلون ويضلون»^(٢).

وقد اختلف العلماء في الرأي المقصود. فقد قالت طائفة: المراد به رأي أهل

(١) البدع الحولية. عبد الله التويجري (٨٠ - ٨٥).

(٢) البخاري (١٠٠، ٧٣٠٧) ومسلم (٣٧٦٢).

البدع المخالفين للسنن لكن في الاعتقاد^(١)، كمذهب جهم وسائر مذاهب أهل الكلام لأنهم استعملوا آرائهم في رد الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ، بل وفي رد ظواهر القرآن لغير سبب يوجب الرد ويقتضي التأويل.

وقالت طائفة: إنما الرأي المذموم المعيب الرأي المبتدع وما كان مثله من ضروب البدع، فإن حقائق جميع البدع رجوع إلى الرأي، وخروج عن الشرع وهذا هو القول الأظهر. إذ الأدلة المتقدمة لا تقتضي بالقصد الأول من البدع نوعاً دون نوع، بل ظاهرها تقتضي العموم في كل بدعة حدثت أو تحدث إلى يوم القيامة، كانت من الأصول أو الفروع.

وقالت طائفة: الرأي المذكور هو القول في أحكام شرائع الدين بالاستحسان والظنون، والاشتغال بحفظ العضلات والأغلوطات، وردّ الفروع والنوازع بعضها إلى بعض قياساً، دون ردها إلى أصولها والنظر في عللها واعتبارها، فاستعمل فيها الرأي قبل أن تنزل، وفرعت قبل أن تقع، وتكلم فيها قبل أن تكون، بالرأي المضارع للظن، قالوا: لأن في الاشتغال بهذا والاستغراق فيه تعطيل السنن والبعث على جهلها، وترك الوقوف على ما يلزم الوقوف عليه منها، ومن كتاب الله تعالى ومعانيه.

وهذا القول غير مخالف لما قبله، لأن من قال به قد منع من الرأي وإن كان غير مذموم، لأن الإكثار منه ذريعة إلى الرأي المذموم، وهو ترك النظر في السنن اقتصاراً على الرأي، وإذا كان كذلك اجتمع مع ما قبله، فإن من عادة الشرع أنه إذا نهى عن شيء وشدد فيه منع ما حواليه، وما دار به ورتع حول حماه. ألا ترى

(١) أي حصره في الاعتقاد دون العمل.

إلى قوله عليه السلام: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهة»^(١). وكذلك جاء في الشرع أصل سد الذرائع، وهو منع الجائز لأنه يجر إلى غير الجائز. وبحسب عظم المفسدة في الممنوع، يكون اتساع المنع في الذريعة وشدته. والحاصل من جميع ما تقدم: أن الرأي المذموم ما بنى على الجهل واتباع الهوى من غير أن يرجع إليه، وما كان منه ذريعة إليه وإن كان في أصله محموداً، وذلك راجع إلى أصل شرعي: فالأول داخل تحت حد البدعة وتنزل عليه أدلة الذم، والثاني خارج عنه ولا يكون بدعة أبداً^(٢). وعليه؛ فالرأي المذموم هو ما خالف الشرع بأي طريق كان، سواء أكان مُزَيِّفًا مُزَيَّنًا بشبهة استحسان، فأنشأ عبادة أصلية أو إضافية خارجة عن إطار الشريعة، أو كان معارضاً لسنة في الشرع، إما برّد أو مضاهاة.. إنَّ الخلائق فاعلم شرّها البدعُ.



(١) البخاري (٢٠٥١) واللفظ له، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) الاعتصام للشاطبي (٧٦ / ١).

الاحتساب على أهل البدع

الاحتساب باب عظيم من أبواب الإيمان، وأصل كبير من أصول الإحسان، ومحبةٌ للناس مثل محبة المرء لنفسه، فالدين كله نصيحة، نصح في العبادة بإخلاصها وإتقانها، ونصح من جهة محبة الخير للناس والاجتهاد في نفعهم بلا غش ولا تقصير، فالمؤمن للناس كاللبن المحض الصافي النضوح، بل إن الجهاد في سبيل الله تعالى هو فرع عنه، والمراد بالاحتساب هنا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي باب السنن والبدع: الأمر بالسنة وتولي أهلها، والنهي عن البدعة والبراءة من أهلها، وقد عدَّ بعض العلماء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ركناً سادساً للإسلام. والاحتساب على المبتدعة باب عظيم من الجهاد، قال الشاطبي رحمه الله تعالى: «وهذا باب كبير في الفقه، تعلق بهم من جهة جنايتهم على الدين، وفسادهم في الأرض، وخروجهم عن جادة الإسلام إلى بنيات الطريق فنقول: إن القيام عليهم بالثريب أو التنكيل أو الطرد أو الإبعاد أو الإنكار هو بحسب حال البدعة في نفسها من كونها عزيمة المفسدة في الدين أم لا، وكون صاحبها مشتهراً بها أو لا، وداعياً إليها أو لا، ومستظهاً بالأتباع وخارجاً عن الناس أو لا، وكونه عاملاً بها على جهة الجهل أو لا.

وكل من هذه الأقسام له حكم اجتهاديّ يخصه، إذ لم يأت في الشرع في البدعة حدٌّ لا يُزاد عليه ولا ينقص منه، كما جاء في كثير من المعاصي، كالسرقة والقتل والقذف والخمر وغير ذلك، ولا جرم أن المجتهدين من الأمة نظروا

فيها بحسب النوازل، وحكموا باجتهاد الرأي، تفرعاً على ما تقدم لهم في بعضها من النص، فخرج من مجموع ما تكلم فيه العلماء أنواع:

أحدها: الإرشاد والتعليم وإقامة الحجّة، كمسألة ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين ذهب إلى الخوارج وكلمهم حتى رجع منهم ألفان أو ثلاثة آلاف.

الثاني: الهجران وترك الكلام والسلام.

الثالث: التغريب، كما غرّب عمر صبيغاً.

الرابع: السجن، كما سجنوا الحلاج قبل قتله سنين عديدة.

الخامس: ذكرهم بما هم عليه وإشاعة بدعتهم كي يُحذروا، ولئلا يُغتر بكلامهم، كما جاء عن كثير من السلف في ذلك.

السادس: القتال إذا ناصبوا المسلمين وخرجوا عليهم، كما قاتل عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الخوارج^(١)، وغيره من خلفاء السنة.

السابع: القتل إن لم يرجعوا مع الاستتابة^(٢).

الثامن: من أسرها وكانت كفراً أو ما يرجع إليه فالقتل بلا استتابة لأنه من

(١) وإن كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لم يبتدئ قتلهم حتى سفكوا الدم الحرام.

(٢) لمن قد أظهر بدعته ودعا إليها، وكان حقيقاً بالقتل تعزيراً، وكان لا يُكفّ بغير ذلك، وهو باب شديد فلا يجوز تقحّمه إلا ببرهان ودليل محكم ومصلحة ظاهرة جلية ولدفع مفسدة ملحة، فالدماء شأنها عند الله عظيم.

باب النفاق كالزنادقة^(١).

التاسع: تكفير من دل الدليل على كفره^(٢)، كما إذا كانت البدعة صريحة في الكفر.

العاشر: لا يرثهم ورثتهم من المسلمين^(٣) ولا يرثون أحداً منهم، ولا يغسلون إذا ماتوا، ولا يصلي عليهم ولا يدفنون في مقابر المسلمين، ما لم يكن المستتر؛ فإن المستتر يحكم له بحكم الظاهر، وورثته أعرف بالنسبة إلى الميراث.

الحادي عشر: الأمر بأن لا يناكحوا، وهو من ناحية الهجران، وعدم المواصلة.

الثاني عشر: تجريحهم على الجملة، فلا تقبل شهادتهم ولا يكونون ولاية ولا

(١) وليس على إطلاقه، بل لا بد من الثبوت والتبين، ثم الاستتابة إلا في حالات ضيقة جداً يقدّرها الحاكم في النازلة ويجزم بأنه لا مندوحة له عنها، ولكل قضية ملاساتها، والاستتابة أصل فلا يُتّحى عنه إلا بحجة وبرهان، ورسول الهدى ﷺ لم يقتل المنافقين وقد علمهم، وقد تساهل بعض منتسبة العلم في الخوض في الدماء إرضاء للسلطة وتتبعاً لهواهم بزعم حراسة الدين - وحقيقة فعلهم حراسة دنيا الملوك - ولو تريتوا لربما وفقوا للهدى، وليس هذا بعام ولا مضطرد، فالظن الحسن في القضاة وأهل العلم حسن بحمد الله، ومن شذ فلا حكم له، والله مواعده، إنما المقصود التنبيه.

(٢) وهذا بعد قيام الحجة الرسالية وانتفاء الموانع، وانظر رسالة: «ويكون الدين كله لله» للمؤلف.

(٣) أي في حالة الحكم بكفره.

قضاة، ولا ينصبون في مناصب العدالة من إمامة أو خطابة^(١).

الثالث عشر: ترك عيادة مرضاهم، وهو من باب الزجر والعقوبة.

الرابع عشر: ترك شهود جنازهم كذلك.

الخامس عشر: الضرب كما ضرب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صبيغاً.

تنبية:

قوله ﷺ: «من سن سنة حسنة»^(٢) ليس المراد به الاختراع البتة، وإلا لزم من ذلك التعارض بين الأدلة القطعية وإنما المراد به العمل بما ثبت من السنة النبوية، فالسبب الذي جاء لأجله الحديث هو الصدقة المشروعة^(٣).



(١) وكل هذا في حال القدرة والاختيار.

(٢) رواه مسلم (١٠١٧).

(٣) الاعتصام للشاطبي (١/١٣١).

هل الاحتفال بالمولد النبوي من مقتضيات محبته ﷺ؟

كلنا نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حباً عظيماً مهما تلوثنا بمعاصٍ أو بدع، فمما لا شك فيه بين المسلمين: أن كل مؤمن هو بطبعه محبُّ النبي صلى الله عليه وسلم محبة حقيقية صادقة عظيمة، ولهذا مظاهر لا تحصيها الأفلام، وهذا المعنى واضح مستقر غير محتاج لتفصيل وإثبات، وإن كانت بعض مظاهر إبداء المحبة غير مأذون بها في الشرع الطَّهُّور.

ذلك أن المحبة تقتضي الاتِّباع والطاعة ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبُّكُمْ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] أما معصيته فمضادة لمحبته، والسؤال الكبير: هل الاحتفال بمولده ﷺ طاعة له أو عصيان لأمره؟ أي: هل ذلك الاحتفال معدود من مظاهر محبته الموصلة لرضوان الله تعالى، أم أنها مخالفة لشريعته وسنته التي من خالفها فقد عصى الله تعالى وارتكب معصيته وتعرض لسخطه ومقته؟

والجواب: إن كل مؤمن هو يجب رسول الله ﷺ ضرورة، فكل المؤمنين مفعمين بمحبته والشوق للقائه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، ولكن بعضهم - ويا للمرارة - قد يعبر عن هذا الحب بما لم يشرعه حبيبه ﷺ ولم يأذن له فيه!

إن الاحتفال بمولده ﷺ معصية بلا شك، لأنه مُحدث، وقد نهى ﷺ عن البدع والمحدثات نهياً صريحاً في كثير من أحاديثه وزجر عنها.

ولقد أجمع المسلمون على بدعية الاحتفال بالمولد النبوي، ولكن بعضهم

دخل عليه اللبس من جهة ظنّه أن من البدع ما يكون حسناً، وهذا باطل لعموم قوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة»^(١) فالضلال ليس بحسن إطلاقاً.

وقد أفتى عامّة العلماء المحقّقين بحرمة الاحتفال بالمولد، عملاً بالأدلة الشرعية التي تحذّر من البدع في الدين، والأعياد والاحتفالات من أمور الشريعة، ووقفوا أمام فتح باب شر متيقّن لخير موهوم؟

قال الإمام مالك: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً».

بعض العلماء الذين أفتوا ببدعية الاحتفال بالمولد النبوي:

- الإمام الشاطبي فقد ذكر بعض أنواع البدع في أول كتابه الاعتصام^(٢) وعدّها منها اتخاذ يوم ولادة النبي ﷺ عيداً، وذم ذلك.
- الإمام الفاكهاني قال ببدعية المولد النبوي، في رسالته المفردة^(٣).

(١) قطعة من حديث رواه مسلم في صحيحه (٨٦٧)، من حديث جابر رضي الله عنه، وعند أبي داود في سننه (٤٦٠٧) من حديث العرباض رضي الله عنه مرفوعاً: «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»، وأحمد (١٧١٨٤) وصححه الأرناؤوط. والدارمي في السنن (٧٨ / ١) والحاكم في المستدرک (٣١٨ / ٢) وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٢) الاعتصام (٣٤/١).

(٣) (٩-٨).

- العلامة ابن الحاج المالكي في المدخل فقد قال ببدعية المولد النبوي (١).
 - علامة الهند أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادي قال ببدعية المولد النبوي، وكذلك شيخه العلامة بشير الدين قنوجي الذي ألف كتاباً سماه «غاية الكلام في إبطال عمل المولد والقيام» (٢).
 - الشيخ العلامة أبي عبد الله محمد الحفار المالكي. من علماء المغرب. قال: «ليلة المولد لم يكن السلف الصالح. وهم أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم. يجتمعون فيها للعبادة، ولا يفعلون فيها زيادة على سائر ليالي السنة، لأن النبي ﷺ لا يعظم إلا بالوجه الذي شرع تعظيمه، وتعظيمه من أعظم القرب إلى الله، لكن يتقرب إلى الله جل جلاله بما شرع» (٣).
 - الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم مفتي الديار السعودية وكذلك خلفه العلامة عبد العزيز بن باز والعلامة محمد العثيمين، وقال العثيمين: «يقيمونها لأنهم كما يقولون يحبون رسول الله ﷺ، ويريدون إحياء ذكرى رسول الله ﷺ. ونحن نقول لهم: مرحباً بكم إذ أحببتم النبي ﷺ، ومرحباً بكم إذا أردتم إحياء ذكرى رسول الله ﷺ، ولكن هناك ميزان للقبول وإثبات المحبة وضعه أحكم الحاكمين وإله العالمين، ألا وهو قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾
-
- (١) (١١/٢-١٢).
- (٢) وانظر تعليقه على حديث: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» في سنن الدارقطني.
- (٣) المعيار المعرب (٧/٩٩).

فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴿ [آل عمران: ٣١]. والعبرة عند العقلاء بالحقائق والمعاني لا
الدعاوي والأمانى.. فما كُلُّ دارٍ أَفْضَرَتْ دَارَةَ الْحِمَى!
وَالدَّعَاوَى إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا بَيِّنَاتٌ أَصْحَابُهَا أَذْعِيَاءُ
فإذا كان الإنسان صادقاً في دعوى محبة الله ورسوله؛ فليثبت دعواه بالحقيقة
والبرهان لا بدعوى بلا سلطان، وإثباتها إنما يكون بتحقيق الاتباع لشريعة الله
تعالى مخلصاً له الدين مستتاً بما جاء به رسول الله ﷺ، فإن لم يكن متبعاً له فإنه
كاذب في دعواه، لأن هذا الميزان ميزان صدق وعدل.

وعليه؛ فلننظر هل إحداث احتفال بليلة مولد الرسول ﷺ هل هو من
شريعة الله؟ هل يرضى الله تعالى به؟ هل أذن به؟ هل شرعه؟ هل أجاز لنا باباً
ندخل منه لمحبه بدون شريعته التي جاء بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؟
هل فعله النبي ﷺ؟ هل فعله الخلفاء الراشدون؟ هل فعله الصحابة؟ هل فعله
التابعون لهم بإحسان؟ هل فعله أتباع التابعين؟

إن الجواب على كل هذه التساؤلات إنما هو بالنفي المحض القاطع، ومن
ادعى خلاف ذلك فليأت به: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾
[البقرة: ١١١] فالعبرة في صدق المحبة - يا أخي - هي بصدق الاستئان بسنة النبي
الخاتم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، لا باتباع هوى النفس على غر سنته
وطريقته وشريعته.

أَمَّا الْخِيَامُ فَأَيُّهَا كَخِيَامِهِمْ وَأَرَى نِسَاءَ الْحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا

• الشيخ القرضاوي، وكتب: «وقالوا إن الذي ابتدع هذه الموالد وهذه الأشياء الفاطميون في مصر، ومن مصر انتقل إلى بلاد أخرى، وربما كان وراء ذلك أهداف سياسية معينة، أنهم يريدون أن يشغلوا الجماهير والشعوب بهذه الموالد وهذه الاحتفالات، حتى لا يبحث الناس في أمور السياسة ولا في أمور القضايا العامة.. إلى آخره. ولذلك إذا نظرنا إلى الأمر باعتباره عبادة نقول: أنه لم ترد هذه العبادة ولم تصح».

• الشيخ محمد الغزالي فقد أفتى ببدعية المولد النبوي، في كتابه «ليس من الإسلام» (١) وقال: «والتقرب إلى الله بإقامة هذه الموالد عبادة لا أصل لها.. ومن ثم فنحن نميل إلى تعميم الحكم على هذه الموالد جميعاً ووصفها بأنها مبتدعات تُرفض ولا يُعْتَدَرُ لها.. إن إلغاء الموالد ضرورةً دينيةً ودنيويةً.. وهكذا انتظم الاحتفال بليلة المولد النبوي، وليلة الإسراء والمعراج، وليلة النصف من شعبان، وليلة القدر، ورأس السنة الهجرية.

وقد حددت لهذه الاحتفالات تواريخ كيفما اتفق، وجُعل البذل فيها من مظاهر التدين، وأحيائها العوام والخواص بمزيد من الكلام والطعام، وهكذا تكون نصرة الإسلام!» (٢).

هذا وإن أمامنا ثلاث قضايا كلها تتعلق بالنبي الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه:

(١) ص (٢٥٢).

(٢) عن موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ (٧/٤٧).

الأولى: الاحتفال بمولده ﷺ.

الثانية: التوسل به ﷺ.

والثالثة: شد الرحل إلى قبره ﷺ.

هذه الأمور الثلاثة قد صارت عند طائفة من الناس علامة على حب رسول الله ﷺ، فعندهم أن من احتفل بمولده وتوسل به وشد رحله إلى قبره فهو محب، ومن لم يفعل ذلك أو نهى عنه فهو فاقد الحب!

وقد قلنا من قبل إن إمامنا في كل قضية هو الكتاب والسنة وفقه السلف، فهل الشرع دعا إلى شيء من ذلك؟ وهل جعلها علامة على حب الرسول ﷺ؟
الثابت أن الشرع لم يأمر بالاحتفال بالمولد النبوي، لكنه في ذات الوقت لم ينه عن تدارس سيرة النبي واستخراج العبر منها في كل زمان ومكان، بل هو من المقربات إلى الله تعالى، والشرع لم يعلق حب الرسول على فعل تلك الأمور الثلاثة، بل علقه على اتباعه وتعظيمه.

وأما التوسل فإن الشرع لم يأمر بالتوسل بالنبي الكريم بعد مماته، وقد كان الصحابة يتوسلون به في حال حياته، أي يطلبون منه الدعاء، وكان هذا جائزاً حينذاك، لكنه لما مات تركوا ذلك لاستقرار علمهم أن الميت ولو كان نبياً لا يملك أن ينفع أحداً، وأن الميت لا يُدعى ولا يستغاث به ولا يتوسل بذاته مهما كان حاله ومقامه.

لذا فإنهم لما قحطوا في عام الرمادة في عهد عمر استسقوا بالعباس عم النبي

ﷺ وما استسقوا بالنبي ﷺ مع أنه مدفون بينهم، فقد قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَسْقِيكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِن نَسْتَسْقِيكَ بِعَمِّ بَنِينَا فَاسْقِنَا»^(١).

وفي خلافهم في سقيفة بني ساعدة حول الخلافة لم يتوسلوا به في حل ذلك الخلاف، ولا في المحنة التي تعرض لها عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا في الخلاف بين علي ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فلو كان التوسل به أي طلب الدعاء منه بعد مماته جائزاً لم يفرط الصحابة فيه، فعدم فعلهم وهم الأحرص على الخير والأعلم بالدين يدل على المنع منه. وأما التوسل بجاهه ﷺ فذلك أمر لم يفعله الصحابة أبداً لا في حال حياته ولا بعد مماته، وما ورد من أثر يميز التوسل بجاهه فهو ضعيف، وعليه فلا يجوز التدين والتعبد بحديث لم يثبت، وما بني على باطل فهو باطل، فجاهه ﷺ عظيم ولكننا ممنوعون من التوسل به، والمؤمن وقَّاف عند حدود إذن الله تعالى له^(٢).

أما عن شد الرحل إلى قبره عليه الصلاة والسلام، فإنه قد نهى صراحة عن شد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد فقال: «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ:

(١) البخاري، كتاب الاستسقاء باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا. انظر: فتح الباري (٢/٤٩٤).

(٢) وقد أحسن شيخ الإسلام في كشف هذه الشبهة وتفنيدها وما شابهها في كتابه «الرد على البكري»، وكذلك أحسن تلميذه ابن عبد الهادي في كتابه «الصارم المنكي». وياليت من طلبة العلم يتصدى للكتابين باختصار وتيسير عبارات ونشرها في الناس لمسيس الحاجة إليها خاصة فيما يتعلق بخوارم توحيد العبادة.

مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى»^(١) أي لا يجوز شد الرحل لأجل العبادة إلا لهذه المواطن الثلاثة.

أما من قصد غيرها لأجل العبادة فقد خالف الأمر ووقع في النهي، لكن قد يأتي من يخالف فيقول: ليس في الحديث النهي عن شد الرحل إلى القبر، وليس فيه ذكر القبور أصلاً، فمن أين قلت الحديث ينهى شد الرحل إلى القبر؟ فيقال: إنما ذكرت المساجد لأن المقصود هو العبادة، فالقاصد للمسجد إنما يقصده لأجل الصلاة وقراءة القرآن والذكر والاعتكاف، وهذه عبادات، وزيارة القبور لا ريب أنها عبادة لأن الشارع أمر بها، وكل ما أمر به الشارع فهو عبادة. وعلى ذلك فلا يجوز السفر من أجل زيارة القبر، لأن السفر لأجل العبادة لا يجوز إلا لهذه الثلاثة.

وليس في هذا الكلام منع لزيارة القبور، بل الزيارة مشروعة في كل حال، أما الممنوع فهو السفر لأجلها.

فإن لم يسلم المخالف بهذا فحينئذ الحكم الذي يحكم بين المسلمين إذا اختلفوا في فهم نص من نصوص الشرع هم السلف وعلى رأسهم الصحابة، فماذا يقول الصحابة في هذه المسألة؟

ورد أن أبا هريرة خرج إلى الطور فلما بلغ ذلك بصره بن أبي بصرة الغفاري قال له حين أقبل: «لو أدركتك قبل أن تخرج إليه ما خرجت، سمعت رسول الله

(١) البخاري كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، وانظر: فتح الباري (٣/٦٣، ٦٤).

يقول: «...» فذكر الحديث (١).

وجاء رجل إلى ابن عمر فقال له: «إني أريد الطور». فقال: إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد المدينة والمسجد الأقصى. فدع عنك الطور ولا تأت» (٢).

والطور ليس بمسجد، بل بقعة مباركة (٣) كلم الله فيها موسى عليه السلام، فالصحابه ما فهموا من الأثر أن المنع خاص بالمساجد، بل فهموا المنع لأجل العبادة، ولو فهموا أنه مخصوص بالمساجد لما أنكروا على من خرج إلى الطور يريد التبرك.

فهذه فتوى الصحابة في هذه المسألة، ولا أظن مسلماً إلا هو يرضى بما ثبت عنهم ورضوه ديناً، لأنهم هم الكمّل، وهم خيار الأمة وقدوتها وعلماءؤها، وقد زكاهم رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وآله.

وكل حديث ورد في فضل زيارة قبره عليه الصلاة والسلام فهو موضوع أو ضعيف، كما ذكر الأئمة المحققون كابن تيمية، بل الوارد هو النهي عن اتخاذ

(١) النسائي كتاب الجمعة باب ذكر الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة، وصححه الألباني.

(٢) أحمد وعمر بن شبة في أخبار المدينة، انظر: فتح المجيد باب ما جاء في حماية المصطفى جناب التوحيد (٢٨٩).

(٣) وانظر: «هل جبل الطور في الحجاز؟» للمؤلف.

قبره عيداً فقال: «لا تتخذوا قبري عيداً»^(١) أي: لا تعتادونه بالزيارة.

والعيد في اللغة اسم لما يُعتاد مجيئه، سمي عيد الفطر عيداً وكذا الأضحى والجمعة لكونها معتادة تجيء كل عام وكل أسبوع، فالذي يزور قبره في كل موسم أو عيد أو نحو ذلك فقد اتخذ قبره عيداً، وهذا هو عين ما نهى عنه الرسول الكريم.

وقد أنكر الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب اعتياد زيارة القبر، فقد روى سعيد بن منصور في سننه عن سهيل بن أبي سهيل قال: «أتى الحسن بن الحسن بن علي عند القبر فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى فقال: هلم إلى العشاء. فقلت: لا أريده. فقال: مالي رأيتك عند القبر؟ فقلت: سلمت على النبي ﷺ. فقال: إذا دخلت المسجد فسلم. ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم، لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء»^(٢).

ومما يردده أساطين الطُرُقِيَّةِ ممَّا يسمونها بالحقيقة المحمدية، فإذا سمع السامع هذا اللقب تبادر إلى ذهنه النبي محمد ﷺ، ومن المعلوم أن أعظم شخصية في تاريخ المسلمين هو محمد ﷺ، وله خصائص ليست لغيره بإجماع

(١) أبو داود (٢٠٤٢) وصححه النووي في رياض الصالحين.

(٢) انظر: الفتاوى (١٨٩/٢٧) وفتح المجيد: باب حماية المصطفى جناب التوحيد (٢٨٦)

عن موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ (٧/ ٤٨ - ٥١) بتصرف واختصار.

المسلمين، وكثير من المسلمين ممن قلّ فقهه وعلمه لا يمانع من الزيادة والغلو في حقه عليه الصلاة والسلام.

وقد وظّف هؤلاء هذه الشخصية لإبراز الفكرة الوثنية لما يسمى عندهم بالإنسان الكامل من خلالها - حتى الملحد نيتشه قد أكّدها في نظريته الهزيلة «السوبرمان» ولكن هؤلاء تجاوزوا ذلك الهراء للحلول ثم للاتحاد بين الإله والمألوه فيما يسمونه بوحدة الوجود، تعالى الله علوًّا كبيرًا ..

فصارت الحقيقة المحمدية هي حقيقة الإنسان الكامل بغير فرق، ومن هذا الإنسان الكامل تكون المرحلة التالية لصلاحية هذا الإنسان للحلول الإلهي المقدس في ذاته - حلول اللاهوت في الناسوت كعقيدة النصارى في المسيح، ومن بعد ذلك تكون المرحلة الأخيرة وهي كون ذاته هي عين ذات الإله وكون ذوات غيره هي عين ذات الإله كذلك، وهو ما يسمى بوحدة الوجود المطلق - إلا أنهم ومحاولة منهم لترويج تلك الفكرة الفلسفية حرّفوا الآيات واختلقوا الأحاديث للتدليل عليها.

والذي يُثبت هذا التوافق ما يرد في أقوالهم وأشعارهم من أوصاف غالية في حق النبي الكريم لا يمكن أن تفسر إلا من خلال فكرة الإنسان الكامل، ثم الحلول كما نص عليه الحلاج، ثم الاتحاد كما نص عليه ابن عربي، ومن ذلك:

يقول ابن عربي^(١): «بدء الخلق الهباء، وأول موجود فيه الحقيقة المحمدية

(١) ابن عربي: الفتوحات المكية (١/١١٨).

الرحمانية» ويقول الحلاج^(١): «أنوار النبوة من نوره برزت، وأنوارهم من نوره ظهرت، وليس في الأنوار نور أنور وأظهر وأقدم سوى نور صاحب الكرم.. همته سبقت الهمم، ووجوده سبق العدم، واسمه سبق القلم، لأنه كان قبل الأمم.. العلوم كلها قطرة من بحره.. والأزمان ساعة من دهره».

وقال ابن الدباغ^(٢): «اعلم أن أنوار المكونات كلها من عرش وفرش وسماوات وأرضين وجنات وحجب وما فوقها وما تحتها إذا جمعت كلها وجدت بعضاً من نور محمد، وأن مجموع نوره لو وضع على العرش لذاب، ولو وضع على الحجب السبعين التي فوق العرش لتهافتت، ولو جمعت المخلوقات كلها ووضع ذلك النور العظيم عليه لتهافتت وتساقطت» ويقول البوصيري في البردة:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حدوث الحادث العمم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

وبعد أن كانوا يلمحون زمناً لكنهم صرخوا به آخرًا، فهذا ابن عربي الطائي يطلق لقب الإنسان الكامل في كثير من مؤلفاته وله مؤلف بعنوان: «الإنسان

(١) الحلاج: كتاب الطواسين. ص (١١). ولاحظ تعمد هذا الأفاك تسمية كتابه بأسماء سور من القرآن الكريم، فقد روى البخاري في صحيحه (٤٩٩٤) بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: «إِنَّهُمْ مِنَ الْعِتَاقِ الْأَوَّلِ، وَهُمْ مِنْ تِلَادِي».

(٢) عن هذه هي الصوفية نقلا عن محبة الرسول ﷺ (٢٠٣) باختصار وتصرف وزيادة.

الكلي» وكذلك عبد الكريم الجيلي وضع كتابا بعنوان: «الإنسان الكامل» وهناك آخرون غيرهم قدماء ومحدثون.

وإن المدقق في أقوالهم وأحوالهم يعلم أنهم لا يعظمون رسول الله ﷺ، وأن كلامهم لا يدل على حبهم الصادق له، بل يتخذون محبته ذريعة إلى تحقيق فكرة الإنسان الكامل بين المسلمين!

ولذا فإنهم عندما يطلقون لقب الحقيقة المحمدية أو غيره مما يقوم مقامه لا يقصدون به ذات النبي عليه الصلاة والسلام خاصة، بل كل ذات تتحقق فيها الأهلية . حسب شروطهم . لأن تصير في مرتبة الإنسان الكامل، كما فعل السهروردي حينما اضطلع في الغار قائلاً: هل هنا حتى يأتيني تنزيل: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدِيرُ﴾! فليست هذه المرتبة عندهم حكراً على النبي أو غيره من البشر، - فالنبوة عندهم مكتسبة وليست بالاصطفاء والاختيار من الله تعالى، كما أشاع ذلك الضلال ابن سينا في الإشارات وغيرها وابن الطفيل في حي بن يقظان وغيرهما - فالنبوة عندهم يناها كل من هذب نفسه وصفها على طريقة فلسفية خاصة ورياضة صوفية محدّدة حتى تصل إلى مرحلة الاتحاد بذات الله تعالى كما يقولون - تعالى الله عما يقولون - فإذا صارت كذلك نالت مرتبة الإنسان الكامل، وهي فلسفة وثنية غنوصية مستوحاة عن النرفانا الهندية، ومن فروع وثنية النرفانا مايشاع حالياً بجلسات اليوجا الشرقي، والمقصود أنهم يبدؤون بالحلول ويتتهون بالاتحاد، تعالى الله علواً كبيراً.

لذا فإنهم يعتقدون في مشايخهم ما يعتقدونه في الإنسان الكامل، فهم نور،

وهم يعلمون الغيب، ويدبرون شؤون الكون، ومن هنا نفهم لماذا يصرون على تعظيم أولئك المشايخ هذا التعظيم الغالي الذي لا يجوز أن يكون إلا لرب العالمين.

يقول الجيلي: «اعلم حفظك الله أن الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره، وهو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الأبدين، ثم له تنوع في ملابس، ويظهر في كئاس، فيسمى باعتبار لباس، ولا يسمى به باعتبار لباس آخر، فاسمه الأصلي الذي هو له محمد، وكنيته أبو القاسم، ولقبه شمس الدين، ثم له باعتبار ملابس أخرى أسام، وله في كل زمان اسم يليق بلباسه في ذلك الزمان.. فقد اجتمعت به ﷺ هو في صورة شيخي إسماعيل الجبرتي»^(١). فماذ بعد الحق إلا الضلال!

وبالجملة؛ فبرهان المحبة هو بصدق الاتباع للنبي الكريم وليس بالهوى والابتداع للنفس الأمارة والشيطان الرجيم، والموفق من وفقه الله، والمهتدي من هداه الله، والمرضي من رضي عنه الله، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق.



(١) الإنسان الكامل (٧٣/٢) وانظر: النفحات الأقدسية للبيطار وانظر: موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ (٤٨ / ٧) وما بعدها بتصرف.

وصايا وأقوال أئمة أهل السنة في الاتباع والنهي عن الابتداع

العلماء ورثة الأنبياء، فهم حفاظ تركتهم، وحراس ملتهم، وهم النجوم التي لا يضل معها الساري، والرجوم لكل شيطان مريد، فبعلمهم وعملهم وهداياتهم تنكشف شبه الشياطين، وتبطل الأعيب المرجفين، ويهتدي إلى الله تعالى بعلمهم كلُّ سالكٍ عابدٍ شكورٍ، فالعلم نور، والهدى توفيق، والدين اتباع، فمن رام الفلاح فليلزم غرزهم، وليمش ممشاهم، ولينهج جادتهم، وليحفظ وصاياهم؛ فإن علماء السلف منارات على الصراط المستقيم، حفظوا كتاب الله وسنة رسوله فقها وعملا ونصحا وجهادا، فإلى شيء من ناصح نصحهم، وهادي علمهم، وصادق حبهم:

قال مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ، أَلَا وَإِنْ رَفَعَهُ ذَهَابُ أَهْلِهِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْبِدْعَ وَالتَّبَدُّعَ وَالتَّنَطُّعَ، وَعَلَيْكُمْ بِأَمْرِكُمْ الْعَتِيقِ»^(١).

وقال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُلُّ عِبَادَةٍ لَمْ يَتَعَبَّدْ بِهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَلَا تَتَعَبَّدُوا بِهَا؛ فَإِنَّ الْأَوَّلَ لَمْ يَدْعَ لِلْآخِرِ مَقَالًا؛ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ، خُذُوا طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»^(٢).

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ كَانَ مُسْتَنَّا فَلَيسْتَنَّا بِمَنْ قَدْ مَاتَ

(١) البدع والنهي عنها. لابن وضاح (١-٦٠).

(٢) الأمر بالاتباع للسيوطي، ص: (٦٢) وأخرج البخاري نحوه (١٣/ ٢٥٠) (٧٢٨٢).

أولئك أصحابُ محمد ﷺ كانوا خيرَ هذه الأمة، وأبرها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم؛ فهُم كانوا على الهدى المستقيم»^(١). وقال رضي الله تعالى عنه: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتُم؛ عليكم بالأمر العتيق»^(٢).

وقال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «لَا يَزَالُ النَّاسُ عَلَى الطَّرِيقِ؛ مَا اتَّبَعُوا الْأَثَرَ» وقال: «كل بدعة ضلالة؛ وإن رآها الناس حسنة»^(٣).

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لَنْ تَضِلَّ مَا أَخَذْتَ بِالْأَثَرِ»^(٤).

وعن عابس بن ربيعة قال: رأيت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُقْبَلُ الْحَجَرَ - يعني الأسود - ويقول: «إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجْرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُقْبَلُكَ مَا قَبَلْتُكَ»^(٥).

وقال عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «قِفْ حَيْثُ وَقَفَ الْقَوْمُ، فَإِنَّهُمْ عَنْ عِلْمٍ وَقَفُوا، وَبِصِيرٍ نَافِذٌ كَفُّوا، وَهُمْ عَلَى كَشْفِهَا كَانُوا أَقْوَى، وَبِالْفَضْلِ لَوْ كَانَ

(١) شرح السنة للبعوي (١/٢١٤).

(٢) اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١/٦) وابن وضاح في البدع (١٠) وغيرهما.

(٣) رواهما الأصبهاني في الترغيب والترهيب (١/٢٣٦).

(٤) الإبانة الكبرى لابن بطة (١/٣٥٣).

(٥) متفق عليه. البخاري ١٨٣/٢ (١٥٩٧) ومسلم ٦٧/٤ (١٢٧٠) (٢٥١) قال الحافظ

ابن حجر في الفتح ٥٨٤/٣ (١٥٩٧): «في الحديث التسليم للشارع في أمور الدين،

وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها».

فيها أخرى، فلئن قُلتُم: حَدَّثَ بَعْدَهُمْ؛ فَمَا أَحَدَثُهُ إِلَّا مَنْ خَالَفَ هَدْيَهُمْ، وَرَغِبَ عَنْ سُنَّتِهِمْ، وَلَقَدْ وَصَفُوا مِنْهُ مَا يَشْفِي، وَتَكَلَّمُوا مِنْهُ بِمَا يَكْفِي، فَمَا فَوْقَهُمْ مُحَسَّرٌ وَمَا دُونَهُمْ مُقَصَّرٌ، لَقَدْ قَصَرَ عَنْهُمْ قَوْمٌ فَجَفَوْا، وَتَجَاوَزَهُمْ آخَرُونَ فَغَلَوْا، وَإِنَّهُمْ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ»^(١).

وقال الإمام الأوزاعي رحمه الله تعالى: «عَلَيْكَ بِأَثَارِ مَنْ سَلَفَ وَإِنْ رَفَضَكَ النَّاسَ، وَإِيَّاكَ وَآرَاءَ الرِّجَالِ وَإِنْ زَخِرْفُوهَا لَكَ بِالْقَوْلِ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ يَنْجَلِي وَأَنْتَ عَلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ»^(٢).

وقال أيوب السَّخْتِيَانِي رحمه الله تعالى: «مَا أَزْدَادَ صَاحِبُ بَدْعَةٍ اجْتِهَادًا إِلَّا أَزْدَادَ مِنَ اللَّهِ بَعْدًا»^(٣).

وقال حسان بن عطية رحمه الله تعالى: «مَا ابْتَدَعَ قَوْمٌ بَدْعَةً فِي دِينِهِمْ إِلَّا نَزَعَ مِنْ سُنَّتِهِمْ مِثْلَهَا»^(٤).

وقال محمد بن سيرين رحمه الله تعالى: «كَانُوا يَقُولُونَ: مَا دَامَ عَلَى الْأَثَرِ؛ فَهُوَ عَلَى الطَّرِيقِ»^(٥).

وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى: «الْبَدْعَةُ أَحَبُّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ،

(١) أبو داود (٤٦١٢)، والآجري في الشريعة (٢/٩٣٠).

(٢) المدخل إلى السنن للبيهقي (٢٣٣).

(٣) البدع والنهي عنها، لابن وضاح (١/٦٢).

(٤) مسند الدارمي (١/٢٣١) بسند صحيح.

(٥) ذم الكلام وأهله، للهروي (٢/١٨٣).

المعصية يُتَابُ منها، والبِدْعَةُ لا يُتَابُ منها»^(١).

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: «لِيَكُنَّ الَّذِي تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ الْأَثْرَ، وَخُذْ مِنَ الرَّأْيِ مَا يُفَسِّرُ لَكَ الْحَدِيثَ»^(٢).

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «كُلُّ مَسْأَلَةٍ تَكَلَّمْتُ فِيهَا بِخِلَافِ السَّنَةِ؛ فَأَنَا رَاجِعٌ عَنْهَا؛ فِي حَيَاتِي وَبَعْدَ مَمَاتِي»^(٣).

وعن الربيع بن سليمان قال: روى الشافعي يوما حديثا فقال له رجل: «أَتَأْخُذُ بِهَذَا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟» فَقَالَ: «مَتَى مَا رَوَيْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حَدِيثًا صَحِيحًا؛ فَلَمْ آخُذْ بِهِ؛ فَأَشْهَدُكُمْ أَنْ عَقْلِي قَدْ ذَهَبَ»^(٤).

وعن نوح الجامع قال: قلت لأبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام؟ فقال: «مَقَالَاتُ الْفَلَّاسِفَةِ، عَلَيْكَ بِالْأَثْرِ وَطَرِيقَةِ السَّلَفِ، وَإِيَّاكَ وَكُلَّ مُحَدِّثَةٍ؛ فَإِنَّهَا بَدْعَةٌ»^(٥).

وقال الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى: «السَّنَةُ سَفِينَةٌ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ»^(٦).

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي (١/١٤٩).

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٢/١٠٧٠).

(٣) مختصر المؤمل في الرد إلى الأمر الأول، لأبي شامة المقدسي (١/٥٧).

(٤) معرفة السنن والآثار، للبيهقي (١/٢١٦).

(٥) ذم الكلام وأهله (٥/٢٠٧).

(٦) ذم الكلام وأهله (٥/٨١).

وعن ابن الماجشون قال: سمعت مالكا يقول: «مَنْ ابْتَدَعَ فِي الْإِسْلَامِ بَدْعَةً يَرَاهَا حَسَنَةً؛ فَقَدْ زَعَمَ أَنْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ خَانَ الرَّسَالَهَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا» (١).

وقال الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والافتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة» (٢).

وما أجمل قول العالم العامل الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى حيث قال: «اتبع طرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة، ولا تغتر بكثرة الهالكين» (٣).

وقال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لمن سأله عن مسألة، وقال له: إن أباك نهى عنها: «أأمر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أحق أن يتبع، أو أمر أبي؟!» (٤) وسمع رجلاً عطس فقال: الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، فقال له ابن عمر: «ما هكذا علمنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله

(١) الاعتصام، للإمام الشاطبي (١ / ٥٤).

(٢) اللالكائي في: شرح أصول أهل السنة (١١ / ٥).

(٣) الاعتصام، للإمام الشاطبي (١ / ٨٣)، الأمر بالإتباع ص: (١٥٢).

(٤) أحمد (٦٣٩٢) والترمذي (٨٢٤) وصححه الألباني. والمسألة هي متعة الحج. وانظر: تحفة

الأحوزي (٢ / ٣٧٠).

وسلم، بل قال: «إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ؛ فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ» ولم يقل: وليُصلِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ»^(١).

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لمن عارض السنة؛ بقول أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ؛ أَقُولُ لَكُمْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»^(٢) وقال: «النَّظْرُ إِلَى الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ؛ يَدْعُو إِلَى السُّنَّةِ، وَيَنْهَى عَنِ الْبِدْعَةِ»^(٣).

وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى: «إِذَا بَلَغَكَ عَنْ رَجُلٍ بِالْمَشْرِقِ؛ أَنَّهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ فَابْعَثْ إِلَيْهِ بِالسَّلَامِ؛ فَقَدْ قَلَّ أَهْلُ السُّنَّةِ»^(٤).

وقال أيوب السخيتاني رحمه الله تعالى: «إِنِّي لِأَخْبِرُ بِمَوْتِ الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ؛ فَكَأَنِّي أَفْقَدُ بَعْضَ أَعْضَائِي»^(٥).

(١) الترمذي في: سننه (٢٧٣٨) بسند حسن بشواهده.

(٢) ذكره بهذا اللفظ شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢٠ / ٢١٥) وغيره، وجاء بلفظ: «أراهم سيهلكون، أقول قال النبي ﷺ، ويقولون نهى أبو بكر وعمر». أو نحوه، أخرجه الإمام أحمد (٣١٨٢) وعبد الرزاق في «المناسك الكبير» (٤٧٦) وإسحاق بن راهويه في «المسند» كما في «المطالب العلية» (١٣٠٦) وابن عبد البر في «الجامع» (٢٣٧٨) والخطيب في «الفيح والمنتقى» (١ / ٣٧٦) والضياء في «المختارة» (١٠ / ٣٣١) من طرق. وصحح ابن حجر في «المطالب» إسناده «مسند إسحاق».

(٣) اللالكائي في: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٧/٤).

(٤) اللالكائي في: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٧/٤).

(٥) اللالكائي في: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٨/٤).

وقال قتيبة رَحِمَهُ اللهُ: «إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَهْلَ الْحَدِيثِ؛ مِثْلَ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ، وَأَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ، وَإِسْحَاقَ بْنَ رَاهُوِيَةَ.. وَذَكَرَ قَوْمًا آخَرِينَ؛ فَإِنَّهُ عَلَى السَّنَةِ، وَمَنْ خَالَفَ هَؤُلَاءِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ مُبْتَدِعٌ»^(١).

وقال إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى: «لَوْ أَنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ مَسَّحُوا عَلَيَّ ظَفْرًا لَمَا غَسَلْتَهُ؛ التماس الفضل في أتباعهم»^(٢).

وعن عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «اعْلَمْ - أَيُّ أَخِي - أَنَّ الْمَوْتَ الْيَوْمَ كِرَامَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهَ عَلَى السَّنَةِ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ؛ فَإِلَى اللَّهِ نَشْكُو وَحَشْتَنَا، وَذَهَابَ الْإِخْوَانَ، وَقَلَّةَ الْأَعْوَانِ، وَظُهُورَ الْبِدْعِ، وَإِلَى اللَّهِ نَشْكُو عَظِيمَ مَا حَلَّ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ ذَهَابِ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ السَّنَةِ، وَظُهُورِ الْبِدْعِ»^(٣).

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: «إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا يُحْيِي بِهِمُ الْبِلَادَ؛ وَهُمْ أَصْحَابُ السَّنَةِ»^(٤).

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «إِذَا رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ فَكَأَنِّي رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ»^(٥).

(١) اللالكائي في: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٨/٤).

(٢) اللالكائي في: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٨/٤).

(٣) البدع والنهي عنها (٨٤/١).

(٤) اللالكائي في: شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٩/٤).

(٥) صيانة الإنسان (٣٠٨) وذم الكلام (١٠٩) والسير (١٠ / ٥٩ - ٦٠) وتلبس إبليس

(١٨) والحلية (١٠٩/٩).

ووضع الإمام مالك رَحْمَةُ اللَّهِ قاعداً عظيمة؛ تُلخّص جميع ما ذكرناه من أقوال الأئمة، وهي قوله: «لَنْ يَصْلِحَ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا بِمَا صَلَحَ بِهِ أَوَّلُهَا؛ فَمَا لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ دِينًا لَا يَكُونُ الْيَوْمَ دِينًا» (١).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «انظروا عمن تأخذون هذا العلم؛ فإنما هو الدين» (٢).

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا أَخَذُوا الْعِلْمَ عَنْ أَكْبَرِهِمْ؛ فَإِذَا أَخَذُوهُ مِنْ أَصَاغِرِهِمْ وَشَرَارِهِمْ هَلَكُوا» (٣). (٤)

وكان نجم السنن وإمام دار الهجرة الإمام مالكا كثيراً ما ينشد (٥):

وَحَيْرٌ أُمُورِ الدِّينِ مَا كَانَ سُنَّةً وَشَرُّ الْأُمُورِ الْمُحَدَّثَاتُ الْبِدَائِعُ
وَرُوي:

وَخَيْرُ الْأُمُورِ السَّالِفَاتُ عَلَى الْهُدَى وَشَرُّ الْأُمُورِ الْمُحَدَّثَاتُ الْبِدَائِعُ

وقال ابن القيم: «والسلف يذكرون كثيراً الاقتصاد في الأعمال والاعتصام

(١) انظر: الشفاء، للقاضي عياض (٢ / ٨٨) وانظر: الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة (١ / ١٦٨) وما بعدها.

(٢) الخطيب في: الكفاية في علم الرواية (١٩٦).

(٣) ابن عبد البر في: جامع بيان العلم (٢٤٨).

(٤) ملخصاً بتصرف وزيادات عن: الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة.

عبد الله بن عبد الحميد الأثري (١ / ١٦٥ - ١٨٠).

(٥) الاعتصام للشاطبي (١ / ١١٥).

بالسنة، فإن الشيطان يشمُّ قلب العبد ويختبره، فإن رأى فيه داعية للبدعة وإعراضاً عن كمال الانقياد للسنة أخرجته عن الاعتصام بها، وإن رأى فيه حرصاً على السنة وشدة طلب لها لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها فأمره بالاجتهاد والجور على النفس ومجاوزة حد الاقتصاد فيها.. وهذا حال الخوارج الذين يحقر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلاتهم وصيامهم مع صيامهم وقراءتهم مع قراءتهم، وكلا الأمرين خروج عن السنة إلى البدعة، لكن هذا إلى بدعة التفريط والإضاعة والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف.

وقال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة وهي الإفراط، ولا يبالي بأيهما ظفر زيادة أو نقصان.

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يا عبد الله بن عمرو؛ إن لكل عامل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنة أفلح، ومن كانت فترته إلى بدعة فقد خاب وخسر»^(١). قال له ذلك حين أمره بالاعتصام في العمل»^(٢).

(١) حديث صحيح رواه أحمد (٦٦٦٤) وغيره. وفي جامع الأصول عن (٣١٨/١) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كانت مولاة لرسول الله ﷺ خُبر عنها: أنها تقوم الليل، وتَصومُ النَّهار، فقال رسول الله ﷺ: «لِكُلِّ عَامِلٍ شِرَّةٌ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فِتْرَةٌ، فَمَنْ صَارَتْ فِتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَ فَقَدْ ضَلَّ». عزاه الهيثمي للبخاري وقال: رجاله رجال الصحيح. المجمع (٢/٢٥٨، ٢٥٩).

(٢) مدارج السالكين (٢/١٠٧).

والشِّرة: هي الحرص على الشيء والنشاط له، وهي ما يسميه العامة: الحماس، فهو نشاط وانتشاء بالتدين، واستلذاذ بالعمل، لكنه لا يدوم، بل قد لا يطول، ذلك أن النفس بطبيعتها ملولٌ حرُّون، فمن خطمها وزمَّها حال فتورها وكسلها وملاها بالسنة فلم يولجها الحرام ولم يخل بينها وبين ترك الواجب؛ فهو الموفق المهتدي، من زاغ هلك. ومعنى الحديث أن العابد يجتهد في تنسكه وتحنّفه وقد يباليغ فيه، ثم تنكسر همته على المدى، فمنهم من يرجع حين الفتور إلى الاعتدال في الأمر فينجو ويسعد ويفلح، ومنهم من ينحرف بعصيان بترك فريضة أو ركوب جريمة أو بترك العبادة بالكلية فيخزي ويهلك.

وبالجملة؛ فكل الخير في اجتهاد باقتصاد، وإخلاص مقرون بالاتباع، وتقوى على هدى، وسيرٍ على نور، كما قال أبيُّ بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «اقتصاد في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم على منهاج الأنبياء عليهم السلام وستنهم»^(١).

فالاعتصام بهدي السلف عاصم بإذن الله تعالى من الضلال، وليس راءٍ كمن سمع، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



(١) ابن المبارك في «الزهد» (٨٧)، ومن طريقه اللالكائي: (١ / ٥٩)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٢٦١).

استقراء مستقبل الأمة في ظل الواقع والمبشرات

الاعتصام بحبل الله تعالى بركة وخير وأمان ونجاة وسلامة من كل شرٍّ وسوءٍ، وعافيةٌ من كل عاديةٍ، سواءً في العبادة أو الأخلاق أو الاقتصاد أو السياسة أو أي عمل ومسلك للفرد وللجماعة، فوعد الله تعالى صدق وحق لا يتخلف، ووعيده لمن استهان به أو أمن مكره لا يؤمن، فهو الحميد الشكور، وهو العليم الحكيم، وهو العزيز القهار، ولا أفلح من آمن مكره!

هذا؛ وإن أمتنا موعودة - بحمد الله تعالى - بالسناء والرفعة والتمكين إن اعتصمت بحبل ربها تبارك وتعالى.

وإن أهل السنة المحضة كانوا ولا زالوا ولن يزالوا في جهاد مستمر مع المبتدعة والفساق من داخل الملة، ومع الكفرة والملاحدة من خارجها، سنة الدِّفع لمن اصطفاهم العليُّ سبحانه. فمن كان على الجادة المستقيمة للرسول ﷺ، فله حظه من الجهاد بقدر قُربه وبُعدِهِ، سَدَادًا أو مقاربة، استقامةً أو انحرافًا، والله لا يصلح عمل المفسدين، ولا يضيع أجر المصلحين.

واعلم وتيقن -رحمني الله وإياك- أن النصر للإسلام مهما انتهت إليه ظنون الناس، وحقيقة النصر هي تدين الناس بالإسلام واعتناقهم إياه ودخولهم في حوزته وثباتهم عليه، أما ملكُهُ للأفاق فليست كنصره في النفوس، وإن كنا - بحمد الله - قد وُعدنا بهذا وهذا.

وإن من المهمات في هذا العصر نشر ثقافة التفاؤل بنصر الإسلام،

والاستبشار بمستقبله، وحسن الظن بالله تعالى فيه، وعظيم حكمته في أقداره، وحسن عاقبته للمؤمنين. فهو الذي وعد نبيّه بعلوِّ دينه ونصر جنده وعزّ شريعته مهما تكالبت عليها سباع الكفرة، وضباع المنافقين، وكيدُ الفُسّاقِ، ومكرُّ أئمة الضلال والإحداث.

والتفاؤل بجمال المستقبل ليس ضعفاً إذا كان ناشئاً عن حسن الظن بالله تعالى وليس عن خوَرٍ وعجزٍ وكسل، فاستفرغ جهدك في نصر دين الله، وأحسن الظن بجميل تدبيره. واعلم أنّ الفرقانُ بين التفاؤل والأمانى هو الجدية والعمل، فالأمل محتاج لعمل. وأعظم الجدّية هي الجدّية في الاستقامة على الإسلام، فدعوة بلا استقامة؛ لا عمود لها ولا ثبات ولا صدقيّة، وإن أردت امتحان جدية رجل في الاستقامة؛ فارقب حرصه على اتباع السنة وتبكيه لشهود الفريضة، ألا ما أقلّهم، وأكْرِم بقليلهم.

وقد يُظن جهلاً بالمتفائل سداجة لقوّة تفاؤله، وحقيقته حسن الظن بربه ومعرفته بسنن الله في خلقه. فلا تحذل نفسك بالقلق، بل أسعفها بالتفاؤل وحسن الظن بمن لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع ويرفع الشر إلا هو، وهو اللطيف الخير. ومهما كبست على صدرك جيوش الهموم وتراكت على روحك أرتال الغموم؛ فثمّ نورٌ في آخر النفق، إنّه حسن الرجاء بالله تعالى. ومهما بلغ حجم جليد الكذب يوماً؛ فشمس الزمان كفيّلة بإذابته، حينها سيحصحص الحق. وما أضيّق العيش لولا فسحة الأمل. ومع ظلام التحليلات وسوداوية التوقعات، وتتابع الفواجع الدامية في جسد الأمة؛ تبقى هناك أطفٌ مدهشة غير متوقعة، ليس لها

تفسير سوى لطف الله المحض، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٢].

وعلى الداعي إلى سبيل ربه أن يثق كل الثقة ويوقن كل اليقين بأن الله ولي الصالحين، وأنه إن رضي عنه؛ فلا عليه ما فاته من غيره، فالخيرُ بحذافيره في مرضيه، والنعماءُ بكمالها بين يديه، وقد وعد. ووعد الحق. أن العاقبة للمتقين. والحقُّ منصورٌ ومُتَّحَنٌ فلا تعجب فهذي سنة الرحمن

وتدبر قول الله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وقد ذكر الله هذا الحرف في آل عمران وكرره في الأنفال مختتماً إياه في الموضوعين بذكر اسميه الجليلين ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] فهو العزيز القوي الغالب، وهو الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها اللائقة وله الحكم والحكمة، ولا نصر على الإطلاق إلا من الله وحده، فكلما احتجت لنصر. وأنت على الدوام كذلك. فردد بقلبك: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فلن تنتصر على نفسك أو على غيرك من الإنس والجن وغيرهم إلا بحبل الله الناصر، فنصره حقيقي تام، ونصر غيره هباء فان، فتعلق به وحده واعبده حق العبادة.

لقد وعدنا الله بالنصر إن نصرنا دينه، وبالغز أن اعتصمنا به دون سواه، وبالتمكين إن مكنا عبادته في القلوب والأعمال، قال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٢٢] وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] وقال جل وعز: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا

عِبَادِي الصَّالِحُونَ ﴿ [الأنبياء: ١٠٥] ولا يكفي الصبر لإدراك النصر، بل لا بد أن يُقرن بالتقوى ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٣٠]. وأبشر ببشرى الله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَمَجَعَلَهُمْ آيَةً وَيَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُفِخَ فِي الْأَرْضِ ﴿ [القصص: ٥ - ٦] فالعاقبة للتقوى.

نحن الذين إذا وُلدنا بكرةً كُنَّا على ظهر الخيول أصيلاً
فليهدموا كلَّ المآذن فوقنا نحنُ المآذنُ فاسمعِ التهليلاً
ولسانُ حالِ الباطل: أشغلهم بالتوافه، واحشُ جماجمهم بالسفساف،
وصبَّ عليهم سيلَ الشهوات، ومطرَ الشبهات، وتافه الصراعات، واملاً وقتهم
بحصد اللاشيء، ثم دَعَهُمْ في ضحضاح الخيبة؛ كي لا يدافعوا بالحق باطلك!
وما باتَ يسقينا سوى الماء وحدهُ وهذا جزاً من باتِ ضيف الضفادع
وبحمد الله فمهما صلصل الباطل وجلجل؛ فهو تبابٌ، ويبقى الحق شامخاً
راسخاً، وتدبر: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْرَبُوهُمْ وَجَاءَهُمْ بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾
[الأعراف: ١١٦] ثم كانت النهاية بأيسر طريق: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا
هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧] إنها سُنَّة المدافعة والصراع، ونهايته: ﴿بَلْ
نَقَذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ
الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

جيشٌ من الكفر مهزومٌ إذا صدقت نياتٌ قومي إلى أعلى أعاليها

وافرح. أخوا الإيوان. ببشارة نبي الإسلام بنصر الله للإسلام، قال النبي ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»^(١). وقال أيضاً: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدبر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام وأهله، وذلاً يذل به الكفر»^(٢).

وتأمل حال الأمة اليوم، واعلم أن أحاديث آخر الزمان في الفتن جُلِّها في العراق، والملاحم جُلِّها في الشام، حتى طريق الدجال للحجاز يكون من بينهما، نعوذ بالله من مضلات الفتن، ونسأله جبر القلوب بعزة الإسلام في قلوب أهله وميادين الجهاد في سبيله، قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «لكل طريق مختصراً، ومختصراً طريق الجنة الجهاد».

خَلَقَ اللهُ لِلْحُرُوبِ رِجَالاً وَرِجَالاً لِقِصَعَةٍ وَتَرِيدِ

ولا تكن - لك الله - من المرجفين ولا البكائين المتشائمين، وفي الصحيح: «إذا قال الرجل: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ»^(٣). والإسلام يعلو ولا يُعلى، واعلم أن نصر المؤمن وفوزه لا يلزم منه كسب الحرب العسكرية، بل يكفي منه ثباته على الإسلام، وهذا معنى حَسَنٌ تَكَرَّرَ فِيهِ فِي الْمَجَامِعِ وَالخَلُواتِ، فَمَنْ ثَبَّتَ

(١) مسلم (٢٨٨٩).

(٢) أحمد (١٦٩٥٧) وصححه الألباني على شرط مسلم في تحذير الساجد (١١٨-١١٩).

(٣) مسلم ٣٦/٨ (٢٦٢٣) (١٣٩).

على دينه فهو المنتصر حقاً حتى ولو كان تحت الأقبية في الزنازين أو تُوج بالشهادة في سبيل رب العالمين، وتزول عن أماكنها الجبال، ولا تزول عن مبادئها الرجال، فالعبرة الحق إنما هي بالدين الحق، أما الدنيا فمجرد ممر للسائرين. ورضوان الله عز وجل أصل جميع السعادات، وكلها راجعة إليه، قال سبحانه لما ذكر نعيم الجنة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

فلتكن رعاك الله. من أصحاب المبادئ لا من أصحاب المصالح، واعلم أن المصالح تتدثر أحياناً بثياب المبادئ، فتجمع ضعفاً على إباله، وحشفاً وسوء كيلة، وشحاً ونفاقاً. فإن يوماً ضعفت نفسك وحرّ عقلك وتقلقل علمك وتحرك يقينك وتزعزع جأشك؛ فتدبر خاتمة الصافات، وفيها يقول ربنا الأعلى: ﴿أَفِعْدَا إِنَّا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٧٦) ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ (٧٧) ﴿وَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٧٨) ﴿وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ (٧٩) ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٨٠) ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (٨١) ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٧٦-١٨٢].

أبشر خليلي فقد أجلت لنا الكتبُ	نصر من الله في الكفار يلتهبُ
أنجد أخِي ولا تلو على ضعة	واشف صدوراً شواها القهر والكربُ
أشرق بوجهك قد حانت بوادره	وعد من الله للأحرار يقتربُ
تنزيل مرحمة تنزيل ملحمة	تجنيد ألوية صمصامها النجبُ
نبراسها العلم والتقوى توججها	فرقائها سائق إن صاحت النوبُ

وبالجملة؛ فالطريق واضح، والمنهاج مسلك، والنور في أيدينا إن كنا

نعقل (١).

هذا؛ وإن لشمس الحضارات دورات فلكية تغرب في بلاد لتشرق في بلاد، وإن حضارة الإسلام قد أوشكت على الشروق في العالم كله بأبهى حللها وأروع صورها، ولا شك أن الإسلام هو المرشح لقيادة البشرية في المرحلة المقبلة لإنقاذها من التردي والسقوط، وتخليصها من مآهات الحضارة المادية المعاصرة التي تسير بهوج وغرور وطيش لتدمير الإنسان تدميراً كاملاً، والقضاء على ما تبقى من قيمه ومقدراته، لولا أن الله حرس جنس البشر بالإسلام.

فالإسلام يتقدم اليوم إلى العالم بأسره حاملاً معه الشريعة الربانية التي ستنقذ البشرية مما هي فيه من الضلال والانحراف، وتقودها إلى السعادة والسلام والطمأنينة، وتنقلها من واقع مأساوي متردي إلى واقع جديد طالما انتظرت الأجيال الماضية وحلمت به الأجيال الحاضرة.

والمؤمن الصادق في إيمانه لا بد أن يؤمن إيماناً جازماً بأن المستقبل لهذا الدين، وأن أمة الإسلام هي القادمة - وإن تأخرت زمناً - لقيادة العالم وريادة البشرية، وهذا التفاؤل إنما هو ثقة بوعد الله وإيمان بمبشرات قرآنية ونبوية معززة بمجموعة من المبشرات الواقعية.

أولاً: المبشرات القرآنية:

وعد الله سبحانه وتعالى المؤمنين الصادقين بالاستخلاف والنصر والغلبة

(١) انظر: «ولا تفرقوا». للمؤلف (٣٩٩-٤٠٤).

والتمكين في الأرض، وقد أنجز الله سبحانه وتعالى هذا الوعد لرسوله وللمؤمنين وهو وعد ماض إلى يوم القيامة وسنة من سنن الله لا تتبدل ولا تتحول، وما على المسلمين الصادقين إلا أن ينهضوا لحمل راية الدين والمضي بها اقتداء بالنبي ﷺ واقتفاءً بخطواته المباركة، فمن المبشرات القرآنية التي تبشر بالاستخلاف والتمكين.

١ - قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

فمن الحقائق الكبرى التي يجب أن تكون مستقرة في قلب كل مؤمن هي وعد الله لعباده بالاستخلاف في الأرض، ووعد له لدينه بالظهور والغلبة في الأرض، ومن ثم التمكين في الأرض كما يقول الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ فِي تفسيره لهذه الآية الكريمة: «هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي أئمة الناس والولادة عليهم، وبهم تصلح البلاد وتخضع لهم العباد وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمنًا وحكمًا».

وقد أنجز الله وعده لعباده المؤمنين، فلم يمت النبي ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكاملها، وأخذ الجزية من أهل الكتاب، ومن مجوس هجر.

ثمّ لما مات رسول الله ﷺ قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فجيّش الجيوش، ودكّ الحصون، وفتح الله على يديه جزءاً من بلاد فارس وبصرى ودمشق من بلاد الشام.

وألم الله الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يستخلف عمر الفاروق من بعده، فقام بالأمر بعده قياماً تاماً، وتم في عهده فتح البلاد الشامية بكاملها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى وأهانته غاية الهوان، وهزم قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام.

ثم لما كان عهد عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ امتدت الممالك الإسلامية إلى مشارق الأرض ومغارها ففتحت بلاد المغرب والأندلس وقبرص وبلاد القيروان ووصلت الفتوحات شرقاً إلى أقصى بلاد الصين، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز وجبي الخراج من المشارق والمغرب إلى خليفة المسلمين عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ثم من بعده»^(١).

وبقيت الأمة الإسلامية في طليعة الأمم والشعوب تحتل مكان القيادة والريادة ما بقيت متمسكة بكتاب ربها وسنة نبيها محمد ﷺ، وبقي المسلمون أعزاء ما بقوا يعتزون بدينهم، ويلتفون حول إسلامهم.

فلما هان على المسلمين دينهم وبحثوا عن العزة في غيره أذلم الله ووصلوا إلى هذه الحالة من الذلة والمهانة والضعف والهوان، ومع ذلك فإن سنن الله

(١) تفسير القرآن العظيم، (٣/٣٠٠)

ماضية إلى يوم القيامة لا تتحول ولا تتبدل، وما زال وعد الله باقياً لهذه الأمة بالنصر والتمكين، إن عادت الأمة إلى رشدتها، وتمسكت بكتاب ربها، وسنة نبيها، عندئذٍ ستكون لهم الغلبة، وسيتحقق لهم النصر والتمكين والخلافة في الأرض.

إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة، فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله بخواطر نفسه، وخلجات قلبه، وأشواق روحه، وحركات جسمه، ولفترات جوارحه، وسلوكه مع ربه، ومع الناس جميعاً، يتوجه بهذا كله إلى الله ليكون هذا الإيمان منهج حياة كامل يتضمن كل ما أمر الله به ونهى عنه، ويدخل في ذلك كله إعداد العدة والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض وهي أمانة الاستخلاف ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] أي يخلف من سبقه، فيعمر الأرض بسلام الإيمان وأمن الإسلام.

وهذه الأمانة ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم، إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه.

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري لا على الانحدار بالفرد والجماعة.

فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض وينشرون فيها البغي والجور، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض، إنما هم

مبتلون بما هم فيه، أو مبتلى بهم غيرهم، وتمكن الدين بعد الاستخلاف يتم بتمكينه في القلوب، كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتديرها، فقد وعدهم الله إذن أن يستخلفهم في الأرض وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض، ويأمر بالإصلاح والعدل ويأمر بعمارة الأرض والاستعلاء على شهواتها، والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة، ومن رصيد، ومن طاقة، مع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله.

فإذا استقام المسلمون على النهج فلا عليهم من قوة الكافرين فما هم بمعجزين في الأرض وقوتهم المادية الظاهرة لن تخضع المؤمنين الذين يتسلحون بسلاح الإيمان، فالقلوب المؤمنة التي تجاهد الأعداء تصنع الخوارق والأعاجيب بعون من الله ومدد منه، إنه ما من مرة سارت هذه الأمة على نهج الله إلا تحقق لها وعد الله بالاستخلاف والتمكين والأمن، وما من مرة خالفت هذا النهج الإلهي إلا ذلت وتخلفت في ذيل القافلة، وطردت من الهيمنة على البشرية، واستبدَّ بها الخوف، وتخطفها الأعداء. ألا وإن وعد الله قائم، ألا وإن شرط الله معروف، فمن شاء الوعد فليقم بالشرط^(١).

٢- ومن المبشرات القرآنية التي تبين أن الغلبة لهذا الدين وأن جند الله هم المنصرون والغالبون قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَمُنَّا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ [الصفات: ١٧١-١٧٣].

(١) انظر: الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات (١/٢٦-٢٩).

فهذه الآية الكريمة تسلية ووعد من الله لرسوله ﷺ وأتباعه المؤمنين من بعده بأن الله سينصرهم على من عاداهم، وهي بشارة أيضاً بالغلبة للنبي ﷺ بعد تسليته وللمؤمنين، فإن المؤمنين هم جند الله وهم أنصاره الذين نصرُوا دينه، وقوله: ﴿لَهُمُ الْغَلْبُونَ﴾ يشمل علوهم على عدوهم في مقام الحجاج وملاحم القتال في الدنيا، وعلوهم عليهم في الآخرة.

فوعد الله لا محالة واقع، وكلمة الله لا شك قائمة، فهذا الوعد الإلهي للمؤمنين بالنصر والغلبة سنة من سنن الله الكونية، سنة ماضية كما تضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء، ولكنها مرهونة بتقدير الله، يحققها حين يشاء، وقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة، ولكنها لا تختلف أبداً ولا تتخلف، وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر لأنهم يطلبون المؤلف من صور النصر والغلبة.

وقد يريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى فيكون ما يريد الله، ولقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم غير قريش، وأراد الله أن تفوتهم القافلة الرابحة الهينة، وأن يقابلوا الطائفة ذات الشوكة، وكان ما أراد الله هو الخير لهم وللإسلام، وكان هو النصر الذي أراده الله لرسوله ﷺ وجنده ودعوته.

وقد يهزم جنود الله في معركة من المعارك وتدور عليهم الدائرة، ويقسوا عليهم الابتلاء، لأن الله يُعِدُّهُمْ للنصر في معركة أكبر، ولأن الله يبيئ الظروف من حولهم ليؤتي النصر يومئذ ثماره في مجال أوسع، وفي خط أطول، وفي أثر

أدوم، لقد سبقت كلمة الله، ومضت إرادته بوعده وثبتت سنته لا تتخلف ولا تجيد (١).

٣- ومن المبشرات القرآنية التي تعد المسلمين بالنصر والتمكين قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (٣٨) ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَادَمَتِ الصَّوَامِعَ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤٠) ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحج: ٣٨-٤١].

«فالله سبحانه وتعالى قد وعد المؤمنين بالدفاع عنهم، ولقد كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بألستهم وأيديهم، فيشكون ذلك إلى رسول الله فيقول لهم: «اصبروا فإنني لم أؤمر بالقتال» (٢).

فأباح لهم القتال في المدينة وكانت هذه الإباحة من جملة دفع الله لأعدائهم ودفاعه عنهم، ولولا هذا الدفاع الإلهي لهدمت في زمن موسى وفي زمن عيسى الصوامع والبيع وفي زمن محمد ﷺ المساجد، وذلك على أيدي الكفار

(١) السابق (٢٩/١).

(٢) أحمد ١/٢٦٢ (١٨٠٦٥)، الترمذي (٣١٧١) (٥/٣٠٤)، زاد المسير (٥/٤٣٦)،

تفسير ابن كثير (٥/٤٣٠)، تفسير البغوي (٥/٣٨٨).

والمشركين الذين يصدون عن سبيل الله ويقفون في وجه دعوة الله ويقسم الله سبحانه في قوله: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ أي والله لينصر الله من ينصر دينه وأوليائه وهو وعد من الله مؤكداً بالقسم بالنصر لمن إن مكن في الأرض أقام الصلوات الخمس وآتى الزكاة المفروضة، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، والله لا يخلف وعده»^(١).

ومن اللطائف: «لقد ضمن الله للمؤمنين أنه سيدافع عنهم، ومن يدافع الله عنه فهو ممنوع حقاً من عدوه ظاهراً حتماً عليه، ولكن الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماها من الكسالى الذين يجلسون في استرخاء ثم يتنزل عليهم نصره سهلاً هيناً بلا عناء، بل جعل نصره لهم ودفاعه عنهم عن طريقهم هم أنفسهم.

فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهي تواجه الخطر، وهي تدفع وتدافع، وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة، والنصر السريع الذي لا يكلف عناء، والذي يتنزل هيناً ليناً على القاعدين المستريحين يعطل تلك الطاقات عن الظهور.

وأيضاً فالنصر السريع يسهل فقدانه وضياعه؛ لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات، ولأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه، وبالتالي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه، من أجل هذا كله جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم أنفسهم، ولم يجعله لقيّة

(١) فتح القدير، للشوكاني (٣/٤٥٦، ٤٥٧).

تهبط عليهم من السماء بلا عناء.

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه، فالله ينصر من ينصره، ينصر الذين ينصرون نهجه معترزين بالله وحده دون سواه، والنصر الذي يعد الله به هو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته المشروط بتكاليفه وأعبائه، فهو نصر له سببه، وله ثمنه، وله تكاليفه، وله شروطه فلا يعطى لأحد جزافاً أو محاباة^(١).

٤ - ومن المبشرات القرآنية أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلَىٰ فِي الْأَدْلَىٰ نَ﴾ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ [المجادلة: ٢-٢١].

فهذه الآية الكريمة تتحدث عن سنة ثابتة من سنن الله، وتبين أن الذين يحادون الله ورسوله سيلحقهم الذل في الدنيا والآخرة، وقد قضى الله سبحانه قضاءً ثابتاً بالذلة للكافرين وأعداء الدين، والغلبة لرسوله وأوليائه، وهذه الغلبة على نوعين: فمن يؤمر منهم بالحرب فهو غالب بالحرب، ومن لم يؤمر بالحرب فهو غالب بالحجة^(٢).

(١) عن: الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات، دراسة قرآنية واقعية. د. محمود هاشم عنبر (٣١ / ١) وانظر ما بعدها. وأصله بحث مقدم إلى مؤتمر "الإسلام والتحديات المعاصرة" المنعقد بكلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية. وجُلَّ مبشرات هذا الفصل مقتبسة منه.

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن (٤ / ٢٦٤).

فالمؤمن يجب أن يتعامل مع وعود الله بالغلبة والنصر والتمكين على أنها هي الحقيقة الواقعة، رغم ما نراه من أحوال المسلمين اليوم وواقع حياتهم، وصور الحروب الهائلة والمتنوعة التي يشنها أعداء الدين على أهل الإيمان، حيث يقتلون العباد، ويقطعون الأرزاق، ويتهكون الحرمات، ويدنسون المقدسات، ويهلكون الحرث والنسل، ويتسلطون على المسلمين في بلادهم بكل أنواع النكاية، وبكل أساليب البطش والتنكيل والهلاك، والتي أفقدتهم إنسانيتهم، وأظهرت حقدهم الدفين وأفكارهم الماكرة، ومع ذلك بقي الإيمان في قلوب المؤمنين يحميهم من الانهيار والضياع، والذوبان في الأمم المستعمرة، فحين ينظر الإنسان إلى هذا الواقع يشعر بمعية الله، وقرب تحقق وعد الله وأن الذين يجادون الله ورسوله مهما علوا في الأرض فهم الأذلون، وأن الله ورسوله وأوليائه هم الغالبون.

٥- ومن المبشرات القرآنية على غلبة الدين ونصر أتباعه: الإخبار بضعف كيد الكفار وضلال سعيهم في النيل من الإسلام، وفشل كيدهم في الصد عنه والتآمر عليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

فهذه الآية نزلت بعد هزيمة المشركين في غزوة بدر كما يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «لما أصيبت قريش يوم بدر مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب أبائهم

وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وَتَرَكُمْ، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربته لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ففعلوا، فأخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ثم تكون عليهم حسرة، أي ندامة، لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق والله متم نوره ولو كره الكافرون، وهو سبحانه مظهر دينه على كل دين، فهذا الخزي لهم في الدنيا وهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي»^(١).

وفي ذلك تحفيز ضمني للمسلمين بأن يجتمعوا على دينهم وأن ينفقوا الغالي والنفيس في الذود عنه ودحض وصد الاعتداءات عليه، فإذا كان أهل الباطل ينفقون أموالهم للدفاع عن باطلهم ولا ييخلون فجدير بأهل الحق أن يكونوا أحرص على الإنفاق في سبيل الله والبذل في سبيل نصرته ورد العدوان عنه.

ثانياً: المبشرات النبوية:

بشّر النبي ﷺ أمة الإسلام بالغلبة على أعدائها وبالنصر والتمكين والخلافة من خلال أحاديث كثيرة بينت أن المستقبل لهذا الدين لأنه منهج حياة للبشرية يشتمل على كل المقومات المنظمة لشتى جوانب الحياة البشرية، وينسجم بتعاليمه مع المصلحة الإنسانية والمتطلبات الفطرية، ومن هذه الأحاديث:

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/٣٠٧).

١ - ما رواه تميم الداري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر»^(١).

٢ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال ويفيض، وحتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها منه، وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً»^(٢).

فهذه البشارة النبوية تبشر بحقبة من الرخاء والأمن والأمان يؤدي فيها الناس زكاة أموالهم، وتوزع الزكاة على المحتاجين، فينعم الجميع بالخير، وتسود العدالة الاجتماعية في أجمل صورها، وتفيض الأموال بحيث يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها قناعة من الناس بما في أيديهم، واكتفاء بما من الله به وأنعم عليهم من مال، ولا يكون ذلك إلا في ظل سيادة الإسلام للبشرية، وقيادته للإنسانية، وتطبيق الإسلام وتجسيده واقعاً في حياة الناس.

٣ - ومن المبشرات النبوية أيضاً البشارة بقتال أعداء الإسلام وانتصار المسلمين عليهم، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (١٦٣١، ١٦٣٢) وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧/١).

(٢) رواه مسلم (١٥٧).

من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله؛ هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله. إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود»^(١).

فالاستكبار اليهودي في الأرض لن يدوم، ووعد الله متحقق لا محالة، لأن الله لا يخلف وعده، والمعركة الفاصلة التي يبشر بها النبي ﷺ بين المسلمين واليهود واقعة بإذن الله، وسيعود اليهود إلى وضعهم الطبيعي الذي كتبه الله عليهم من الذلة والمسكنة وغضب من الله، فقد توفرت فيهم أسباب الاندحار والهزيمة والخذلان، وسينجز الله للأمة وعده يوم أن يقوموا له بأسباب النصر.

٤ - ومن المبشرات النبوية البشارة بقيام الخلافة الراشدة وذلك في حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَكُونُ النَّبُوءَةُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعَهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَىٰ مِنْهَاجِ النَّبُوءَةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعَهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ يَكُونُ مَلِكًا عَاصِبًا فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعَهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مَلِكًا جَبْرِيَّةً فَتَكُونُ

(١) رواه البخاري (٢٩٢٦) والغرقد: هو ضرب من شجر العِضاه وشجر الشوك، والغرقة واحدة، ومنه قيل لمقبرة أهل المدينة: بقيع الغرقد لأنه كان فيه غرقد وقطع. ويسمى العوسج، وعند بعض عامة نجد: طباطم البدو. والغرقد من شجر السباح، وبها أشواك حادة، وأغصانها كثيرة متشابكة جاثية على الأرض كالأراك، ويصل ارتفاعها إلى المترين، وهي من العائلة الرطراطية. وأوراقها لحمية سميكة بعض الشيء، وأزهارها صغيرة، وثمرتها تشبه ثمر الكرز، وترعاها الجمال، وتزهر وتثمر في الشهر الخامس الميلادي مايو. وتأكل الطيور ثمارها، فثمارها عصيرية حلوة الطعم. وربما تكون الغرقة المصرية مساة منها، وتقديم الأحرف على بعضها سائغ شائع في العربية.

ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت»^(١).

فمن خلال هذا الحديث يتبين لنا أن أمة الإسلام على موعد مع نصر وتمكين من الله، وإقامة خلافة على منهاج النبوة، والنبى ﷺ إذ يعد بذلك إنما ينطق بوحي من الله سبحانه، فالوعد وعد الله ولن يخلف الله وعده.

٥ - المبشرات بوجود الطائفة المنصورة، حيث تظهر هذه المبشرات من خلال أحاديث نبوية تبين فضل الشام، وأن هذه الأرض المباركة سيكون لها دور في تاريخ البشرية وقيادتها، فمن هذه الأحاديث ما رواه عبد الله بن حوالة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «سيصير الأمر إلى أن تكونوا جنوداً مجندة: جند بالشام، وجند بالعراق»، فقلت: خِرْ لي يا رسول الله إن أدركت ذلك فقال: «عليك بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده، فأما إن أبيتم فعليكم بيمنكم، واستقوا عُذْرَكُمْ، فإن الله توكل لي بالشام وأهله»^(٢).

فمن خلال هذه المبشرات النبوية نستمد يقيناً لا يتزعزع بأن المستقبل للإسلام، وأن له دوراً قادمًا في قيادة البشرية بعد أن أثبت الواقع في الماضي والحاضر، ومن خلال التجارب العملية إفلاس كل النظم والمذاهب في

(١) أحمد في مسنده (٢٧٣ / ٤) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ١٨٨) رجاله ثقات،

وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (١ / ٨، ٩).

(٢) رواه أبو داود (٢٤٨٣) وصححه الألباني.

مناهجها وتشريعاتها وعقائدها وفشلها في قيادة سفينة الإنسانية نحو حياة
عزيزة مطمئنة كريمة، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.



وقفة مع حديث: «يا طوبى للشام...»^(١)

وبين يديك حروف قد كتبتها في أحداث الشام التي أصابت الأمة وآمتها وأبكتها وأثكلتها حوت كثيراً من المبشرات بعنوان: يا طوبى للشام!

فالحمد لله الذي فضل بعض البلدان واختارها، وقدم بعض البقاع واصطفاه، وأكرم بشامها! فليس بعد مكة والمدينة أشرف بقعة منها، ولقد تربعت الشام على أفئدة المؤمنين، وسكنتها قلوب الصالحين، ودرجت عليها نفوس الأنبياء والمرسلين، فهي سيده البقاع بعد الحرمين، وإليها موئل الإيوان ومأرز الجهاد في آخر الأيام، وفيها عسكر الإيوان ومهاجر جند الإسلام قبل نهاية الزمان، ولعل شدة المخاض في هذه الأيام في غالبية الإسلام سوريا أمارات لذلك الأمر الجليل.

فَيَا رَبِّ هَلْ إِلَّا بِكَ النَّصْرُ يُتَعَى وَيَا رَبِّ هَلْ إِلَّا عَلَيْكَ الْمَعْوَلُ

وفي هذا المقال وقفات مختصرة لإجلاء بعض تيك الفضائل وتنوياً بصلاح أهلها في آخر سنّي الدنيا وبقية صبابات كأس زمانها.

وقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (مناقب الشام وأهله): «ثبت للشام وأهله مناقب بالكتاب والسنة وآثار العلماء^(٢) وهي أحد ما اعتمده في

(١) وهو مقال منشور في الشبكة بتاريخ ١٩ / ٤ / ١٤٣٣ / https://saaid.net/arabic/١٤٣٣/٤/١٩.htm

وهو في مدونتي كذلك: مدونة إبراهيم الدميحي.

(٢) وقد سطرت مؤلفات عدّة في القديم والحديث حيال فضائل الشام وأهله منها:

تخضيضي على غزو التتار، وأمري لهم بلزوم دمشق، ونهبي لهم عن الفرار إلى مصر، واستدعائي للعسكر المصري إلى الشام، وتثبيت العسكر الشامي فيه، وقد جرت في ذلك فصول متعددة.

وهذه المناقب أمور:

أحدها: البركة فيه، ثبت ذلك بخمس آيات من كتاب الله تعالى:

الأولى: قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا الَّتِي بَنَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٩] ومعلوم أن بني إسرائيل إنما أورثوا مشارق أرض الشام ومغارها بعد أن أغرق فرعون في اليم.

(فضائل الشام ودمشق) لأبي الحسن علي بن محمد الربيعي، وخرّج المرفوع من أحاديثه الإمام الألباني رَحِمَهُ اللهُ، وخرّج وطبع معه (مناقب الشام وأهله) للإمام ابن تيمية وأكثر أحاديث هذا المقال مستفادة منه، (فضائل الشام) للحافظ أبي سعد عبد الكريم السمعاني، (فضائل الشام) لابن رجب الحنبلي، (فضائل الشام) للحافظ ضياء الدين المقدسي، (نزهة الأنام في محاسن الشام) لأبي البقاء عبد الله بن محمد البدري، (حدائق الإنعام في فضائل الشام) لعبد الرحمن بن إبراهيم بن عبد الرزاق الدمشقي، (ترغيب أهل الإسلام بسكنى الشام) للعز بن عبد السلام، (بغية المرام في سكن المدينة والشام) لعبد المطلب بن محمد الخطيب الحسني، (الإعلام بسن الهجرة إلى الشام) لبرهان الدين إبراهيم البقاعي، وفي (تاريخ دمشق لابن عساكر) طائفة حسنة شريفة من الأحاديث والآثار في شأن الشام ولابن عبد الهادي مصنف في ذلك، وغير ذلك كثير.

الثانية: قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ وَمَن آيَنُنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١] وهي أرض الشام.

الثالثة: قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: ٧٠-٧١] ومعلوم أن إبراهيم إنما نجاه الله ولو طأ إلى أرض الشام من أرض الجزيرة والعراق.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَسَلِمْنَ مِنَ الرِّيحِ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: ٨١] وإنما كانت تجري إلى أرض الشام التي فيها مملكة سليمان.

الخامسة: قوله تعالى في قصة سبأ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَهْرًا وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ وهو ما كان بين اليمن وبين قرى الشام من العمارة القديمة كما ذكره العلماء.

فهذه خمسة نصوص حيث ذكر الله أرض الشام، في هجرة إبراهيم إليها، ومسرى الرسول إليها، وانتقال بني إسرائيل إليها، ومملكة سليمان بها، ومسير سبأ إليها، وصفها بأنها الأرض التي باركنا فيها.

وأيضاً ففيها الطور^(١) الذي كلم الله عليه موسى والذي أقسم الله به في

(١) وانظر: «هل جبل الطور في الحجاز». للمؤلف.

سورة الطور، وفي سورة التين ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾^(١) وَطُورِ سَيْنِينَ ﴿[التين: ١ - ٢] وفيها المسجد الأقصى، وفيها مبعث أنبياء بني إسرائيل، وإليها هجرة إبراهيم، وإليها معراج ومسرى نبينا ﷺ، ومنها معراجه، وبها ملكه، وعمود دينه وكتابه، والطائفة المنصورة من أمته، وإليها المحشر والمعاد، كما أن من مكة المبدأ، فمكة أم القرى من تحتها دحيت الأرض.

والشام إليها يحشر الناس كما في قوله تعالى: ﴿لَأَوَّلُ الْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢] نبيه على الحشر الثاني، فمكة مبدأ وإيلياء معاد في الخلق، وكذلك بدأ الأمر؛ فإنه أسرى بالرسول ﷺ من مكة إلى إيلياء، ومبعثه ومخرج دينه من مكة، وكمال دينه وظهوره وتمامه حتى يملكه المهدي بالشام. فمكة هي الأول، والشام هي الآخر في الخلق والأمر، في الكلمات الكونية والدينية.

ومن ذلك أن بها الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة، التي ثبت فيها الحديث في الصحاح من حديث معاوية وغيره: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة»^(١) وفيها عن معاذ بين جبل قال: «وهم بالشام»^(٢). وفي تاريخ البخاري مرفوعاً قال: «وهم بدمشق»^(٣). وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزال أهل الغرب

(١) البخاري (٧٣١١)، ومسلم (١٥٦).

(٢) البخاري (٣٦٤١).

(٣) الطبراني في مسند الشاميين (٢٥٥٨) وأبو يعلى (٦٤١٧)، وابن عدي في الكامل في

الضعفاء (٨٤/٧). وضعفه الألباني في الضعيفة (٦١٠٤).

ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة»^(١).

وقال أحمد بن حنبل: أهل المغرب هم أهل الشام. وهو كما قال لوجهين..
فما كان غربي الفرات فهو غربي المدينة، وما كان ثمَّ شرقيها فهو شرقي المدينة.
فأخبر ﷺ أن أهل الغرب لا يزالون ظاهرين، وأما أهل الشرق فقد
يظهرون تارة، ويُغلبون أخرى، وهكذا هو الواقع، فإن الجيش الشامي ما زال
منصوراً. وكان أهل المدينة يسمون الأوزاعي: إمام أهل الغرب، ويسمون
الثوري شرقياً، ومن أهل الشرق.

ومن ذلك أنها خيرة الأرض، وأن أهلها خيرة الله وخيرة أهل الأرض،
واستدل أبو داود في سننه على ذلك بحديث كثير مثل؛ حديث عبد الله بن
حوالة الأزدي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ستجدون أجناداً؛
جنداً بالشام، وجنداً باليمن، وجنداً بالعراق». فقال الحوالي: يا رسول الله،
اختر لي. قال: «عليك بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها حزبه من
عباده، فمن أبي فليحق يمينه، وليسق من غدِّره، فإن الله تكفل لي بالشام
وأهله»^(٢) وكان الحوالي - راوي الحديث - يقول: من تكفل الله به فلا ضيعة

(١) مسلم (١٩٢٥).

(٢) أبو داود (٢٤٨٣)، والطبراني (٥٨/٢٢) (١٣٧)، وصححه الذهبي في التلخيص
والألبناني في صحيح الجامع (٤٠٧٠). وقال العز ابن عبد السلام رَحِمَهُ اللهُ: «وهذه
شهادة من رسول الله ﷺ باختيار الشام، وبفضلها وباصطفائه ساكنيها، واختياره
لقاطنيها، وقد رأينا ذلك بالمشاهدة، فإن من رأى صالحي أهل الشام ونسبتهم إلى

عليه... وحديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «سيكون هجرة بعد هجرة، فخير أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم، ويبقى في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضوهم، وتقذرهم نفس الرحمن، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير، تبيت معهم حيثما كانوا، وتقبل معهم حيثما قالوا»^(١). فقد أخبر أن خيار أهل الأرض من ألزمهم مهاجر إبراهيم، بخلاف من يأتي إليه ثم يذهب عنه، ومهاجر إبراهيم هي الشام.

وفي هذا الحديث بشرى لأصحابنا الذين هاجروا من حرّان وغيرها إلى مهاجر إبراهيم، واتبعوا ملة إبراهيم، ودين نبيهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبيان أن هذه الهجرة التي لهم بعد هجرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، لأن الهجرة إلى حيث يكون الرسول وآثاره، وقد جعل مهاجر إبراهيم تعدل مهاجر نبينا ﷺ، فإن الهجرة إلى مهاجره انقطعت بفتح مكة.

ومن ذلك أن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها على الشام، كما في الصحيح

غيرهم رأى بينهم من التفاوت ما يدل على اصطفتائهم واجتبائهم بارك». وانظر: إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى ١٣٨/٢ للمنهاجي الأسيوطي، وإتحاف الأنام في فضائل المسجد الأقصى والشام. ص: (٥٥).

(١) أبو داود (٢٤٨٢) وفي إسناده شهر بن حوشب، وهو صدوق، كثير الإرسال والأوهام، فهو ضعيف كما في التقريب (٢٨٤٦)، والبغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٢٠٨ - ٢٠٩) (٤٠٠٨)، وأخرجه الحاكم في المستدرک (٤/ ٥١٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

من حديث عبد الله بن عمر.

ومن ذلك أن عمود الكتاب والإسلام بالشام كما قال النبي ﷺ: «رأيتُ كأن عمود الكتاب أخذ من تحت رأسي، فأتبعته بصري فذهب به إلى الشام»^(١).
ومن ذلك أنها عقر دار المؤمنين، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:
«وعقر دار المؤمنين بالشام»^(٢).

ولهذا استدلتُ لقوم من قضاة القضاة وغيرهم في فتن قام فيها علينا قوم من أهل الفجور والبدع الموصوفين بخصال المنافقين، لما خوفونا منهم، فأخبرتهم بهذا الحديث: «وأن منافقيننا لا يغلّبوا مؤمنينا». وقد ظهر مصداق هذه النصوص النبوية على أكمل الوجوه في جهادنا للتتار، وأظهر الله للمسلمين صدق ما وعدناهم به، وبركة ما أمرناهم به^(٣)، وكان ذلك فتحاً عظيماً ما رأى المسلمون مثله، مثل صرح مملكة التتار التي أذلت أهل الإسلام، فإنهم لم يُزَمُوا

(١) رواه أحمد (٦٢ / ٣٦) (٢١٧٣٣) بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه النسائي (٢ / ٢١٧ - ٢١٨) وابن حبان (١٦١٧) وأحمد (٤ / ١٠٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤ / ٤٣٤).

(٣) قال ابن القيم عن شيخه ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وأخبرني ببعض حوادث كبار تجري في المستقبل، ولم يعين أوقاتها. وقد رأيت بعضها وأنا أنتظر بقيتها، وما شاهده كبار أصحابه من ذلك أضعاف أضعاف ما شاهدته، والله أعلم». المدارج (٢ / ٣٦٦ - ٣٦٧). وهذا من فراسة المؤمن الصادق التقي المجاهد العالم العامل، واستقراء سنن الله تعالى في شرعه وخلقه التي لا تتبدل، ولا تتحول، ولا تتأخر، ولا أزكي على الله أحداً.

أو يُغلبوا كما غلبوا على باب دمشق في الغزوة الكبرى التي أنعم الله علينا فيها من النعم بما لا نحصيه خصوصاً وعموماً»^(١).

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «والنبي ﷺ مَيَّزَ أهل الشام بالقيام بأمر الله دائماً إلى آخر الدهر، وبأن الطائفة المنصورة فيهم إلى آخر الدهر، فهو إخبار عن أمر دائم مستمر فيهم مع الكثرة والقوة، وهذا الوصف ليس لغير أهل الشام من أرض الإسلام.

فإن الحجاز^(٢) التي هي أصل الإيخان نقص في آخر الزمان منها العلم والإيخان، والنصر والجهاد، وكذلك اليمن والعراق والمشرق، وأما الشام فلم يزل فيها العلم والإيخان، ومن يقاتل عليه منصوراً مؤيداً في كل وقت»^(٣).

وكم بالشام من شرفٍ وفضلٍ ومرتبٍ لدى برٍّ وبحرٍ
بلادُ بَارِكِ الرَّحْمَنُ فِيهَا فَقَدَسَتْهَا عَلَى عِلْمٍ وَخُبْرٍ

قال الحسن وقتادة رحمها الله تعالى: «إن الأرض ﴿الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا﴾ هي الشام، وقال قتادة: هي الشام، وقد أنجى إبراهيم ولوط عليهما السلام من العراق إلى الشام، وكان يقال للشام: عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرض زيد

(١) مجموع الفتاوى (٢٧: ٥٠٥-٥١١) باختصار وتصرف يسير، والرسالة مطبوعة

بعنوان مناقب الشام وأهله بتخريج الإمام الألباني رحمه الله تعالى.

(٢) يصح إطلاق الحجاز أو تهامة على مكة والمدينة، فهما من تهامة من جهة طبيعة الأرض، ومن الحجاز من جهة موقعها بين تهامة الساحل ونجد، فالأمر واسع.

(٣) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام (٤/٤٤٩).

في الشام، وما نقص في الشام زيد في فلسطين، وكان يقال: هي أرض المحشر والمنشر، وبها مجمع الناس، وبها ينزل عيسى بن مريم، وبها يهلك الله شيخ الضلالة الكذاب الدجال»^(١).

وقال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: «هي أرض الشام، وإنما اخترنا ما اخترنا من القول في ذلك لأنه لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام، وبها كان مقامه أيام حياته، وإن كان قد كان قدم مكة، وبني بها البيت، وأسكنها إسماعيل ابنه مع أمه هاجر، غير أنه لم يقيم بها، ولم يتخذها وطناً لنفسه، ولا لوط، والله إنما أخبر عن إبراهيم ولوط أنها أنجاهما إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين»^(٢).

قال الخطابي: «فالهجرة الثابتة هي الهجرة إلى الشام يرغب فيها خيار الناس، وهي مهاجر إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه وعلى آلهما وسلم»^(٣).
وقال ابن رجب الحنبلي: «واعلم أن البركة في الشام تشمل البركة في أمور الدين والدنيا، ولهذا سميت الأرض المقدسة»^(٤).

وعن زيد بن ثابت الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا طوبى للشام! يا طوبى للشام! يا طوبى للشام!» قالوا: يا رسول الله

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٨: ٤٦٩).

(٢) تفسير الطبري (١٨: ٤٧٠).

(٣) عن: إسعاد الأخصا بذكر صحيح فضائل الشام والمسجد الأقصى (١٤/١).

(٤) السابق (١٨/١).

ولم ذلك؟ قال: «تلك ملائكة الله باسطو أجنحتها على الشام»^(١).
 وفي الصحيحين عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «اللَّهُم
 بارك لنا في شامنا اللَّهُم بارك لنا في يمننا..»^(٢).
 وعن معاوية بن حيدة رضي الله قال: قلت: يا رسول الله أين تأمرني؟ وفي
 رواية (خزلي) قال: «ها هنا» ونحا بيده نحو الشام، قال: «إنكم محشورون
 رجالاً وركباناً وتُجْرُونَ على وجوهكم»^(٣).
 وعن أبي أمامة الباهلي قال: «لا تقوم الساعة حتى يتحوّل خيار أهل العراق
 إلى الشام، ويتحول شرار أهل الشام إلى العراق، وقال رسول الله ﷺ: «عليكم
 بالشام»^(٤).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا وقعت

(١) أحمد (٥ / ١٨٤)، والترمذي (٢ / ٣٣١) وقال: «حديث حسن»، وزاد في بعض
 النسخ: «صحيح»، والفسوي في «التاريخ» (٢ / ٣٠١)، وابن حبان (٢٣١١)،
 والحاكم (٢ / ٢٢٩) وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي. قال
 الألباني في تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق لأبي الحسن الربيعي (٩/١): وهو
 كما قالاً، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١ / ١١٢-١١٥)، وقال المنذري في
 «الترغيب» (٤ / ٦٣): رواه ابن حبان في «صحيحه»، والطبراني بإسناد صحيح.

(٢) البخاري ٦٧/٩ (٧٠٩٤).

(٣) أحمد (٢٠٠٣١) (٢٣٣ / ٣٣) والترمذي (٢١٩٢) وقال: حسن صحيح، والطبراني
 ١٩ / (٩٧٦)، والحاكم ٥٦٤/٤ وصححه الألباني.

(٤) أحمد (٤٦١ / ٣٦) (٢٢١٤٥) وحسنه الألباني.

الملاحم بعث الله من دمشق بعثاً من الموالي أكرم العرب فرساً، وأجودهم سلاحاً، يؤيد الله بهم الدين»^(١).

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فَسَطَّاطُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ بِالْعُوْطَةِ، إِلَى جَانِبِ مَدِينَةِ يُقَالُ لَهَا: دَمَشَقٌ، مِنْ خَيْرِ مَدَائِنِ الشَّامِ» وَفِي رِوَايَةٍ: «يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ الْكُبْرَى، فِسْطَاطُ الْمُسْلِمِينَ بِأَرْضِ يُقَالُ لَهَا: الْغُوْطَةُ، فِيهَا مَدِينَةٌ يُقَالُ لَهَا: دَمَشَقٌ، خَيْرُ مَنَازِلِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ»^(٢).

وعن النّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَنْزِلُ عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دَمَشَقٍ»^(٣).

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ! مَا كَانَ أَوَّلَ بَدْءِ أَمْرِكَ؟ قَالَ: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبَشْرَى عَيْسَى، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهَا قُصُورَ الشَّامِ»^(٤).

قال ابن كثير^(٥): «وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه

(١) ابن ماجه (٤٠٩٠) والحاكم (٤/٥٤٨) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/٢٥٨ - ٢٦٠) وصححه الألباني.

(٢) أحمد (١٩٧/٥) (٤٢٩٨) وصححه أيمن صالح شعبان في تخريج جامع الأصول (٩/٣٥٢).

(٣) مسلم ١٩٦/٨ (٢٩٣٧) (١١٠) وهي المنارة الشرقية للجامع الأموي وهي بيضاء.

(٤) أحمد (٣٦/٥٩٥) (٢٢٢٦١) وهو صحيح لغيره.

(٥) تفسير ابن كثير (١/٤٤٤).

ونبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم».

وعن قُرَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا فَسَدَ أَهْلُ الشَّامِ فَلَا خَيْرَ فِيكُمْ، لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»^(١).

وعن واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالشَّامِ، فَإِنَّهَا صَفْوَةٌ بِلَادِ اللَّهِ، يَسْكُنُهَا خَيْرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(٢).

وعن عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي بِنَاءٍ لَهُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «عُوفُ» قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «ادْخُلْ» فَقُلْتُ: كَلِي أَمْ بَعْضِي؟ قَالَ: «بَلْ كَلِّكَ» قَالَ: فَقَالَ لِي: «اعْدُدْ عُوفَ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، أَوْ لَهْنٍ: مَوْتِي» قَالَ: فَاسْتَبَكَيْتُ حَتَّى جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْكُنُنِي قَالَ: «قُلْ: إِحْدَى. وَالثَّانِيَةَ: فَتَحَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ. قُلْ: اثْنَيْنِ. وَالثَّالِثَةَ: فَتْنَةٌ تَكُونُ فِي أُمَّتِي وَعَظْمِهَا، وَالرَّابِعَةَ: مُوتَانٌ يَقَعُ فِي أُمَّتِي يَأْخُذُهُمْ كَقَعَاصِ الْغَنَمِ»^(٣)، وَالخَامِسَةَ: يَفِيضُ الْمَالُ فِيكُمْ فَيُضَا حَتَّى إِنْ الرَّجُلَ لِيُعْطَى الْمِئَةَ دِينَارٍ فَيُظَلُّ يَسْخِطُهَا، قُلْ:

(١) أحمد (٤٣٦/٣) (٣٥/٥) والترمذي (٢١٩٢) وصححه.

(٢) المعجم الكبير (١٣٧) وصححه الألباني.

(٣) المُوتَان - بضم الميم -: الموت الكثير الوقوع. والقعص: أن يُضرب الإنسان فيموت مكانه، يقال: قعصته وأقعصته، إذا قتله قتلاً سريعاً، وقعاص الغنم: داء يأخذ الغنم لا يُلبثها أن تموت.

خمسًا. والسادسة: هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر^(١)، يسرون إليكم على ثمانين راية، تحت كل راية ثمانين ألفًا، فسطاط المسلمين يومئذ في أرض يقال لها الغوطة، فيها مدينة ويقال لها دمشق^(٢).

ونقف عند فتوى جامعة للشيخ الشامي الجامع شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ حينما سُئِلَ: ما تقول السادة الفقهاء أئمة الدين؟ هل تفضل الإقامة في الشام على غيره من البلاد؟ وهل جاء في ذلك نص في القرآن أو الأحاديث أم لا؟ أجيبونا مأجورين. فأجاب رَحِمَهُ اللهُ: «الحمد لله، الإقامة في كل موضع تكون الأسباب فيه أطوع لله ورسوله، وأفعل للحسنات والخير، بحيث يكون أعلم بذلك، وأقدر عليه، وأنشط له أفضل من الإقامة في موضع يكون حاله فيه في طاعة الله ورسوله دون ذلك. هذا هو الأصل الجامع، فإنَّ

(١) بنو الأصفر: الروم، ويقال إن أصلهم من بني عيصو بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، ثم اختلطوا مع شعوب أخرى وانصهروا جميعًا. وهم أشدّ الأمم احتكاكًا وصراعًا مع المسلمين على مر الأزمنة، وهم الخصم الحضاري التقليدي المستمر حتى تقوم الساعة، والله في ذلك أعظم الحكم.

(٢) أحمد (٦/ ٢٥)، والحاكم (٤/ ٤١٩ و ٤٢٢-٤٢٣)، وصححه، وابن عساكر، قال الألباني: وإسناد أحمد صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق لأبي الحسن الربيعي (١/ ٦٧). وأخرجه البخاري (٦/ ٢٢ و ٢٧)، وابن ماجه (٢/ ٤٩٦-٤٩٧)، وأحمد (٦/ ٢٢ و ٢٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٢٨)، والمقدسي في «فضائل الشام» (٤٤/ ٢)، وغيرهم من طرق أخرى عن عوفٍ به، دون قوله في آخره: «فسطاط المسلمين».

أكرم الخلق عند الله أتقاهم. والتقوى هي ما فسرها الله تعالى في قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وجماعها فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله.

وإذا كان هذا هو الأصل؛ فهذا يتنوع بتنوع حال الإنسان. فقد يكون مقام الرجل في أرض الكفر والفسوق من أنواع البدع والفجور أفضل إذا كان مجاهدًا في سبيل الله بيده أو لسانه، أمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، بحيث لو انتقل عنها إلى أرض الإيمان والطاعة لقلت حسناته، ولم يكن فيها مجاهدًا، وإن كان أرواح قلبًا، وكذلك إذا عدم الخير الذي كان يفعله في أماكن الفجور والبدع.

ولهذا كان المقام في الثغور بنية المرابطة في سبيل الله تعالى أفضل من المجاورة بالمساجد الثلاثة باتفاق العلماء؛ فإن جنس الجهاد أفضل من جنس الحج، كما قال تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [١٩] الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ [التوبة: ١٩ - ٢٠].

وسئل النبي ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله، وجهاد في سبيله» قال: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»^(١).

(١) البخاري (١٥٢٠).

وهكذا لو كان عاجزاً عن الهجرة والانتقال إلى المكان الأفضل التي لو انتقل إليها لكانت الطاعة عليه أهون، وطاعة الله ورسوله في الموضوعين واحدة، لكنها هناك أشق عليه. فإنه إذا استوت الطاعتان فأشقهما أفضلهما، وبهذا ناظر مهاجرة الحبشة المقيمون بين الكفار لمن زعم أنه أفضل منهم، فقالوا: كنا عند البغضاء البعداء، وأنتم عند رسول الله ﷺ: يُعلم جاهلكم، ويطعم جائعكم، وذلك في ذات الله.

وأما إذا كان دينه هناك أنقص فالانتقال أفضل له، وهذا حال غالب الخلق، فإن أكثرهم لا يدافعون، بل يكونون على دين الجمهور.. وأما الفضيلة الدائمة في كل وقت ومكان ففي الإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّالِحِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٦٢]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ ءَأْمَانِيهِمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١١١) بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه. ﴿[البقرة: ١١١ - ١١٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وإسلام الوجه لله تعالى هو إخلاص القصد والعمل له والتوكل عليه.. فلا ينبغي للرجل أن يلتفت إلى فضل البقعة في فضل أهلها مطلقاً، بل يعطى كل ذي حق حقه، ولكن العبرة بفضل الإنسان في إيمانه وعمله الصالح والكلم الطيب، ثم قد يكون بعض البقاع أعون على بعض الأعمال كإعانة مكة حرسها

الله تعالى على الطواف والصلاة المضعفة ونحو ذلك.

وقد يحصل في الأفضل معارض راجح يجعله مفضولاً؛ مثل من يجاور بمكة مع السؤال والاستشراق، والبطالة عن كثير من الأعمال الصالحة، وكذلك من يطلب الإقامة بالشام لأجل حفظ ماله وحرمة نفسه، لا لأجل عمل صالح، فالأعمال بالنيات»^(١).

إنها الشام، مشى على ثراها كرام المرسلين كمحمد وإبراهيم وموسى وعيسى وأنبياء بني إسرائيل، ووصلتها طلائع الأمة الحمّادة المرحومة فاتحة مظفرة منصوره منهم عشرة آلاف من الأصحاب مئة منهم من البدرين. قال الوليد بن مسلم: دخلت الشام عشرة آلاف عين رأت رسول الله ﷺ^(٢).

ثم تكسرت على سواعد بواسلها حملات الصليب طوال مئتي عام، فله هم من حمة للدين، رحم الله أسلافهم، وحفظ الأحياء وحماهم.

ختاماً: يا أهلنا في الشام: الله الله في الاعتصام بحبل الله وإخلاص الدين له، وفي التزام أسباب النصر، وفي تحقيق التوكل على الله والبراءة من الحول والقوة إلا به، مع الأخذ بالمباح من الأسباب ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١] وفي الاجتماع على الحق ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ

(١) مجموع الفتاوى (٢٧: ٣٩-٤٧).

(٢) التاريخ الكبير (١/ ١٦٩).

وَرَسُولُهُ، وَلَا تَنْزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَيُكْفَرَ بِهِنَّ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ [الأنفال:

٤٦] وفي الأخذ بأسباب التمكين، ومن كان الله معه فمعه القوة التي لا تغلب،

ومن آوى إليه فقد آوى إلى ركن شديد. ورحم الله شوقي حين صدح:

وَدَمَعٌ لَا يُكْفَكْفُ يَا دِمَشْقُ	سَلَامٌ مِنْ صَبَا بَرَدَى أَرْقَ
جَلَالُ الرُّزْءِ عَن وَصْفِ يَدِيقِ	وَمَعْدِرَةُ الْيِرَاعَةِ وَالْقَوَافِي
إِلَيْكَ تَلَفْتُ أَبَدًا وَخَفِقُ	وَذِكْرِي عَن خَوَاطِرِهَا لِقَلْبِي
وَوَجْهُكَ ضَا حِكُ الْقَسَمَاتِ طَلِقُ	دَخَلْتُكَ وَالْأَصِيلُ لَهُ إِتِّبَلِقُ
وَمِلءُ رُبَاكِ أَوْرَاقُ وَوُزُقُ	وَتَحْتَ جَنَانِكَ الْأَنْهَارُ تَجْرِي
أُنُوفُ الْأُسْدِ وَاضْطَرَمَ الْمَدَقُ	غَمَزْتُ إِبَاءَهُمْ حَتَّى تَلْظَتُ
أَبِيٍّ مِنْ أُمِّيَّةٍ فِيهِ عِتْقُ	وَضَجَّ مِنَ الشَّكِيمَةِ كُلِّ حُرِّ
تَخَالٍ مِنَ الْخُرَافَةِ وَهِيَ صِدْقُ	تَكَادُ لِرَوْعَةِ الْأَحْدَاثِ فِيهَا
وَقِيلَ أَصَابَهَا تَلَفٌ وَحَرَقُ	وَقِيلَ مَعَالِمُ التَّارِيخِ دُكَّتْ
وَمُرْضِعَةُ الْأُبُوءِ لَا تُعَقُّ	أَلَسَتْ دِمَشْقُ لِلْإِسْلَامِ ظَنْرًا
وَأَرْضُكَ مِنْ حُلَى التَّارِيخِ رَقُّ	سَمَاؤُكَ مِنْ حُلَى الْمَاضِي كِتَابُ
غُبَارُ حَضَارَتِيهِ لَا يُشَقُّ	بَنِيَتِ الدَّوْلَةَ الْكُبْرَى وَمُلْكًا
بَشَائِرُهُ بِأَنْدَلُسٍ تَدُقُّ	لَهُ بِالشَّامِ أَعْلَامٌ وَعُرسٌ
أَحَقُّ أَنْهَا دَرَسَتْ أَحَقُّ	رُبَاعُ الْخَلْدِ وَيَجُكُ مَا دَهَاها
وَهَلْ لِنَعِيمِيهِنَّ كَأَمْسٍ نَسَقُ	وَهَلْ عُرِفَ الْجِنَانِ مُنْضَدَاتُ
مُهَتَّكَةٍ وَأَسْتَارِ تُشَقُّ	وَأَيْنَ دُمَى الْمَقَاصِرِ مِنْ جِجَالِ
وَخَلْفَ الْأَيْكِ أَفْرَاحُ تُزَقُّ	بَرْزَنَ وَفِي نَوَاحِي الْأَيْكِ نَارُ
أَتَتْ مِنْ دُونِهِ لِلْمَوْتِ طُرُقُ	إِذَا رَمَنَ السَّلَامَةَ مِنْ طَرِيقِ

وَرَاءَ سَمَائِهِ خَطْفٌ وَصَعْقٌ
عَلَى جَنَابَاتِهِ وَاسْوَدَّ أَفْقُ
أَبِينِ فُؤَادِهِ وَالصَّخْرِ فَرَقُ
يَقُولُ عِصَابَةٌ خَرَجُوا وَشَقُّوا
وَزَالُوا دُونَ قَوْمِهِمْ لِيَبْقُوا
فَكَيْفَ عَلَى قَنَاها تُسْتَرْقُ
وَأَلْقُوا عَنْكُمْ الْأَحْلَامَ أَلْقُوا
بِأَلْقَابِ الْإِمَارَةِ وَهِيَ رِقٌّ
كَمَا مَالَتْ مِنَ الْمَصْلُوبِ عُنُقُ
وَلَا يَمْضِي لِمُخْتَلِفِينَ فَتَقُ
وَلَكِنْ كُنَّا فِي الْهَمِّ شَرْقُ
بَيَانٌ غَيْرُ مُخْتَلِفٍ وَنُطْقُ
فَإِنْ رُمْتُمْ نَعِيمَ الدَّهْرِ فَاشَقُّوا
يَدُ سَلَفَتْ وَدَيْنٌ مُسْتَحِقُّ
إِذَا الْأَحْرَارُ لَمْ يُسْقُوا وَيَسْقُوا
وَلَا يُدْنِي الْحُقُوقَ وَلَا يُجِئُ
وَفِي الْأَسْرَى فِدَى هُمْ وَعِتْقُ
بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ
وَعِزُّ الشَّرْقِ أَوْلُهُ دِمَشْقُ
وَكُلُّ أَخٍ بَنَصْرٍ أَخِيهِ حَقُّ
نِضَالٌ دُونَ غَايَتِهِ وَرَشْقُ

بَلِيلٍ لِلْقَذَائِفِ وَالْمَنَايَا
إِذَا عَصَفَ الْحَدِيدُ أَحْمَرَ أَفْقُ
سَلِي مَنْ رَاعَ غَيْدَكَ بَعْدَ وَهْنِ
إِذَا مَا جَاءَهُ طُلَّابُ حَقِّ
بِلَادُ مَا تَفْتِيئُهَا لِتَحْيَا
وَحُرَّرَتِ الشُّعُوبُ عَلَى قَنَاها
بَنِي سُورِيَّةَ اطَّرَحُوا الْأَمَانِي
فَمِنْ خِدَعِ السِّيَاسَةِ أَنْ تُغْرُوا
وَكَمْ صَيْدٍ بَدَا لَكَ مِنْ ذَلِيلٍ
فُتُوقُ الْمَلِكِ تَحْدُثُ ثُمَّ تَمْضِي
نَصَحَتْ وَنَحْنُ مُخْتَلِفُونَ دَارًا
وَيَجْمَعُنَا إِذَا اخْتَلَفَتْ بِلَادُ
وَقَفْتُمْ بَيْنَ مَوْتٍ أَوْ حَيَاةٍ
وَلِلْأَوْطَانِ فِي دَمٍ كُلِّ حُرِّ
وَمَنْ يَسْقَى وَيَشْرَبُ بِالْمَنَايَا
وَلَا يَبْنِي الْمَالِكُ كَالضَّحَايَا
فَفِي الْقَتْلِ لِأَجْيَالِ حَيَاةٍ
وَلِلْحُرِّيَّةِ الْحَمْرَاءِ بَابُ
جَزَاكُمْ ذُو الْجَلَالِ بَنِي دِمَشْقِ
نَصَرْتُمْ يَوْمَ مِحْنَتِهِ أَخَاكُمْ
لِكُلِّ لَبِوَةٍ وَلِكُلِّ شِبْلٍ

اللهم نصراً عاجلاً وفتحاً مبيناً يا حي يا قيوم يا جبّار يا قهّار وأنت على كل
شيء قدير، والحمد لله على كل حال، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله
وصحبه.



«يَا خَيْلَ اللَّهِ لِلشَّامِ اِرْكَبِي» (١)

وهذا مقال آخر لي في سياق المبشرات بالنصر والتمكين بعد البلاء المبين لمن اتقى وصبر لوجه رب العالمين، منشور بعنوان: «يَا خَيْلَ اللَّهِ لِلشَّامِ اِرْكَبِي» ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ، ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿[الأنعام: ١-٣]﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿[الأنعام: ١٧-١٨]﴾.

إن المتأمل لتعاقب أحداث زماننا الكبرى وتسارعها ليتفرّس - والعلم عند الله وحده - أن لهذا الزمان موعداً مع أحداثٍ كونيّةٍ عظمى، وأن الحكيم القدير سبحانه يستغرسُ عبادةً له في طَيِّ غيبه، يُصنَعُونَ على عينه: أخلصَ دينهم، وهذَّبَ أخلاقهم، وجرّد مطلوبهم، وأصحَّ فقههم، وأقام لهم عبادتهم. لأن اشتداد طَلْقِ الفرجِ يستسقي المُقَرَّبِينَ، ويستقدّم الشهداءَ والصدّيقين، وإذا أراد الله - في العادة - أمراً هيأ له أسبابه.

وهذه الأمة المرحومة كالغيث، لا يُدرى أوّله خير أم آخره؟ ولكم اشتاق نبي الرحمة والملحمة لإخوانه الذين للواحد منهم أجر خمسين من صحابته

(١) مدونة إبراهيم الدميحي <http://aldumaiji.blogspot.com/> ٢٠١٣/٠٤-٠٤/post_١٢.html

المرضىين، فأعظم بها من كرامة لمن هداه الله ذِيَاكَ السَّبِيلَ! ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءً﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُنُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿٤﴾ سَيِّدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَلْمَمَّ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصْرُوا اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٤-٧].

إنَّ هذه الأحداث العظام لها أبعادٌ ودلالاتٌ ومآلاتٌ لله وحده يعلم حجمها وحقيقتها ومكانها من أحداث الإنسانية جمعاء في المستقبل المنظور! ولئن اختزلها عبَادُ الصليبِ وعُزير بثورة مادّة؛ فلعمر الحق إنها لفوق ذلك، وأسمى وأجلّ مما هنالك، وأكرم وأجلى من كل ما يدعونه ويؤيّفونه. إنها دمشق! الملاحم من أكنافها تقدح شررها، والألوية من غوطتها تعقد بيارقها، والكتائب من هضابها تنحدر كالسيل لموعود ربها!

فيا لله كم من أملاك ربي لأجنتها على الشام باسطة، ويا لله كم من رَضِيٍّ مرَضِيٍّ بحاله ولسانه وسلاحه ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤].

ولا تصحّ بحالٍ مقولة: التاريخ يُعيد نفسه! فالتاريخ ظرفُ زمانٍ، ومحلُّ قضاءٍ وقدر الرحمن، والله سبحانه هو الذي يُجري الزمان ويُقدّر ويقضي ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

إخوتي في الله: إن من ضرورات هذه المرحلة ومُحتّماتها؛ أن يوحد المجاهدون كلمتهم، ويجمعوا آياتهم، ويرصّوا صفّهم، ويُفردوا عصاهم، وأن

يُحْذِرُوا التَّفَرُّقَ وَالِاخْتِلَافَ وَذَهَابَ الرِّيحِ، وَلْيَعْتَبِرُوا بِأَفْغَانِسْتَانَ الْمَجَاهِدَةَ؛ إِذْ عَادَتْ حِرَابُ الْمَجَاهِدِينَ لِصُدُورِ الْفَاتِحِينَ! وَالْمُؤْمِنُ كَيْسٌ فَظَن، لَا يُلْدَغُ مِنْ جَحْرِ مَرْتَيْنِ.

فعلى كتائب الجهاد وفصائله أن لا يفرحوا بتعدد الأولوية، فكدر الجماعة خيراً من صفو الفرقة، وليعظموا أمر الشورى، والله جل وعز يقول: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَيُكْفَرُوا بِهَا تَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] وَالْكَيْسَ الْكَيْسَ.

فيا إخوانه: أروا الله منكم خيراً، واعلموا أن الله لا يخلف الميعاد، وأن سننه لا تبدل، فلا أكرم عليه من رسوله صلى عليه وسلم وصحابته مع ذلك أقام نواميس كونه وشرعه معهم لما أطاعوا رسوله وصدقوا التوكل على ربهم، فلما خالفوا في أحدٍ وحينئذٍ أدب عليهم عدوهم حتى كاد أن يستأصلهم لولا لطف اللطيف البر الكريم الذي ألقى في قلوبهم الإيمان والصبر واليقين، فتنزلت أمداد اللطف والنصر والفتح!

فهذه سنته الماضية سبحانه وبحمده، فإن رأى منكم ذلك هداكم سبلكم، ووقاهم شر أنفسكم، ووكلكم إليه وحده، لا إلى الناس، ولا إلى أنفسكم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

كما لا بد أن تتسع صدوركم لخلافكم، وأن يرحم بعضكم بعضاً، وأن تنظروا بقلب واحد للخطر الماحق من عدوكم بكافة أحزابه وأمداده، الذي يكيد كيداً كُبَّاراً ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولِ مِنْهُ الْجِبَالِ﴾ [إبراهيم: ٤٦] ولكن إن اتقينا الله وأخلصنا له الوجوه فلا نخاف مخلوقاً ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥)

وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمْ رُؤْيَاؤُنَا ﴿[الطارق: ١٥-١٧]﴾ ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ ﴿[البقرة: ١٥٠]﴾ ﴿أَلَا نُفْلِتُ لَوْ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَاءُكُمْ وَأُولَٰئِكَ مَرَّةٌ آتَخُونَهُمْ ۗ فَاَللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾ فَتِلْوَهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْزِكْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُدْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿[التوبة: ١٣-١٦] والوليجة: هي البطانة من المشركين.

فعلى المجاهدين في سبيل الله أن يتدبروا القرآن، ومهما أجلب أولياء الطاغوت فرب العزة جل جلاله يقول: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَيَبْصُرْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ﴿[آل عمران: ١٢٠]﴾ إذ لا بد لمن رام استنزال معونة الله ونصره وتأيينه من تحقيق هذين الأمرين: الصبر، والتقوى. ومجاهد لا يتقي الله لا خلاق له في الفتح والظفر ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ ﴿[البقرة: ٢٥٧].

وبالجملة؛ فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، وليبشر بموعد الله ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن نَّصْرُوا اللَّهَ بِنَصْرِكُمْ ۖ إِنَّا بِنَصْرِكُمْ وَأَنبَتْنَا أَقْدَامَكُمْ﴾ ﴿[محمد: ٧]﴾ ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿[المجادلة: ٢١]﴾ ﴿قَالَ الَّذِينَ

يَطُئُونَ أَنَّهُمْ مُلْتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ
وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْ عَلَيْنَا
صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدامنا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ
بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿البقرة: ٢٤٩ - ٢٥١﴾ ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أقدامنا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ
الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿آل عمران: ١٤٧ - ١٤٨﴾.

ولتكثروا ذكر الله تعالى على كل أحوالكم، فهو من أعظم أسباب النصر
والثبات ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا
لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿الأنفال: ٤٥﴾.

وأبشروا معشر المجاهدين فإنما هي إحدى الحسينين، فإما نصر وظفر
يشفي الصدور ويشرح النفوس، وإما صعودٌ لعليين، وارتقاء لجنات النعيم، قد
أفلح وجهه، وثبت عند الله أجره. وفي الصحيحين^(١) عن رشدين بن سعد عن
رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما بال المؤمن يُفتنون
في قبورهم إلا الشهيد؟ فقال بأبي هو وأمي وولدي ونفسي: «كفى ببارقة
السيف على رأسه فتنة».

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «معناه - والله أعلم - أنه قد امتحن نفاقه من
إيانه ببارقة السيف على رأسه، فلم يفرّ، فلو كان منافقاً لما صبر ببارقة السيف

(١) البخاري (٢٤/٤) ومسلم (٤٣/٦).

على رأسه، فدلّ على أن إيمانه هو الذي حمله على بذل نفسه لله، وتسليمها له، وهاج من قلبه حميَّة الغضب لله ورسوله، وإظهار دينه، وإعزاز كلمته. فهذا قد أظهر صدق ما في ضميره حيث برز للقتل، فاستغنى بذلك عن الامتحان في قبره» (١).

وعن المقدم بن معدي كَرِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْ خَيْرِ مَا فِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوِّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيَشْفَعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ» (٢).

ويا إخوتاه: احذروا شؤم المعاصي ومساقط الخطايا ودركات الذنوب، وحظوظ النفس الأمارة من رئاسة أو رياء أو غلول وغيرها، فكلرب معصية أدالت الأعداء على أهل الهدى، واعتبروا بالأسلاف، والله في تدبيره وتقديره حكيم باهرة، لا تحيطها الأفهام، ولا تدركها العقول! ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

قال شيخ الإسلام (٣): «وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من

(١) الروح، لابن القيم (١/٢٤١).

(٢) الترمذي (١٦٦٣)، وقال: حسن صحيح غريب. وابن ماجه (٢٧٩٩). وصححه

الألباني في صحيح الترمذي (١٣٥٨).

(٣) الفتاوى (١٨/٢٩٥) وهو حرف شريف فاضل.

أحوال الإسلام؛ جزع وكلّ وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهيٌّ عن هذا؛ بل هو مأمور بالصبر، والتوكل، والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى. وأن ما يصيبه فهو بذنوبه، فليصبر إن وعد الله حقًّا، وليستغفر لذنبه، وليسبح بحمد ربه بالعشيِّ والإبكار».

ولنحذر جميعًا من مغبةٍ خلافتنا لحديث المجاهد الأعظم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه إذ قال: «من مات ولم يغز، ولم يُحدث نفسه بغزو؛ مات على شعبة من نفاق» رواه مسلم^(١) فهلّا غزونا بهالنا وكلمتنا، علّ الله أن يكتبنا مع الغزاة في سبيله المجاهدين لإعلاء كلمته؟

شاهدُ المقال ومقصودُ الخطاب أمران، لا غنى لكلِّ مجاهدٍ عنهما، حتّى وإن عزّ فيها الرفيق والأخ والشريك، على كلِّ جاهدٍ مجاهدٍ تحقيقها طاقته ووسعه، وليعلم أنّ التوفيق واللطف والقبول دائرٌ معهما حيث دارا، وعلى قدر تحقيقهما ينتزل الفرج، ويتتابع النصر، وتعظمُ الفُتوح، ذاك الأمران يا طالب الرضوان هما:

الإخلاص لوجه الله تعالى وحسن الاتّباع لرسوله ﷺ. فبإخلاص الدين لله تعالى، وتحقيق توحيده، وإفراده بالعبودية، ثمّ بتوحيد اتّباع رسوله ﷺ، وتعظيم سنته، والصدور عنها مها نازعت النفس الجموح، أو حرّنت أختها القعود!

(١) مسلم ٤٩/٦ (١٩١٠) (١٥٨).

ولقد فتح الله تعالى على ابن القيم يوم كتب مستخلصاً الدروس والعبر من غزوة أحد على ضوء آيات سورة آل عمران، إذ بيّن الفرقان بين أولياء الرحمن الذين أحسنوا الظن بربهم وبين من كان في قلوبهم مرض نفاق وسوء ظن، في سفره النفيس الباهر زاد المعاد فقال:

«ونذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى أمهاتها وأصولها في سورة «آل عمران» حيث افتتح القصة بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى تمام ستين آية.

فمنها: تعريفهم سوء عاقبة المعصية، والفشل، والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرَبَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول، وتنازعهم، وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشدّ حذراً ويقظة، وتحزناً من أسباب الخذلان.

ومنها: أن حكمة الله وسنته في رُسله، وأتباعهم، جرت بأن يُدالوا مرّةً، ويُدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائماً؛ دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انتصر عليهم دائماً؛ لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقترضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين؛

ليتميز مَنْ يتبعُهُمْ وَيُطِيعُهُمْ للحق، وما جاؤوا به ممن يتبعُهُمْ على الظهور والغلبة خاصة.

ومنها: أن هذا من أعلام الرسل، كما قال هِرَقْلُ لأبي سفيان: «هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قال: نعم. قال: كَيْفَ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ؟ قال: سَجَالٌ، يُدَالُ عَلَيْنَا الْمِرَّةَ، وَنُدَالُ عَلَيْهِ الْأُخْرَى. قال: كَذَلِكَ الرَّسُلُ تُبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ»^(١).

ومنها: أن يتميِّز المؤمنُ الصَّادِقُ مِنَ المنافقِ الكاذبِ، فإنَّ المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يومَ بدر، وطار لهم الصَّيْتُ، دخل معهم في الإسلام ظاهراً مَنْ ليس معهم فيه باطناً، فاقتضت حِكْمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ سَبَبَ لِعِبَادِهِ مِحْنَةً مَيَّزَتْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ، فَأُطْلِعَ الْمُنَافِقُونَ رُؤُوسَهُمْ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ، وَتَكَلَّمُوا بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَهُ، وَظَهَرَتْ مُحَبَّاتُهُمْ، وَعَادَ تَلْوِيحُهُمْ تَصْرِيحاً، وَانْقَسَمَ النَّاسُ إِلَى كَافِرٍ، وَمُؤْمِنٍ، وَمُنَافِقٍ، وَانْقَسَمُوا ظَاهِراً، وَعَرَفَ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ لَهُمْ عَدُوًّا فِي نَفْسِ دُورِهِمْ، وَهُمْ مَعَهُمْ لَا يُفَارِقُونَهُمْ، فَاسْتَعَدُّوا لَهُمْ، وَتَحَرَّزُوا مِنْهُمْ. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] أي: ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين، حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق، كما ميَّزهم بالمحنة يومَ أُحُدٍ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب الذي يميِّزُ به بين هؤلاء وهؤلاء، فإنهم متميِّزون في غيبه وعلمه، وهو سبحانه يُريد أن يميزهم تمييزاً مشهوداً، فيقع معلومُهُ الذي هو غيبٌ شهادةً.

(١) البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣).

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب، سوى الرسل، فإنه يُطلعهم على ما يشاء من غيبه، كما قال: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [٣٦] ﴿لَا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] فحظكم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيب الذي يُطَّلَعُ عليه رسله، فإن أمتهم به وأيقنتهم، فلکم أعظم الأجر والكرامة.

ومنها: استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، وفيما يُجْبُون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يُجْبُون وما يكرهون، فهم عبيدهُ حقاً، وليسوا كمن يعبد الله على حَرْفٍ واحدٍ مِنَ السَّراءِ والنعمة والعافية.

ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائماً، وأظفرهم بعدوهم في كل موطن، وجعل لهم التَّمَكِينَ والقَهَرَ لأعدائهم أبداً؛ لطغت نفوسهم، وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصر والظفر؛ لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بَسَطَ لهم الرِّزْقَ، فلا يُصْلِحُ عِبَادَهُ إِلَّا السَّراءُ والضَّراءُ، والشدة والرِّخاءُ، والقبضُ والبسطُ، فهو المدبِّرُ لأمر عباده كما يليقُ بحكمته، إنه بهم خير بصير.

ومنها: أنه إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة والهزيمة؛ ذلُّوا وانكسروا وخضعوا، فاستوجبوا منه العزَّ والنَّصرَ، فإن خَلَعَةَ النصرَ إنما تكونُ مع ولاية الذُّلِّ والانكسارِ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥] فهو سبحانه إذا أراد أن يُعِزَّ عبده، ويَجْبُرَهُ، وينصِّره، كسره أولاً،

ويكونُ جبرُهُ له ونصره، على مقدارِ ذلِّه وانكساره.

ومنها: أنه سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيتها إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغياناً ورُكُوناً إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدّها في سيرها إلى الله والدار الآخرة، فإذا أراد بها ربّها ومالكها وراحمها كرامته، قيض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواءً لذلك المرض العائق عن السير الخيِّث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقى العليل الدواء الكريه، ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدوية منه، ولو تركه، لغلّبتهُ الأدوية حتى يكون فيها هلاكه.

ومنها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه والمقربون من عباده، وليس بعد درجة الصّدّيقية إلا الشهادة، وهو سبحانه يُحب أن يتخذ من عباده شهداء، تُراق دماؤهم في محبته ومرضاته، ويؤثرون رضاه ومحابته على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم، قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم

بغيرهم، وطغيانهم، ومبالغتهم في أذى أوليائهم، ومحاربتهم، وقتالهم، والتسلط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) **إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ**، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) **أُولَئِكَ مَخَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ** ﴿ [آل عمران: ١٣٩-١٤١] فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهممهم، وبين حُسنِ التسلية، وذكر الحِكمِ الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ فقد استويتم في القرح والألم، وتباينتم في الرجاء والثواب، كما قال: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيلِ الشيطان، وأنتم أصبتم في سبيلِ وابتغاء مرضاتي.

ثم أخبر أنه يُداوِلُ أيامَ هذه الحياة الدنيا بين الناس، وأنها عَرَضٌ حَاضِرٌ، يقسمها دُولاً بين أوليائه وأعدائه بخلاف الآخرة، فإن عَزَّهَا ونَصَرَهَا ورجاءها خالصٌ للذين آمنوا.

ثم ذكر حِكْمَةَ أُخْرَى، وهي أن يتميِّز المؤمنون من المنافقين، فيعلمهم عِلْمَ رُؤْيَةٍ ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتب

عليه ثوابٌ ولا عقاب، وإنما يترتب الثوابُ والعقابُ على المعلوم إذا صار مشاهداً واقعاً في الحس.

ثم ذكر حكمةً أخرى، وهي اتخاذُ سبحانه منهم شهداء، فإنه يُحبُّ الشهداء من عباده، وقد أعدَّ لهم أعلى المنازل وأفضلها، وقد اتخذهم لنفسه، فلا بدَّ أن يُنيلهم درجة الشهادة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]، تنبيه لطيفٌ الموقع جداً على كراهته وبغضه للمنافقين الذين اتخذوا عن نبيه يومَ أحد، فلم يشهدوه، ولم يتخذ منهم شهداء، لأنه لم يُحبهم، فأركسهم وردَّهم ليحرمهم ما خصَّ به المؤمنين في ذلك اليوم، وما أعطاه من استشهد منهم، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أولياءه وحزبه.

ثم ذكر حكمةً أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم، وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتهم وتخليصهم من الذنوب، ومن آفات النفوس، وأيضاً فإنه خلَّصهم ومحَّصهم من المنافقين، فتميزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يُظهِر أنه منهم، وهو عدوهم.

ثم ذكر حكمةً أخرى، وهي محقُّ الكافرين بطغيانهم، وبغيهم، وعدوانهم، ثم أنكر عليهم حسبانهم، وظنَّهم أن يدخلوا الجنة بدون الجهاد في سبيله، والصبر على أذى أعدائه، وإن هذا ممتنع بحيث يُنكر على من ظنه وحسبه.

فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ

الصَّابِرِينَ ﴿ آل عمران: ١٤٢ ﴾ أي: ولما يَقَعُ ذَلِكَ منكم، فيعلمه، فإنه لو وقع، لعلمه، فجازاكم عليه بالجنة، فيكونَ الجزاء على الواقع المعلوم، لا على مجرد العلم، فإن الله لا يجزي العبدَ على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومُه، ثم وبَّخهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونَه ويودُّون لقاءه.

فقال: ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴾ ﴿ آل

عمران: ١٤٣ ﴾.

قال ابن عباس: ولما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة، رغبوا في الشهادة، فتمنوا قتالاً يستشهدون فيه، فيلحقون إخوانهم، فأراهم الله ذلك يوم أُحد، وسببه لهم، فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴾.

ومنها: أن وقعة أُحدٍ كانت مُقَدِّمَةً وإرهاصاً بين يدي موتِ رسولِ الله ﷺ، فثبتهم، ووبَّخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسولُ الله ﷺ أو قُتِلَ، بل الواجبُ له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيدِهِ ويموتوا عليه، أو يُقتلوا، فإنهم إنما يعبدون ربَّ محمد، وهو حيٌّ لا يموت، فلو ماتَ محمد أو قُتِلَ، لا ينبغي لهم أن يصرِّفهم ذلك عن دينه، وما جاء به، فكلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت، وما بُعثَ محمد ﷺ ليخلدَ لا هوَ ولا هم، بل ليُموتوا على الإسلامِ والتَّوحيدِ، فإن الموت لا بُدَّ منه، سواء مات رسولُ الله ﷺ أو بقِيَ، ولهذا وبَّخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطانُ: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ

خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ [آل عمران: ١٤٤] والشاكرون: هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قتلوا، فظهر أثر هذا العتاب، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله ﷺ، وارتدَّ من ارتدَّ على عقبيه، وثبت الشاكرون على دينهم، فنصرهم الله وأعزهم وظفرهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم.

ثم أخبر سبحانه أنه جعل لكل نفس أجلاً لا بُدَّ أن تستوفيه، ثم تلحق به، فيردُّ الناس كلُّهم حوض المنيا مؤرداً واحداً، وإن تنوعت أسبابه، ويصدرون عن موقف القيامة مصادر شتى، فريق في الجنة وفريق في السعير.

ثم أخبر سبحانه أن جماعة كثيرة من أنبيائه قتلوا وقُتِلَ معهم أتباع لهم كثيرون، فما وهنَ مَنْ بقيَ منهم لما أصابهم في سبيله، وما ضعُفُوا، وما استكانُوا، وما وهنُوا عندَ القتل، ولا ضعُفُوا، ولا استكانُوا، بل تلقوا الشهادة بالقوة والعزيمة والإقدام، فلم يُستشهدوا مُدبرين مستكينين أذلةً، بل استشهدوا أعزَّةً كراماً مقبلين غير مدبرين، والصحيح: أن الآية تتناول الفريقين كليهما.

ثم أخبر سبحانه عما استنصرت به الأنبياء وأممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم أن يُثبت أقدامهم، وأن ينصرهم على أعدائهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ فأنزلهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٧-١٤٨﴾ [آل عمران: ١٤٧-١٤٨].

لما علم القوم أن العدو إنما يُدال عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزهم ويهزمهم بها، وأنها نوعان: تقصيرٌ في حق أو تجاوزٌ لحد، وأن النصرَ منوطة بالطاعة، قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا. ثم علموا أن ربهم تبارك وتعالى إن لم يُثبت أقدامهم وينصرهم، لم يقدرُوا هم على تثبيت أقدام أنفسهم، ونصرها على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أنه بيده ذنوبهم، وأنه إن لم يُثبت أقدامهم وينصرهم لم يثبتوا ولم يتصروا، فوقوا المقامين حقهما: مقام المقتضى، وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه، ومقام إزالة المانع من النصر، وهو الذنوب والإسراف.

ثم حذرهم سبحانه من طاعة عدوهم، وأخبر أنهم إن أطاعوهم خسرُوا الدنيا والآخرة، وفي ذلك تعريض بالمنافقين الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفروا يوم أُحد.

ثم أخبر سبحانه أنه مولى المؤمنين، وهو خير الناصرين، فمن والاه فهو المنصور.

ثم أخبرهم أنه سيُلقي في قلوب أعدائهم الرعب الذي يمنعهم من الهجوم عليهم، والإقدام على حربهم، وأنه يؤيد حزبه بجند من الرعب ينتصرون به على أعدائهم، وذلك الرعب بسبب ما في قلوبهم من الشرك بالله، وعلى قدر الشرك يكون الرعب، فالمشرك بالله أشد شيء خوفاً ورعباً، والذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بالشرك، هم الأمن والهدى والفلاح، والمشرك له الخوف والضلال والشقاء.

ثم أخبرهم أنه صدقهم وعده في نصرتهم على عدوهم، وهو الصادق الوعد، وأنهم لو استمروا على الطاعة، ولزوم أمر الرسول لاستمرت نصرتهم، ولكن انخلعوا عن الطاعة، وفارقوا مركزهم، فانخلعوا عن عصمة الطاعة، ففارقتهم النصر، فصرفهم عن عدوهم عقوبةً وابتلاءً، وتعريفاً لهم بسوء عواقب المعصية، وحسن عاقبة الطاعة.

ثم أخبر أنه عفا عنهم بعد ذلك كله، وأنه ذو فضلٍ على عباده المؤمنين. قيل للحسن: كيف يعفو عنهم، وقد سلط عليهم أعداءهم حتى قتلوا منهم من قتلوا، ومثلوا بهم، ونالوا منهم ما نالوه؟ فقال: لولا عفوهم عنهم، لاستأصلهم، ولكن بعفوه عنهم دفع عنهم عدوهم بعد أن كانوا مجتمعين على استئصالهم.

ثم ذكّرهم بحالهم وقت الفرارِ مُصعدين، أي: جادّين في الهربِ والذهابِ في الأرضِ، أو صاعدين في الجبلِ لا يَلوونَ على أحدٍ من نبيهم ولا أصحابهم، والرسول يدعوهم في آخرهم: «إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ» (١) فأثابهم بهذا الهرب والفرارِ، غمّاً بعدَ غمٍّ: غمُّ الهزيمة والكسرة، وغمٌّ صرخةِ الشيطان فيهم بأن محمداً قد قُتل. وقيل: جازاكم غمّاً بما غممتُم رسوله بفراركم عنه، وأسلمتموه إلى عدوّه، فالغمُّ الذي حصل لكم جزاءً على الغمِّ الذي أوقعتموه بنبيّه، والقولُ الأوّل أظهر لوجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَيَّ مَا فَاتَكُمُ وَلَا مَا

(١) روي نحوه عن ابن عباس والسدي والحسن وقتادة والربيع بن أنس. انظر: «تفسير الطبري» (٦/١٤٧ - ١٤٩) و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣/٧٩٠).

أَصْبَبَكُمْ ﴿[آل عمران: ١٥٣] تَنْبِيهُ عَلَى حِكْمَةِ هَذَا الْغَمِّ بَعْدَ الْغَمِّ، وَهُوَ أَنْ يُنْسِيَهُمُ الْحَزْنَ عَلَى مَا فَاتَهُمْ مِنَ الظَّفْرِ، وَعَلَى مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْهَزِيمَةِ وَالْجِرَاحِ، فَنَسُوا بِذَلِكَ السَّبَبِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالْغَمِّ الَّذِي يَعُقِبُهُ غَمٌّ آخَرَ.

الثاني: أنه مطابق للواقع، فَإِنَّهُ حَصَلَ لَهُمْ غَمٌّ فَوَاتِ الْغَنِيمَةَ، ثُمَّ أَعْقَبَهُ غَمٌّ الْهَزِيمَةَ، ثُمَّ غَمُّ الْجِرَاحِ الَّتِي أَصَابَتْهُمْ، ثُمَّ غَمُّ الْقَتْلِ، ثُمَّ غَمُّ سَمَاعِهِمْ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قُتِلَ، ثُمَّ غَمُّ ظُهُورِ أَعْدَائِهِمْ عَلَى الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ غَمَّيْنِ اثْنَيْنِ خَاصَّةً، بَلْ غَمًّا مُتَّابِعًا لِتَهَامِ الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِمْتِحَانِ.

الثالث: أن قوله: ﴿يَغَمِّرُ﴾ من تمام الثواب، لا أنه سببُ جزاء الثواب، والمعنى: أثابكم غمًّا مُتَّصِلًا بِغَمِّ، جزاءً على ما وقع منهم من الهروب وإسلامهم نبيهم ﷺ وأصحابه، وترك استجابتهم له وهو يدعوهم، ومخالفتهم له في لزوم مركزهم، وتنازعهم في الأمر، وفشلهم، وكُلُّ واحدٍ من هذه الأمور يُوجِبُ غَمًّا يَخْصُّهُ، فترادفت عليهم الغمومُ كما ترادفت منهم أسبابها وموجبائها، ولولا أن تداركهم بعفوه، لكان أمرًا آخَرَ.

وَمِنْ لَطْفِهِ بِهِمْ، وَرَأْفَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، أَنْ هَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي صَدَرَتْ مِنْهُمْ، كَانَتْ مِنْ مَوْجِبَاتِ الطَّبَاعِ، وَهِيَ مِنْ بَقَايَا النُّفُوسِ الَّتِي تَمْنَعُ مِنَ النَّصْرَةِ الْمُسْتَقْرَةِ، فَتَقِيضُ لَهُمْ بِلَطْفِهِ أَسْبَابًا أَخْرَجَهَا مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ، فَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا آثَارُهَا الْمَكْرُوهَةَ، فَعَلِمُوا حَيْثُذُ أَنْ التَّوْبَةَ مِنْهَا وَالْإِحْتِرَازَ مِنْ أَمْثَالِهَا، وَدَفَعَهَا بِأَضْدَادِهَا أَمْرًا مُتَعَيَّنًا، لَا يَتِمُّ لَهُمُ الْفَلَاحُ وَالنَّصْرَةُ الدَّائِمَةُ الْمُسْتَقْرَةُ إِلَّا بِهِ، فَكَانُوا أَشَدَّ حَذْرًا بَعْدَهَا، وَمَعْرِفَةً بِالْأَبْوَابِ الَّتِي دَخَلَ عَلَيْهِمْ مِنْهَا.

لَعَلَّ عَتَبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ وَرُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعَلَلِ
 ثم إنه تداركهم سبحانه برحمته، وخفف عنهم ذلك الغم، وغيبه عنهم
 بالنعاس الذي أنزله عليهم أمناً منه ورحمة، والنعاس في الحرب علامة النصر
 والأمن، كما أنزله عليهم يوم بدر، وأخبر أن من لم يُصبه ذلك النعاس، فهو ممن
 أهمته نفسه لا دينه ولا نبيه ولا أصحابه، وأنهم يظنون بالله غير الحق ظنَّ
 الجاهلية.

وقد فسّر هذا الظنُّ الذي لا يليقُ بالله، بأنه سبحانه لا ينصُرُ رسوله، وأن أمره
 سيضمحلُّ، وأنه يُسلمه للقتل، وقد فسّر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه
 وقدره، ولا حكمة له فيه، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتمَّ أمر
 رسوله ويُظهِره على الدين كُله، وهذا هو ظنُّ السوء الذي ظنَّه المنافقون والمشركون
 به سبحانه وتعالى في سورة الفتح حيث يقول: ﴿وَيَعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ
 وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ ذَائِرَةُ السُّوءِ وَعَضِبَ اللَّهُ
 عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وإنما كان هذا ظنُّ السوء، وظنُّ الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظنُّ
 غير الحق، لأنه ظنُّ غير ما يليقُ بأسمائه الحسنی، وصفاته العلیا، وذاته المبرأة من
 كلِّ عيبٍ وسوء، بخلاف ما يليقُ بحكمته وحمده، وتفردِهِ بالربوبية والإلهية، وما
 يليقُ بوعدِهِ الصادق الذي لا يُخلفُهُ، وبكلمته التي سبقت لرسوله أنه ينصُرهم
 ولا يخذلهم، ولجندِهِ بأنهم همُّ الغالبون.

فمن ظنَّ بأنه لا ينصُرُ رسوله، ولا يتمُّ أمره، ولا يؤيِّده، ويؤيدُ حزبه،

ويُعليهم، ويُظفرهم بأعدائه، ويُظهرهم عليهم، وأنه لا ينصرُ دينه وكتابه، وأنه يُدِيلُ الشِرْكَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَالْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقْرَةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا التَّوْحِيدَ وَالْحَقَّ اضْمَحِلَالاً لَا يَقُومُ بَعْدَهُ أَبَدًا، فَقَدْ ظَنَّ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوِّءِ، وَنَسَبَهُ إِلَى خِلَافِ مَا يَلِيقُ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ، وَصِفَاتِهِ وَنَعْوَتِهِ، فَإِنَّ حَمْدَهُ وَعِزَّتَهُ، وَحِكْمَتَهُ وَإِهْيَتَهُ تَأْبَى ذَلِكَ، وَتَأْبَى أَنْ يَذَلَّ حِزْبُهُ وَجُنْدُهُ، وَأَنْ تَكُونَ النِّصْرَةُ الْمُسْتَقْرَةَ، وَالظَّفْرُ الدَّائِمَ لِأَعْدَائِهِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ، الْعَادِلِينَ بِهِ. فَمَنْ ظَنَّ بِهِ ذَلِكَ، فَمَا عَرَفَهُ، وَلَا عَرَفَ أَسْمَاءَهُ، وَلَا عَرَفَ صِفَاتِهِ وَكَمَالَهُ.

وكذلك مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِقِضَائِهِ وَقَدْرِهِ، فَمَا عَرَفَهُ، وَلَا عَرَفَ رَبَّوِيَّتَهُ، وَمَلَكَةَ وَعِظْمَتَهُ، وَكَذَلِكَ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَّرَ مَا قَدَّرَهُ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ لِحِكْمَةِ بِالْغَةِ، وَغَايَةِ مَحْمُودَةٍ يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ عَلَيْهَا، وَأَنْ ذَلِكَ إِنَّمَا صَدَرَ عَنْ مَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ عَنْ حِكْمَةٍ، وَغَايَةِ مُطْلُوبَةٍ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ فَوْتِهَا، وَأَنْ تِلْكَ الْأَسْبَابُ الْمَكْرُوهَةُ الْمَفْضِيَّةُ إِلَيْهَا لَا يَخْرُجُ تَقْدِيرُهَا عَنِ الْحِكْمَةِ لِإِفْضَائِهَا إِلَى مَا يُحِبُّ، وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُوهَةً لَهُ، فَمَا قَدَّرَهَا سُدىً، وَلَا أَنْشَأَهَا عِبْثًا، وَلَا خَلَقَهَا بَاطِلًا، ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ السَّوِّءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، وَلَا يَسْلَمُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ، وَعَرَفَ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَعَرَفَ مُوجِبَ حَمْدِهِ وَحِكْمَتِهِ، فَمَنْ قَنِطَ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَأَيْسَ مِنْ رَوْحِهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوِّءِ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ يَنَالُ مَا عِنْدَهُ بِمَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ، كَمَا يَنَالُهُ بِطَاعَتِهِ وَالتَّقَرُّبِ

إليه، فقد ظنَّ به خلافَ حِكْمَتِهِ وخلافَ موجبِ أسمائه وصفاته، وهو من ظنِّ السَّوِّءِ.

وَمَنْ ظنَّ به أنه إذا تركَ لأجله شيئاً لم يُعَوِّضه خيراً منه، أو مَنْ فعلَ لأجله شيئاً لم يُعْطِه أفضلَ منه، فقد ظنَّ به ظنِّ السَّوِّءِ.

ومن ظنَّ به أنه إذا صدقه في الرغبة والرغبة، وتضرَّع إليه، وسأله، واستعان به، وتوكلَ عليه أنه يُجِيبُه ولا يُعْطِيه ما سأله، فقد ظنَّ به ظنِّ السَّوِّءِ، وظنَّ به خلافَ ما هو أهله.

فأكثر الخلق، بل كلهم إلا مَنْ شاء الله يظنون بالله غير الحقِّ ظنَّ السَّوِّءِ، فإن غالبَ بني آدم يعتقد أنه مبخوسُ الحق، ناقصُ الحظ وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربِّي، ومنعني ما أستحقُّه ونفسه تشهدُ عليه بذلك، وهو بلسانه يُنكره ولا يتجاسرُ على التصريح به!

وَمَنْ فَتَّشَ نفسه، وتغلغل في معرفة دوائنها وطواياها، رأى ذلك فيها كامنًا كُموُنَ النارِ في الزناد، فاقدح زنادَ مَنْ شئتُ يُنبئك شرَّاره عما في زناده، ولو فتَّشتَ مَنْ فتَّشته، لرأيت عنده تعتُّبًا على القدر وملامة له، واقتراحاً عليه خلافَ ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقلٌّ ومستكثرٌ، وفتَّشَ نفسك هل أنت سالمٌ من ذلك؟

فَإِنْ تَنَجَّ مِنْهَا تَنَجَّ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَأَإِحَالِكَ نَاجِيًا
فليعتنِ اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا الموضوع، وليتُبْ إلى الله تعالى وليستغفره

كلّ وقت من ظنه بربه ظنّ السَّوءِ، وليظنّ السَّوءَ بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبع كل شر، المركّبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السَّوءِ من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين، الغنى الحميد، الذي له الغنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزهة عن كل سوء في ذاته وصفاته، وأفعاله وأسماؤه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كذلك، كُلُّهَا حِكْمَةٌ وَمَصْلِحَةٌ، وَرَحْمَةٌ وَعَدْلٌ، وَأَسْمَاؤُهُ كُلُّهَا حُسْنَى (١).

فَلَا تَظُنُّنْ بِرَبِّكَ ظَنًّا سَوْءًا فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ
وَلَا تَظُنُّنْ بِنَفْسِكَ قَطُّ خَيْرًا وَكَيْفَ بِظَالِمٍ جَانٍ جَهُولِ
وَقُلْ يَا نَفْسُ مَا أَوْى كُلُّ سُوءٍ أَيَّرَجَى الْخَيْرَ مِنْ مَيْتٍ بَخِيلِ
وَوَظُنَّ بِنَفْسِكَ السُّوَاى تَجِدَهَا كَذَاكَ وَخَيْرَهَا كَالْمُسْتَحِيلِ
وَمَا بِكَ مِنْ تُقَى فِيهَا وَخَيْرٍ فَتِلْكَ مَوَاهِبُ الرَّبِّ الْجَلِيلِ
وَلَيْسَ بِهَا وَلَا مِنْهَا وَلَكِنْ مِنَ الرَّحْمَنِ فَاشْكُرْ لِلدَّلِيلِ

والمقصود ما ساقنا إلى هذا الكلام من قوله: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ

يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ثم أخبر عن الكلام الذي صدر عن ظنهم الباطل، وهو قولهم: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ فليس مقصودهم بالكلمة الأولى والثانية إثبات القدر، ورد الأمر كُله إلى الله، ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى، لما دُموا عليه، ولما حَسُنَ الرُّدُّ عليه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ ولا كان

(١) وانظر: حسن الظن بالله تعالى. ضمن هذه السلسلة.

مصدرُ هذا الكلام ظنُّ الجاهلية، ولهذا قال غيرُ واحد من المفسِّرين: إن ظنَّهم الباطل هاهنا: هو التكذيب بالقدر، وظنَّهم أن الأمر لو كان إليهم، وكان رسولُ الله ﷺ وأصحابُه تبعاً لهم يسمعون منهم، لما أصابهم القتلُ، وكان النصرُ والظفرُ لهم، فأكذبهم الله عزَّ وجلَّ في هذا الظنِّ الباطل الذي هو ظنُّ الجاهلية، وهو الظنُّ المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذِ القضاء والقدر الذي لم يكن بُدَّ من نفاذه أنهم كانوا قادرين على دفعه، وأن الأمر لو كان إليهم، لما نفذ القضاء، فأكذبهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدره، وجرى به علمه وكتابه السابق، وما شاء الله كان ولا بُدَّ، شاءَ الناسُ أم أبوا، وما لم يشأْ لم يكن، شاءه الناسُ أم لم يشأوه، وما جرى عليكم من الهزيمة والقتل، فبأمره الكوني الذي لا سبيلَ إلى دفعه، سواء أكان لكم من الأمر شيء، أو لم يكن لكم، وأنَّكم لو كنتم في بيوتكم، وقد كُتِبَ القتلُ على بعضكم لخرج الذين كُتِبَ عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولا بُدَّ، سواء أكان لهم من الأمر شيء، أو لم يكن، وهذا من أظهر الأشياء إبطالاً لقول القَدَرِيَّةِ النفاة، الذين يُجَوِّزون أن يقع ما لا يشأؤه الله، وأن يشاء ما لا يقع.

ثم أخبر سبحانه عن حِكْمَةِ أُخْرَى في هذا التقدير: هي ابتلاء ما في صدورهم، وهو اختبار ما فيها من الإيِّان والنفاق، فالمؤمنُ لا يزدادُ بذلك إلا إيماناً وتسليماً، والمنافقُ ومن في قلبه مرضٌ، لا بد أن يظهر ما في قلبه على جوارحه ولسانه.

ثم ذكر حِكْمَةَ أُخْرَى: وهو تمحيص ما في قلوب المؤمنين، وهو تخليصه

وتنقيته وتهذيبه، فإن القلوب يُخالطها بغلبات الطباع، وميل النفوس، وحكم العادة، وتزيين الشيطان، واستيلاء الغفلة ما يُضادُّ ما أُودعَ فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى، فلو تُركت في عافية دائمة مستمرة، لم تتخلَّص من هذه المخالطة، ولم تتمحص منه، فاقتضت حكمة العزيز أن قيَّض لها من المحن والبلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده، وإلا خيف عليه منه الفساد والهلاك، فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة، وقتل مَنْ قُتل منهم، تُعادلُ نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم، فله عليهم النعمة التامة في هذا وهذا.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن تولى مَنْ تولى من المؤمنين الصادقين في ذلك اليوم، وأنه بسبب كسبهم وذنوبهم، فاستزهم الشيطان بتلك الأعمال حتى تولَّوا، فكانت أعمالهم جنداً عليهم، ازداد بها عدوهم قوة، فإن الأعمال جند للعبد وجندٌ عليه، ولا بُدَّ فللعبد كلُّ وقت سريةٍ من نفسه تهزُّمه، أو تنصره، فهو يمدُّ عدوّه بأعماله من حيث يظن أنه يُقاتله بها، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه، فأعمال العبد تسوقه قسراً إلى مقتضاها من الخير والشر، والعبد لا يشعر أو يشعر ويتعامى، ففرار الإنسان من عدوه، وهو يُطبقه إنما هو بجند من عمله، بعثه له الشيطان واستزله به.

ثم أخبر سبحانه: أنه عفا عنهم، لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق ولا شك، وإنما كان عارضاً، عفا الله عنه، فعادت شجاعة الإيمان وثباته إلى مركزها ونصابها.

ثم كرّر عليهم سبحانه: أن هذا الذي أصابهم إنما أتوا فيه من قبل أنفسهم، وبسبب أعمالهم، فقال: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُمْصِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وذكر هذا بعينه فيما هو أعم من ذلك في السور المكية فقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

فالحسنة والسيئة هاهنا: النعمة والمصيبة، فالنعمة من الله من بها عليك، والمصيبة إنما نشأت من قبل نفسك وعملك، فالأول فضله، والثاني عدله، والعبد يتقلب بين فضله وعدله، جارٍ عليه فضله، ماضٍ فيه حكمه، عدلٌ فيه قضاؤه.

وختم الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ إعلماً لهم بعموم قدرته مع عدله، وأنه عادلٌ قادر، وفي ذلك إثباتُ القدرِ والسببِ، فذكر السببِ، وأضافه إلى نفوسهم، وذكر عموم القدرة وأضافها إلى نفسه، فالأول ينفي الجبر، والثاني ينفي القولَ بإبطال القدر، فهو يشاكل قوله: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩].

وفي ذكر قدرته هاهنا نكتة لطيفة، وهي أن هذا الأمر بيده وتحت قدرته، وأنه هو الذي لو شاء لصرفه عنكم، فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره، ولا

تَتَكَلَّمُوا عَلَى سِوَاهُ، وَكَشَفَ هَذَا الْمَعْنَى وَأَوْضَحَهُ كُلُّ الْإِيضَاحِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانَ فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٦٦]. وهو الإذن الكوني القدرى، لا الشرعى الدينى، كقوله فى السحر: ﴿وَمَا هُمْ بِضَكَارَيْنَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير: وهى أن يعلم المؤمن من المنافقين علم عيان ورؤية يتميز فيه أحد الفريقين من الآخر تمييزاً ظاهراً، وكان من حكمة هذا التقدير تكلم المنافقين بما فى نفوسهم، فسمعه المؤمنون، وسمعوا رد الله عليهم وجوابه لهم، وعرفوا مؤدى النفاق وما يؤول إليه، وكيف يُحرم صاحبه سعادة الدنيا والآخرة، فيعود عليه بفساد الدنيا والآخرة.

فله كم من حكمة فى ضمن هذه القصة بالغّة، ونعمة على المؤمنين سابغة، وكم فيها من تحذيرٍ وتخويفٍ وإرشادٍ وتنبية، وتعريفٍ بأسباب الخير والشر ومآلها وعاقبتها.

ثم عزى نبيه وأولياءه عمن قُتل منهم فى سبيله أحسن تعزية، وألطفها وأدعاها إلى الرضى بما قضاه لها، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٣٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠] فجمع لهم إلى الحياة الدائمة منزلة القرب منه، وأنهم عنده، وجريان الرزق المستمر عليهم، وفرحهم بما آتاهم من فضله، وهو فوق الرضى، بل هو كمال الرضا، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يتم سرورهم ونعيمهم، واستبشارهم بما يُجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته.

وذكرهم سبحانه في أثناء هذه المحنة بما هو من أعظم مننه ونعمه عليهم التي إن قابلوا بها كل محنة تناولهم وبليّة، تلاشت في جنب هذه المنّة والنعمّة، ولم يبق لها أثر البتّة، وهي منته عليهم بإرسال رسولٍ من أنفسهم إليهم، يتلو عليهم آياته، ويؤكدهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويُنقذهم من الضلال الذي كانوا فيه قبل إرساله إلى الهدى، ومن الشقاء إلى الفلاح، ومن الظلمة إلى النور، ومن الجهل إلى العلم.

فكلُّ بليّةٍ ومحنةٍ تنال العبد بعد حصول هذا الخير العظيم له أمرٌ يسيرٌ جداً في جنب الخير الكثير، كما ينال الناس بأذى المطر في جنب ما يحصل لهم به من الخير، فأعلمهم أن سبب المصيبة من عند أنفسهم ليحذروا، وأنها بقضائه وقدره ليوحدوا ويتكلموا، ولا يخافوا غيره، وأخبرهم بما لهم فيها من الحكم لئلا يتهموه في قضائه وقدره، وليتعرّف إليهم بأنواع أسمائه وصفاته، وسلاّمهم بما أعطاهم مما هو أجلُّ قدراً، وأعظمُ خطراً مما فاتهم من النصر والغنيمة، وعزّاهم عن قتلاهم بما نالوه من ثوابه وكرامته، لينافسوه فيهم، ولا يحزنوا عليهم، فله الحمد كما هو أهلّه، وكما ينبغي لكرم وجهه، وعزّ جلاله» (١).

ومما قلتُ قديماً في هذه المعاني الجليلة الجميلة:

أيا مبتغي الفردوسِ عَجِّلْ بصارمٍ وَكُنْ صَادِقَ الإِقْبَالِ عند التَّلَاقِ
فإن تَحْيَى عِشْتَ العِزَّ في كُلِّ لحظةٍ وإن كانت الأخرى ستَلْقَى المراقِيا
فللعبد إن يَصْدُقْ وَيُمْسِي مُجَنِّداً شهيداً فقد فاحت دماءُ زواكيا

(١) زاد المعاد، (٣/ ٢١٨ - ٢٣٩) باختصار واقتصار.

فما يتتصر الإسلام غير إلهيا
 وليصدقن الله في الحرب لاقيا
 ومن نصر المولى له النصر ساعيا
 فمن كذب الرحمن فالقصر ما حيا
 فبادر وكن للدين حصناً وحامياً
 وإن أجلب الشيطان كل النواديا
 إذا هينة ثارت وما كنت راميا
 ويا رب أملاكاً عظاماً ثانيا
 وختم حياتي بالسرور المواتيا
 بعيداً عن الأوطان للشرك غازيا
 فما أطيب الآلام إن كنت راضيا
 بجوف طيور أو بطون العوافيا
 وأزرع الغماماً لنسف الأعدايا
 برمي رصاص الحق جماً غواشياً
 وضحوا لمولاهم بعيراً فما ليا؟
 فثاماً من الكفار أضحت بواليا
 ولا عجباً فالكنز في القلب خافيا
 إذا جندل المخدول تحت السوافيا
 وقد خاض زحفاً بل حروباً ضواريا
 فلا نام من أمسى جباناً وساليا!

لئن نثر الكفار كل سهامهم
 فلندعون الله ليلاً وبكرة
 ومن صدق الجبار يجبر كسره
 فيا قوم قوموا فاصدقوا في لقا العدا
 ويا فارس التوحيد مالك لا ترى؟!
 وأبشر أخوا الإيمان فالفتح قادم
 أيا طول يومي ثم يا طول ليلتي
 فيا رب يا ذا الجود والطول والندى
 ويا كامل الأوصاف: هب لي شهادة
 فأسأل ربّي أن تكون منيتي
 فخذ من دمائي يا سميعاً لدعوتي
 ويا رب قطّعي وفرق مفاصلي
 أسوق لحرق الكفر نيران مدفعي
 فهمني رضى ربّي بقتلي لكافر
 لئن قرب العباد في العيد أنعماً
 فيا رب فاقبلها قرابين راحتي
 يظن بي المغرور ظن سفاهة
 سيعلم من قد فاز فوزاً ورفعة
 وقد مات سيف الله بالأمس خالد
 وقد قال قولاً يقدح النور في النهي

قتيلاً كليلاً من قتال البواغيا
وقد مات خوّاراً جباناً ولاهيا؟!
فقد نادى الفردوس من كان ساميا
فأعظم به خُسراً شديداً وكاويا!
وقد صاح صوت في الرجال مناديا؟!
به النار تُذكى من لحوم الطّواغيا
فيا ويح وأخسراً لمن كان عاصيا!
فأين مقام العزّ إلا مقاميا؟
ببعثك جنداً في زمان التّهاويا
وأزع لها سمعاً من القلب صاغيا
فحيّ هلاً بالحرب زادت شعاعيا!
يريد بكم كيداً عظيم الدّواهايا
ألا حبّذا قرماً عن الدّين حاميا
فإن عرين الليث قد بات خاليا
فهذا أوانٌ للنّهوض بدا ليّا
على خيرٍ من أرسلت للكفر ماحيا
وفي كلّ يومٍ من جديد الزّمانيا
إذا كان تُربّ القبر قسراً وساديا

فيا ليت شعري أين ميتة من ثوى
ومن مات مثل الكلب من شبع بطنه
فمن ذا يبيع المُستَهام جناهُ
لئن قرّب الرّحمن عبداً وأنت لا
أترضى قعوداً يا جبان مع النساء
تذكّر هداك الله يوم قيامة
أما عرف المسكين شدة حرّها؟
لئن عزّ ديني واستيحت جوارحي
لك الحمد يا ربّاً عظيماً نواله
أيا سامعاً فافهم هديت مقالتي
لقد هبت الأرواح نصراً ونجدة
ففيه حمّة الدّين جاء عدوكم
فإن تستجيبوا للكفور فخبتم
أيا أمّة الإسلام جدّوا وأدلجوا
لئن كان للإسلام قومٌ ودولة
وصلّ إله الناس ما مات مسلم
عليه سلامٌ الله في كلّ ليلة
تمّت وأدعو الله يرحم غربتي



المبشرات الواقعية

من أعظم المبشرات الواقعية بأن المستقبل للإسلام حالة التدين العام أو ما يسمى بالصحووة الإسلامية المباركة التي يشهدها العالم الإسلامي اليوم، حيث أصبح الالتزام بتعاليم الدين الحنيف والتمسك بشرائع الإسلام وآدابه وأخلاقه ظاهرة واضحة بين جيل الشباب والفتيات، وهي حدث تاريخي له دلالة الواقعية، فهي تجيء من جهة بعد الجهد الكبير الذي بذلته القوى الصليبية والصهيونية على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان لزحزحة الأمة المسلمة عن دينها وسلخها عن عقيدتها وأخلاقها، وتجيء من جهة أخرى والبشرية في أحد منعطفاتها التاريخية، وقد بدأت تياس من حضاراتها المادية الجافة وبدأت تتطلع وتبحث عن المنقذ والمخلص الجديد^(١).

وهذا الظاهرة من التدين العام بمظاهرها الظاهرة والخفية ليست عارضة أو طارئة، كما أنها ليست رد فعل لظروف معينة أو أوضاع اجتماعية، بل هي امتداد طبيعي لرسالة الأمة الإسلامية من خلال الطائفة القائمة على الدين، الظاهرة على الحق رغم كل العقبات والتحديات والمؤامرات التي تحاول زحزحتها عن إسلامها.

وقد ظهرت بعد فشل النظم المستوردة في حل مشكلات الناس وقضاياهم، وفشل الزعماء العلمانيين وسياساتهم في تحقيق ما كانت تعلقه عليهم

(١) انظر: رؤية إسلامية لأحوال العالم الإسلامي (٢٤٢).

الشعوب من الآمال والأمانى حيث لم يجد المسلمون من زعمائهم العلمانيين إلا المزيد من تمزق الدول الإسلامية، وتفتيت العالم الإسلامي، وتراكم الديون الربوية، وظهور طبقة الأغنياء والمترفين والمفسدين في الأرض، وانحيار الأخلاق، وتدهور القيم، واستفحال الفواحش والمنكرات، واقتطاع القدس وما حولها من قلب العالم الإسلامي. فحين يأس الناس من هذه النظم والزعامات اتجهوا إلى الإسلام^(١). ويتجلى ذلك في أمور كثيرة منها:

عودة كثير من الشباب إلى الإسلام رغم محاولات الأحزاب العلمانية والإلحادية التي بذلت لصرفهم عن ذلك، حتى أصبحت كثير من هذه الأحزاب تعاني من الكساد في ترويج أفكارها، وقلة أعداد الشباب الذين يطرقون أبوابها، وتحول كثير من الشباب من الأحزاب الشيوعية والقومية إلى الاجتماعات الإسلامية كما هو مشاهد.

ومن مظاهر هذا التدين العام المبارك الفوز الذي يحققه أصحاب الاتجاه الإسلامي في النقابات والجامعات في كثير من ديار الإسلام. كما أصبحت مكة المكرمة تزدهم بالشباب المسلم القادمين من أنحاء العالم الإسلامي لأداء مناسك العمرة والحج، كما يلاحظ عودة الكثير من النساء خاصة الفتيات إلى الحجاب الشرعي.

ومن مظاهره أيضاً توبة عدد كبير من الممثلين والممثلات، والمغنيين والمغنيات، حيث عادوا إلى دينهم وتمسكوا به معتزين ونادمين على ما فات، كما

(١) واقعنا المعاصر (٥٣٨-٥٣٩).

عاد الشباب المسلم الذي يدرس في أوروبا وأمريكا إلى الإسلام، وانكبوا عليه فهماً وعملاً ودعوة، ولم تؤثر فيهم الثقافة الغربية اللادينية، بل أصبحوا هم دعاة في بلاد الغرب، وصورة نقية صافية تمثل هذا الدين في بلاد الكفر، مما جعل الكثير، بل الآلاف من الغربيين والأمريكيين يعتنقون الإسلام اقتناعاً به، وهروباً من حياتهم المادية، ومعاناتهم الروحية، فانتشر الإسلام في أوروبا وأمريكا وتحولت العشرات من الكنائس إلى مساجد^(١).

ولا يجوز أن يتطرق إلى قلوبنا الشك، بسبب ما نراه حولنا من الضربات الوحشية التي تكال للأمة المسلمة في كل مكان، ولا بسبب ما نراه كذلك من ضخامة الأسس التي تقوم عليها الحضارة المادية، والذي يفصل في الأمر ليس هو ضخامة الباطل، وليس هو قوة الضربات التي تكال للإسلام، إنما الذي يفصل في الأمر هو قوة الحق ومدى الصمود للضربات، فالبشرية اليوم بحاجة إلى من يغنيها عن جهالة الشيوعية، ويريحها من طغيان الرأسمالية بأذرعها العلمانية والليبرالية والوجودية وغيرها، فهي نظم معاندة للفطرة البشرية السوية، والنظام الإسلامي هو البديل والقرآن والسنة هما العلاج والحل لكل ما تعانيه البشرية من هموم ومشاكل ومعضلات في شتى مناحي الحياة.

ونحن أمام هذه المبشرات القرآنية والنبوية والواقعية لا يسعنا إلا أن نؤمن إيماناً جازماً بوعد الله وثق ثقة تامة بنصر الله وتمكينه، فالمراد الإسلامي يتقدم

(١) انظر: عداء اليهود للحركة الإسلامية، زياد أبو غنيم، (١٠١) واقعنا المعاصر (٥٣٨) -

(٥٣٩) الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات (٣٨/١).

لقيادة البشرية، ونصر الله آت لا محالة وسنة الله ماضية، ولن تجد لسنة الله
تحويلًا، ولن تجد لسنة الله تبديلًا^(١).



(١) الاعتصام بحبل الله بين الواقع والمبشرات (دراسة قرآنية واقعية) د. محمود هاشم عنبر
(١ / ٣٥ - ٣٨) باختصار وتصرف يسيرين.

كتاب الاعتصام للبخاري

لقد عقد الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه كتابًا خاصًا بهذا سماه كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، وقد ذكر رحمه الله تعالى أنه قد كتبه في ليلة واحدة،^(١) فله در تلك الليلة ما أكثر بركتها على الأمة.

وقد تناوله العلماء بالدرس والتحليل والشرح والانتفاع، وتعاوروا على الإحالة إليه؛ لما في الأمة من مسيس الحاجة له، وضرورة العلم به، خاصة في أزمنة الفتن المدلّمة كزماننا والله المستعان. ولأهميته سأورد منتخبات من مهمّاته، مع شيء من شروح أهل العلم وتعليقاتهم عليها وتدبرٍ حسنٍ تراجمه ودقة اختياره عليه الرحمة والرضوان، وفي عنق الحسناء يُستحسن العقد، ومن قصد البحر استقلّ السواقيا. وسأجعل المتن بين معقوفتين [.]

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: [كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة].^(٢)

قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ لِعُمَرَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ أَنَّ عَلَيْنَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

(١) قال البخاري رحمه الله تعالى: «صنفت كتاب الاعتصام في ليلة». سير أعلام النبلاء (٤١٢/١٢).

(٢) ورقم كتاب الاعتصام (٩٧) ويليهِ كتاب التوحيد الذي ختم به الصحيح، وعدد أبوابه - أي الاعتصام - (٢٩) بابًا، وعدد أحاديثه وآثاره (١٠٢)، مرقومة من: (٧٢٦٨) إلى: (٧٣٧٠) بترقيم السلطانية.

[المائدة: ٣] لَا تَخْذُنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا. فَقَالَ عُمَرُ: «إِنِّي لِأَعْلَمُ أَيَّ يَوْمٍ نَزَلَتْ: هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ يَوْمَ عَرَفَةَ، فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ».

وعن أنس، سَمِعَ عُمَرَ الْغَدَّ حِينَ بَايَعَ الْمُسْلِمُونَ أَبَا بَكْرٍ، وَاسْتَوَى عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، تَشْهَدَ قَبْلَ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَاخْتَارَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﷺ الَّذِي عِنْدَهُ عَلَى الَّذِي عِنْدَكُمْ، وَهَذَا الْكِتَابُ الَّذِي هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَكُمْ، فَخُذُوا بِهِ تَهْتَدُوا، وَإِنَّمَا هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ».

وعن ابن عباس: ضَمَّنِي النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْكِتَابَ». وعن أبي بَرزَةَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُغْنِيكُمْ بِالْإِسْلَامِ وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ». وعن ابن عمر، أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ يُبَايِعُهُ، وَأَقْرَأَ لَكَ: بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ فِيمَا اسْتَطَعْتُ.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بعثتُ بجوامع الكلم، ونُصرتُ بالرُّعبِ، وبيننا أنا نائم رأيتني أُتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي». قال أبو هريرة: «فقد ذهب رسول الله ﷺ وأنتم تلغثونها^(١)».

وعن أبي هريرة، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(١) من اللغيث: وهو الطعام المخلوط بالشعير. والمعنى: تأكلونها كيفما اتفق.

والمراد أي (١): صُدِّقَ بتلك الآيات لإعجازها لمن شهدها، كقلب العصا حية، وخلق البحر لموسى، وكإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ليعسى، وكان الذي أعطيه ﷺ وحيًا أوحاه الله إليه. فكان آية باقية دعي إلى الإتيان بمثله أهل التعاطي له، ومن نزل بلسانهم، فعجزوا عنه، ثم بقي آية ماثلة للعقول إلى من يأتي إلى يوم القيامة، يرون إعجاز الناس عنه رأى العين.

والآيات التي أوتيتها غيره من الأنبياء قبله رثي إعجازها في زمانهم، ثم لم تصحبهم إلا مدة حياتهم، وانقطعت بوفاتهم، وكان القرآن باقياً بعد النبي ﷺ يتحدى الناس إلى الإتيان بمثله، ويعجزهم على مرور الأعصار، فكان آية باقية لكل من أتى، فلذلك رجا أن يكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة، مع أن الله تعالى قد ضمن هذه الآية ألا يدخلها الباطل إلى أن تقوم الساعة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وضمن نبينا ﷺ بقاء شريعته وإن ضيع بعضها قوم بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» (٢).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «معنى الحصر في قوله: «إنما كان الذي أوتيته» أن القرآن أعظم المعجزات وأفيدها وأدومها لاشتماله على الدعوة

(١) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣٣٠/١٠ - ٣٣١) وعمدة القاري شرح

صحيح البخاري (٣٧٣/٣٥) وما بعدها، وكذلك: فتح الباري للحافظ ابن حجر

(١٣/٢٤٥ وما بعدها).

(٢) رواه مسلم (٩٥/٣).

والحجة ودوام الانتفاع به إلى آخر الدهر، فلما كان لا شيء يقاربه فضلاً عن أن يساويه؛ كان ما عداه بالنسبة إليه كأن لم يقع.

وقيل: يؤخذ من إيراد البخاري هذا الحديث عقب الذي قبله أن الراجح عنده أن المراد بجوامع الكلم القرآن وليس ذلك بلازم، فإن دخول القرآن في قوله: «بعثت بجوامع الكلم» لا شك فيه، وإنما النزاع: هل يدخل غيره من كلامه من غير القرآن؟

وقد ذكروا من أمثلة جوامع الكلام في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩] وقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢] إلى غير ذلك، ومن أمثلة جوامع الكلم من الأحاديث النبوية: حديث عائشة: «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١) وحديث: «كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل»^(٢) متفق عليهما، وحديث أبي هريرة: «وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(٣) وحديث المقدم: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه»^(٤) الحديث أخرجه

(١) البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) بلفظ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

(٢) البخاري (٢٥٦٣)، ومسلم (١٥٠٤).

(٣) البخاري (٧٣٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٤) أحمد (١٧١٨٦)، والترمذي (٢٣٨٠)، والنسائي (٨٧٣٦)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وغيرهم. وصححه الألباني.

الأربعة وصححه ابن حبان والحاكم، إلى غير ذلك مما يكثرت بالتبع.

وإنما يسلم ذلك فيما لم تتصرف الرواة في ألفاظه، والطريق إلى معرفة ذلك أن تقلّ مخارج الحديث وتتفق ألفاظه، وإلا فإن مخارج الحديث إذا كثرت قلّ أن تتفق ألفاظه؛ لتوارد أكثر الرواة على الاختصار على الرواية بالمعنى بحسب ما يظهر لأحدهم أنه واف به.

والحامل لأكثرهم على ذلك: أنهم كانوا لا يكتبون، ويطول الزمان فيتعلق المعنى بالذهن، فيرتسم فيه، ولا يستحضر اللفظ فيحدث بالمعنى لمصلحة التبليغ، ثم يظهر من سياق ما هو أحفظ منه أنه لم يوف بالمعنى» (١).

وقال: [باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ وقول الله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] وقال: أئمة نقتدى بمن قبلنا، ويقتدى بنا من بعدنا.

وقال ابن عون: ثلاث أحبهن لنفسي ولإخواني: هذه السنة، أن يتعلموها، ويسألوا عنها، والقرآن أن يتفهموه ويسألوا عنه، ويدعوا الناس إلا من خير (٢).

(١) فتح الباري لابن حجر (١٣ / ٢٥١).

(٢) قال الكرماني: «قال في القرآن: «يتفهموه» وفي السنة: «يتعلموها» لأن الغالب أن المسلم يتعلم القرآن في أول أمره فلا يحتاج إلى الوصية بتعلمه، فلهذا أوصى بتفهم معناه وإدراك منطوقه.

ويحتمل أن يكون السبب أن القرآن قد جُمع بين دفتي المصحف ولم تكن السنة يومئذ جمعت، فأراد بتعلمها جمعها ليتمكن من تفهمها، بخلاف القرآن فإنه مجموع فليبادر

وعن أبي وائل قال: جَلَسْتُ إِلَى شَيْبَةَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ، قَالَ: جَلَسَ إِلَيَّ عُمَرُ فِي مَجْلِسِكَ هَذَا، فَقَالَ: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَدْعَ فِيهَا صَفْرَاءَ وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا قَسَمْتُهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، قُلْتُ: مَا أَنْتَ بِفَاعِلٍ، قَالَ: لِمَ؟ قُلْتُ: لَمْ يَفْعَلْهُ صَاحِبُكَ. قَالَ: هُمَا الْمَرْءَانِ يُقْتَدَى بِهِمَا.

وعن حذيفة، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرَّجَالِ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ، فَقَرَأُوا الْقُرْآنَ، وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ».

«قال المهلب: وأما الأمانة التي في حديث حذيفة، فإنها الإيمان وجميع شرائعه، والتنزه عن الخيانة وشبهها. والجذر: أصل الشيء، فدل ذلك أن الإيمان مفروض على القلب»^(١).

[وعن عبد الله: إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهُدَى هَدْيُ^(٢) مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا وَ﴿إِنَّ مَا تُوَعَّدُونَ لَأْتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٤].

وعن جابر، قَالَ: جَاءَتْ مَلَائِكَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: إِنْ لَصَاحِبُكُمْ

لتفهمة». فتح الباري لابن حجر (١٣ / ٢٥٢).

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠ / ٣٣٤).

(٢) «وأحسن الهدى هدى محمد» بفتح الهاء وسكون الدال للأكثر، وللكشميهني بضم الهاء مقصور، ومعنى الأول: الهيئة والطريقة، والثاني: ضد الضلال. فتح الباري لابن حجر

(١٣ / ٢٥٣).

هذا مثلاً، فاضربوا له مثلاً، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً، وجعل فيها مأدبة، وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أولوها له يفقهها، قالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمدٌ ﷺ فرق بين الناس»].

قال ابن حجر: «قوله: «فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله» أي: لأنه رسول صاحب المأدبة، فمن أجابه ودخل في دعوته أكل من المأدبة، وهو كناية عن دخول الجنة. ووقع بيان ذلك في رواية سعيد ولفظه: «وأنت يا محمد رسول الله، فمن أجابك دخل الإسلام ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها»^(١).

[وعن حذيفة قال: «يا معشر القراء، استقيموا، فقد سبقتم سبقاً بعيداً، فإن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتهم ضلالاً بعيداً»].

وعن أبي موسى قال النبي ﷺ: «إنما مثلى ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً، فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء! فأطاعه طائفة من قومه فأدجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم. فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق»^(٢).

(١) فتح الباري (١٣/٢٥٦).

(٢) البخاري (٧٢٨٣)، ومسلم (٢٢٨٣).

وعن أبي هريرة: لما مات النبي ﷺ واستخلف أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، قال: «والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه».

وعن ابن عباس: «أن عيينة بن حصن قال لعمر: والله ما تعطينا الجزل، وما تحكم بيننا بالعدل! فغضب عمر حتى همَّ بأن يقع به، فقال الحرُّ بن قيس: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿ خذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وهذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقفاً عند كتاب الله».

وعن أسماء - في حديث الخسوف -: قال النبي عليه الصلاة والسلام: «فأما المؤمن، فيقول: محمد، جاءنا بالبينات فأجبناه فأمننا، واتبعنا»^(١).

وعن أبي هريرة، قال النبي ﷺ: «دعوني ما تركتكم، إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(٢).

قل ابن حجر رحمه الله تعالى: «قال البغوي في شرح السنة: المسائل على وجهين:

أحدهما: ما كان على وجه التعليم لما يحتاج إليه من أمر الدين فهو جائز، بل

(١) البخاري (٨٦).

(٢) البخاري (٧٢٨٨)، مسلم (١٣٣٧).

مأمور به، لقوله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ الآية، وعلى ذلك تنزل أسئلة الصحابة عن الأنفال والكلالة وغيرهما.

ثانيهما: ما كان على وجه التعنت والتكلف، وهو المراد في هذا الحديث والله أعلم. ويؤيده ورود الزجر في الحديث عن ذلك وذم السلف، فعند أحمد من حديث معاوية «أن النبي ﷺ نهى عن الأغلوطات»^(١) قال الأوزاعي: هي شداد المسائل، وقال الأوزاعي أيضاً: إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط، فلقد رأيتهم أقل الناس علماً.

وقال ابن وهب: سمعت مالكا يقول: المرء في العلم يذهب بنور العلم من قلب الرجل.

وقال ابن العربي: كان النهي عن السؤال في العهد النبوي خشية أن ينزل ما يشق عليهم فأما بعد فقد أمن ذلك، لكن أكثر النقل عن السلف بكراهة الكلام في المسائل التي لم تقع، قال: وإنه لمكروه إن لم يكن حراماً إلا للعلماء، فإنهم

(١) أحمد في المسند ٥ / ٤٣٥، وأبو داود (٣٦٥٦) بلفظ: «نهى النبي ﷺ عن الغلوطات» وفسرها الأوزاعي بأنها شداد المسائل وصعابها، وفي رواية عنه: شرار المسائل. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٠٣٥) قد ضُعبَ الحديث بسبب عبد الله بن سعد البجلي. انظر: تهذيب التهذيب (٥ / ٢٢٤)، والجرح والتعديل (٥ / ٢٦٤). والأغلوطات: هي المسائل التي يغالط بها العلماء ليزلوا فيها مرءاً من السائل وسوء نية، فيهيج بذلك شر وفتنة، أي: ينصب فخاً لعالم، ويلقي له هذا السؤال كي يصدر منه الجواب، فيحصل بذلك شر وفتنة، وهي جمع أغلوطة على وزن أهدوثة.

فرّعوا ومهدوا فنفع الله من بعدهم بذلك، ولا سيما مع ذهاب العلماء ودروس العلم. انتهى ملخصا.

وينبغي أن يكون محل الكراهة للعالم إذا شغله ذلك عما هو أهم منه، وكان ينبغي تلخيص ما يكثر وقوعه مجردا عما يندر، ولا سيما في المختصرات ليسهل تناوله والله المستعان» (١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعني وقوله الله: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

فيه: سعد، قال النبي ﷺ: «إن أعظم المسلمين جُرْمًا من سأل عن شيء لم يجرم، فحرم من أجل مسألته».

وفيه: أبو موسى، سئل النبي ﷺ عن أشياء كرهها، فلما أكثروا عليه المسألة غضب وقال: «سلوني» فقام رجل فقال: يا رسول الله، من أبي؟ قال: «أبوك حذافة»، ثم قام آخر، فقال: يا رسول الله، من أبي؟ فقال: «أبوك سالم مولى شيبه» فلما رأى عمر ما بوجه النبي ﷺ من الغضب، قال: إنا نتوب إلى الله.

وذكر قصة حذافة من رواية أنس وفيه: فقام رجل، فقال: أين مدخلي يا رسول الله؟ قال: «النار!» (٢) فقام عبد الله بن حذافة، فقال: من أبي يا رسول

(١) فتح الباري لابن حجر (١٣ / ٢٦٥).

(٢) قال الحافظ: «ولم أقف على اسم هذا الرجل في شيء من الطرق كأنهم أهموه عمدًا للستر عليه». فتح الباري (١٣ / ٢٧١). قلت: لأنه لا يلزم من ذلك كفره، ولا الحكم عليه =

الله؟ قال: «أبوك حذافة»، فبرك عمر على ركبتيه، فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، فسكت النبي ﷺ عند ذلك، ثم قال: «والذي نفسي بيده لقد عرضت على الجنة والنار أنفاً في عرض هذا الحائط، فلم أر كاليوم في الخير والشر».

وفيه: أنس، قال النبي ﷺ: «لن يبرح الناس يتسألون حتى يقولوا: هذا الله خالق كل شيء، فمن خلق الله؟».

وفيه: ابن مسعود، أن النبي ﷺ مرّ عليه نفر من اليهود، فقال بعضهم: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه لا يسمعكم فيه ما تكرهون، فقال بعضهم: لنسألنه فقام رجل منهم فقال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت، فقلت: إنه يوحى إليه. فقمت، فلما انجلى عنه قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الروح: ٨٥] وما أوتوا من العلم إلا قليلاً. قال الأعمش هكذا في قراءتنا].

قال ابن بطال رحمه الله تعالى: «قال ابن عون: سألت نافعاً عن قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، فقال: لم تزل كثرة السؤال منذ قط تكره».

وكان زيد بن ثابت وأبي بن كعب وجماعة من السلف يكرهون السؤال في

بالنفاق كما نحا إليه بعض الشراح، فقد يلج النار لذنوبه بلا خلود لتوحيده. ومن حقوق الإسلام في الجملة الستر بشرطه.

العلم عما لم ينزل، ويقولون: إذا نزلت النازلة وُفق المسؤُول عنها، ويرون الكلام فيما لم ينزل من التكلف.

وقال مالك: أدركت أهل هذا البلد وما عند أحدهم علم غير الكتاب والسنة، فإذا نزلت النازلة جمع الأمير لها من حضر من العلماء، فما اتفقوا عليه أنفذه، وأنتم تكثرون المسائل وقد كرهها رسول الله ﷺ.

فإن قيل: فإذا ثبت النهي عن كثرة السؤال والبحث في هذه الأحاديث، فقد جاء في كتاب الله ما يعارض ذلك، وهو الأمر بسؤال العلماء والبحث عن العلم؛ بقوله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. فالجواب عنه: أن الذي أمر الله عباده بالسؤال عنه هو ما ثبت وتقرر وجوبه مما يجب عليهم العمل به، والذي جاء فيه النهي هو ما لم يتعبد الله عباده به، ولم يذكره في كتابه.

وقد سئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ﴾ الآية قال: ما لم يذكر في القرآن فهو مما عفا الله عنه، ألا ترى أن الله لم يجب اليهود عن سؤالهم عن الروح لما لم يكن مما لهم به الحاجة إلى علمه، وكان من علم الله الذي لم يُطلع عليه أحدًا فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الروح: ٨٥] فنسبهم تعالى في سؤالهم عما لم ينبغ لهم السؤال عنه إلى قلة العلم.

وقال مالك: قيل وقال هو هذه الأخبار والأراجيف في رأيي، أعطى فلان كذا ومنع كذا بقوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾

[التوبة: ٦٥]، فهو لاء يخوضون. وأما قول بعض اليهود حين سأله عن الروح: لا تسأله يسمعكم ما تكرهون. فإنها قال ذلك لعلمه أنهم كانوا معتتين، والمعت من عقوبته أن يخاطب بما يكره.

وأما قوله ﷺ في حديث أنس: «لن يبرح الناس يسألون: هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله؟» هذا من السؤال الذي لا يحل، وقد جاء هذا الحديث بزيادة فيه من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لا يزال الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خلق كذا من خلق كذا، حتى يقول: من خلق الله، فإذا وجد ذلك أحدكم فليقل: آمنت بالله»^(١). وفي حديث آخر: «فذلك صريح الإيمان»^(٢). رواه أبو داود عن أبي هريرة أن النبي ﷺ جاءه ناس من أصحابه فقالوا: يا رسول الله، نجد في أنفسنا الشيء يعظم أن نتكلم به ما نحب أن لنا الدنيا وأنا تكلمنا به، فقال النبي ﷺ: «أو قد وجدتموه، ذلك صريح الإيمان».

وقد ذكر ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أحدث نفسي بالأمر لأن أكون حُمَّة أحب إليّ من أن أتكلم به. فقال له رسول الله: «الحمد لله الذي رده إلى الوسواس»^(٣).

(١) أبو داود (٤٧٢١) وصححه الألباني. وقد استوفى الحافظ كلام الأئمة في شرح هذا الحديث في «الفتح»: (١٣ / ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) مسلم (١ / ١١٩) (١٣٢) وفيه: قال النبي ﷺ: «وَجَدْتُمُوهُ؟» قالوا: نعم. قال: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ». ورواه أحمد (٤٥٦/٢) وأبو داود (٥١١١).

(٣) أبو داود (٥١١٢)، وأحمد (١ / ٣٤٠) بلفظ: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة».

فإن قيل: كيف سمّي هذه الخطرة الفاسدة من خطرات الشيطان على القلب صريح الإيمان؟ قال الخطابي: يريد أن صريح الإيمان هو الذي يعظم ما تجدونه في صدوركم ويمنعكم من قول ما يلقيه الشيطان في قلوبكم، ولولاه لم يتعاضموه ولم ينكروه، ولم يرد أن الوسوسة نفسها صريح الإيمان، وكيف تكون إيماناً وهي من قبل الشيطان وكيدته؟! ألا تراه ﷺ حين سئل عن هذا قال: «الحمد لله الذي رد كيدته إلى الوسوسة»^(١).

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في تعليقه على شكاية الصحابة من هذا الوسواس: «ولا بد لعامة الخلق من هذه الوسواس، فمن الناس من يجيئها فيصير كافرًا أو منافقًا، ومنهم من غمرت قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بها إلا إذا طلب الدين، فإما أن يصير مؤمنًا، وإما أن يصير منافقًا، ولهذا يعرض للناس من الوسواس في الصلاة ما لا يعرض لهم إذا لم يصلوا؛ لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى ربه والتقرب إليه والاتصال به، فلهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم، ويعرض لخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة، ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوسواس والشبهات ما ليس عند غيرهم؛ لأنه - أي غير طلاب العلم والعبادة - لم يسلك شرع الله ومنهجه، بل هو مقبلٌ على هواه في غفلةٍ عن ذكر ربه، وهذا مطلوبُ الشيطان، بخلاف المتوجهين إلى ربهم بالعلم والعبادة، فإنه عدوهم يطلب

وصححه الألباني.

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣٣٨/١٠ - ٣٤٣) باختصار.

صدهم عن الله» (١).

وقال الحافظ في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾: «رجح ابن المنير أن النهي في كثرة المسائل عما كان وعما لم يكن، وصنيع البخاري يقتضيه، والأحاديث التي ساقها في الباب تؤيده.

وقد اشتد إنكار جماعة من الفقهاء ذلك منهم القاضي أبو بكر بن العربي فقال: اعتقد قوم من الغافلين منع السؤال عن النوازل إلى أن تقع تعلقاً بهذه الآية وليس كذلك، لأنها مصرحة بأن المنهي عنه ما تقع المسألة في جوابه، ومسائل النوازل ليست كذلك. انتهى. وهو كما قال؛ لأن ظاهرها اختصاص ذلك بزمان نزول الوحي، ويؤيده حديث سعد الذي صدر به المصنف الباب: «من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته» فان مثل ذلك قد أمن وقوعه.

ويدخل في معنى حديث سعد ما أخرجه البزار وقال: سنده صالح، وصححه الحاكم من حديث أبي الدرداء رفعه: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فان الله لم يكن ينسى شيئاً» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] (٢) وأخرج الدارقطني من حديث أبي ثعلبة رفعه: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا

(١) الفتاوى (٧/٢٨٢).

(٢) المستدرک (٢/٣٧٦) وصححه الألباني في الصحيحة: (٢٢٥٦).

عنها»^(١).

وقد أخرج مسلم عن أنس قال: «نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، وكان يعجبنا أن يجيء الرجل الغافل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع». فذكر الحديث^(٢). ولأبي يعلى عن البراء: «إن كان لتأتي عليَّ السنَّةُ أريد أن أسأل

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٢ / ٢٢١ رقم ٥٨٩)، وفي «مسند الشاميين» (٤ / ٣٣٨ رقم ٣٤٩٢)، والدارقطني في «سننه» (٤ / ١٨٤ رقم ٤٣٥٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩ / ١٧)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠ / ١٢ - ١٣)، والخطيب في «الفيء والمتفق» (٢ / ٩) جميعهم من طريق مكحول عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه مرفوعاً، وهذا إسنادٌ منقطعٌ، فإنَّ مكحولاً لم يصحَّ له سماعٌ من أبي ثعلبة، كما قاله غير واحد من الحفاظ. وقد ضعف الحديث الألباني والفحل.

إلا أنَّ للحديث شواهد منها حديث أبي الدرداء رضي الله عنه الذي أخرجه البزار في «مسنده» (١٠ / ٢٦ رقم ٤٠٨٧) وقال: إسناده صالحٌ، والدارقطني في «سننه» (٢ / ١٣٧)، والحاكم في «المستدرک» (٢ / ٣٧٥) وقال: صحيح الإسناد، والبيهقي في «الكبرى» (١٠ / ١٢ رقم ١٩٥٠٨).

وعلى هذا فالحديث حسنٌ بشواهد، وقد حسَّنه النوويُّ في «الأربعين» (رقم ٣٠)، والحافظُ أبو بكر ابنُ السمعاني في «أمالیه» وغيرهما، ومعاني الحديث في الجملة ثابتة في الصحيح، والله أعلم.

تنبيه: قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٦ / ١٧٩) بعد أن أورد حديث أبي ثعلبة رضي الله عنه: «ثبت بالسنة والإجماع أن الله يوصف بالسكوت، لكن السكوت يكون تارة عن التكلُّم، وتارة عن إظهار الكلام وإعلامه».

(٢) مسلم (١ / ٤١).

رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشيء فأتهميب، وإن كنا لنتمنى الأعراب»^(١). أي: قدومهم ليسألوا فيسمعوهم أجوبة سؤالات الأعراب فيستفيدوها.

وأما ما ثبت في الأحاديث من أسئلة الصحابة فيحتمل أن يكون قبل نزول الآية، ويحتمل أن النهي في الآية لا يتناول ما يحتاج إليه مما تقرر حكمه أو ما لهم بمعرفته حاجة راهنة، كالسؤال عن الذبح بالقصب والسؤال عن وجوب طاعة الأمراء إذا أمروا بغير الطاعة، والسؤال عن أحوال يوم القيامة وما قبلها من الملاحم والفتن، والأسئلة التي في القرآن كسؤالهم عن الكلاله والخمر والميسر والقتال في الشهر الحرام واليتامى والمحيض والنساء والصيد وغير ذلك.

لكن الذين تعلقوا بالآية في كراهية كثرة المسائل عما لم يقع أخذوه بطريق الإلحاق من جهة أن كثرة السؤال لما كانت سبباً للتكليف بما يشق فحقها أن تجتنب.

وعن عمر: «أحرج عليكم أن تسألوا عما لم يكن، فإن لنا فيما كان شغلاً». وعن زيد بن ثابت أنه كان إذا سئل عن الشيء يقول: «كان هذا؟» فإن قيل: لا، قال: «دعوه حتى يكون»، وعن أبي بن كعب وعن عمار نحو ذلك.

ومما يدخل في النهي الإكثار من التفريع على مسألة لا أصل لها في الكتاب ولا السنة ولا الإجماع وهي نادرة الوقوع جداً، فيصرف فيها زماناً كان صرفه في

(١) رواه أبو يعلى في المسند الكبير رواية الأصبهانيين، عن البراء بن عازب رضي الله عنه، كما في المطالب العالية ٣/ ٣٢٥ (٣٩٦١) وأخرجه الروياني في «مسنده» (٣٠٨)، وجود سنده الفحل. وانظر: إتحاف الخيرة المهرة (١/ ٢٣٩).

غيرها أولى، ولا سيما إن لزم من ذلك إغفال التوسع في بيان ما يكثر وقوعه، وأشد من ذلك في كثرة السؤال والبحث عن أمور مغيبة ورد الشرع بالإيمان بها مع ترك كيفيتها، ومنها ما لا يكون له شاهد في عالم الحس، كالسؤال عن وقت الساعة وعن الروح وعن مدة هذه الأمة إلى أمثال ذلك مما لا يعرف إلا بالنقل الصرف، والكثير منه لم يثبت فيه شيء فيجب الإيمان به من غير بحث» (١).

وقال الحافظ أيضًا: «قوله: «فلما رأى عمر ما بوجه رسول الله ﷺ من الغضب» بين في حديث أنس أن الصحابة كلهم فهموا ذلك، ففي رواية: «فإذا كل رجل لافاً رأسه في ثوبه يبكي»، وزاد في رواية: «وظنوا أن ذلك بين يدي أمر قد حضر»، وفي رواية: «فغطوا رؤوسهم لهم خنين». زاد مسلم من هذا الوجه: «فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم كان أشد منه».

وقوله: فقال: «إنا نتوب إلى الله عز وجل». زاد في رواية الزهري: «فبرك عمر على ركبته، فقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً». وفي رواية قتادة من الزيادة: «نعوذ بالله من شر الفتن».

وفي هذا الحديث مراقبة الصحابة أحوال النبي ﷺ، وشدة إشفاقهم إذا غضب خشية أن يكون لأمر يعم فيعمهم، وجواز الغضب في الموعظة، وبروك الطالب بين يدي من يستفيد منه، ومشروعية التعوذ من الفتن عند وجود شيء قد يظهر منه قرينة وقوعها» (٢).

(١) فتح الباري لابن حجر (١٣ / ٢٦٥ - ٢٦٨) مختصراً.

(٢) فتح الباري (١٣ / ٢٧٠).

وقال الحافظ: «قوله: «فمن خلق الله» في رواية بدء الخلق: «من خلق ربك» وزاد: «فإذا بلغه فليستعذ بالله وليتته» وفي لفظ لمسلم: «فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله ورسله»^(١) ولأبي داود والنسائي من الزيادة: «فقولوا: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ السورة، ثم ليتفل عن يساره ثم ليستعد»^(٢). ولأحمد من حديث عائشة: «فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل: آمنت بالله ورسوله، فإن ذلك يذهب عنه»^(٣).

ولمسلم في رواية عن أبي هريرة نحو الأول وزاد: فبينما أنا في المسجد إذ جاءني ناس من الأعراب فذكر سؤالهم عن ذلك وأنه رماهم بالحصى، وقال: «صدق خليلي».

وقد ورد بزيادة من حديث أبي هريرة بلفظ: «لا يزال الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق الله؟ فإذا وجد ذلك أحدكم فليقل: آمنت بالله» وفي رواية: «ذاك صريح الإيمان»^(٤).

(١) مسلم (١٣٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أحمد ٢ / ٣٨٧ (٩٠١٥) ومسلم (٢٦٦) وأبو داود (٤٧٢٢) والنسائي في الكبرى (١٠٤٢٢).

(٣) أحمد (٢٦٢٠٣) وابن أبي عاصم في «السنة» (٦٦٠) وأبو يعلى (٤٧٠٤) والحديث صحيح.

(٤) مسلم (١ / ١١٩) (١٣٢) وفيه: قال النبي ﷺ: «وَجَدْتُمُوهُ؟» قالوا: نعم. قال: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ». ورواه أحمد (٤٥٦/٢) وأبو داود (٥١١١).

ولعل هذا هو الذي أراد الصحابي فيما أخرجه أبو داود عن أبي هريرة قال: جاء ناس إلى النبي ﷺ من أصحابه فقالوا: يا رسول الله إنا نجد في أنفسنا الشيء يعظم أن نتكلم به، ما نحب أن لنا الدنيا وأنا تكلمنا به! فقال: «أوقد وجدتموه؟ ذاك صريح الإيمان» ولابن أبي شيبة من حديث بن عباس: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أحدث نفسي بالأمر لأن أكون حُمَّة أحب إلي من أن أتكلم به! قال: «الحمد لله الذي رد أمره إلى الوسوسة» (١).

وقوله في الحديث الآخر: «فليستعذ بالله ولينته» أي: يترك التفكير في ذلك الخاطر ويستعيد بالله إذا لم يزل عنه التفكير.

والحكمة في ذلك: أن العلم باستغناء الله تعالى عن كل ما يوسوسه الشيطان أمر ضروري لا يحتاج للاحتجاج والمناظرة، فان وقع شيء من ذلك فهو من وسوسة الشيطان، وهي غير متناهية، فمهما عورض بحجة يجد مسلماً آخر من المغالطة والاسترسال فيضيع الوقت إن سلم من فتنته، فلا تدبير في دفعه أقوى من الالتجاء إلى الله تعالى بالاستعاذة به، كما قال تعالى: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الآية [الأعراف: ٢٠٠]] (٢).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: ما يكره من التعمق والتنازع والغلو في الدين،

(١) أبو داود (٥١١٢)، وأحمد (٣٤٠/١) بلفظ: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة». وصححه الألباني. والحُمَّة واحدة الحُمم: أي الفحم، والمراد أن أحترق حتى أكون فحماً أهون علي من الكلام بذلك.

(٢) فتح الباري لابن حجر (٢٧٤ / ١٣).

لقوله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكُتُبَ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ الآية [النساء: ١٧١].

وفيه: عائشة: صنع النبي ﷺ شيئاً ترخص فيه، وتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فحمد الله، ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟! فوالله إني أعلمهم بالله، وأشدهم له خشية».

وقال رحمه الله تعالى: [باب: إثم من آوى محدثاً رواه علي عن النبي ﷺ].

فيه: أنس: حرّم النبي ﷺ المدينة، فقال: «لا يقطع شجرها، ومن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

قال ابن بطال رحمه الله تعالى: «في هذا الحديث فضل عظيم للمدينة، وذلك بتغليظ الوعيد بلعنة الله والملائكة والناس أجمعين لمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً، وفي حديث علي: «لا يقبل منه صرف ولا عدل»^(١) ذكره في آخر كتاب الحج، ودل الحديث على أنه من آوى أهل المعاصي والبدع أنه شريك في الإثم. وليس يدل الحديث على أن من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً في غير المدينة أنه غير متوعد ولا ملوم على ذلك؛ لتقدم العلم بأن من رضي فعل قوم وعملهم أنه منهم، وإن كان بعيداً عنهم.

فهذا الحديث نص في تحذير فعل شيء من المنكر في المدينة وهو دليل في التحذير من إحداث مثل ذلك في غيرها، وإنما خصت المدينة بالذكر في هذا

(١) البخاري (١٨٧٠).

الحديث؛ لأن اللعنة على من أحدث فيها حدثاً أشد والوعيد له أكد؛ لانتهاكه ما حذر عنه، وإقدامه على مخالفة رسول الله ﷺ فيما كان يلزمه من تعظيم شأن المدينة التي شرفها الله بأنها منزل وحيه وموطن نبيه ﷺ، ومنها انتشر الدين في أقطار الأرض فكان لها بذلك فضل مزية على سائر البلاد» (١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

فيه: عبد الله بن عمرو، قال النبي ﷺ: «إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعاً، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال، يستفتون فيفتون برأيهم، فيضلون ويضلون».

وفيه: أبو وائل، شهدت صفين، فسمعت سهل بن حنيف يقول: يا أيها الناس، اتهموا رأيكم على دينكم، لقد رأيتني يوم أبي جندل، ولو أستطيع أن أرى رسول الله ﷺ عليه لرددته، وما وضعنا سيوفنا على عواتقنا إلى أمر يفظعنا إلا أسهلنا بنا إلى أمر نعرفه. غير هذا الأمر! قال: وقال أبو وائل: شهدت صفين، وبئت صفون (٢).

قال الحافظ: «وبيان المراد بقوله «يفظعنا» أي يوقعنا في أمر فظيع وهو الشديد في القبح ونحوه. وقوله: إلا أسهلنا: أي أنزلتنا في السهل من الأرض،

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/٣٥٠ - ٣٥١).

(٢) أي من ندمه على اشتراكه فيها.

أي أفضين بنا، وهو كناية عن التحول من الشدة إلى الفرج.

ومراد سهل: أنهم كانوا إذا وقعوا في شدة يحتاجون فيها إلى القتال في المغازي والثبوت والفتوح العمرية عمدوا إلى سيوفهم فوضعوها على عواتقهم، وهو كناية عن الجد في الحرب، فإذا فعلوا ذلك انتصروا، وهو المراد بالنزول في السهل، ثم استثنى الحرب التي وقعت بصفين لما وقع فيها من إبطاء النصر وشدة المعارضة من حجج الفريقين، إذ حجة عليّ ومن معه: ما شرع لهم من قتال أهل البغي حتى يرجعوا إلى الحق، وحجة معاوية ومن معه: ما وقع من قتل عثمان مظلومًا ووجود قتلته بأعيانهم في العسكر العراقي.

فعظمت الشبهة حتى اشتد القتال وكثر القتل في الجانبين إلى أن وقع التحكيم فكان ما كان. وقوله: «اتهموا رأيكم على دينكم»، أي: لا تعملوا في أمر الدين بالرأي المجرد الذي لا يستند إلى أصل من الدين»^(١).

وقال ابن بطال: «قال الطبري: قال عمر: «يا أيها الناس اتهموا الرأي على الدين»، كقول سهل سواء.

قال المهلب وغيره: إذا كان الرأي والقياس على أصل من كتاب الله وسنة رسول الله أو إجماع الأمة فهو محمود، وهو الاجتهاد والاستنباط الذي أباحه الله للعلماء، وأما الرأي المذموم والقياس المتكلف المنهى عنه، فهو ما لم يكن على هذه الأصول؛ لأن ذلك ظن ونزغ من الشيطان، والدليل على صحة هذا

(١) فتح الباري لابن حجر (٢٨٩ / ١٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ قال ابن عباس: لا تقل ما ليس لك به علم. وقال قتادة: لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم. وأصل القفو العضة والبهت، فنهى الله عباده عن قول ما لا علم لهم به، فإنه سائل السمع والبصر والفؤاد عما قال صاحبها فتشهد عليه جوارحه بالحق.

ومثل هذا قوله ﷺ: «إن الله يقبض العلم بقبض العلماء فيبقى ناس جهال فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون»^(١)، ألا ترى أنه وصفهم بالجهل، فلذلك جعلهم ضالين، وهو خلاف الذين قال فيهم: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] وأمر بالرجوع إلى قولهم.

قال الطبري: فإن قيل: فإن قول سهل بن حنيف، وعمر بن الخطاب: «اتهموا الرأي» يردّ قول من استعمل الرأي في الدين، وأنه لا يجوز شيء من الرأي والقياس لأنهم أخطئوا يوم أبي جندل في مخالفتهم رسول الله ﷺ في صلحه المشركين، ورده لأبي جندل لأبيه وهو يستغيث، وكان قد عذّب في الله، وهم يظنون أنهم محسنون في مخالفة رسول الله. قيل: وجه قولهما: «اتهموا الرأي» الذي هو خلاف لرأي رسول الله وأمره على الدين، الذي هو نظير آرائنا التي كنا خالفنا بها رسول الله يوم أبي جندل، فإن ذلك خطأ، فأما الاجتهاد والاستنباط من كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة فذلك هو الحق الواجب والفرض اللازم لأهل العلم، وبنحو هذا جاءت الأخبار عن النبي ﷺ، وعن جماعة الصحابة والتابعين.

(١) البخاري (٧٣٠٧).

روى ابن عمر أن النبي ﷺ لما انصرف من الأحزاب قال: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»^(١) فأبطأ ناس فتحوفوا فوت الصلاة، فصلوا، وقال آخرون: لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا العصر. فما عنف سول الله ﷺ أحد الفريقين.

وهذا الخبر نظير خبر سهيل بن حنيف، ومن حرص يوم أبي جندل على القتال اجتهادًا منهم ورسول الله يرى ترك قتالهم في أنه لم يؤثمهم كما لم يؤثم أحد الفريقين: لا الذين صلوا قبل وصولهم إلى بني قريظة؛ لأن معنى ذلك كان عندهم ما لم يخشوا فوت وقتها، وكذلك لم يؤثم أيضًا الذين لم يصلوا حتى فاتهم وقتها إلى أن صاروا إلى بني قريظة؛ لأن معنى أمره ﷺ بذلك كان عندهم لا يصلوها إلا في بني قريظة وإن فاتكم وقتها، فعذر كل واحد منهم لهذه العلة.

وعن شريح أنه كتب إلى عمر بن الخطاب يسأله، فكتب إليه: «أن اقض بما في كتاب الله، فإن لم يكن في كتاب الله ففي سنة رسول الله، فإن لم يكن فيما قضى الصالحون، فإن لم يكن فإن شئت تقدم وإن شئت تأخر، ولا أرى التأخر إلا خيرًا لك، والسلام»^(٢).

قال الحافظ: «ذكر الشافعي شرط من له أن يقيس فقال: يشترط أن يكون عالمًا بالأحكام من كتاب الله تعالى وبناسخه ومنسوخه وعامه وخاصه،

(١) البخاري (٤١١٩) ومسلم (١٧٧٠/٦٩) (٤١١٩).

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطلال (٣٥٣/١٠) وانظر إعلام الموقعين لابن القيم فقد أفاض في بحثها وبسطها وتقييدها.

ويستدل على ما احتمال التأويل بالسنة وبالإجماع، فإن لم يكن فبالقياس على ما في الكتاب، فإن لم يكن فبالقياس على ما في السنة، فإن لم يكن فبالقياس على ما اتفق عليه السلف وإجماع الناس ولم يعرف له مخالف.

قال: ولا يجوز القول في شيء من العلم إلا من هذه الأوجه، ولا يكون لأحد إن يقيس حتى يكون عالمًا بما مضى قبله من السنن وأقاويل السلف وإجماع الناس واختلاف العلماء ولسان العرب، ويكون صحيح العقل ليفرق بين المشتبهات، ولا يعجل، ويستمع ممن خالفه ليتنبه بذلك على غفلة إن كانت، وأن يبلغ غاية جهده، وينصف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما قال» (١).

وقال أيضًا في كلامه على حديث قبض العلم: «أخرج ابن عبد البر بسنده في كتاب العلم قال دراج أبو السمع: «يأتي على الناس زمان يُسمّن الرجل راحلته حتى يسير عليها في الأمصار يلتمس من يفتيه بسنة قد عمل بها فلا يجد إلا من يفتيه بالظن». ويحمل هذا على أن المراد الأغلب الأكثر في الحالين، وقد وجد هذا مشاهدًا، ثم يجوز أن يقبض أهل تلك الصفة ولا يبقى الا المقلد الصرف، وحينئذ يتصور خلو الزمان عن مجتهد حتى في بعض الأبواب، بل في بعض المسائل، ولكن يبقى من له نسبة إلى العلم في الجملة، ثم تزداد حينئذ غلبة الجهل وترئيس أهله، ثم يجوز أن يُقبض أولئك حتى لا يبقى منهم أحد، وذلك جدير بأن يكون عند خروج الدجال أو بعد موت عيسى عليه السلام، وحينئذ يتصور خلو الزمان عمن ينسب إلى العلم أصلاً، ثم تهب الريح فتقبض كل

(١) فتح الباري (١٣/ ٢٩٨).

مؤمن، وهناك يتحقق خلو الأرض عن مسلم، فضلاً عن عالم، فضلاً عن مجتهد، ويبقى شرار الناس فعليهم تقوم الساعة والعلم عند الله تعالى.

وفي الحديث: الزجر عن ترئيس الجاهل لما يترتب عليه من المفسدة، وقد يتمسك به من لا يميز تولية الجاهل بالحكم ولو كان عاقلاً عفيفاً، لكن إذا دار الأمر بين العالم الفاسق والجاهل العفيف؛ فالجاهل العفيف أولى؛ لأن ورعه يمنعه عن الحكم بغير علم، فيحمله على البحث والسؤال.

وفي الحديث أيضاً: حض أهل العلم وطلبته على أخذ بعضهم عن بعض، وفيه شهادة بعضهم لبعض بالحفظ والفضل، وفيه حض العالم طالبه على الأخذ عن غيره ليستفيد ما ليس عنده، وفيه التثبيت فيما يحدث به المحدث إذا قامت قرينة الذهول» (١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: ما كان النبي عليه الصلاة والسلام يسأل فما لم ينزل عليه الوحي فيقول: «لا أدري» أو لم يجب حتى ينزل عليه الوحي، ولم يقل برأي ولا بقياس؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا أَرْسَلَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

وقال ابن مسعود: سئل النبي ﷺ عن الروح، فسكت حتى نزلت الآية. وفيه: جابر: مرضت، فجاءني النبي ﷺ يعودني وأبو بكر وهما ماشيان، فأتاني وقد أغمي علي، فتوضأ النبي ﷺ، ثم صب وضوءه علي فأفقت، فقلت: يا رسول الله كيف أقضي في مالي؟ قال: فما أجابني بشيء حتى نزلت آية المواريث].

(١) فتح الباري (١٣/ ٢٨٨).

«قال المهلب: هذا الباب ليس على العموم في أمر النبي ﷺ؛ لأنه قد علم أمته كيفية القياس والاستنباط في مسائل لها أصول ومعاني في كتاب الله ومشروع سنته؛ ليريهم كيف يصنعون فيما عدموا فيه النصوص؛ إذ قد علم أن الله تعالى لا بد أن يكمل له الدين. والقياس: هو تشبيه ما لا حكم فيه بما حكم في المعنى فشبه ﷺ الحمر بالخليل، فقال: ما أنزل على فيها شيء غير هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وشبه دين الله بدين العباد في اللزوم، وقال للتي أخبرته أن أباهما لم يحج: «أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيته؟ فالله أحق بالقضاء». وهذا هو نفس القياس عند العرب وعند العلماء بمعاني الكلام.

وأما سكوت النبي حتى نزل عليه الوحي، فإنما سكت في أشياء معضلة ليست لها أصول في الشريعة فلا بد فيها من إطلاع الوحي، ونحن الآن قد فرغت لنا الشرائع واكتمل لنا الدين، وإنما ننظر ونقيس على موضوعاتها فيما أعضل من النوازل» (١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون» وهم أهل العلم.

فيه: المغيرة، قال النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/٣٥٧).

أمر الله وهم ظاهرون».

وفيه: معاوية، قال النبي ﷺ: «لن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة، أو حتى يأتي أمر الله تعالى».

قال الطبري: «وليس هذا معارض لحديث: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله»^(١) وحديث: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس»^(٢) بل بعضها يدل على صحة بعض، ولكن بعضها خرج على العموم، والمراد به الخصوص^(٣)، فقوله: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله» و«لا تقوم إلا على شرار الناس» يعني: في موضع كذا، فإن به طائفة من أممي لا يضرهم من خالفهم وهم الذين عنى بقوله ﷺ: «لن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً» يريد: في موضع دون موضع.

وقد بين ذلك أبو أمامة في حديثه أن النبي ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أممي ظاهرين على الحق، لعدوهم قاهرين، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك». قيل: يا رسول الله، وأين هم؟ قال: «بيت المقدس وأكناف بيت المقدس» فقد تكون الطائفة. فثبت أنه ليس أحد هذه الأخبار معارضاً لصاحبه^(٤).

(١) مسلم (٢٣٤، ١٤٨).

(٢) مسلم (٢٩٤٩) وأحمد (٣٧٣٥).

(٣) قسمتها ثلاثية: عامٌ باق على عمومته، وعامٌ مخصوص، وعامٌ أريد به الخصوص أو خرج مخرج الخصوص وهو المراد هنا.

(٤) السابق (١٠ / ٣٦٠).

قلت: ولعل هذا التحديد هو تحديد أولوية، لأن في الشام كثير من أسباب البركة والخير والعلم والإيمان، ولا يلزم منه أن تكون الطائفة المنصورة منحصرة فقط في تلك البقعة الشامية دون غيرها، فاللفظ لا يحتمل هذا التحديد، ولكنه تعيين أولوية فيما يظهر، فقد تكون الطائفة الظاهرة المنصورة في الشرق أو الغرب من بلاد الإسلام مع ضعف أهل الشام وغيرهم، ولكن حظ الشام من تحقيق ذلك الظهور المبارك المظفر أغلبي على امتداد الزمان، والتاريخ شهيد صدق، وقد تكون الطائفة ظاهرة في بقعة بالحجة والبيان، وفي أخرى بالسيف والسنان، وإن كان الأغلب اجتماعهما، فقد جرت سنة الله تعالى أن من وفى الله بالعمل والعمل وفاه أيضاً بالجهاد في سبيله، فإن اجتمعا تنزل النصر الرباني المبين.

وبالجملة؛ لا يخلو الزمان من طائفة تقوم لله ظاهرة على الحق منصوره، حتى يأتي أمر الله وهو أحكم الحاكمين.

وقد ذكر نحو ذلك الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ فيما نقله عنه الحافظ رَحِمَهُ اللهُ حيث قال: «قال النووي: يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب وفقه ومحدث ومفسر وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزاهد وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد وأن يكونوا في بعض منه دون بعض، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم أولاً فأولاً إلى ألا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد،

فإذا انقروا جاء أمر الله. انتهى ملخصاً مع زيادة فيه.

ونظير ما نبه عليه ما حمل عليه بعض الأئمة حديث: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها»^(١) أنه لا يلزم أن يكون في رأس كل مئة سنة واحد فقط، بل يكون الأمر فيه كما ذكر في الطائفة، وهو متجه، فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد إلا أن يدعى ذلك في عمر بن عبد العزيز، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المئة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها، ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه.

وأما من جاء بعده فالشافعي وإن كان متصفاً بالصفات الحميلة إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل، فعلى هذا كل من كان متصفاً بشيء من ذلك عند رأس المئة هو المراد سواء تعدد أم لا»^(٢).

وقال أيضاً: «المراد بأمر الله: هبوب تلك الرياح، والمراد بقيام الساعة: ساعتهم، والمراد بالذين يكونون بيت المقدس: الذين يحصرهم الدجال إذا خرج، فينزل عيسى إليهم فيقتل الدجال. ويظهر الدين في زمن عيسى، ثم بعد موت عيسى تهب الرياح المذكورة، فهذا هو المعتمد في الجمع، والعلم عند الله تعالى»^(٣).

(١) أبو داود (٤٢٩١) من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وصححه الألباني.

(٢) فتح الباري (١٣/٢٩٦).

(٣) فتح الباري (١٣/٢٩٥).

وقال أيضًا: «هذه الترجمة «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» لفظ حديث أخرجه مسلم^(١) عن ثوبان وبعده: «لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»^(٢) وله من حديث جابر مثله لكن قال: «يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة» عن معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَلَا تَزَالُ عِصَابَةُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يِقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ، ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣).

قوله: «وهم أهل العلم» هو من كلام المصنف، وأخرج الترمذي حديث الباب ثم قال: سمعت محمد بن إسماعيل - هو البخاري - يقول: سمعت علي بن المديني يقول: هم أصحاب الحديث. وذكر في كتاب خلق أفعال العباد عقب حديث أبي سعيد في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] هم الطائفة المذكورة في حديث «لا تزال طائفة من أمتي» ثم ساقه وقال: وجاء نحوه عن أبي هريرة ومعاوية وجابر وسلمة بن نفيل وقرة بن إياس.

وأخرج الحاكم في علوم الحديث بسند صحيح عن أحمد: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم»^(٤).

قلت: ولا شك أن المقاتلين في سبيل الله لهم دخول أولوي في هذا لقوله:

(١) مسلم (٦/٥٤).

(٢) مسلم (١٩٢٠).

(٣) مسلم (٣/٩٥).

(٤) فتح الباري لابن حجر (١٣/٢٩٤) باختصار يسير.

«يقاتلون» إن كانوا من أهل السنة والجماعة، ويشملهم لقب أهل الحديث أي المتسببة للأخذ عنه والاستئنان به حتى وإن لم يشتغلوا بدرسه، وأهل الحديث من الألقاب الفاضلة لأهل السنة والجماعة، فهم غالبون ظاهرين بالحجة والبرهان وبالسيف والسنان، وتفسير السلف تلك الطائفة بأنهم أهل العلم والحديث ونحوه إنما يقصدون به من كان على معتقدتهم ممن تمسك بالسنة عند اختلاف الناس، وبالأخص من تحقق بالعلم النافع بها، فكلما زاد علمه وعمله واتباعه ازداد تحقيقاً للخيرية الظاهرة المنصورة، فحتى الظهور بالسنان لا يكون مقبولاً إلا مع الظهور بالعلم والحجة، فالظهور أولاً إنما يكون بالعلم الذي تقوم به الحجة الرسالية، ومقصود البلاغ إقامة الحجة، وما الحديد إلا وسيلة، وهذا الظهور العلمي هو من خصائص أهل العلم وحمة الشريعة، لذا قال المصنف رحمه الله «وهم أهل العلم» وفسرها الإمام أحمد وغيره بأهل الحديث، ونحو ذلك، والله أعلم.

وقال رحمه الله تعالى: [باب: قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلِيْسُكُمْ شَيْعًا﴾ [الأنعام: ٦٥].

فيه: جابر، لما نزلت على النبي ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك» ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، فلما نزلت: ﴿أَوْ يَلِيْسُكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُمْ بِأَسَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: «هاتان أهون أو أيسر».

«ولقد ذكر المفسرون في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، قالوا: يحصبكم بالحجارة، أو يغرقكم بالطوفان الذي غرق به قوم

نوح ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ الخسف الذي نال قارون ومن خسف معه، وقيل: الريح ﴿أَوْ يَلْسِكُمْ شَيْعًا﴾ يعني: يخلط أمركم فيجعلكم مختلفي الأهواء، يقال: لبست عليكم الأمر ألبسته إذا لم أبينه، ومعنى شيعا أي: فرقا، لا نكون شيعة واحدة) ﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُمْ بِأَسِّ بَعْضٍ﴾ يعني بالحرب والقتل، ويروى أن النبي ﷺ سأل ربه عز وجل أن لا يستأصل أمة بعذاب، ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فأجابه عز وجل في صرف العذاب، ولم يجبه في أن لا يذيق بعضهم بأس بعض، وأن لا تختلف^(١)، فلذلك قال ﷺ: «هاتان أهون وأيسر» أي: الاختلاف والفتنة أيسر من الاستئصال والانتقام بعذاب الله، وإن كانت الفتنة من عذاب الله لكن هي أخف؛ لأنها كفارة للمؤمنين، أعادنا الله من عذابه ونقمه.

وقال رحمه الله تعالى: [باب: قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» فيه: أبو هريرة، قال النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ

(١) عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها. وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض. وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة بعامة، وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم. وإن ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أني لا أهلكهم بسنة بعامة، ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارهم - أو قال من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً». رواه مسلم: (٢٢١٥/٤). ومعنى زوى: جمع وضم.

القرون قبلها، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع» فقيل: يا رسول الله، كفارس والروم، فقال: «ومن الناس إلا أولئك».

وفيه: أبو سعيد، قال النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبرًا شبرًا، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم» قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟».

قال ابن حجر: «ذكر الكرماني أن المراد حصر الناس المعهود من المتبوعين، قلت: ووجهه أنه ﷺ لما بُعث كان ملك البلاد منحصرًا في الفرس والروم وجميع من عداهم من الأمم من تحت أيديهم، أو كلاً شيء بالنسبة إليهم، فصح الحصر بهذا الاعتبار.

ويحتمل أن يكون الجواب اختلف بحسب المقام، فحيث قال فارس والروم كان هناك قرينة تتعلق بالحكم بين الناس وسياسة الرعية، وحيث قيل اليهود والنصارى كان هناك قرينة تتعلق بأمور الديانات أصولها وفروعها، ومن ثم كان في الجواب عن الأول «ومن الناس إلا أولئك» وأما الجواب في الثاني بالإبهام» (١) (٢).

وقال ابن بطلال: «قال المهلب: قوله: «لتتبعن سنن من كان قبلكم». بفتح السين هو أولى من ضمها؛ لأنه لا يستعمل الشبر والذراع إلا في السنن وهو الطريق فأخبر ﷺ أن أمته قبل قيام الساعة يتبعون المحدثات من الأمور، والبدع

(١) أي من قوله: «فمن؟».

(٢) فتح الباري (١٣/ ٣٠٢).

والأهواء المضلة كما اتبعتها الأمم من فارس والروم حتى يتغير الدين عند كثير من الناس.

وقد أنذر ﷺ في كثير من حديثه أن الآخر شر، وأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق، وأن الدين إنما يبقى قائماً عند خاصة من المسلمين لا يخافون العداوات، ويحتسبون أنفسهم على الله في القول بالحق، والقيام بالمنهج القويم في دين الله، وفي رواية: «بما أخذ القرون». وفي أخرى: «بأخذ القرون» قال ثعلب: أخذ الجهة: إذا قصد نحوها» (١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: إثم من دعا إلى ضلالة أو سن سنة سيئة لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ [النحل: ٢٥].].

قال الحافظ: «ووجه التحذير: أن الذي يحدث البدعة قد يتهاون بها لخفة أمرها في أول الأمر، ولا يشعر بما يترتب عليها من المفسدة، وهو أن يلحقه إثم من عمل بها من بعده ولو لم يكن هو عمل بها، بل لكونه كان الأصل في أحداثها» (٢).

[فيه: عبد الله، قال النبي ﷺ: «ليس من نفس تقتل ظمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها» وربما قال سفيان: «من دمها، لأنه أول من سن القتل»].
قال ابن بطال: «قال المهلب: فيه الأخذ بالمآل، والحديث على معنى

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣٦٦/١٠).

(٢) فتح الباري (٣٠٦/١٣).

الوعيد. وهذا الباب والذي قبله في معنى التحذير من الضلال واجتناب البدع ومحدثات الأمور في الدين، والنهي عن مخالفة سبيل المؤمنين المتبعين لسنة الله وسنة رسوله التي فيها النجاة» (١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: ما ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ وَحَضَّ عَلَى اتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْحَرَمَانُ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، وَمَا كَانَ بِهَا مِنْ مَشَاهِدِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَمَصَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْمَنْبَرِ وَالْقَبْرِ.

فيه: جابر أن أعرابياً بايع رسول الله ﷺ على الإسلام، فأصاب الأعرابي وعك بالمدينة، فجاء الأعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أقلني بيعتي، فأبى رسول الله ﷺ. ثم جاءه فقال: أقلني بيعتي، فأبى، ثم جاءه فقال: أقلني بيعتي، فأبى. فخرج الأعرابي، فقال رسول الله ﷺ: «إنما المدينة كالكبير تنفي خبيثها، وينصع طيبها» (٢).

وفيه: ابن عباس: كنت أقرئ عبد الرحمن بن عوف، فلما كان آخر حجة حجها عمر، فقال عبد الرحمن بمنى: لو شهدت أمير المؤمنين أتاه رجل قال: إن

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠ / ٣٦٧).

(٢) الكبير: فرن الحداد الذي يوقد فيه النار، فالمدينة كالفرن الناري الذي لا يطيقه أهل الخبث، لأنه يمتحن دواخل نفوسهم، وهذا الفرن المديني يفرز معادن الناس ما بين ذهب إبريز يطيب ويصفو وينقى مع الحرارة ويصفو، وبين مختلط، وبين خبيث. وفي حديث آخر شبهه جليس السوء بنافخ الكبر، فيؤذي من حوله بالشرر وبالريح المستكره، وفي ذلك غاية البلاغة وجمال البيان وروعة التعبير.

فلاناً يقول: لو مات أمير المؤمنين لبايعنا فلاناً، فقال عمر: لأقومنّ العشية، فأحذر هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغضبوهم. قلت: لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعاك الناس يغلبون على مجلسك، فأخاف أن لا ينزلوها على وجهها، فيطير بها كل مطير، فأمهل حتى تقدم المدينة دار الهجرة ودار السنة، فتخلص بأصحاب النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار، فيحفظوا مقاتلك، وينزلوها على وجهها. فقال: والله لأقومن به في أول مقام أقومه بالمدينة. قال ابن عباس: فقدمنا المدينة فقال: إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل آية الرجم.

وفيه: أنس، أن النبي ﷺ طلع له أحد، فقال: «هذا جبل يحبنا ونحبه، اللهم إن إبراهيم حرم مكة، وإني أحرم ما بين لابتيها».

وفيه: أبو هريرة، قال ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي».

وفيه: عمر، أن النبي ﷺ قال: «أتاني الليلة آت من ربي، - وهو بالعقيق - أن صلّ في هذا الوادي المبارك، وقل: عمرة وحجة».

وفيه: ابن عمر، أن النبي ﷺ أُرِيَ وهو في مُعَرَّسُهُ بذي الحليفة، فقيل له: «إنك ببطحاء مباركة».

«قال المهلب: غرضه في هذا الباب تفضيل المدينة بما خصها الله به من معالم الدين، وأنها دار الوحي ومهبط الملائكة بالهدى والرحمة، وبقعة شرفها الله بسكنى رسوله وجعل فيه قبره ومنبره وبينهما روضة من رياض الجنة، وجعلها

كالكير تنفى خبث الفضة، وتخلص من بقي فيها من أن يشوبهم ميل عن الحق، ألا ترى قول ابن عوف لعمر بن الخطاب: إنها دار الهجرة والسنة، وإن أهلها أصحاب النبي الذين خصهم الله بفهم العلم وقوة التمييز والمعرفة بإنزال الأمور منازلها» (١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَشَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] وقوله: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فيه: علي أن النبي ﷺ طرقة وفاطمة ابنة النبي ﷺ، فقال لهم: «ألا تصلون؟» (٢) فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف النبي ﷺ، ولم يرجع إليه شيئاً، وهو مدبر يضرب فخذة ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَشَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

قال الحافظ: «قال الكرمانى: الجدال: هو الخصام، ومنه قبيح وحسن وأحسن، فما كان للفرائض فهو أحسن، وما كان للمستحبات فهو حسن، وما

(١) السابق مختصراً (١٠ / ٣٧١).

(٢) قلت: وهذا سائغ في اللغة، ولم يزل باقياً على ألسنة العامة، وليس من تصرف الرواة، وفي التنزيل: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] وعند بعضهم أن أقل الجمع اثنان. وقال الحافظ: «قوله «ألا تصلون» في رواية شعيب: «ألا تصليان» بالثنوية، والأول محمول على ضم من يتبعهما إليهما، أو للتعظيم، أو لأن أقل الجمع اثنان». فتح الباري (١٣ / ٣١٥).

كان لغير ذلك فهو قبيح. اهـ.

وليس في الحديث أن علياً لم يمثل ما دعاه إليه رسول الله ﷺ من الصلاة، فليس في القصة تصريح بذلك وإنما أجاب علي بما ذكر اعتذاراً عن تركه القيام بغلبة النوم، ولا يمتنع أنه صلى عقب هذه المراجعة إذ ليس في الخبر ما ينفيه، أو ربما منعه أمر يُستحيا من ذكره فدفعه عنه وعن أهله بمثل هذه المراجعة، ولعل هذا سبب خروج رسول الله ﷺ السريع عنهم.

وقال الكرمانى: حرضهم النبي ﷺ باعتبار الكسب والقدرة الكاسبة، وأجاب علي باعتبار القضاء والقدر، قال: وضرب النبي ﷺ فخذه تعجباً من سرعة جواب علي، ويحتمل أن يكون تسليماً لما قال.

وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: في هذا الحديث من الفوائد: مشروعية التذكير للغافل خصوصاً القريب والصاحب، لأن الغفلة من طبع البشر فينبغي للمرء أن يتفقد نفسه ومن يحبه بتذكير الخير والعون عليه.

وفيه فضيلة ظاهرة لعلي من جهة عظم تواضعه، لكونه روى هذا الحديث مع ما يشعر به عند من لا يعرف مقداره أنه يُوجبُ غاية العتاب، فلم يلتفت لذلك، بل حدث به لما فيه من الفوائد الدينية^(١).

[وفيه: أبو هريرة، قال النبي ﷺ: «انطلقوا إلى يهود» فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدْرَاس، فناداهم النبي ﷺ: «يا معشر اليهود، أسلموا تسلموا»، قالها

(١) فتح الباري (١٣ / ٣١٥) بتصرف واختصار يسيرين.

ثلاثاً، فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، فقال: «ذلك أريد، أسلموا تسلموا»، قالها ثلاثاً، فقال: «اعلموا أنما الأرض لله ورسوله، وأنى أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن وجد منكم بهاله شيئاً فليبعه، وإلا فاعلموا أنما الأرض لله ورسوله».

«قال المهلب: الجدل موضوعه في اللغة المدافعة، فمنه مكروه، ومنه حسن، فما كان منه تثبيتاً للحقائق وتثبيتاً للسنن والفرائض فهو الحسن، وما كان منه على معنى الاعتذار والمدافعات للحقائق فهو المذموم. وأما قول علي فهو من باب المدافعة، فاحتج عليه النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَشَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

وقال غيره: وجه هذه الآية في كتاب الاعتصام أن النبي ﷺ عرض على علي وفاطمة الصلاة، فاحتج عليه على بقوله: إنها أنفسنا بيد الله. فلم يكن له أن يدفع ما دعاه النبي إليه بقوله هذا، بل كان الواجب عليه قبول ما دعاه إليه، وهذا هو نفس الاعتصام بسنته ﷺ؛ فلاجل تركه الاعتصام بقبول ما دعاه إليه من الصلاة قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَشَيْءٍ جَدَلًا﴾، ولا حجة لأحد في ترك أمر الله وأمر رسوله بمثل ما احتج به علي.

وأما حديث أبي هريرة، فموضع الترجمة منه أن اليهود لما بلغهم النبي ﷺ ما لزمهم العمل به والإيمان بموجبه قالوا له: قد بلغت يا أبا القاسم. رادّين لأمره في عرضه عليهم الإيمان، فبالغ في تبليغهم، وقال: ذلك أريد. وهذه مجادلة

من النبي ﷺ لأهل الكتاب بالتي هي أحسن» (١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ وما أمر النبي ﷺ بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم.

فيه: أبو سعيد، قال النبي ﷺ: «يُجَاءُ بَنُوْحَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ، هَلْ بَلَغْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ». فقال رسول الله ﷺ: «فِيْجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي عدلاً، إلى قوله: ﴿شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

«معنى هذا الباب: الاعتصام بالجماعة، ألا ترى قوله: ﴿لَنْ كُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ولا يجوز أن يكونوا شهداء غير مقبولي القول، ولما كان الرسول واجباً اتباعه وجب اتباع قولهم؛ لأن الله جمع بينه وبينهم في قبول قولهم وزكاهم وأحسن الثناء عليهم بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ يعني عدلاً.

والاعتصام بالجماعة كالاكتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لقيام الدليل على توثيق الله ورسوله صحة الإجماع وتحذيرهما من مفارقتة بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ الآية [النساء: ١١٥]، وقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران: ١١٠].

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠ / ٣٧٨).

وهاتان الآيتان قاطعتان على أن الأمة لا تجتمع على ضلال، وقد أخبر الرسول بذلك فهما من كتاب الله فقال: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»^(١) ولا

(١) أحمد في المسند ٦ / ٣٩٦ عن أبي بصرة الغفاري قريباً من هذا. وصححه الألباني في السلسلة (١٠ / ٤٣٦) والأحاديث التي تدل على معنى هذه الأحاديث كثيرة، فانظر: الترمذي (٢١٦٧)، وأبا داود (٤٢٥٣)، والمستدرک للحاكم (١ / ١١٥، ٤ / ٥٠٧). واعلم أن أحاديث عدم اجتماع أمة محمد ﷺ على ضلالة ولا على خطأ، مشهورة المتن كثيرة الأسانيد، ولها شواهد عديدة. وانظر كشف الخفا (٢ / ٣٥٠، ٤٨٨). وقد حاول بعضهم الاستدلال بحديث «لا تجتمع أمتي على ضلالة» على صحة عقيدة الأشاعرة. وقد سئل شيخنا أ. د. ناصر بن عبد الكريم العقل عن ذلك وهل فيه حجة على صحة اعتقاد الأشاعرة والماتريديّة؟ فأجاب:

«أولاً: لا يصح القول بأن المسلمين اجتمعوا على الاعتقاد الذي لخصه الإمامان أبو الحسن الأشعري، وأبو منصور الماتريدي، بل بقي أهل السنة والجماعة، (أهل الحديث) على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما عليه الصحابة رضي الله عنهم والتابعون إلى يومنا، وإلى قيام الساعة.

وثانياً: أبو الحسن الأشعري، والماتريدي لا يتفقان على العقيدة، فعقيدة الأشعري استقرت على ما كان عليه السلف الصالح في الجملة إلا في مسائل قليلة. أما الماتريدي فإنه نهج نهج أهل الكلام في تقرير العقيدة، في الصفات بخاصة، بالقواعد الكلامية والفلسفية كما في كتابه التوحيد.

وثالثاً: وعليه فإن مذهب السلف هو الحق وإن خالفه الأكثرون في بعض الأزمان وبعض الأمكنة، ومذهب الأشاعرة المتكلمين والماتريديّة يخالف مذهب السلف، وهو مذهب محدث بعد القرون الفاضلة، وهم أي الأشاعرة والماتريديّة يوافقون السلف في بعض الأمور في الجملة، كما أنهم أصناف منهم من يدين بمنهج السلف، ومنهم من يدين

يجوز أن يكون أراد جميعها من عصره إلى قيام الساعة؛ لأن ذلك لا يفيد شيئاً؛ إذ الحكم لا يعرف إلا بعد انقراض جميعها، فعلم أنه أراد أهل الحل والعقد من كل عصر» (١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير علم فحكمه مردود، لقوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»].

فيه: أبو سعيد، وأبو هريرة، أن النبي ﷺ بعث أبا بني عدي الأنصاري إلى خيبر، واستعمله على خيبر، فقدم بتمر جنيب، فقال له رسول الله ﷺ: «أكلُ تمر خيبر هكذا؟» قال: لا، والله يا رسول الله إنا لنشتري الصاع بالصاعين من الجَمْع، فقال رسول الله ﷺ: «لا تفعلوا، ولكن مثلاً بمثل، أو بيعوا هذا، واشتروا بثمانه من هذا، وكذلك الميزان» (٢).

«الواجب على من حكم بغير السنة جهلاً وغلطاً، ثم تبين له أن سنة الرسول خلاف حكمه فإن الواجب عليه الرجوع إلى حكم السنة وترك ما

بمناهج أهل الكلام وهم الأكثر».

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (١٠/٣٨٠).

(٢) صحيح البخاري (٩/١٠٧) جنيب: على وزن كريم، أجود ألوان التمر، قال الأصمعي: «الجمع من التمر: ما لم يعرف له اسم»، وقال الفراء: «أخلاق من التمر من أجناس». عن: الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري، لأحمد بن إسماعيل الكوراني. ١٨٠/١١.

خالفها امتثالاً لأمره تعالى بوجوب طاعته وطاعة رسوله ألا يحكم بخلاف سنته، وهذا هو نفس الاعتصام بالسنة» (١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: الحجة على من قال: إن أحكام النبي ﷺ كانت ظاهرة، وما كان يغيب بعضهم من مشاهد النبي ﷺ وأمور الإسلام.

فيه: أبو موسى أنه استأذن على عمر، فوجده مشغولاً، فقال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس؟ ائذنوا له، فدُعي له، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: إنا كنا نؤمر بهذا، قال: فأنتي على هذا بينة، أو لأفعلن بك. فانطلق إلى مجلس من الأنصار، فقالوا: لا يشهد إلا أصاغرنا، فقام أبو سعيد الخدري، فقال: قد كنا نؤمر بهذا، فقال عمر: خفي عليّ هذا من أمر النبي ﷺ، ألهاني الصفق بالأسواق.

وفيه: أبو هريرة: إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن النبي ﷺ، والله الموعد، إني كنت امرءاً مسكيناً ألزم النبي ﷺ على ملء بطني، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق، وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم، فشهدت من رسول الله ﷺ ذات يوم، وقال: «من يبسط رداءه حتى أقضي مقالتي، ثم يقبضه، فلن ينسى شيئاً سمعه مني»، فبسطتُ بردة كانت علي، فوالذي بعثه بالحق ما نسيت شيئاً سمعته منه].

«هذا الباب يرد به على الرافضة وقوم من الخوارج زعموا بأن أحكام النبي

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (١٠ / ٣٨٢).

وسننه منقولة عنه نقل تواتر، وأنه لا سبيل إلى العمل بما لم ينقل نقل تواتر، وقولهم في غاية الجهل بالسنن وطرقها، فقد صحت الآثار أن أصحاب النبي ﷺ أخذ بعضهم السنن من بعض، ورجع بعضهم إلى ما رواه غيره عن النبي ﷺ، وانعقد الإجماع على القول بالعمل بأخبار الأحاد، وبطل قول من خرج عن ذلك من أهل البدع.

هذا أبو بكر الصديق على مكانه لم يعلم النص في توريث الجدّة حتى أخبره محمد بن مسلمة والمغيرة بالنص فيها، فرجع إليه، وأخذ عمر بن الخطاب بما رواه عبد الرحمن بن عوف في حديث الوباء، فرجع إليه، وكذلك أخذ أيضًا عمر بما رواه أبو موسى في دية الأصابع، فرجع إليه، وأخذ أيضًا عمر بما رواه المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة في دية الجنين، ورجع عمر إلى أبي موسى وأبي سعيد في الاستئذان، وابن عمر يحكى عن رافع بن خديج النهي عن المخابرة فرجع إليه، والصحابة ترجع إلى قول عائشة: «إذا التقى الختانان وجب الغسل»^(١). وأيضًا ترجع إليها في أن النبي ﷺ كان يصبح جنبًا من جماع غير احتلام ثم يصوم^(٢)، وأبو موسى يرجع إلى حديث ابن مسعود في ابنة وابنة ابن وأخت.. وهذا الباب أكثر من أن يحصى»^(٣).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: من رأى ترك النكير من النبي ﷺ حجة لا من

(١) البخاري (١/ ٨٠) ومسلم (١/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٢) البخاري (١٩٢٥، ١٩٢٦) ومسلم (١١٠٩، ٧٨).

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطلال (١٠/ ٣٨٦).

غير الرسول ﷺ.

فيه: محمد بن المنكدر قال: رأيت جابر بن عبد الله يحلف بالله أن ابن الصائد الدجال. قلت: تحلف بالله؟ قال: إني سمعت عمر يحلف على ذلك عند النبي ﷺ فلم ينكره النبي ﷺ].

قال الحافظ بعد ذكر قصة ابن عمر مع ابن صياد: «وقد أخرج مسلم هذا الحديث بمعناه من وجه آخر عن ابن عمر ولفظه: «لقيته مرتين.. فذكر الأولى ثم قال: لقيته لقيّةً أخرى وقد نفرت عينه فقلت: متى فعلت عينك ما أرى؟ قال: ما أدري، قلت: لا تدري وهي في رأسك! قال: إن شاء الله جعلها في عصاك هذه، ونخر كأشد نخير حمار سمعت. فزعم أصحابي أني ضربته بعصا كانت معي حتى تكسرت، وأنا والله ما شعرت! قال: وجاء حتى دخل على أم المؤمنين حفصة فحدثها، فقالت: ما تريد إليه، ألم تسمع أنه قد قال: إن أول ما يبعثه على الناس غضب يغضبه؟»

قال ابن بطال: فإن قيل هذا أيضًا يدل على التردد في أمره، فالجواب: أنه إن وقع الشك في أنه الدجال الذي يقتله عيسى بن مريم؛ فلم يقع الشك في أنه أحد الدجالين الكذابين الذين أنذر بهم النبي ﷺ في قوله: «إن بين يدي الساعة دجالين كذابين قريبًا من ثلاثين كلهم يزعم أنه نبي»^(١).

وَمُحَصَّلُهُ: عدم تسليم الجزم بأنه الدجال، فيعود السؤال الأول عن جواب

(١) البخاري (٦/٦١٦)، ومسلم (٨٤).

حلف عمر ثم جابر على أنه الدجال المعهود، لكن في قصة حفصة وابن عمر دليل على أنهما أرادا الدجال الأكبر، واللام في القصة الواردة عنهما للعهد لا للجنس.

وقد أخرج أبو داود^(١) بسند صحيح عن موسى بن عقبة عن نافع قال: كان ابن عمر يقول: «والله ما أشك أن المسيح الدجال هو ابن صياد».

ووقع لابن صياد مع أبي سعيد الخدري قصة أخرى تتعلق بأمر الدجال، فأخرج مسلم^(٢) عن أبي سعيد قال: صحبني ابن صياد إلى مكة فقال لي: ماذا لقيت من الناس يزعمون أني الدجال! أأست سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه لا يُولد له»؟ قلت: بلى، قال: فإنه قد ولد لي، قال: أو لست سمعته يقول: «لا يدخل المدينة ولا مكة»؟ قلت: بلى، قال: فقد ولدت بالمدينة، وها أنا أريد مكة.

ومن طريق سليمان التيمي عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: أخذتني من ابن صياد ذمامة^(٣) فقال: هذا عذرتُ الناس، مالي وأنتم يا أصحاب محمد؟ ألم

(١) أبو داود (٤٣٣٠) وصححه ابن حجر كما بين يديك.

(٢) مسلم (١٩٠/٨).

(٣) الذميمة: تأتي بمعنى الحياء، ومنه ما جاء في موسى عليه السلام: «فَأَصَابَتْهُ مِنْ صَاحِبِهِ ذَمَامَةٌ» رواه مسلم (٢٣٨٠)، أي استحيا من الخضر عليهما السلام. وتأتي الذميمة بمعنى الذم واللوم، والمذمة: العار. والحديث محتمل للأمرين، فقد يكون قد لامه مما سمع فيه من الناس، وربما استحيا منه لما رأى من أمارات كونه ليس كما يقولون، والأظهر: أنه =

يقول نبي الله ﷺ «إنه» يعني الدجال «يهودي» (١) وقد أسلمت.

وفي رواية: خرجنا حجّاجًا ومعنا ابن صياد فنزلنا منزلاً وتفرق الناس، وبقيت أنا وهو، فاستوحشتُ منه وحشة شديدة مما يقال فيه، فقلت: الحر شديد، فلو وضعت ثيابك تحت تلك الشجرة ففعل، فرفعت لنا غنم فانطلق فجاء بعُسٍّ (٢) فقال: اشرب يا أبا سعيد، فقلت: إن الحر شديد، وما بي إلا أن أكره أني أشرب من يده، فقال: لقد هممتُ أن آخذ حبلاً فأعلقه بشجرة ثم أختنق به مما يقول لي الناس!

يا أبا سعيد؛ مَنْ خفي عليه حديث رسول الله ﷺ ما خفي عليكم معشر الأنصار؟! ثم ذكر نحو ما تقدم وزاد: قال أبو سعيد: حتى كدت أعذره.. وفي آخر كل من الطرق الثلاثة أنه قال: إني لأعرفه وأعرف مولده وأين هو الآن؟ قال أبو سعيد: فقلت له: تبّاً لك سائر اليوم!

وقال البيهقي: ليس في حديث جابر أكثر من سكوت النبي ﷺ على حلف عمر، فيحتمل أن يكون النبي ﷺ كان متوقفاً في أمره، ثم جاءه الثبت من الله تعالى بأنه غيره على ما تقتضيه قصة تميم الداري، وبه تمسك من جزم بأن الدجال غير ابن صياد، وطريقه أصح، وتكون الصفة التي في ابن صياد وافقت ما في الدجال.

دجال من الدجاجة، وليس هو بالدجال الأكبر، والله أعلم.

(١) مسلم (٢٩٢٧).

(٢) العُسُّ: قدح ضخم يشرب فيه.

قلت: قصة تميم أخرجها مسلم من حديث فاطمة بنت قيس أن النبي ﷺ خطب فذكر أن تميمًا الداري ركب في سفينة مع ثلاثين رجلًا من قومه، فلعب بهم الموج شهرًا، ثم نزلوا إلى جزيرة، فلقيتهم دابة كثيرة الشعر، فقالت لهم: أنا الجساسة، ودلتهم على رجل في الدَّير قال: فانطلقنا سرعًا فدخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقًا وأشدّه وثاقًا، مجموعة يداه إلى عنقه بالحديد!

فقلنا: ويملك ما أنت؟!.. فذكر الحديث وفيه: أنه سألهم عن نبي الأميين هل بعث، وأنه قال: إن يطيعوه فهو خير لهم، وأنه سألهم عن بحيرة طبرية، وعن عين زُغرٍ، وعن نخل بيسان.. وفيه أنه قال: إني مخبركم عني أنا المسيح، وإني أوشك أن يُؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة. وفي بعض طرقه عند البيهقي أنه شيخ. وسندها صحيح.

قال البيهقي: فيه أن الدجال الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان غير ابن صياد، وكان ابن صياد أحد الدجالين الكذابين الذين أخبر ﷺ بخروجهم، وقد خرج أكثرهم، وكان الذين يجزمون بابن صياد هو الدجال لم يسمعوا بقصة تميم، وإلا فالجمع بينها بعيد جدًا، إذ كيف يلتئم أن يكون من كان في أثناء الحياة النبوية شبه المحتلم ويجتمع به النبي ﷺ ويسأله، أن يكون في آخرها شيخًا كبيرًا مسجونًا في جزيرة من جزائر البحر، موثقًا بالحديد، يستفهم عن خبر النبي ﷺ هل خرج أو لا؟!!

فالأولى أن يحمل على عدم الاطلاع، أما عمر فيحتمل أن يكون ذلك منه

قبل أن يسمع قصة تميم، ثم لما سمعها لم يعد إلى الحلف المذكور، وأما جابر فشهد حلفه عند النبي ﷺ فاستصحب ما كان اطلع عليه من عمر بحضرة النبي ﷺ.

قال الخطابي: اختلف السلف في أمر ابن صياد بعد كبره، فروي أنه تاب من ذلك القول ومات بالمدينة، وأنهم لما أرادوا الصلاة عليه كشفوا وجهه حتى يراه الناس، وقيل لهم: اشهدوا.

وقال النووي: قال العلماء: قصة ابن صياد مشكلة، وأمره مشتبه، لكن لا شك أنه دجال من الدجاجلة، والظاهر أن النبي ﷺ لم يوح إليه في أمره بشيء، وإنما أوحى إليه بصفات الدجال وكان في ابن صياد قرائن محتملة، فلذلك كان ﷺ لا يقطع في أمره بشيء، بل قال لعمر: «لا خير لك في قتله»^(١). وأما احتجاجاته هو بأنه مسلم إلى سائر ما ذكر فلا دلالة فيه على دعواه؛ لأن النبي ﷺ إنما أخبر عن صفاته وقت خروجه آخر الزمان.

قال: ومن جملة ما في قصته قوله للنبي ﷺ: أتشهد أني رسول الله؟ وقوله: إنه يأتيه صادق وكاذب، وقوله: إنه تنام عينه ولا ينام قلبه، وقوله: إنه يرى عرشاً على الماء، وأنه لا يكره أن يكون الدجال، وأنه يعرفه ويعرف مولده وموضعه وأين هو الآن.

قال: وأما إسلامه وحجه وجهاده فليس فيه تصريح بأنه غير الدجال؛

(١) البخاري (٦١٧٥)، ومسلم (٧٤٦١).

لا احتمال أن يختم له بالشر. وقد أخرج أبو داود بسند صحيح عن جابر قال: «فقدنا ابن صياد يوم الحرة»^(١).

ولشدة التباس الأمر في ذلك سلك البخاري مسلك الترجيح فاقصر على حديث جابر عن عمر في ابن صياد، ولم يخرج حديث فاطمة بنت قيس في قصة تميم، وقد توهم بعضهم أنه غريب فزُدَّ وليس كذلك، فقد رواه مع فاطمة بنت قيس أبو هريرة وعائشة وجابر»^(٢).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: قول النبي ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن

شيء».

فيه: عبد الرحمن، سمع معاوية، يحدث رهطاً من قريش بالمدينة، وذكر كعب الأحبار، فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب»^(٣).

وفيه: أبو هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٦].

(١) أبو داود (٤٣٣٢) وصححه ابن حجر والألباني.

(٢) فتح الباري لابن حجر (١٣/٣٢٦ - ٣٣٠) ملخصاً.

(٣) الكذب في لغة القرشيين هو القول بخلاف الحقيقة وإن كان بلا قصد، وقصد معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن في حديث كعب ما هو باطل لأنه يحدث عن صحف أهل الكتاب.

وفيه: ابن عباس، قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسوله ﷺ أحدث، تقرأونه محضاً لم يُشَبَّ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله؛ ليشتروا به ثمناً قليلاً، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم].

«قال المهلب: قوله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء» إنما هو في الشرائع، لا تسألوهم عن شرعهم فيما لا نعرفه من شرعنا لنعمل به؛ لأن شرعنا مكتفٍ، وما لا نص فيه عندنا ففي النظر والاستدلال ما يقوم الشرع منه. وأما سؤالهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا، وما جاء به نبينا ﷺ من الأخبار عن الأمم السالفة فلم نُنه عنه.

فإن قيل: فقد أمر الله رسوله بسؤال أهل الكتاب فقال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]. قيل: ليس هذا بمفسد لما تقدم من النهي عن سؤالهم؛ لأنه ﷺ لم يكن شاكاً ولا مرتاباً.

فإن قيل: كيف يجوز سؤال الذين يقرأون الكتاب مع جحدهم النبوة؟ ففيه قولان: أحدهما: سل من آمن من أهل الكتاب كابن سلام، وكعب الأخبار.

الثاني: سلهم عن صفة النبي ﷺ المبشر به في كتبهم، ثم انظر ما يوافق تلك

الصفة» (١).

وقال رحمه الله تعالى: [باب: قوله تعالى: ﴿وَأْمُرُهُمْ سُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] ﴿وَشَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ وأن المشاورة قبل العزم والتين، لقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فإذا عزم الرسول ﷺ لم يكن لبشر التقدم على الله ورسوله، وشاور النبي ﷺ أصحابه يوم أحد في المقام والخروج، فأوا له الخروج، فلما لبس لأمته وعزم، قالوا: أقم، فلم يمل إليهم بعد العزم، وقال: «لا ينبغي لنبي يلبس لأمته فيضعها حتى يحكم الله»، وشاور عليا وأسامة فيما رمى به أهل الإفك عائشة، فسمع منها حتى نزل القرآن، فجلد الرامين، ولم يلتفت إلى تنازعهم، ولكن حكم بما أمره الله.

وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأئمة من أهل العلم في الأمور المباحة؛ ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره؛ اقتداء بالنبي ﷺ. ورأى أبو بكر قتال من منع الزكاة، فقال عمر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»، فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين ما جمع رسول الله ﷺ، ثم تابعه بعد عمر، فلم يلتفت أبو بكر إلى مشورة؛ إذ كان عنده حكم رسول الله ﷺ في الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة، وأرادوا تبديل الدين وأحكامه، وقال النبي ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه». وكان القراء أصحاب مشورة عمر كهؤلاء

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/٣٩٣) مختصراً.

كانوا، أو شبَّانًا، وكان وقافًا عند كتاب الله (١).

«عن الحسن البصري والضحاك قالا: ما أمر الله نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعلمهم ما في المشورة من الفضل. وقال الحسن: وما شاور قوم إلا هُودوا لأرشد أمورهم. وقال آخرون: إنما أمره الله بمشاورة أصحابه مع غناه عنهم بتدبيره تعالى له وسياسته إياه؛ ليستن به من بعده ويقتدوا به فيما ينزل بهم من النوازل. وقال سفيان الثوري: وقد سنَّ رسول الله الاستشارة في غير موضع، استشار أبا بكر وعمر في أسارى بدر، واستشار أصحابه في يوم الحديبية.

وأما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] قال قتادة: أمر الله نبيه إذا عزم على أمر أن يمضي فيه ويتوكل على الله. وقال المهلب: وامثل هذا النبي ﷺ فقال: «لا ينبغي لنبي لبس لأُمَّته أن يضعها حتى يحكم الله» أي: ليس ينبغي له إذا عزم أن ينصرف؛ لأنه نقض التوكل الذي شرط الله مع العزيمة، فلبسه لأُمَّته دالٌّ على العزيمة.

وفيه من الفقه: أن للمستشير والحاكم أن يعزم من الحكم على غير ما قال به مشاوره إذا كان من أهل الرسوخ في العلم، وأن يأخذ بما يراه كما فعل النبي ﷺ في مسألة عائشة، فإنه شاور عليًّا وأسامة، فأشار عليه أسامة بإمساكها، وأشار عليه عليٌّ بفراقها، فلم يأخذ بقول أحدهما، وتركها عند أهلها حتى نزل القرآن فأخذ به.

(١) صحيح البخاري (٩/١١٣).

وكذلك فعل أبو بكر الصديق فإنه شاور أصحابه في مقاتلة من منع الزكاة، وأخذ بخلاف ما أشاروا به عليه من ترك قتالهم لما كان عنده متضحاً من قول النبي ﷺ: «إلا بحقها»^(١) وفهمه هذه النكتة مع ما يعضدها من قوله: «من غير دينه فاقتلوه».

وأما قول البخاري: فكان الأمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأئمة من أهل العلم، فبذلك توأصى العلماء والحكماء.

قال سفيان الثوري: ليكن أهل مشورتك أهل التقوى والأمانة ومن يخشى الله، فإذا أشار أحد برأي سألته: من أين قاله؟ فإن اختلفوا أخذ بأشبههم قولاً بالكتاب والسنة، ولا يحكم بشيء حتى يتبين له حجة يجب الحكم بها.

وقول البخاري: فإذا وضح الكتاب والسنة يعني: إن وجد فيهما نص لم يتعدوه، وإن لم يوجد نص وسعهم الاجتهاد»^(٢). وباللغة التوفيق.



(١) قلت: فإن قيل: لم شاورهم والسنة بين يديه؟ فالجواب: بحث ما لديهم من أدلة ربما لم يقف عليها، ولذلك فلما لم يجد لديهم ما يخالف ما لديه من السنة عمل بها وترك رأيهم.

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (٣٩٩ / ١٠).

من أخبار المعتصمين بالله تعالى

حديث المعتصمين برهم يسوق الروح لعلاها، ويسمو بها لسمّاهَا، ويعلو بها لتُحلَّتْ مع الملاء الأعلى لهاها، فالكلام عنهم ينشطها ويغذيها، ويلهمها ويشفيها، وقد قص ربنا سبحانه في التنزيل أخبارَ سادة أوليائه من أنبيائه ومن دونهم، للاعتبار بسيرتهم، والانتهاج في سبيلهم، والسير في ركاب قافلتهم المحفوفة بالسكينة والرحمة والبركة والتوفيق، ومن قصد البحر استقلَّ السَّواقِيَا.

وإن من سادة أولياء هذه الأمة عَلمٌ صالح، ووليٌّ للأمة ناصح، وإمامٌ هدى في سنة رسول الله ﷺ، حريٌّ بمن رام الصلاح أن يقبس من نور علمه النقي، ويتلمَّس مهيعه الصافي؛ لأنه قد عرف الطريق بدلائله، واطمأنت نفسه فيه وبه وله، كيف لا وهو يصبح ويمسي على استعلام واستبشار واستبصار واستظهار سنة الحبيب ﷺ والعمل بها، والجهاد لها وبها، ونشرها في الأمة، والذب عنها، نصحًا لها ومحبة وشفقة، جزاه الله عنا خير ما جرى مصلحًا عن قومه، وداعٍ إلى سبيل ربه عن أحبابه، ورضي عنه وأرضاه، وقدس روحه ورحمه، وكتبه من أهل الفردوس الأعلى بلا حساب ولا عذاب، ووالديه وأحبابه وإيانا جميعًا، ذاكم هو الخبر الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، صاحب الصحيح، وحتى سلسلة اسمه قد حواها الجمال والبهاء والجلال.

وسيكون غالب مرجعنا في منتخبات سيرته عن الذهبي في سير الأعلام^(١).

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٣٩١ - ٤٧٠). باختصار واقتصار وزيادات من الفتح وغيره.

الإمام البخاري رحمه الله تعالى

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه^(١) البخاري.

أسلم المغيرة على يدي اليمان الجعفي والي بخارى، وكان مجوسياً، وطلب إسماعيل بن إبراهيم العلم. وولد أبو عبد الله في شوال سنة أربع وتسعين ومئة. وعن محمد بن أحمد بن الفضل البلخي، سمعت أبي يقول: ذهبت عينا محمد بن إسماعيل في صغره، فرأت والدته في المنام إبراهيم الخليل عليه السلام، فقال لها: «يا هذه، قد رد الله على ابنك بصره لكثرة بكائك، أو كثرة دعائك»، - شك البلخي - فأصبحنا وقد رد الله عليه بصره^(٢).

صباه العلمي:

عن محمد بن أبي حاتم، قال: قلت لأبي عبد الله: كيف كان بدء أمرك؟ قال: أهدمت حفظ الحديث وأنا في الكتاب. فقلت: كم كان سنك؟ فقال: عشر سنين، أو أقل^(٣).

(١) وهي لفظة بخارية، معناها الزراع.

(٢) مقدمة فتح الباري (٤٧٨). أي: بدعائها المقرون بالبكاء رجاءً لله تعالى ورحمة بالصبي الصغير، فالله تعالى عند المنكسرة قلوبهم إليه، الواثقة أفئدتهم به تبارك وتعالى.

(٣) الحافظ في الفتح (١ / ٤٤). وفي هذا أنّ على الوالدين ملاحظة العناية يتحبيب الصغير في الإيمان والعبادة والعلم منذ نعومة أظفاره، فالغصن يثبت على ما امتدّ عليه. والله =

قال رحمه الله تعالى: ثم خرجت من الكتاب بعد العشر، فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره. فقال يوماً فيما كان يقرأ للناس: سفيان، عن أبي الزبير، عن إبراهيم، فقلت له: إنَّ أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم. فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى الأصل. فدخل فنظر فيه، ثم خرج، فقال لي: كيف هو يا غلام؟ قلت: هو الزبير بن عدي، عن إبراهيم، فأخذ القلم مني، وأحكم كتابه، وقال: صدقت. فقيل للبخاري: ابن كم كنت حين رددت عليه؟ قال ابن إحدى عشرة سنة!

فلما طعنت في ست عشرة سنة، كنت قد حفظت كتب ابن المبارك ووكيع، وعرفت كلام هؤلاء^(١)، ثم خرجت مع أمي وأخي أحمد إلى مكة، فلما حججت رجع أخي بها، وتخلفت في طلب الحديث^(٢).

شيوخه:

أجلَّةٌ كثيرون، قال وراقه محمد بن أبي حاتم: سمعته يقول: دخلت بلخ، فسألوني أن أملي عليهم لكل من كتبت عنه حديثاً، فأملت ألف حديث لألف رجل ممن كتبت عنهم.

لا يضيع أجر المصلحين، كيف وإن كان مشروع حياة المرء فلذة كبده وامتداده في الزمان!

وينشأ ناشئُ الفتيانِ فينا على ما كان عودُه أبوه

(١) أي: أهل الرأي، وهم دون أهل الأثر.

(٢) الحافظ في الفتح (١ / ٤٤)

قال: وسمعتَه قبل موته بشهر يقول: كتبت عن ألف وثمانين رجلاً، ليس فيهم إلا صاحب حديث، كانوا يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص (١).
 وكتابه الصحيح هو أعلى الكتب الستة سنداً إلى النبي ﷺ في شيء كثير من الأحاديث، وذلك لأن أبا عبد الله أسن الجماعة، وأقدمهم لقياً للكبار، أخذ عن جماعة يروي الأئمة الخمسة (٢) عن رجل عنهم.

رحلته وطلبه وتصانيفه:

قال محمد بن أبي حاتم البخاري: سمعت أبا عبد الله محمد بن إسماعيل يقول: حججت، ورجع أخي بأمي، وتخلفت في طلب الحديث. فلما طعنت في ثمان عشرة، جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقوابيلهم، وصنفت كتاب «التاريخ» إذ ذاك عند قبر رسول الله ﷺ في الليالي المقمرة. وقل اسم في التاريخ إلا وله قصة، إلا أني كرهت تطويل الكتاب.

وكنت أختلف إلى الفقهاء بمرو وأنا صبي، فإذا جئت أستحيي أن أسلم عليهم، فقال لي مؤدب من أهلها: كم كتبت اليوم؟ فقلت: اثنين، وأردت بذلك حديثين، فضحك من حضر المجلس. فقال شيخ منهم: لا تضحكوا، فلعله يضحك منكم يوماً!

وسمعتَه يقول: دخلت على الحميدي وأنا ابن ثمان عشرة سنة، وبينه وبين

(١) ذكره الحافظ في الفتح (١/ ٤٤).

(٢) أي: مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

آخر اختلاف في حديث، فلما بصر بي الحميدي قال: قد جاء من يفصل بيننا، فعرضنا علي، ففضيت للحميدي علي من يخالفه، ولو أن مخالفه أصر علي خلافه ثم مات علي دعواه لمات كافرًا.

وعن أبي بكر الأعين قال: كتبنا عن البخاري وما في وجهه شعرة. فقلنا: ابن كم أنت؟ قال: ابن سبع عشرة سنة.

وقال إبراهيم بن معقل: سمعت أبا عبد الله يقول: كنت عند إسحاق بن راهويه^(١)، فقال بعض أصحابنا: لو جمعتم كتابًا مختصرًا لسنن النبي ﷺ، فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع هذا الكتاب^(٢).

وعن كتابه العظيم «الصحيح» قال البخاري: أخرجت هذا الكتاب من زهاء ست مئة ألف حديث. وقال: ما وضعت في كتابي «الصحيح» حديثًا إلا

(١) رَاهُوِيَّة: بضم الهاء وفتح الياء عند المحدثين، وراهويَّة: بفتح الحاء والواو وتسكين الياء عند أهل اللسان، وهو الأشبه؛ لأنه اسم فارسي له نظائر كسيويَّة ونفطويَّة ومسكويَّة وعمرويَّة وحمويَّة وخميريَّة ونحوها، وعليه؛ فليُسلَك براهويَّة بسبيلها، وهو مركب من اسم وصوت، وصوتها «ويه»، ولعلَّ المحدثين كرهوا النطق بـ«ويه»، لأن فيه نوع إشعار بتفجُّع لوقوع مكروه، والله أعلم.

(٢) وفي هذا بركة الإشارة على التلميذ بما ينفعه الله به وينفع به الأمة، ولهذا شواهد لا تحصر في أبواب الخير، ومشاريع البر، وأوجه النفع المتعدي للناس، فكثير منها كان بذرتها كلمة ألقاها الشيخ. ولم يلق لها كثير بال. فنمت مع الزمن بإذن ربها حتى أثمرت نتائجًا صالحًا وأكلاً طيبًا وعملاً مباركًا.

اغتسلت قبل ذلك، وصليت ركعتين^(١).

وقال: ما أدخلت في هذا الكتاب إلا ما صح، وتركت من الصحاح كي لا يطول الكتاب.

وسمعه يقول: صنفت جميع كتبي ثلاث مرات. وقال: أخذ إسحاق بن راهويه^(٢) كتاب «التاريخ» الذي صنفت، فأدخله على عبد الله بن طاهر،

(١) انظر: طبقات الحنابلة (١ / ٢٧٤) وتاريخ بغداد (٢ / ٩). وتأمل بركة الصلاة ونفعها وعظيم أثرها، فلاجلها وأمثالها خلقتنا، وليست صلاة العالم به الخاشع له كصلاة من سواه من الغافلين، والله المستعان.

(٢) سئل الإمام أحمد بن حنبل عن إسحاق بن راهويه رحمهما الله تعالى، فقال: «مثل إسحاق يُسأل عنه؟! إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين» أخرجه الخطيب في «الكفاية» (ص: ١٤٧ - ١٤٨) بإسناد صحيح. وفي تاريخ الخطيب: (١٠ / ٣٢٨): قال عبد الله بن الإمام أحمد: سمعت أبي يقول: «ما جاوز الجسر أفقه من إسحاق بن راهويه، ولا أحفظ من أبي زرعة»، أي الرازي الإمام الحافظ.

ويعني الإمام بالجسر: جسر نهر جيحون، لأنهم قد سمّوا ما خلفه من البلاد: بلاد ماوراء النهر، وعلى الشرق منه نهر سيحون، هي منطقة تاريخية وجزء من آسيا الوسطى، تشمل أراضيها أوزبكستان والجزء الجنوب الغربي من كازاخستان والجزء الجنوبي من قيرغيزستان، وأهم مدنها: سمرقند - بخارى - فرغانة - طشقند - خوارزم - مرو - ترمذ.

وقد قال عليه السلام: «سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة». رواه مسلم (٢٦) / ٢٨٣٩). قال النووي رحمه الله تعالى: «اعلم أن سيحان وجيحان غير سيحون =

فقال: أيها الأمير، ألا أريك سحرًا؟ قال: فنظر فيه عبد الله، فتعجب، منه، وقال

وجيحون، فأما سيحان وجيحان المذكوران في هذا الحديث اللذان هما من أنهار الجنة، في بلاد الأرمن، فجيحان نهر المصيبة، وسيحان نهر أذنة، وهما نهران عظيمان جدًا، أكبرهما جيحان، فهذا هو الصواب في موضعهما، وأما قول الجوهر في «صاحبه»: جيحان نهر بالشام، فغلط، أو أنه أراد المجاز من حيث إنه ببلاد الأرمن، وهي مجاورة للشام، قال الحازمي: سيحان نهر عند المصيبة، قال: وهو غير سيحون، وقال صاحب «نهاية الغريب»: سيحان وجيحان نهران بالعواصم، عند المصيبة، وطرسوس، واتفقوا كلهم على أن جيحون بالواو نهر وراء خراسان، عند بلخ، واتفقوا على أنه غير جيحان، وكذلك سيحون غير سيحان، وأما قول القاضي عياض: هذه الأنهار الأربعة أكبر أنهار بلاد الإسلام، فالنيل بمصر، والفرات بالعراق، وسيحان وجيحان، ويقال: سيحون وجيحون ببلاد خراسان، ففي كلامه إنكار من أوجه:

أحدها: قوله: الفرات بالعراق، وليس بالعراق، بل هو فاصل بين الشام والجزيرة.
والثاني: قوله: "سيحان وجيحان"، ويقال: سيحون وجيحون، فجعل الأسماء مترادفة، وليس كذلك، بل سيحان غير سيحون، وجيحان غير جيحون، باتفاق الناس، كما سبق.
الثالث: أنه ببلاد خراسان، وأما سيحان وجيحان ببلاد الأرمن، بقرب الشام، والله أعلم.

وأما كون هذه الأنهار من ماء الجنة ففيه تأويلان، ذكرهما القاضي عياض:
أحدهما: أن الإيمان عم بلادها، أو الأجسام المتغذية بها صائرة إلى الجنة.
والثاني: وهو الأصح أنها على ظاهرها، وأن لها مادة من الجنة، والجنة مخلوقة موجودة اليوم، عند أهل السنة، وقد ذكر مسلم في «كتاب الإيمان» في حديث الإسراء (١٧/ ١٧٧): أن الفرات والنيل يخرجان من الجنة، وفي البخاري (٤/ ١٣٤): من أصل سدرة المنتهى». وهو تحرير حسن، والله تعالى أعلم.

لست أفهم تصنيفه.

وقال: دخلت بغداد آخر ثمان مرات، في كل ذلك أجالس أحمد بن حنبل، فقال لي في آخر ما ودعته: يا أبا عبد الله، تدع العلم والناس، وتصير إلى خراسان؟! (١) قال: فأنا الآن أذكر قوله.

(١) قالها الإمام أحمد متعجباً متحسراً على ترك البخاري بغداد، فمثله لا يعوّض، وهو من هو! وكأنه يلمح إنه حقيق بخلافته في الحديث، وأن مثله ينبغي أن يكون في قصة الإسلام لا أطراف البلاد حيث لا يستفيد منه إلا قليل مقارنة بالكم الهائل من طلبه الحديث في بغداد، وتيسير التحديث له بها، وربما توقع البخاري ذلك فرغب في نشر علمه في المشرق لحاجة الناس إليه هناك أكثر من غيرهم مهما أصابه في سبيلها من لأواء ومشقة وغربة في الإخوان، أو أنه لم يدرك ذلك إلا بعد فوات الأوان، فإنه ترك بغداد وذهب للإقامة في نيسابور، وبقي فيها خمس سنين، ثم وقعت الفتنة التي أدت إلى خروجه من نيسابور، فتذكر يومها قول شيخه أحمد فقال: «فأنا أذكر قوله الآن». ولعل في الأمر خيراً كثيراً، وكل أمر الله خير، فقد تخرج على يديه في نيسابور وما حولها الإمام مسلم ومن كان في طبقة من الأئمة، وقد كانت نيسابور وقتها تكاد أن تضاهي بغداد في العلم والعلماء، وكان مقصده رحمه الله تعالى نشر العلم في تلك الأقطار في المشرق، أما بغداد ونحوها ففيها كفاية بالإمام أحمد وأقرانه من الأئمة، والله المستعان.

والمقصود؛ أن الإمام أحمد قد تفرّس فيه فرآه جامعاً للعلم الواسع والعقل الذكي والعمل الصادق، ومما قاله في الثناء عليه كما في تاريخ بغداد: (٢/٢، ٢٨٢): «ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل»، ولما سألته عنه عبد الله عن الحفاظ فقال: «شبان من خراسان فعده فيهم، فبدأ به»، وقال أيضاً: «أخرجت خراسان ثلاثة: أبو زرعة، ومحمد بن إسماعيل، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، ومحمد عندي أبصرهم

وقال أبو عبد الحاكم: أول ما ورد البخاري نيسابور سنة تسع ومئتين، ووردها في الأخير سنة خمسين ومئتين، فأقام بها خمس سنين يحدث على الدوام. وقال محمد بن يوسف البخاري: كنت مع محمد بن إسماعيل بمنزله ذات ليلة، فأحصيت عليه أنه قام وأسرح يستذكر أشياء يعلقها في ليلة ثمان عشرة مرة!

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: كان أبو عبد الله إذا كنت معه في سفر، يجمعنا بيت واحد إلا في القipzig أحياناً، فكنت أراه يقوم في ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة، في كل ذلك يأخذ القداحة، فيوري ناراً، ويسرج، ثم يخرج أحاديث، فيعلم عليها.

وقال عبد القدوس بن همام يقول: سمعت عدة من المشايخ، يقولون: حول محمد بن إسماعيل تراجم جامع بين قبر رسول الله ﷺ ومنبره، وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين^(١).

وقال البخاري: صنفت «الصحيح» في ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى.

وقال محمد بن أبي حاتم: سمعت هانئ بن النضر يقول: كنا عند محمد بن

وأعلمهم، وأفقههم»، ولم تخطى فراسة الإمام في الإمام.

(١) وتقدم من قوله عن نفسه: أنه كان يغتسل ويصلي ركعتين عند كل حديث.

يوسف - يعني: الفريابي - بالشام، وكنا ننتزه فعل الشباب في أكل الفِرْصَاد^(١) ونحوه، وكان محمد بن إسماعيل معنا، وكان لا يزاحمنا في شيء مما نحن فيه، ويكب على العلم.

وقال النجم بن الفضيل: رأيت النبي ﷺ في النوم، كأنه يمشي، ومحمد بن إسماعيل يمشي خلفه، فكلما رفع النبي ﷺ قدمه، وضع محمد بن إسماعيل قدمه في المكان الذي رفع النبي ﷺ قدمه^(٢).

وقال: لا أعلم شيئاً أنفع للحفظ من نهمة الرجل، ومداومة النظر.

قال: وذاك أني كنت بنيسابور مقيماً، فكان ترد إليّ من بخارى كتب، وكُنَّ قراباتٌ لي يقرئن سلامهن في الكتب، فكنت اكتب كتاباً إلى بخارى، وأردت أن أقرئهن سلامي، فذهبت علي أساميهنّ حين كتبت كتابي^(٣)، ولم أقرئهنّ سلامي، وما أقل ما يذهب عني من العلم، وقال: سمعته يقول: لم تكن كتابتي للحديث كما كتب هؤلاء.

(١) الفرصاد: التوت.

(٢) وتعبير منامه: أنه يمشي على سنته ويحييها ويشهرها في الناس، والله أعلم.

(٣) وهذه من شغفه بالعلم الذي أخذ عليه ذاكرته إذهاً عن إدراك أسماء قريباته! وهو من هو في الحفظ والإتقان! وتأمل هذا مع قوله الأنف: «وقل اسم في التاريخ إلا وله قصة، إلا أني كرهت تطويل الكتاب»، وقوله: «فأملت ألف حديث لألف رجل ممن كتبت عنهم!» فسبحان العليم الخبير، وتبارك الحكيم المحيط، حيّ قيوم لا يشغله شيء عن شيء، ولا يعجزه شيء، أحاط بكل شيء رحمة وعلماً واقتداراً.

كنت إذا كتبت عن رجل سألته عن اسمه وكنيته ونسبته وحمله الحديث، إن كان الرجل فهماً، فإن لم يكن سألته أن يخرج إلى أصله ونسخته. فأما الآخرون لا يبالون ما يكتبون، وكيف يكتبون.

وقال العباس الدوري: ما رأيت أحداً يحسن طلب الحديث مثل محمد بن إسماعيل، كان لا يدع أصلاً ولا فرعاً إلا قلعه. ثم قال: لا تدعوا من كلامه شيئاً إلا كتبتموه.

وقال: كتب إلى أبي عبد الله بعض السلاطين في حاجة له، ودعا له دعاء كثيراً. فكتب إليه أبو عبد الله: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: وصل إلي كتابك وفهمتته، وفي بيته يؤتى الحكم، والسلام.

وقال إبراهيم الخواص: رأيت أبا زرعة كالصبي جالساً بين يدي محمد بن إسماعيل، يسأله عن علل الحديث.

حفظه وسعة علمه وذكائه:

قال جعفر بن محمد القطان: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: كتبت عن ألف شيخ وأكثر، عن كل واحد منهم عشرة آلاف وأكثر، ما عندي حديث إلا أذكر إسناده. وقال: فما رأيت واحداً منهم يختلف في هذه الأشياء: أن الدين قول وعمل، وأن القرآن كلام الله^(١).

(١) اعلم أن أهل السنة يأخذون الاعتقاد تحصيلاً عن طريق النقل فقط؛ لأنه معصوم بعصمة الله تعالى الأمة ألا تجتمع على ضلالة، ولا يأخذونه عن طريق الفهم؛ لأنه متباين وغير

وقال حاشد بن إسماعيل وآخر: كان أبو عبد الله البخاري يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام، فلا يكتب، حتى أتى على ذلك أيام، فكنا نقول له: إنك تختلف معنا ولا تكتب، فما تصنع؟ فقال لنا يوماً بعد ستة عشر يوماً: إنكما قد أكثرتما علي وألححتما، فاعرضا علي ما كتبتما. فأخرجنا إليه ما كان عندنا، فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر القلب، حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه! ثم قال: أترون أي أختلف هدرًا وأضيع أيامي؟ فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد.

وكان أهل المعرفة من البصريين يعدون خلفه في طلب الحديث وهو شاب حتى يغلبوه على نفسه، ويجلسوه في بعض الطريق، فيجتمع عليه ألوف، أكثرهم ممن يكتب عنه. وكان شاباً لم يخرج وجهه.

وقال أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ: سمعت عدة مشايخ يحكون أن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد، فسمع به أصحاب الحديث، فاجتمعوا

معصوم. والنقل له وجهان، وهما راجعان إلى الإجماع:

الأول: استفاضة القول المعين عند الأئمة المتقدمين، بحيث لا يظهر بين أعيانهم نزاع حياله، كهذا الحرف الشريف للإمام البخاري في تقرير الإيمان والصفات.

الثاني: أن ينص أحد الأئمة الكبار من من المعروفين بضبط مذهب السلف على أن هذه المسألة المعينة مجمع عليها من السلف، كنص أبي عمر ابن عبد البر، والإمام ابن تيمية، والمحقق ابن القيم، والحافظ ابن رجب، ونحوهم.

وبالجملة: لا يجوز إضافة مسألة إلى مذهب السلف إلا عن طريق الاستفاضة عنهم، أو نقل إجماعهم من المعتبرين. وقد مرَّ تفصيل ذلك.

وعمدوا إلى مئة حديث، فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الاسناد هذا، وإسناد هذا المتن هذا، ودفَعوا إلى كل واحد عشرة أحاديث ليلقوها على البخاري في المجلس، فاجتمع الناس، وانتدب أحدهم، فسأل البخاري عن حديث من عشرته، فقال: لا أعرفه. وسأله عن آخر، فقال: لا أعرفه. وكذلك حتى فرغ من عشرته. فكان الفقهاء يلتفت بعضهم إلى بعض، ويقولون: الرجل فهم. ومن كان لا يدري قضي على البخاري بالعجز، ثم انتدب آخر، ففعل كما فعل الأول. والبخاري يقول: لا أعرفه. ثم الثالث وإلى تمام العشرة أنفس، وهو لا يزيدهم على: لا أعرفه.

فلما علم أنهم قد فرغوا، التفت إلى الأول منهم، فقال: أما حديثك الأول فكذا، والثاني كذا، والثالث كذا إلى العشرة، فرد كل متن إلى إسناده. وفعل بالآخرين مثل ذلك. فأقر له الناس بالحفظ^(١). فكان ابن صاعد إذا ذكره يقول: الكبش النطاح.

وقال يوسف بن موسى المرورودي: كنت بالبصرة في جامعها، إذ سمعت منادياً ينادي: يا أهل العلم، قد قدم محمد بن إسماعيل البخاري، فقاموا في طلبه،

(١) وهذا شيء من قبَلِ الله تعالى ومحض فضل من لدنه، لا تجري العادة بمثله ولا قريباً منه، حفظاً لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على يد أبي عبد الله وأمثاله الأفاضل رضي الله عنهم ورحمهم وأعلى نزلهم.

وقال ابن حجر رحمه الله تعالى في هدي الساري (٤٨٥) بعد أن ذكر جملة من أقوال الأئمة المتقدمين في الثناء على الإمام البخاري: «ولو فتحت باب ثناء الأئمة عليه ممن تأخر عن عصره لفني القرطاس، ونفدت الأنفاس؛ فذاك بحر لا ساحل له».

وكنت معهم، فرأينا رجلاً شاباً، يصلي خلف الأستوانة. فلما فرغ من الصلاة، أحدقوا به، وسألوه أن يعقد لهم مجلس الإملاء؛ فأجابهم.

فلما كان الغد اجتمع قريب من كذا كذا ألف، فجلس للإملاء وقال: يا أهل البصرة، أنا شاب وقد سألتموني أن أحدثكم، وسأحدثكم بأحاديث عن أهل بلدكم تستفيدون الكل^(١).

وقال: أبو الأزهر: كان بسمرقند أربع مئة ممن يطلبون الحديث، فاجتمعوا سبعة أيام، وأحبوا مغالطة محمد بن إسماعيل، فأدخلوا إسناد الشام في إسناد العراق، وإسناد اليمن في إسناد الحرمين، فما تعلقوا منه بسقطة لا في الإسناد، ولا في المتن.

وقال: تفكرت أصحاب أنس، فحضرني في ساعة ثلاث مئة.

وقال: ما قدمت على أحد إلا كان انتفاعه بي أكثر من انتفاعي به^(٢).

(١) وفي مقدمة الفتح (٤٨٧): «تستفيدونها». قال ابن حجر: «يعني ليست عندكم». ثم قال: «حدثنا عبد الله بن عثمان بن جبلة ابن أبي رواد بلديكم، قال: حدثنا أبي، عن شعبة، عن منصور وغيره، عن سالم بن أبي الجعد، عن أنس، أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، الرجل يجب القوم... وذكر الحديث - قلت: وهو عند البخاري (٤٥٨)، (٤٦٢) ومسلم (٢٦٣٩). ثم قال: ليس هذا عندكم، إن ما عندكم عن غير منصور، عن سالم، وأملى مجلساً على هذا النسق يقول في كل حديث: روى شعبة هذا الحديث عندكم كذا، فأما من رواية فلان، فليس عندكم، أو كلاماً هذا معناه».

(٢) والظن فيه أنه قد قالها تحذيراً بنعمة الله تعالى عليه.

وقال الفربري: سمعت أبا عبد الله يقول: ما استصغرت نفسي عند أحد إلا عند علي بن المديني، وربما كنت أُغْرَبُ عليه. أي: يرى عندي ما لم يسمع به.

وقال محمد بن أبي حاتم: سمعت أبا عبد الله يقول: ما نمت البارحة حتى عددت كم أدخلت مصنفاتي من الحديث، فإذا نحو مئتي ألف حديث مسندة. وسمعتة يقول: ما كتبت حكاية قط، كنت أتخفظها.

وسمعتة يقول: صنفت كتاب «الاعتصام» في ليلة.

وسمعتة يقول: لا أعلم شيئاً يُحتاج إليه إلا وهو في الكتاب والسنة. فقلت له: يمكن معرفة ذلك كله؟ قال: نعم.

وقال محمد بن خميرويه، سمعت محمد بن إسماعيل يقول: أحفظ مئة ألف حديث صحيح، وأحفظ مئتي ألف حديث غير صحيح^(١).

وقال أبا بكر الكلواذاني: ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل، كان يأخذ الكتاب من العلماء، فيطلع عليه اطلاعة، فيحفظ عامة أطراف الأحاديث بمرّة.

ثناء الأئمة عليه:

قال أبو جعفر محمد بن أبي حاتم: سمعت بعض أصحابي يقول: كنت عند محمد بن سلام، فدخل عليه محمد بن إسماعيل، فلما خرج قال محمد بن سلام: كلما دخل علي هذا الصبي تحيّرت، وألبس علي أمر الحديث وغيره، ولا أزال

(١) وكانوا يسمون كل إسناد حديثاً، فربما روي مئة إسناد على متن واحد وعدوها مئة حديث.

خائفاً ما لم يخرج.

وقال أبو جعفر: حدثني بعض أصحابي: إن أبا عبد الله البخاري صار إلى أبي إسحاق السرماري عائداً^(١)، فلما خرج من عنده قال أبو إسحاق: من أراد أن ينظر إلى فقيه بحقه وصدقه، فلينظر إلى محمد بن إسماعيل وأجلسه على حجره.

وقال أبو جعفر: قال لي بعض أصحابي: كنت عند محمد بن سلام، فدخل عليه محمد بن إسماعيل حين قدم من العراق، فأخبره بمحنة الناس، وما صنع ابن حنبل وغيره من الأمور. فلما خرج من عنده قال محمد بن سلام لمن حضره: أترون البكر أشد حياءً من هذا؟

وقال يحيى بن جعفر: لو قدرت أن أزيد في عُمرِ محمد بن إسماعيل من عمري لفعلت، فإن موتي يكون موت رجل واحد، وموته ذهاب العلم^(٢).

وقال يحيى بن جعفر - وهو البيكندي - لمحمد بن إسماعيل: لولا أنت ما

(١) والعيادة للمريض، والزيارة لغيره.

(٢) فهل تعلم نصحاء للأمة في علمها كهذا؟ اللهم كلاً. والعلم رَحْمٌ بين أهله، وكان يقول لأبي عبد الله - كما سترى -: «لولا أنت ما استطببت العيش ببخارى». وأبو زكريا يحيى بن جعفر البيكندي البخاري من الأئمة الحفاظ، رحل وسمع: سفيان بن عُيينة، ووكيعاً، ويزيد بن هارون، وطبقتهم. لقد وضعوا الدنيا حيث وضعها الله تعالى، ورفعوا الآخرة كما أمرهم، رحمهم الله تعالى.

استطبت العيش ببخارى (١).

وقال محمد بن يوسف: كنا عند أبي رجاء، فسئل عن طلاق السكران، فقال: هذا أحمد بن حنبل وابن المديني وابن راهويه قد ساقهم الله إليك، وأشار إلى محمد بن إسماعيل.

وقال عبدان: ما رأيت بعيني شاباً أبصر من هذا، وأشار بيده إلى محمد بن إسماعيل.

وقال نعيم بن حماد: محمد بن إسماعيل فقيه هذه الأمة.

وقال مسدد: لا تختاروا على محمد بن إسماعيل يا أهل خراسان.

وقال أحمد بن عبد السلام: ذكرنا قول البخاري لعلي بن المديني - يعني: ما استصغرت نفسي إلا بين يدي علي بن المديني - فقال علي: دعوا هذا، فإن محمد بن إسماعيل لم ير مثله نفسه (٢).

وقال محمد بن أبي حاتم: سمعت أبا عبد الله يقول: ذاكري أصحاب عمرو بن علي الفلاس بحديث، فقلت: لا أعرفه، فسروا بذلك، وصاروا إلى

(١) تقع بخارى في أوزبكستان حالياً، ويتألف سكان المدينة من الطاجيك والأوزبك.

(٢) وصدق رحمه الله تعالى، إلا ما كان من الإمام أحمد فهو من جملة شيوخه، وقد قيل هذا أيضاً في يحيى بن منصور أبو سعد الهروي وأبو طاهر السلفي والدارقطني وابن حجر العسقلاني وابن تيمية وغيرهم، رحمهم الله تعالى.

عمرو، فأخبروه، فقال: حديث لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث (١).
وقال أبو مصعب الزهري: محمد بن إسماعيل أفقه عندنا وأبصر بالحديث
من أحمد بن حنبل (٢) ف قيل له: جاوزت الحد. فقال للرجل: لو أدركت مالكا،
ونظرت إلى وجهه ووجه محمد بن إسماعيل، لقلت: كلاهما واحد في الفقه
والحديث.

وقال إسحاق بن راهويه: اكتبوا عن هذا الشاب -يعني: البخاري- فلو كان
في زمن الحسن لاحتاج إليه الناس لمعرفة بالحديث وفقهه.

وقال علي بن حجر: أخرجت خراسان ثلاثة: أبو زرعة، ومحمد بن
إسماعيل، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي. ومحمد عندي أبصرهم وأعلمهم
وأفقههم.

وقال أحمد بن الضوء: سمعت أبا بكر بن أبي شيبة ومحمد بن عبد الله بن
نمير يقولان: ما رأينا مثل محمد بن إسماعيل.

وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي يقول: ما أخرجت

(١) وقد قيلت هذه التزكية في الإمام الزهري والإمام أحمد وأبي زرعة الرازي ويحيى بن معين
وابن تيمية وغيرهم، رحمهم الله تعالى.

(٢) وفيه نظر، ولعله لم يقف تماما على فقه الإمام أحمد رحمه الله تعالى، وإن كان هذا يدل على
سعة علم البخاري رحمه الله تعالى.

خراسان^(١) مثل محمد بن إسماعيل.

وقال بندار: ما قدم علينا مثل محمد بن إسماعيل.

وقال أبو عمار الحسين بن حريث: لا أعلم أني رأيت مثله، كأنه لم يخلق إلا للحديث.

وقال محمود بن النضر: دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة، ورأيت علماءها، كلما جرى ذكر محمد بن إسماعيل فضّلوه على أنفسهم.

قال البخاري: لما دخلت البصرة صرت إلى مجلس بُندار^(٢)، فلما وقع بصره علي، قال: من أين الفتى؟ قلت: من أهل بخارى. فقال لي: كيف تركت أبا عبد الله؟ فأمسكت، فقالوا له: يرحمك الله، هو أبو عبد الله، فقام، وأخذ بيدي، وعانقني، وقال: مرحبًا بمن أفتخر به منذ سنين.

(١) خراسان: إقليم كبير. وحدود خراسان حاليًا: من شرق إيران وتمتد إلى شمال غربي أفغانستان عبر هرات وأجزاء من جنوب جمهورية تركمانستان، بالإضافة إلى جمهورية طاجيكستان وولاية سمرقند وبخارا في جمهورية أوزبكستان.

(٢) أبو بكر محمد بن بشار رحمه الله تعالى، وبُندار لَقْبُهُ، وهو محدّث حافظ، وأحد أئمة السُّنة؛ ولذلك لُقِّبَ بُندارًا؛ لأنه جمع حديث مالك، روى له أصحاب الأصول الستة.

وبُندارٌ: لفظ فارسي معناه الحافظ. والبندرة: الكثرة، والبُندارُ: التاجر يحتكر البضائع ويتربص بها غلاء السعر، وشاه بندر: رئيس تجار. والبندرُ: مرسى السفن في الميناء، ويطلق الآن على البلد الكبير. وكان الاسم الشائع في الخليج «بندر» مأخوذ من هذا، ويعنون به: الرجل الغني، والله أعلم.

وقال محمد بن بشار: لم يدخل البصرة رجل أعلم بالحديث من أخينا أبي عبد الله. فلما أراد الخروج ودعه محمد بن بشار، وقال: يا أبا عبد الله، موعدنا الحشر ألا نلتقي بعد.

وقال محمد بن بشار: حفاظ الدنيا أربعة: أبو زرعة بالرّي^(١)، والدارمي بسمرقند^(٢)، ومحمد ابن إسماعيل ببخارى، ومسلم بنيسابور^(٣).

(١) الرّي: هي طهران حالياً في إيران. ويحكون أن عمر بن سعد قد قال في شأن ولايته لها نظير أسر الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أو قتله، بعد وعد ووعد ابن زياد، وما أبأسه وأتعسه وأخزاه من خيار!:

فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لَصَادِقٌ أَفَكَّرُ فِي أَمْرِي عَلَى خَطَرَيْنِ
أَأْتَرُكَ مُلْكَ الرَّيِّ وَالرِّيُّ مُنَيْتِي أَمْ أَصْبِحُ مَأْتُومًا بِقَتْلِ حُسَيْنِ
وَفِي قَتْلِهِ النَّارُ الَّتِي لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ، وَمُلْكَ الرَّيِّ قُرَّةٌ عَيْنِي

(٢) سمرقند: ثاني أكبر مدن أوزبكستان حالياً. ومعنى الاسم "قلعة الأرض"، وهي التي جرى في فتحها القصة المشهورة لما دخلها قتيبة بن مسلم الباهلي بجيشه قبل أن يخيرهم بين الإسلام أو الجزية أو القتال، فحكم عليه قاضيه بإلزامه بالخروج من المدينة، فلما خرج كامل الجيش أعلن السمرقنديون إسلامهم فرحاً به واستبشاراً بعدله وإحسانه وطيب موعوده. وقد ازدهرت مدينة سمرقند ازدهاراً كبيراً خصوصاً في عهد الخليفة العباسي (المعتمد على الله) الذي جعل من مدينة سمرقند عاصمة لبلاد ما وراء النهر، واستمرت كذلك حتى عهد الأمير (أحمد بن إسماعيل) الذي نقل العاصمة إلى بخارى.

(٣) نَيْسَابُورُ أو نَيْسَابُور (بالفارسية: نيشابور): مدينة في مقاطعة خراسان شمالي شرق إيران قرب العاصمة الإقليمية مشهد. كانت نيسابور عاصمة لمقاطعة خراسان قديماً، وتعد من أشهر مراكز الثقافة والتجارة والعمران في العصر العباسي، قبل أن يدمرها =

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل، سمعت أبي يقول: انتهى الحفظ إلى أربعة من أهل خراسان: أبو زرعة الرازي، ومحمد بن إسماعيل البخاري، وعبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي، والحسن بن شجاع البلخي. قال ابن الأشعث: فحكيت هذا لمحمد بن عقيل البلخي، فأطرى ذكر ابن شجاع، فقلت له: لم لم يشتهر؟ قال: لأنه لم يتمتع بالعمر.

وقال الفريبري: سمعت عبد الله بن منير يقول: أنا من تلاميذ محمد بن إسماعيل، وهو معلمي ورأيتُه يكتب عن محمد.

وخرج رجل من أصحاب عبد الله بن منير، رَحِمَهُ اللهُ إلى بخارى في حاجة له. فلما رجع قال له ابن منير: لقيت أبا عبد الله؟ قال: لا. فطرده، وقال: ما فيك بعد هذا خير. إذ قدمت بخارى ولم تصر إلى أبي عبد الله محمد بن إسماعيل^(١).

وقال يعقوب بن إبراهيم الدورقي: محمد بن إسماعيل فقيه هذه الأمة.

وقال حاتم بن مالك الوراق: سمعت علماء مكة يقولون: محمد بن إسماعيل إمامنا وفقهنا وفقه خراسان.

زلزال ضربها عام ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م)، ثم أكمل خرابها غزو المغول لها سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م). قال فيها ياقوت الحموي في معجم البلدان (٥/٢٢٣): «بلاد الدنيا العظام ثلاثة: نيسابور لأنها باب الشرق، ودمشق لأنها باب الغرب والموصل لأن القاصد إلى الجهتين قل ما لا يمر بها».

(١) وفيه فضل الحرص على لقياء العلماء متى حانت الفرص فضلاً عن ركوب الصعب والدلول لهم.

وقال أبو سهل محمود الشافعي: سمعت أكثر من ثلاثين عالمًا من علماء مصر، يقولون: حاجتنا من الدنيا النظر في «تاريخ» محمد بن إسماعيل.

وقال عبد الله بن عبد الرحمن: لم يكن يشبه طلب محمد للحديث طلبنا، كان إذا نظر في حديث رجل أنزفَه (١).

وقال أبو الطيب حاتم بن منصور الكسي: محمد بن إسماعيل آية من آيات الله في بصره ونفاذه في العلم.

وقال رجاء الحافظ: فضل محمد بن إسماعيل على العلماء كفضل الرجال على النساء. فقال له رجل: يا أبا محمد، كل ذلك بمرّة؟! فقال: هو آية من آيات الله يمشي على ظهر الأرض.

وقال سليم بن مجاهد: لو أن وكيعًا وابن عيينة وابن المبارك كانوا في الأحياء، لاحتاجوا إلى محمد بن إسماعيل.

وعن قتيبة قال: لو كان محمد في الصحابة لكان آية.

وقال قتيبة بن سعيد: نظرت في الحديث، ونظرت في الرأي، وجلست الفقهاء والزهاد والعباد، ما رأيت منذ عقلت مثل محمد بن إسماعيل.

وقال حاشد بن إسماعيل: سمعت أحمد بن حنبل يقول: لم يجئنا من خراسان مثل محمد بن إسماعيل.

(١) أي: أخذ ما استطاع من حديثه. وطلب الحديث على أصوله شاق، قال الزهري: «الحديث ذكْرٌ، يطيقه ذكور الرجال لا مؤنثوهم».

وعن أبي حاتم الرازي قال: محمد بن إسماعيل أعلم من دخل العراق.

وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله ﷺ وأحفظ له من محمد بن إسماعيل.

وقال محمد بن يعقوب الحافظ: سمعت أبي يقول: رأيت مسلم بن الحجاج بين يدي البخاري يسأله سؤال الصبي.

وقال أحمد ابن حمدون: رأيت محمد بن إسماعيل في جنازة سعيد بن مروان، ومحمد بن يحيى الذهلي يسأله عن الأسامي والكنى والعلل، ومحمد بن إسماعيل يمر فيه مثل السهم، كأنه يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وقال مسلم بن الحجاج، وجاء إلى البخاري فقال: دعني أقبل رجلك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في عله.

وقال أبو عيسى الترمذي: لم أر بالعراق ولا بخراسان في معنى العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد أعلم من محمد بن إسماعيل.

وقال أبو علي صالح بن محمد جزرة: كان محمد بن إسماعيل يجلس ببغداد، وكنت أستملي له، ويجتمع في مجلسه أكثر من عشرين ألفاً.

ولما قدم البخاري نيسابور استقبله أربعة آلاف رجل ركباً على الخيل، سوى من ركب بغلاً أو حماراً وسوى الرجال.

وقال عبد الله بن حماد الأملي: وددت أني شعرة في صدر محمد بن إسماعيل.

وقال أبو زيد المروزي الفقيه: كنت نائماً بين الركن والمقام، فرأيت النبي ﷺ، فقال لي: يا أبا زيد، إلى متى تدرس كتاب الشافعي، ولا تدرس كتابي؟ فقلت: يا رسول الله، وما كتابك؟ قال: جامع محمد بن إسماعيل.

عبادته وفضله وورعه وصلاحه :

قال مسبح بن سعيد: كان محمد بن إسماعيل يختم في رمضان في النهار كل يوم ختمة، ويقوم بعد التروايح كل ثلاث ليال بختمة.
وقال بكر بن منير: سمعت أبا عبد الله البخاري يقول: أرجو أن ألقى الله ولا يجاسبني أني اغتبت أحداً.

قال الذهبي: صدق رَحْمَةُ اللَّهِ، ومن نظر في كلامه في الجرح والتعديل علم ورعه في الكلام في الناس، وإنصافه فيمن يضعفه، فإنه أكثر ما يقول: منكر الحديث، سكتوا عنه، فيه نظر، ونحو هذا (١).

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: سمعته - يعني البخاري - يقول: لا يكون لي خصم في الآخرة، فقلت: إن بعض الناس ينقمون عليك في كتاب «التاريخ» ويقولون: فيه اغتياب الناس، فقال: إنها روينا ذلك رواية، لم نقله من عند أنفسنا، قال النبي ﷺ: «بئس مولى العشيرة» يعني: حديث عائشة (٢). وسمعته يقول: ما اغتبت أحداً قط منذ علمت أن الغيبة تضر أهلها.

(١) وقال الذهبي في مقدمة «ميزان الاعتدال» (١/٣، ٤): «قوله: فيه نظر، وفي حديثه نظر، لا يقوله البخاري إلا فيمن يتهمه غالباً».

(٢) البخاري (١٠/٣٧٨، ٣٧٩) ومسلم (٢٥٩١).

قال: وكان أبو عبد الله يصلي في وقت السحر ثلاث عشرة ركعة، وكان لا يوقظني في كل ما يقوم. فقلت: أراك تحمل على نفسك، ولم توقظني. قال: أنت شاب، ولا أحب أن أفسد عليك نومك.

وقال بكر بن منير: كان محمد بن إسماعيل يصلي ذات ليلة، فلسعه الزنبور^(١) سبع عشرة مرة. فلما قضى الصلاة، قال: انظروا أيش^(٢) آذاني.

وقال محمد بن أبي حاتم: دعي محمد بن إسماعيل إلى بستان بعض أصحابه، فلما صلى بالقوم الظهر قام يتطوع، فلما فرغ من صلاته، رفع ذيل قميصه، فقال لبعض من معه: انظر هل ترى تحت قميصي شيئاً؟ فإذا زنبور قد أبره في ستة عشر أو سبعة عشر موضعاً، وقد تورم من ذلك جسده. فقال له بعض القوم: كيف لم تخرج من الصلاة أول ما أبرك؟^(٣) قال: كنت في سورة، فأحببت أن أتمها^(٤)!

وقال عبد الله بن سعيد بن جعفر: سمعت العلماء بالبصرة يقولون: ما في الدنيا مثل محمد بن إسماعيل في المعرفة والصلاح^(٥).

(١) وهو الذبُّور والذبُّر.

(٢) وهي استفهامية فصيحة منحوتة عن: أي شيء.

(٣) أي: لسعك بإبرته.

(٤) وله أسوة في عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما ضربته السهام وهو قائم يحرس جيش المسلمين في قصة مشهورة.

(٥) وفيه بركة العمل بالعلم، فالعمل هو الثمرة وهو معيار صلاح القلب بالعلم.

وقال عبد القدوس بن عبد الجبار السمرقندي: جاء محمد إلى أقربائه بخرتكن، فسمعتة يدعو ليلة إذ فرغ من ورده: اللهم إنه قد ضاقت علي الأرض بما رحبت، فاقبضني إليك. فما تم الشهر حتى مات.

وعن الفربري، قال: رأيت النبي ﷺ في النوم، فقال لي: أين تريد؟ فقلت: أريد محمد بن إسماعيل البخاري، فقال: اقرئه مني السلام^(١).

وقال محمد بن أبي حاتم: ركبنا يوماً إلى الرمي، ونحن بفِرْبُر^(٢)، فخرجنا إلى الدرب الذي يؤدي إلى الفُرْصَة^(٣) فجعلنا نرمي، وأصاب سهم أبي عبد الله وتد القنطرة الذي على نهر وراة، فانشق الوتد. فلما رآه أبو عبد الله، نزل عن دابته، فأخرج السهم من الوتد، وترك الرمي. وقال لنا: ارجعوا. ورجعنا معه إلى المنزل، فقال لي: يا أبا جعفر، لي إليك حاجة تقضيها؟ قلت: أمرك طاعة. قال: حاجة مهمة، وهو يتنفس الصعداء. فقال لمن معنا: اذهبوا مع أبي جعفر حتى تعينوه على ما سألته، فقلت: أية حاجة هي؟ قال لي: تضمن قضاءها؟ قلت: نعم، على الرأس والعين، قال: ينبغي أن تصير إلى صاحب القنطرة، فتقول له: إنا قد أخللنا بالوتد، فنحب أن تأذن لنا في إقامة بدله، أو تأخذ ثمنه، وتجعلنا في حلٍّ مما كان منا، وكان صاحب القنطرة حميد بن الأخضر الفربري. فقال لي:

(١) فلاهل الحديث خصوصية برسول الله ﷺ.

(٢) فبر: هي مدينة قريبة من نهر جيحون، وهي من تركمانستان حالياً.

(٣) فُرْصَة النهر: مشرب الماء منه، وثُلْمَتُهُ التي منها يُسْتَقَى، ويقال لها: المشرعة، وفُرْصَةٌ البحر: مَحَطُّ السَّفْنِ.

أبلغ أبا عبد الله السلام، وقل له: أنت في حل مما كان منك. وقال: جميع ملكي لك الفداء. وإن قلتُ: نفسي، أكون قد كذبت، غير أني لم أكن أحب أن تحتشمني في وتد أو في ملكي.

فأبلغته رسالته، فتهلل وجهه، واستنار، وأظهر سروراً، وقرأ في ذلك اليوم على الغرباء نحوًا من خمس مئة حديث، وتصدق بثلاث مئة درهم.

قال وسمعتَه يقول لأبي معشر الضرير: اجعلني في حلٍّ يا أبا معشر، فقال: من أي شيء؟ قال: رويت يوماً حديثاً، فنظرت إليك، وقد أعجبت به، وأنت تحرك رأسك ويدك، فتبسمت من ذلك. قال: أنت في حلٍّ، رحمك الله يا أبا عبد الله (١).

قال: ورأيتَه استلقى على قفاه يوماً، ونحن بفربر في تصنيفه كتاب «التفسير». وأتعب نفسه ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث. فقلت له: إني أراك تقول: إني ما أثبت شيئاً بغير علم قط منذ عقلت، فما الفائدة في الاستلقاء؟ قال: أتعبنا أنفسنا اليوم، وهذا ثغر من الثغور، خشيت أن يحدث حدث من أمر العدو، فأحببت أن أستريح، وآخذ أهبة، فإن غَافَصْنَا (٢) العدو كان بنا حراك.

قال: وكان يركب إلى الرمي كثيراً، فما أعلمني رأيتَه في طول ما صحبته أخطأ سهمه الهدف إلا مرتين، فكان يصيب الهدف في كل ذلك، وكان لا يُسبق.

(١) وهذا من دقيق الورع، لا جرم؛ فهو من أئمته، رحمه الله تعالى.

(٢) أي: فاجأنا، وأخذنا على غرة منا.

قال: وسمعتَه يقول: ما أكلت كُرّاً قط، ولا القُنَابِرِي (١) قلت: ولم ذاك؟
قال: كرهت أن أؤدي من معي من ننتهما. قلت: وكذلك البصل النيء؟ قال:
نعم.

قال: وحدثني محمد بن العباس الفربري، قال: كنت جالساً مع أبي عبد الله
البخاري بفربري في المسجد، فدفعْتُ من لحيته قذاةً مثل الذرّة أذكرها (٢)، فأردت
أن ألقها في المسجد، فقال: ألقها خارجاً من المسجد.

قال: وأملى يوماً علي حديثاً كثيراً، فخاف ملائي، فقال: طب نفساً، فإن أهل
الملاهي في ملاهيهم، وأهل الصناعات في صناعاتهم، والتجار في تجاراتهم،
وأنت مع النبي ﷺ وأصحابه (٣). فقلت: ليس شيء من هذا، يرحمك الله إلا
وأنا أرى الحظ لنفسي فيه.

قال: وسمعتَه يقول: ما أردت أن أتكلم بكلام فيه ذكر الدنيا إلا بدأت
بحمد الله والثناء عليه.

وقال له بعض أصحابه: يقولون: إنك تناولت فلاناً. قال: سبحان الله، ما
ذكرت أحداً بسوء إلا أن أقول ساهياً، وما يخرج اسم فلان من صحيفتي يوم

(١) نوع من البقول له رائحة غير مستطابة، ويسمى البهق، والغملول، والتملول،
والبرغشت.

(٢) وهذا من خدمة التلميذ لشيخه، وليس فيه ثلم لمروءتيها بحال، وترك تكلف الشيخ مع
تلميذه دليل تقريبه.

(٣) وفي هذا عظيم الفرح بالله وبرسوله ﷺ وبسته.

القيامة.

قال: وضيّفه بعض أصحابه في بستان له، وضيّفنا معه، فلما جلسنا أعجب صاحب البستان بستانه، وذلك أنه كان عمل مجالس فيه، وأجرى الماء في أنهاره. فقال له: يا أبا عبد الله، كيف ترى؟ فقال: هذه الحياة الدنيا^(١).

قال: وكان لأبي عبد الله غريم قطع عليه مالا كثيرا، فبلغه أنه قدم آمل^(٢)، ونحن عنده بفربر، فقلنا له: ينبغي أن تعبر وتأخذ بهالك. فقال: ليس لنا أن نروّعه. ثم بلغ غريمه مكانه بفربر، فخرج إلى خوارزم^(٣)، فقلنا: ينبغي أن

(١) وهي كلمة تغني عن دروس كثيرة.

(٢) آمل، بضم الميم: مدينة في إيران حالياً، تبعد ١٨٠ كم شمال شرق مدينة طهران. ومن مشاهير من سكنوها: الإمام مسلم صاحب الصحيح، والحاكم صاحب المستدرک، والإمام محمد بن جرير الطبري، واللالكائي، والرازي.

(٣) خوارزم: هي واحة كبيرة تقع على دلتا نهر جيحون في غرب آسيا الوسطى، يجدها من الشمال بحر الآرال - وهو على وشك الجفاف حالياً بسبب تحويل الروس النهرين الذين كانا يغذيانه إلى جهات أخرى - ومن الشرق صحراء قيزيل، ومن الجنوب صحراء قره قوم، ومن الشرق هضبة استجورت. وقد كانت الدولة الخوارزمية عظيمة يوماً حتى سحقتها التتار إبان زحفهم إلى بلاد الإسلام. ويتمي إقليم خوارم حالياً إلى أوزبكستان وكازاخستان وتركمانستان.

وأنوّه إلى أني قد حرصت على توضيح بلدان المشرق الإسلامي مما وراء النهر حتى يكون القارئ الكريم على بينة من ذلك؛ لأن أسماء كثير من تلك البلدان والأقاليم قد تغيرت بعد انحسار الخلافة الإسلامية عن تلك البقاع الجميلة، والجدير بالذكر: أن كثيراً من

تقول لأبي سلمة الكشاني عامل أمل ليكتب إلى خوارزم في أخذه، واستخراج حقه منه، فقال: إن أخذت منهم كتاباً طمعوا مني في كتاب، ولست أبيع ديني بدنياي. فجهدنا، فلم يأخذ حتى كلمنا السلطان عن غير أمره. فكتب إلى والي خوارزم.

فلما أبلغ أبا عبد الله ذلك، وجد وجدًا شديدًا وقال: لا تكونوا أشفق عليّ من نفسي. وكتب كتابًا، وأردف تلك الكتب بكتب، وكتب إلى بعض أصحابه بخوارزم أن لا يتعرض لغريمه إلا بخير. فرجع غريمه إلى أمل، وقصد إلى ناحية مرو. فاجتمع التجار، وأخبر السلطان بأن أبا عبد الله خرج في طلب غريم له. فأراد السلطان التشديد على غريمه، وكره ذلك أبو عبد الله، وصالح غريمه على أن يعطيه كل سنة عشرة دراهم شيئًا يسيرًا. وكان المال خمسة وعشرين ألفًا. ولم يصل من ذلك المال إلى درهم، ولا إلى أكثر منه^(١)!

قال: وسمعت أبا عبد الله، يقول: ما توليت شراء شيء ولا بيعه قط. فقلت له: كيف، وقد أحل الله البيع؟ قال: لما فيه من الزيادة والنقصان والتخليط، فخشيت إن توليت أن أستوي بغيري. قلت فمن كان يتولى أمرك في أسفارك ومبايعتك؟ قال: كنت أكفي ذلك.

قال: وعن أحمد بن حفص، يقول: دخلت على أبي الحسن - يعني: إسماعيل

العرب المسلمين الفاتحين قد بقيت سلالاتهم في تلك الأقطار حتى ذابت لغتهم وأنساب كثير منهم مع أهل البلاد الأصليين، والله المستعان.

(١) وفيه غاية الزهد والشفقة بالناس والنصح لهم رحمه الله ورضي عنه.

- والد أبي عبد الله عند موته، فقال: لا أعلم من مالي درهماً من حرام، ولا درهماً من شبهة^(١). قال أحمد: فتصاغرْتُ إليَّ نفسي عند ذلك. ثم قال أبو عبد الله: أصدق ما يكون الرجل عند الموت.

قال: وكان أبو عبد الله أكثرى منزلاً، فلبث فيه طويلاً، فسمعتة يقول: لم أمسح ذكري بالحائط، ولا بالأرض في ذلك المنزل. فقيل له: لم؟ قال: لأن المنزل لغيري.

قال: وقال لي أبو عبد الله يوماً بفربر: بلغني أن نخاساً^(٢) قدم بجواري، فتصير معي؟ قلت: نعم، فصرنا إليه، فأخرج جواري حسناً صباحاً. ثم خرج من خلاهن جارية خزرية دميمة عليها شحم، فنظر إليها، فمسّ ذقنها فقال: اشتر هذه لنا منه، فقلت: هذه دميمة قبيحة لا تصلح، واللاتي نظرنا إليهن يمكن شراءهن بثمن هذه. فقال: اشتر هذه، فإني قد مسست ذقنها، ولا أحب أن أمس جارية، ثم لا أشتريها. فاشتراها بغلاء خمس مئة درهم على ما قال أهل المعرفة. ثم لم تزل عنده حتى أخرجها معه إلى نيسابور.

وقال بكر بن منير: كان حمل إلى البخاري بضاعة أنفذها إليه ابنه أحمد، فاجتمع بعض التجار إليه، فطلبوها بربح خمسة آلاف درهم. فقال: انصرفوا الليلة. فجاءه من الغد تجار آخرون، فطلبوا منه البضاعة بربح عشرة آلاف.

(١) وانظر لسريان بركة المال الحلال في صلاح ولده! فصلاح الآباء يدرك الأبناء، وطيب

المطعم يسري ببركة التقوى للذرية بإذن الله ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾.

(٢) النخاس: هو الذي يبيع العبيد.

فقال: إني نويت بيعها للذين أتوا البارحة!

وقال عمر بن حفص الأشقر: كنا مع البخاري بالبصرة نكتب، ففقدناه أياماً، ثم وجدناه في بيت وهو عريان، وقد نفذ ما عنده، فجمعنا له الدراهم، وكسوناه.

وقال محمد بن أبي حاتم: سمعت أبا عبد الله، يقول: ما ينبغي للمسلم أن يكون بحالة إذا دعا لم يُستجب له. فقالت له امرأة أخيه بحضرتي: فهل تبينت ذلك أيها الشيخ من نفسك، أو جربت؟ قال: نعم. دعوت ربي عز وجل مرتين، فاستجاب لي، فلن أحب أن أدعو بعد ذلك، فلعله ينقص من حسناتي، أو يعجل لي في الدنيا (١).

وقال محمد بن أبي حاتم: سمعت البخاري يقول: خرجت إلى آدم بن أبي إياس، فتخلفت عني نفقتي، حتى جعلت أتناول الحشيش، ولا أخبر بذلك أحداً. فلما كان اليوم الثالث، أتاني آتٍ لم أعرفه، فناولني صرة دنانير، وقال: أنفق على نفسك.

وقال محمد بن أبي حاتم: سمعت الحسين بن محمد السمرقندي يقول: كان محمد بن إسماعيل مخصوصاً بثلاث خصال مع ما كان فيه من الخصال المحمودة: كان قليل الكلام، وكان لا يطمع فيما عند الناس، وكان لا يشتغل بأمور الناس، كل شغله كان في العلم.

(١) وهذا من غاية الفقه في الدين والزيادة في الإيمان، فلا يريد تعجيل طيباته في الدنيا، وقد جاء نحوه عن عمر وأبي الدرداء وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم.

وقال: سمعت سليم بن مجاهد يقول: ما بقي أحد يُعلّم الناس الحديث حُسْبَةً غير محمد بن إسماعيل.

وسمعت سليماً يقول: ما رأيت بعيني منذ ستين سنة أفقه، ولا أروع، ولا أزهّد في الدنيا، من محمد بن إسماعيل.

وقال عبد المجيد بن إبراهيم: ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل، كان يسوّي بين القوي والضعيف.

كرمه وسماحته وصفته :

قال محمد بن أبي حاتم: كانت له قطعة أرض يُكرها كل سنة بسبع مئة درهم. فكان ذلك المكتري^(١) ربما حمل منها إلى أبي عبد الله قثاة أو قثاتين، لأنّ أبا عبد الله كان معجباً بالقثاء النضيج، وكان يؤثره على البطيخ أحياناً، فكان يهب للرجل مئة درهم كل سنة لحملة القثاء إليه أحياناً.

قال: وسمعتة يقول: كنت أستغلّ^(٢) كل شهر خمس مئة درهم، فأنفقت كل ذلك في طلب العلم. فقلت: كم بين من ينفق على هذا الوجه وبين من كان خلواً من المال فجمع وكسب بالعلم حتى اجتمع له؟! فقال أبو عبد الله: ما عند الله خير وأبقى.

قال: وكنا بفربر، وكان أبو عبد الله يبني رباطاً مما يلي بخارى، فاجتمع بشر

(١) أي: المستأجر.

(٢) من الغلّة: وهي ما يُتَحَصَّلُ من من كِراءِ عقار، أو ثمرة أرض من الحبوب ونحوها.

كثير يعينونه على ذلك، وكان ينقل اللبن، فكنت أقول له: إنك تُكفي يا أبا عبد الله، فيقول: هذا الذي ينفعنا. ثم أخذ ينقل الزنبرات^(١) معه، وكان ذبح لهم بقرة، فلما أدركت القدور دعا الناس إلى الطعام، وكان بها مئة نفس أو أكثر، ولم يكن عَلِمَ أنه يجتمع ما اجتمع، وكنا أخرجنا معه من فربر خبزًا بثلاثة دراهم أو أقل، فألقيناه بين أيديهم، فأكل جميع من حضر، وفضلت أرغفة صالحة^(٢). وكان الخبز إذ ذاك خمسة أمّناء^(٣) بدرهم.

قال: وكان أبو عبد الله ربما يأتي عليه النهار، فلا يأكل فيه رقاقة، إنها كان يأكل أحيانًا لوزتين أو ثلاثًا.

قال: وكان يتصدق بالكثير، يأخذ بيده صاحب الحاجة من أهل الحديث، فيناوله ما بين العشرين إلى الثلاثين، وأقل وأكثر، من غير أن يشعر بذلك أحد، وكان لا يفارقه كيسه.

ورأيته ناول رجلًا مرارًا صرة فيها ثلاث مئة درهم، - وذلك أن الرجل أخبرني بعدد ما كان فيها من بعد - فأراد أن يدعو، فقال له أبو عبد الله: ارفق، واشتغل بحديث آخر كيلا يعلم بذلك أحد.

قال: وكنت اشترت منزلًا بتسع مئة وعشرين درهمًا، فقال: لي إليك حاجة، تقضيها؟ قلت: نعم، ونعمى عين، قال: ينبغي أن تصير إلى نوح بن أبي

(١) جمع زنبر، وهو الزنبيل والمكتل.

(٢) وفيه كرامة الله لهذا الولي الصالح.

(٣) هو وزن أو مكيال يسع مئتي وسبعة وخمسين درهمًا.

شداد الصير في، وتأخذ منه ألف درهم، وتحمله إليّ، ففعلت، فقال لي: خذه إليك فاصرفه في ثمن المنزل. فقلت: قد قبلته منك وشكرته. وأقبلنا على الكتابة، وكنا في تصنيف «الجامع». فلما كان بعد ساعة، قلت: عرضت لي حاجة لا أجتري رفعها إليك، فظن أني طمعت في الزيادة، فقال: لا تحتشمني، وأخبرني بما تحتاج، فإني أخاف أن أكون مأخوذاً بسببك، قلت له: كيف؟ قال: لأن النبي ﷺ آخى بين أصحابه. فذكر حديث سعد وعبد الرحمن. فقلت له: قد جعلتك في حلٍّ من جميع ما تقول، ووهبت لك المال الذي عرضته علي، عنيت المناصفة. وذلك أنه قال: لي جوار وامرأة، وأنت عزب، فالذي يجب علي أن أناصفك لنستوي في المال وغيره، وأربح عليك في ذلك، فقلت له: قد فعلت - رحمك الله - أكثر من ذلك إذ أنزلتني من نفسك ما لم تنزل أحداً، وحللت منك محل الولد، ثم حفظ علي حديثي الأول، وقال: ما حاجتك؟ قلت: تقضيها؟ قال: نعم، وسرّ بذلك. قلت: هذه الألف، تأمر بقبوله، واصرفه في بعض ما تحتاج إليه، فقبله، وذلك أنه ضمن لي قضاء حاجتي.

ثم جلسنا بعد ذلك بيومين لتصنيف «الجامع» وكتبنا منه ذلك اليوم شيئاً كثيراً إلى الظهر، ثم صلينا الظهر، وأقبلنا على الكتابة من غير أن نكون أكلنا شيئاً، فرآني لما كان قرب العصر شبه القلق المستوحش، فتوهم في ملاًلاً، وإنما كان بي الحَصْرُ^(١) غير أني لم أكن أقدر على القيام، وكنت أتلوّ اهتماماً بالحصر. فدخل أبو عبد الله المنزل، وأخرج إلي كاعدة فيها ثلاث مئة درهم، وقال: أما

(١) أي: حبس البول.

إذ لم تقبل ثمن المنزل، فينبغي أن تصرف هذا في بعض حوائجك. فجهدي، فلم أقبل.

ثم كان بعد أيام، كتبنا إلى الظهر أيضًا، فناولني عشرين درهماً. فقال: ينبغي أن تصرف هذه في شراء الخضر ونحو ذلك. فاشتريت بها ما كنت أعلم أنه يلائمه، وبعثت به إليه، وأتيت. فقال لي: بيض الله وجهك، ليس فيك حيلة، فلا ينبغي لنا أن نُعني أنفسنا.

فقلت له: إنك قد جمعت خير الدنيا والآخرة، فأى رجل يبر خادمه بمثل ما تبرني إن كنت لا أعرف هذا، فلست أعرف أكثر منه.

ومن كظم غيظه: ما حدّث به عبد الله بن محمد الصارفي قال: كنت عند أبي عبد الله في منزله، فجاءته جارية، وأرادت دخول المنزل، فعثرت على محبرة بين يديه، فقال لها: كيف تمشين؟ قالت: إذا لم يكن طريق، كيف أمشي؟ فبسط يديه، وقال لها: اذهبي فقد أعتقتك.

قال: فقيل له فيما بعد: يا أبا عبد الله، أغضبتك الجارية؟ قال: إن كانت أغضبتني فإني أرضيت نفسي بما فعلت.

وعن صفة خلقه: قال الحسن بن الحسين البزاز: رأيت محمد بن إسماعيل شيخاً نحيف الجسم، ليس بالطويل ولا بالقصير.

وقال محمد الوراق: دخل أبو عبد الله بفرير الحمام، وكنت أنا في مشلح

الحمام^(١)، أتعاهد عليه ثيابه. فلما خرج ناولته ثيابه، فلبسها، ثم ناولته الخنف، فقال: مسست شيئاً فيه شعر النبي ﷺ. فقلت: في أي موضع هو من الخنف؟ فلم يجبرني. فتوهمت أنه في ساقه بين الظهر والبطانة.

محنة الإمام أبي عبد الله البخاري رحمه الله تعالى:

قال الحسن بن محمد بن جابر يقول: سمعت محمد بن يحيى قال لنا لما ورد محمد بن إسماعيل البخاري نيسابور: اذهبوا إلى هذا الرجل الصالح فاسمعوا منه. فذهب الناس إليه، وأقبلوا على السماع منه، حتى ظهر الخلل في مجلس محمد بن يحيى، فتكلم فيه.

وقال أبو أحمد بن عدي: ذكر لي جماعة من المشايخ: أن محمد بن إسماعيل لما ورد نيسابور اجتمع الناس عليه، حسده بعض من كان في ذلك الوقت من مشايخ نيسابور لما رأوا إقبال الناس إليه، واجتمعهم عليه، فقال لأصحاب الحديث: إن محمد بن إسماعيل يقول: اللفظ بالقرآن مخلوق، فامتحنوه في المجلس.

فلما حضر الناس مجلس البخاري، قام إليه رجل، فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول في اللفظ بالقرآن، مخلوق هو أم غير مخلوق؟ فأعرض عنه البخاري ولم يجبه. فقال الرجل: يا أبا عبد الله، فأعاد عليه القول، فأعرض عنه. ثم قال في الثالثة، فالتفت إليه البخاري، وقال: القرآن كلام الله غير مخلوق، وأفعال العباد

(١) أي: محل خلع الثياب في الحمام، ويسميه بعضهم: جَمَكَان. والشَّلح من مفردات الخلع، فإن كان بالعين "شلع" فهو الاقتلاع.

مخلوقة^(١)، والامتحان بدعة. فشغب الرجل، وشغب الناس، وتفرقوا عنه. وقعد البخاري في منزله.

يقول: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة. وقال: حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة. فأما القرآن المتلو، المبين، المُثَبِّتُ في المصاحف، المسطور المكتوب، المُوعَى في القلوب، فهو كلام الله ليس بمخلوق. قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

فما أتى على هذا شهر حتى قال محمد بن يحيى: ألا من يختلف إلى مجلسه فلا يختلف إلينا، فإنهم كتبوا إلينا من بغداد أنه تكلم في اللفظ، ونهيناه فلم ينته، فلا تقربوه، ومن يقربه فلا يقربنا^(٢). فأقام محمد بن إسماعيل ها هنا مدة، ثم خرج

(١) القرآن كلام الباري والصوت صوت القارئ. وقد كره الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ هذا السؤال لأنه محدث ومحض تشغيب، ولكن كريم النفس يجيب عند الثالثة، وهو ما نالوه منه بسبب سؤالهم المبتدع وعدم فقههم لجوابه رَحِمَهُ اللهُ، وللعليم الحكيم سبحانه في ثانيا ذلك من الحكم الباهرة ما لا يُحاط به تبارك وتعالى وتقدس.

(٢) حتى أهل بغداد لم يسلم من فريتهم عليه أو جهلهم بما قال، وفي هذا درس لكل طالب علم ألا يلتفت إلى ما يحدث أحياناً بين أهل العلم من أمور هي من قبيل التغاير والحسد، فهم بشر غير معصومين، فيأخذ منهم ما يفيد في علمه ودينه، ويطوي صفحة خلاف ذات بينهم، فكلام الأقران في بعضهم يطوى ولا يروى، ولو عمل الناس بذلك لدُفعت عن الأمة فتن شقاق وفرقة وتشرذم قد أجبها من ضعفت نفسه عن احتمال رفع الله قريته عليه، والله المستعان، وانظر: "ولا تفرقوا". للمؤلف.

إلى بخارى.

ثم اتهم الذهليُّ البخاريَّ بأنه يقول: إن القرآن مخلوق! وزاد: ومن ذهب بعد هذا إلى محمد بن إسماعيل البخاري فاتهموه، فإنه لا يحضر مجلسه إلا من كان على مثل مذهبه (١).

قال الفريبري: حدثنا البخاري، قال: نظرت في كلام اليهود والنصارى والمجوس، فما رأيت أحداً أضل في كفرهم من الجهمية، وإني لأستجهل من لا يكفرهم. وكان يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافر (٢).

(١) ويشبه لهذا ما حصل لغير واحد من علمائنا، بل من أئمة أهل السنة في زماننا، حيث اتهم في عقيدته زوراً وبهتاناً أنه يقول بالحلول إذ لم يفقهوا كلامه في المعية، والله المستعان وهو الموعد.

(٢) قلت: سبب المآجريات المؤلمة على الأمام البخاري هي فرع عن فتنة القول بخلق القرآن، وقد كره الكلام في هذه الكلمة غير الشريفة رَحِمَهُ اللهُ، ووصفها بالمشؤومة، حتى الجأه السفهاء إلى ذلك الامتحان الذي لم يفقهوه، فلما ألتوا عليه أجابهم: بأن اللفظ مخلوق والقرآن غير مخلوق، فالقرآن كلام الباري والصوت صوت القارئ، وكلمة اللفظ بالقرآن مخلوق لها احتمالان:

أحدهما: أن الأعضاء المؤدية لللفظ كاللسان والفم والهواء مخلوقة وهذا حق، وهو عين قصد الإمام البخاري.

الثاني: أن القرآن المتلو الملفوظ مخلوق، وهذا باطل، وهو ما فهمه الذهلي أن البخاري قد قال به فأنكر عليه.

إذن؛ فكل واحد منهما قصد معنى صحيحاً، وبالتفصيل زال الإشكال. لذلك فقد زجر الإمام أحمد عن هذه الكلمة (اللفظ بالقرآن مخلوق) وبدّع من قال بها لأمرين:

الأول: أنها عبارة محدثة، لم يقل بها السلف.

الثاني: أنها عبارة موهمة لمعنى باطل.

وخلاصة رأي البخاري في هذه المسألة تتلخص في فقرتين:

١ - القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال: مخلوق، فهو كافر.

٢ - لم يقل البخاري يوماً من الأيام: «لفظي بالقرآن مخلوق» لكنه قال: «أفعال العباد مخلوقة» وهذا حق.

وبالجملية؛ فالأئمة أحمد والذهلي والبخاري متفقون على الفقرة الأولى، لكنهم اختلفوا في قول الإنسان: «لفظي بالقرآن مخلوق»، فالإمام أحمد والذهلي ومن تابعهما أنكروا هذا القول واعتبروه بدعة؛ لأنه لم يقل به السلف. وذلك: أن اللفظ يطلق ويراد به أمران:

الأول: الملفوظ نفسه - أي القرآن - وهو غير مقدور للعبد، ولا فعل له فيه.

الثاني: التلفظ به والأداء له، وهو فعل العبد.

فإطلاق الخلق على اللفظ قد يوهم المعنى الأول، وهو خطأ، وإطلاق نفي الخلق عليه يوهم المعنى الثاني، وهو خطأ أيضاً. ولذلك منع الإمام أحمد وغيره الإطلاقين حسماً للمادة، فلا يقال: «لفظي بالقرآن مخلوق، أو غير مخلوق».

أما البخاري فقد قال في «خلق أفعال العباد» (١٣٨ و ١٤٦): «حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة. فأما القرآن المتلو، المبين المثبت في المصاحف، والمسطور المكتوب، الموعى في القلوب، فهو كلام الله ليس بمخلوق»، وساق أدلته وبسطها حتى قال ابن القيم في مختصر الصواعق (٢ / ٣١٠): «البخاري أعلم بهذه المسألة وأولى بالصواب من جميع من خالفه، وكلامه أوضح وأمتن من كلام أبي عبد الله».

قال الحاكم: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن الأخرم، سمعت ابن علي الخلدي، سمعت محمد بن يحيى يقول: قد أظهر هذا البخاري قول اللفظية، واللفظية عندي شر من الجهمية.

وقال محمد بن شاذل: لما وقع بين محمد بن يحيى والبخاري، دخلت علي البخاري، فقلت: يا أبا عبد الله، أيش الخيلة لنا فيما بينك وبين محمد بن يحيى، كل من يختلف إليك يطرد؟ فقال: كم يعترني محمد بن يحيى الحسد في العلم، والعلم رزق الله يعطيه من يشاء.

فقلت: هذه المسألة التي تُحكى عنك؟ قال: يا بني، هذه مسألة مشؤومة، رأيت أحمد بن حنبل وما ناله في هذه المسألة، وجعلت على نفسي ألا أتكلم فيها. قلت - أي: الحافظ الذهبي -: المسألة هي أن اللفظ مخلوق، سئل عنها

يعني الإمام أحمد، ويقصد أن البخاري قد اقتحمها وأجلاها بصوابٍ مفصّلٍ من القول غير مُتَّعَجٍ ولا هيَّاب، ولا يعني بذلك قصور الإمام أحمد رحمه الله عن إدارك تفاصيلها، بل إن الإمام قد استوعبها تمامًا، لكنه رأى أن الخير في الوقوف عنها حسماً لمادة المخالفة لدى من لم يدرك أبعادها وأطرافها سواء ممن حسنت نياتهم أو خبثت، ولأن السلف لم يتكلموا فيها، وهذه جادته المشهورة في هذه المسألة وأشباهاها. وقد بسط شيخنا الدكتور عبد الله الدميحي هذا المعنى بكلامٍ محررٍ في شرحه لنونية ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ، فلتنظر هنالك. وانظر: رسالة الإمام أحمد بن حنبل إلى الخليفة المتوكل، ورسالة في أن القرآن غير مخلوق للإمام إبراهيم بن إسحاق الحربي، ومختصر الصواعق المرسلّة لابن القيم (٢/ ٣١٠) (٦٧) وانظر أيضًا: تخريج الأحاديث المرفوعة المسندة في كتاب التاريخ الكبير، لمحمد بن عبد الكريم بن عبيد. (١/ ٧٤).

البخاري، فوقف فيها، فلما وقف واحتج بأن أفعالنا مخلوقة، واستدل لذلك، فهم منه الذهلي أنه يوجّه مسألة اللفظ، فتكلم فيه، وأخذه بلازم قوله هو وغيره. وقال محمد بن نصر: سمعت أبا عبد الله يقول: من زعم أنني قلت: لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب، فإني لم أقله. فقلت له: يا أبا عبد الله، قد خاض الناس في هذا وأكثروا فيه. فقال: ليس إلا ما أقول^(١).

(١) ونقل الذهبي رحمه الله تعالى في السير (٤٥٨/١٢) عن أبي سعيد حاتم بن أحمد الكندي، قال: «سمعت مسلم بن الحجاج يقول: لما قدم محمد بن إسماعيل نيسابور ما رأيت والياً ولا عالماً فعل به أهل نيسابور ما فعلوا به، استقبلوه مرحلتين وثلاثة. فقال محمد بن يحيى في مجلسه: من أراد أن يستقبل محمد بن إسماعيل غداً فليستقبله. فاستقبله محمد بن يحيى وعامة العلماء، فنزل دار البخاريين، فقال لنا محمد بن يحيى: لا تسألوه عن شيء من الكلام، فإنه إن أجاب بخلاف ما نحن فيه، وقع بيننا وبينه، ثم شمت بنا كل حروري، وكل رافضي، وكل جهمي، وكل مرجئ بخراسان». قلت: وهذا من نصح الذهلي وحكمته رَحِمَهُ اللهُ. فالظن أنه كان يعرف رأي البخاري في «مسألة اللفظ» فنهى تلاميذه وأصحابه عن سؤال البخاري عن هذه المسألة وأشباهاها حتى لا يفقدوه، وهو ما كان! وكان يقول: «اذهبوا إلى هذا الرجل الصالح، فاسمعوا منه».

قال الكندي: «فازدحم الناس على محمد ابن إسماعيل، حتى امتلأ السطح والدار، فلما كان اليوم الثاني أو الثالث، قام إليه رجل، فسأله عن اللفظ بالقرآن، فقال: أفعالنا مخلوقة، وألفاظنا من أفعالنا.

فوقع بينهم اختلاف، فقال بعض الناس: قال: لفظي بالقرآن مخلوق، وقال بعضهم: لم يقل، حتى توثبوا، فاجتمع أهل الدار، وأخرجوهم».

قال أبو عمرو والخفاف: فأتيت البخاري، فناظرته في شيء من الأحاديث حتى طابت نفسه فقلت: يا أبا عبد الله، ها هنا أحد يحكي عنك أنك قلت هذه المقالة. فقال: يا أبا عمرو؛ احفظ ما أقول له: من زعم من أهل نيسابور وقومس والري وهمدان وحلوان وبغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة أي قلت: لفظي بالقرآن مخلوق، فهو كذاب. فإني لم أقله، إلا أني قلتُ: أفعال العباد مخلوقة.

وقال أحمد بن سلمة: دخلت على البخاري، فقلت: يا أبا عبد الله، هذا رجل مقبول بخراسان، خصوصاً في هذه المدينة، وقد لَجَّ في هذا الحديث حتى لا يقدر أحد منا أن يكلمه فيه^(١)، فما ترى؟ فقبض على لحيته، ثم قال: ﴿وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤] اللهم إنك تعلم أني لم أرد المقام بنيسابور أشراً ولا بطراً، ولا طلباً للرئاسة، وإنما أبت علي نفسي في الرجوع إلى وطني لغلبة المخالفين، وقد قصدني هذا الرجل حسداً لما آتاني الله لا غير. ثم قال لي: يا أحمد، إني خارج غداً لتتخلصوا من حديثه لأجلي. قال: فأخبرت جماعة أصحابنا، فو الله ما شيعه غيري! كنت معه حين خرج من البلد، وأقام على باب البلد ثلاثة أيام لإصلاح أمره^(٢).

(١) وكان الذهلي رحمه الله تعالى مُقَدِّمًا في الناس.

(٢) وهذا من غربة الصالحين، وكفاه بالله تعالى مؤنسًا ومُغْنِيًا. وسئل الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: خيرٌ للمؤمن أن يُبتلى أم يُمكن؟ فقال: لا يُمكن حتى يُبتلى. وقال هرقل لأبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «هكذا الرسل يبتلون ثم تكون لهم العاقبة». فهذا طريق المرسلين، فمن رام سبيلهم وحسن عاقبتهم فليطوِّ قلبه على احتمال البلاء في

قال: وسمعت محمد بن يعقوب الحافظ يقول: لما استوطن البخاري نيسابور أكثر مسلم بن الحجاج الاختلاف إليه. فلما وقع بين الذهلي وبين البخاري ما وقع في مسألة اللفظ، ونادى عليه، ومنع الناس عنه، انقطع عنه أكثر الناس غير مسلم.

فقال الذهلي يوماً: ألا من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا، فأخذ مسلم رداءً فوق عمامته، وقام على رؤوس الناس، وبعث إلى الذهلي ما كتب عنه على ظهر جمال^(١). وكان مسلم يظهر القول باللفظ ولا يكتمه^(٢).

وقال محمد بن يعقوب الأخرم، سمعت أصحابنا يقولون: لما قام مسلم وأحمد بن سلمة من مجلس الذهلي، قال الذهلي: لا يساكني هذا الرجل في البلد. فخشى البخاري وسافر.

وقال محمد بن أبي حاتم: أتى رجل أبا عبد الله البخاري، فقال: يا أبا عبد الله، إن فلاناً يكفرك^(٣)! فقال: قال النبي ﷺ: «إذا قال الرجل لأخيه: يا

ذات الله تعالى، والتلذذ به في سبيل مرضاته، وليبشر بولاية ربه له وقربه ورضاه، وأعظم البلاء أجراً هو ما كان من جنس الجهاد في سبيله بالعلم والعمل.

(١) وهذا من وفائه للحق أولاً لاستبانه له، ثم وفاء لشيخه ثانياً، رحمه الله وجمعنا بهم ووالدينا وأحبتنا والمسلمين في عليين.

(٢) أي: القول بأن اللفظ والصوت بالقرآن مخلوق، أي: تلاوته بأعضاء الإنسان، أما القرآن ذاته فغير مخلوق، بل هو صفة من صفات الله تعالى.

(٣) وقد ضل في تكفيره، وأن كان الظاهر من تكفيره هنا أنه لتأويله لا لسوء قصد، ولعله صدق فيه قالة كاذب جهول، وليس هذا له بعذر إذ لم يتثبت مع القدرة والإمكان، والله أعلم.

كافر، فقد باء به أحدهما»^(١).

وكان كثير من أصحابه يقولون له: إن بعض الناس يقع فيك، فيقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] ويتلو أيضًا: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]^(٢) فقال له عبد المجيد بن إبراهيم: كيف لا تدعو الله على هؤلاء الذين يظلمونك ويتناولونك ويبهتونك؟ فقال: قال النبي ﷺ: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض»^(٣). وقال ﷺ: «من دعا على ظالمه، فقد انتصر»^(٤).

وقد يكون بين أهل العلم والفضل من ذلك أشياء بلا سوء طوية ولا خبث نية، وقد قال أسيد بن حضير لسعد بن عبادَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «إنك منافق تجادل عن المنافقين». رواه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠). بل حتى المرسلين لم يسلموا من قذف الناس لهم بطعن دينهم، فالعبرة ليست بالقاتل مهما علا كعب قدره من غير الأنبياء، بل الاعتبار بحقيقة الحال، ومن كفره الناس بلا مكفر فلن يضيره عند الله وصالحى عباده قد فهم، فالعبرة بالحقائق والبراهين لا التهم والدعاوى.

(١) البخاري (٤٢٨/١٠) ومسلم.

(٢) تأمل اعتصامه بربه وحسن العاقبة له إذ رفع الله له ذكره وجعل له لسان صدق في العالمين وجعل كتابه أصح كتاب على ظهرها بعد كتابه الكريم.

(٣) البخاري (٧/٨٩، ٩٠) ومسلم (١٨٤٥) وإن كان الخطاب موجهاً للأنصار قد فهم أبو عبد الله منه العموم لكل من ناله الناس بسبب أتباعه للسنة والذب عنها وطاعة رسول الله ﷺ، فالذي قرب الأنصار ورفعهم هو الدين، فمن استقام وأوذى أو انتقص من حقه لأجل دينه فهو موعود بحسن العاقبة بانتظار حبيبه ﷺ له على حوضه المورود.

(٤) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٥٢) في الدعوات من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وفي سنده أبو

قال محمد بن أبي حاتم: وسمعتة يقول: لم يكن يتعرض لنا قط أحد من أفناء الناس إلا رُمي بقارعة ولم يسلم، وكلما حدث الجهال أنفسهم أن يمكروا بنا رأيت من ليلتي في المنام نارًا توقد ثم تطفأ من غير أن ينتفع بها، فأتأول قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤] (١).

وكان هُجَيْرَاهُ (٢) من الليل إذا أتته في آخر مقدمه من العراق: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٠].

وقال إبراهيم وراق ابن سيار لما قدم البخاري مَرُو (٣) استقبله أحمد بن سيار فيمن استقبله، فقال له أحمد: يا أبا عبد الله، نحن لا نخالفك فيما تقول،

حمزة ميمون الأعور وهو ضعيف، ونقل المناوي في «فيض القدير» قول الترمذي في «العلل»: سئل عنه البخاري فقال: لا أعلم أحدًا رواه غير أبي الأحوص، لكن هو من حديث أبي حمزة، وضعف أبا حمزة جدًّا.

قلت: والمعنى: أن من دعا على ظالمه فقد تعجل نصيبه من النصر في الدنيا، وقد كان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ يقول به ويذكر هذا الحديث.

(١) وهذا من عاجل بشره لما اعتصم بمولاه، وتأمل عظم مسؤولية أهل العلم في توجيه الناس عند الفتن، وخطر عزوفهم عن كفّ جهالهم وبخاصة سرعان السفهاء في تخوّضهم أعراض الناس وأبشارهم ودماءهم وأموالهم زعمًا منهم أنهم للدين ناصحون! وإن الله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(٢) أي: دأبه وشأنه، والمراد بهُجَيْرَاهُ هنا: كلامه.

(٣) تقع مرو جنوبي تركمانستان حاليًّا.

ولكن العامة لا تحتمل ذا منك. فقال البخاري: إني أخشى النار، أُسألُ عن شيء أعلمه حقاً أن أقول غيره. فانصرف عنه أحمد بن سيار.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: قدم محمد بن إسماعيل الرِّي سنة خمسين ومئتين، وسمع منه أبي وأبو زرعة، وترك حديثه عندما كتب إليهما محمد بن يحيى أنه أظهر عندهم بنيسابور أن لفظه بالقرآن مخلوق^(١).

قال أحمد بن منصور الشيرازي: سمعت بعض أصحابنا يقول: لما قدم أبو عبد الله بخارى نصبت له القباب على فرسخ من البلد، واستقبله عامة أهل البلد حتى لم يبق مذكور إلا استقبله، ونثرت عليه الدنانير والدراهم والسكر الكثير^(٢) فبقي أياماً.

قال: فكتب بعد ذلك محمد بن يحيى الذهلي إلى خالد بن أحمد أمير بخارى: إن هذا الرجل قد أظهر خلاف السنة^(٣). فقرأ كتابه على أهل بخارى، فقالوا:

(١) وهذا من أشد البلاء حين يطعن الناس وأكابرهم وعلماءهم في دينه وعقيدته، ويهجروا علمه، وهذا. والذي نفسي بيده. سبيل المرسلين وأتباعهم إلى يوم الدين، فمنهم من كُذِّب وقُتِل، ومنهم من طُرد من بلاده، ومنهم من أُوذِيَ في ذات الله العظيم الأذى، وموعدوهم رضوان الله تعالى وكرامته، ولكن من كان الله معه فلا يخش الضيعة، ومن كان في الله تعالى جهادُه وتعبُه وتلفُه؛ كان على الله تعالى كفايته وأجره وخلفُه، وقد ذهب الآن عناؤه وتعبه، وبقي عند الله أجره وكرامته، ولا أزيه على الله تعالى.

(٢) احتفاء به وفرحاً، وكان هذا من أعرفهم.

(٣) وهذا من شديد البلاء، أن تُبتلى بمن له قدرٌ عند الناس وعلم وجاه وسلطان، فلا يكون

لا نفارقه، فأمره الامير بالخروج من البلد، فخرج.

وقال إبراهيم بن معقل النسفي: رأيت محمد بن إسماعيل في اليوم الذي أخرج فيه من بخارى، فتقدمت إليه، فقلت: يا أبا عبد الله، كيف ترى هذا اليوم من اليوم الذي نثر عليك فيه ما نثر؟ فقال: لا أبالي إذا سلم ديني^(١).

وقال بكر بن منير بن خلود بن عسكر: بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلي والي بخارى إلى محمد بن إسماعيل: أن احمل إليّ كتاب «الجامع» و«التاريخ» وغيرهما لأسمع منك. فقال لرسوله: أنا لا أدلّ العلم، ولا أحمله إلى أبواب الناس. فإن كانت لك إلى شيء منه حاجة، فاحضر في مسجدي، أو في داري.

همّة إلا مراقبتك، وهمته إلا التضييق عليك، والمكر بك، والافتراء عليك، وحربك، وإجهاد نفسه بكل طريق ليلحق الأذى بك! لذا فقد كره إمامنا البخاريّ رحمه الله تعالى مقام الدنيا على سعتها، وضاعت نفسه الصافية الشريفة عن البقاء في همومها وعنائها وأكدارها وشتاتها وغرباتها وكُرباتها، وقد رأى أن قد أدّى ما قُدّر له من بلاغ العلماء لأمتهم، ووفائهم لعلمهم وإيمانهم، بما يسره الله من كُتب ودروس وإفتاء وجهاد، فدعى ربه حينها بقبض روحه شوقاً إليه، وخشية الفتنة في دينه، وراحة من عناء الفانية الزائلة إلى سعة الآخرة الأخيرِ الباقية، ولا إله إلا الله، فلکم هزّ نفسي وأفاض دمعي دعاؤه ربه بروحه الرقيق الجميل الطيب الصادق، فله؛ ما أجمل حياة المؤمنين!

(١) نعم، فالؤمن العاقل لا يستفزه مدح الناس وذمهم ما دام على جادة نبيه ﷺ.

كريمٌ لا يُغيّرهُ صباحٌ عن الخُلُقِ الجميلِ ولا مساءٌ

وكما قيل:

وإن سوادَ الليلِ لا يستفزني ولا الجاعلاتِ العاجِ فوقَ المعاصمِ

وإن لم يعجبك هذا فإنك سلطان، فامنعني من المجلس، ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة، لأني لا أكتم العلم، لقول النبي ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه أجم بلجام من نار»^(١) فكان سبب الوحشة بينهما هذا.

وقال أبو بكر بن أبي عمرو الحافظ البخاري: كان سبب منافرة أبي عبد الله: أن خالد بن أحمد الذهلي الأمير خليفة الطاهرية ببخارى سأل أن يحضر منزله، فيقرأ «الجامع» و«التاريخ» على أولاده، فامتنع عن الحضور عنده، فراسله بأن يعقد مجلساً لأولاده، لا يحضره غيرهم، فامتنع، وقال: لا أخص أحداً. فاستعان الأمير بحريث بن أبي الورقاء وغيره، حتى تكلموا في مذهبه^(٢)

(١) أحمد بسند صحيح (٢/٢٦٣).

(٢) والأظهر أن الأمر أبعد من ذلك، فالمكيدة ليست خاصة بالأمير، بل حتى من أهل العلم ممن يُعدّون إخواناً للبخاري، وقد كانوا من أهل الرأي الذين لا يرون الأثر كما يراه، عفا الله عنهم جميعاً، وعلى رأس هؤلاء: حريث بن أبي الورقاء، وقد كانت لهم علاقة وطيدة بأمير بخارى، بخلاف البخاري الذي كان لا يدخل على السلاطين حفظاً لدينه، وضناً بأمانته. وقد كانوا وراء هجرة البخاري من بلده بخارى. قال الذهبي رحمه الله تعالى في السير (١٢/٤٦٥): «قال الحاكم: حدثنا خلف بن محمد، حدثنا سهل بن شاذويه قال: كان محمد بن إسماعيل يسكن سكة الدهقان، وكان جماعة يختلفون إليه، يظهرون شعار أهل الحديث من أفراد الإقامة، ورفع الأيدي في الصلاة وغير ذلك. فقال حريث بن أبي الورقاء وغيره: هذا رجل مُشغَّبٌ، وهو يفسد علينا هذه المدينة، وقد أخرجه محمد بن يحيى من نيسابور، وهو -أي الذهلي- إمام أهل الحديث، فاحتجوا عليه بآبَنِ يَحْيَى، واستعانوا عليه بالسلطان في نفيه من البلد، =

ونفاه عن البلد، فدعا عليهم، فلم يأت إلا شهر حتى ورد أمر الطاهرية بأن ينادى على خالد في البلد، فنودي عليه على أتان. وأما حريث، فإنه ابتلي بأهله، فرأى فيها ما يجل عن الوصف. وأما فلان، فابتلي بأولاده، وأراه الله فيهم البلايا.

وكان محمد بن إسماعيل ورعاً، يتجنب السلطان ولا يدخل عليهم.

قال أحمد بن محمد بن محمد بن واصل البيكندي، سمعت أبي يقول: من الله علينا بخروج أبي عبد الله، ومقامه عندنا، حتى سمعنا منه هذه الكتب، وإلا من كان يصل إليه وبمقامه في هذه النواحي: فربر وبيكند^(١)، بقيت هذه الآثار فيها، وتخرج الناس به.

فأخرج.

وعليه؛ فقد كان البلاء عليه من ثلاثة أطراف: الذهلي، والأمير، وحريث وأصحابه، ومن بعدهم جهلة العامة وطغام الغوغاء، فقد اضطروه أن يخرج من بخارى إلى نيسابور، ثم إلى مرو، ثم إلى فربر وبيكند، ثم إلى خرتنك حيث توفاه الله تعالى، والله الموعد.

(١) بيكند: مدينة تاريخية قديمة، تبعد ٤٤ كم إلى الشمال الغربي من مدينة بخارى في أوزبكستان، وإليها ينسب طائفة من الحفاظ كالحافظ المعمر: أبي الفضل السليمانى البيكندي البخاري وأبي زكريا البيكندي وغيرهما رحمهم الله تعالى، وتأمل فرح أهل هذه البلاد بمجيء البخاري إليهم، ورأوه نعمة عظيمة من الله تعالى حيث ساق إليهم أمير المؤمنين في الحديث على قدميه، وذلك لبعده هذه الديار عن حواضر العلم الكبيرة التي حوت الأئمة، وصدق من قال: «مصائب قوم عند قوم فوائد»، والله المستعان.

وفاته رحمه الله تعالى:

قال ابن عدي: سمعت عبد القدوس بن عبد الجبار السمرقندي - يقول: جاء محمد بن إسماعيل إلى خَرْتَنَك (١) وكان له بها أقرباء، فنزل عندهم، فسمعتة ليلة يدعوا، وقد فرغ من صلاة الليل: اللهم إنه قد ضاقت عليّ الأرض بما رحبت، فاقبضني إليك، فما تم الشهر حتى مات. وقبره بخرتنك.

وقال أبو منصور غالب بن جبريل وهو الذي نزل عليه أبو عبد الله: أقام عندنا أياماً، فمرض، واشتد به المرض حتى وجّه الأمير رسولاً إلى مدينة

(١) قرية على ثلاثة فراسخ من سمرقند «١٧ كم» تقريباً، وقيل فرسخين. والشاهد؛ أنه بعد هذا العناء والأذى وتشويه السمعة وثلث المعتقد من الحسدة والشائنين؛ فضّل هذا الإمام الرباني الصالح الصابر المظلوم أن يبحث له عن مكان منعزل يتفرغ فيه لعبادة ربه تعالى، وتقلّ فيه مخالطته لأنصار من ظلموه من العلماء والأمراء، فنزل هذه القرية الصغيرة التي له فيها أقرباء، فنزل على رجل صالح من معارفه اسمه: غالب بن جبريل، فمكث عنده أياماً من شهر رمضان، لكن من ظلموه لم يتركوه آمناً مستريحاً حتى في هذه القرية الصغيرة النائية، فوجهوا من يخرجها منها وهو مريض، فضاقت نفسه عن البقاء في الدنيا فدعا ربه العليّ بقبض روحه إليه، ومثله حريٌّ بأن تُستجاب دعوته من الحميد الشكور الكريم الرحيم سبحانه، وقد كان.

فهكذا؛ طويت صفحة من أطيب صحف بني الإنسان، وكانت هذه القرية خاتمة حياة إمام أهل الحديث محمد بن إسماعيل البخاري، فدفن فيها، رحمه الله تعالى، وأعلى نزهة في عليين، وألحقنا به ووالدينا وأحبابنا والمسلمين غير خزايا ولا ندامى، إله الحق أمين.

ألا إنَّ في كَفِّ المنية مهجَّةً تظُلُّ لها عينُ العُلا وهي تدمعُ
هي النفسُ إن تبكِ المكارمُ فقدَها فمن بين أحشَاءِ المكارمِ تُنزعُ

سمرقند في إخراج محمد، فلما وافى تهباً للركوب، فلبس خفيه، وتعمم، فلما مشى قدر عشرين خطوة أو نحوها، وأنا آخذ بعضده، ورجل أخذ معي يقوده إلى الدابة ليركبها، فقال رَحِمَهُ اللهُ: أرسلوني، فقد ضعفت. فدعا بدعوات (١)، ثم اضطجع، ففضى رَحِمَهُ اللهُ. فسأل منه العرق شيء لا يوصف، فما سكن منه العرق إلى أن أدرجنه في ثيابه.

وكان فيما قال لنا وأوصى إلينا: أن كفنوني في ثلاثة أثواب بيض ليس فيها قميص ولا عمامة، ففعلنا ذلك. فلما دفناه فاح من تراب قبره رائحةً غاليةً أطيب من المسك، فدام ذلك أياماً، ثم علت سوارى بيض في السماء مستطيلة بحذاء قبره، فجعل الناس يختلفون، ويتعجبون. وأما التراب فإنهم كانوا يرفعون عن القبر، حتى ظهر القبر، ولم نكن نقدر على حفظ القبر بالحراس. وغلبنا على أنفسنا، فنصبنا على القبر خشباً مشبكاً لم يكن أحد يقدر على الوصول إلى القبر فكانوا يرفعون ما حول القبر من التراب، ولم يكونوا يخلصون إلى القبر (٢). وأما ريح الطيب فإنه تداوم أياماً كثيرة، حتى تحدث أهل البلدة، وتعجبوا من ذلك، وظهر عند مخالفيه أمره بعد وفاته، وخرج بعض مخالفيه إلى قبره، وأظهروا التوبة والندامة مما كانوا شرعوا فيه من مذموم المذهب.

(١) وربما أنه لما تيقن بأن مخالفيه لن يتركوه، وأنه حيث ذهب سيلاحقونه، وخشي على نفسه الفتنة؛ طابت نفسه بالرحيل عن الدنيا واللاحق بسالف الصالحين، فجعل يدعو مولاه كي يقبضه إليه واستجاب الله لعبده الصالح، فلم يشمت به أعداءه.

(٢) وهذا من بدع المقابرية وتبركهم بما لم يشرعه الله تعالى.

قال محمد بن أبي حاتم: ولم يعش أبو منصور غالب بن جبريل بعده إلا القليل، وأوصى أن يدفن الى جنبه.

وقال عبد الواحد بن آدم الطواويسى: رأيت النبي ﷺ في النوم، ومعه جماعة من أصحابه، وهو واقف في موضع، فسلمت عليه، فرد عليّ السلام، فقلت: ما وقوفك يا رسول الله؟ قال: أنتظر محمد بن إسماعيل البخاري. فلما كان بعد أيام بلغني موته، فنظرت فإذا قد مات في الساعة التي رأيت النبي ﷺ فيها.

وقال مهيب بن سليم الكرميني: مات عندنا البخاري ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين، وقد بلغ اثنتين وستين سنة، وكان في بيت وحده، فوجدناه لما أصبح وهو ميت.

وقال ابن عدي: سمعت الحسن بن الحسين البزاز البخاري يقول: توفي البخاري ليلة السبت ليلة الفطر عند صلاة العشاء، ودفن يوم الفطر بعد صلاة الظهر سنة ست وخمسين ومئتين. وعاش اثنتين وستين سنة إلا ثلاثة عشر يوماً.

وقال محمد بن أبي حاتم: سمعت أبا ذر يقول: رأيت محمد بن حاتم الخلقاني في المنام، وكان من أصحاب محمد بن حفص، فسألته - وأنا أعرف أنه ميت - عن شيخي رَحْمَةُ اللَّهِ، هل رأيتَه؟ قال: نعم - رأيتَه وهو ذاك، يشير إلى ناحية سطح من سطوح المنزل.

ثم سألتَه عن أبي عبد الله محمد بن إسماعيل، فقال: رأيتَه، وأشار إلى السماء إشارة كاد أن يسقط منها لعلو ما يشير.

وقال محمد بن يوسف الفربري: سمع كتاب «الصحيح» لمحمد بن إسماعيل تسعون ألف رجل، فما بقي أحد يرويه غيري (١).

صحيح البخاري:

وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ: جملة ما في صحيح البخاري من الأحاديث المسندة سبعة آلاف وخمس مئة وثلاثة وسبعون حديثاً بالأحاديث المكررة (٧٥٧٣) (٢).

أما اسمه فسماه مؤلفه البخاري رَحِمَهُ اللهُ «الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه».

وأما محله فقال العلماء: هو أول مصنف صنف في الصحيح المجرد، واتفق العلماء على أن أصح الكتب المصنفة صحيحا البخاري ومسلم، واتفق الجمهور على أن صحيح البخاري أصحها صحيحاً وأكثرهما فوائد. وبالله التوفيق والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه.



(١) مختصراً ومزيداً عن سير أعلام النبلاء (١٢ / ٣٩١ - ٤٧٠).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١ / ٧٥ / ١).

موعظة القبر

كان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول في خطبته: أين الوَصَاءَةُ الحسنةُ وجوهُهُم، المعجبون بشبابهم، الذين كانوا يُعْطَوْنَ الغلبةَ في مواطن الحرب، أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان، قد تضعضع بهم، وصاروا في ظلمات القبور، الوَحَا الوَحَا (١) النَّجَا النَّجَا.

وعن الحسن: أنه مرَّ به شاب وعليه بردة له حسنة فقال: ابن آدم معجب بشبابه، معجب بجماله، كأن القبر قد وارى بدنك، وكأنك لاقيت عملك، ويحك داو قلبك، فإن حاجة الله إلى عبادة صلاح قلوبهم.

وعن عبد الله بن العيزار قال: لابن آدم بيتان: بيت على ظهر الأرض وبيت في بطن الأرض، فعمد للذي على ظهر الأرض فزخرفه وزينه وجعل فيه أبوابًا للشمال وأبوابًا للجنوب، وصنع فيه ما يصلحه لشتائه وصيفه. ثم عمد إلى الذي في بطن الأرض فأخرَبَه!

فأتى عليه آت فقال: رأيت هذا الذي أراك قد أصلحته كم تقيم فيه؟ قال: لا أدري. قال: فالذي قد أخربته كم تقيم فيه؟ قال: فيه مقامي. قال: تقرّ بهذا على نفسك وأنت رجل يعقل؟!

وعن الحسن قال: يومان وليلتان لم تسمع الخلائق بمثلهن قط: ليلة تبيت مع أهل القبور ولم تبت ليلة قبلها، وليلة صيحتها يوم القيامة.

(١) أي: السرعة السرعة. النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٥ / ٣٥٢).

ويوم يأتيك البشير من الله تعالى إما بالجنة أو النار، ويوم تعطى كتابك إما بيمينك وإما بشمالك.

وعن عمر بن ذر أنه كان يقول في مواعظه: لو علم أهل العافية ما تضمنته القبور من الأجساد البالية لجدوا واجتهدوا في أيامهم الخالية خوفاً من يومٍ تتقلب فيه القلوب والأبصار.

وعن مطرف بن عبد الله بن الشخير قال: القبر منزل بين الدنيا والآخرة، فمن نزله بزاد ارتحل به إلى الآخرة؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وعن الحسن قال: أُوذِنُوا بالرحيل، وجلس أولهم على آخرهم وهم يلعبون.

وقال رجل لبعض السلف: أوصني، فقال: عسكر الموتى ينتظرونك.

وكان أبو عمران الجوني يقول: لا يغرنكم من ربكم طول النسيئة وحسن الطلب، فإن أخذه أليم شديد، حتى تبقى وجوه أولياء الله بين أطباق التراب، إنما هم محبوسون لبقية آجالهم، حتى يبعثهم الله إلى جنته وثوابه.

وشهد الحسن جنازة فاجتمع عليه الناس فقال: اعملوا لمثل هذا اليوم - رحمكم الله - فإنما هم إخوانكم يقدمونكم وأنتم بالأثر. أيها المخلف بعد أخيه: إنك الميت غداً، والباقي بعدك الميت في أثرك، أوّلاً بأول، حتى توافوا جميعاً، قد عممكم الموت، واستويتم جميعاً في كُربِهِ وغُصصه، ثم تخلّيتم إلى القبور، ثم تشرون جميعاً، ثم تعرضون على ربكم عز وجل.

وقال صفوان بن عمرو: ذكروا النعيم فسَمُّوا أناساً فقال: أنعمُ الناس أجساداً

في التراب هو من قدمات وبقي ينتظر الثواب.

وقال مسروق: ما من بيت خير للمؤمن من لحده قد استراح من أمر الدنيا
ومن عذاب الله.

وقال بشر بن الحارث: نعم المنزل القبر لمن أطاع الله.

وقال الفضل بن غسان: مر رجل بقبر محفور فقال: المقيّل للمؤمن هذا.

ونظر إلى قبر فقال: أصبح هؤلاء زاهدين فيما نحن فيه راغبون.

وعن عقبة البزار قال: رأى أعرابي جنازة فأقبل يقول: هنيئاً يا صاحبها.
فقلت: علام تهنته؟ قال: كيف لا أهنيء من يذهب إلى حبس جواد كريم نُزِلَ عظيم
وعفوه جسيم. قال: كأني لم أسمع القول إلا تلك الساعة.

وعن أبي معاوية قال: ما لقيني مالك بن مغول إلا قال لي: لا تغرنك الحياة
واحذر القبر، إن للقبر شأنًا. وقال أبو العتاهية:

يا حسانَ الوجوه سوفَ تموتونَ وتبلى الوجوهُ تحت الترابِ
ولا بن السماك:

تمرُّ أقاربي جنباتِ قبري كأن أقاربي لا يعرفوني
وذووا الأموال يقتسمون مالي ولا يألون إن جحدوا ديوني
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا فبالله ما أسرع ما نسوني^(١)

وقال عمرو بن عتبة بن فرقد: سألت الله ثلاثاً؛ فأعطاني اثنتين، وأنا أنتظر

(١) أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور، لابن رجب (١ / ٢٤٤) مختصراً.

الثالثة. سألته أن يزهدني في الدنيا فما أبالي ما أقبل وما أدبر، وسألته أن يقويني على الصلاة فرزقني منها، وسألته الشهادة فأنا أرجوها.

وكان طلحة بن مصرف يقول في دعائه: اللهم اغفر لي رباي وسمعتي.

وقال خليلد العصري: كلنا قد أيقن بالموت وما نرى له مستعداً، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفاً، فعلام تعرجون، وما عسيتم تنتظرون، الموت فهو أول وارد عليكم من الله بخير أو بشر.

يَجِدُّ بِنَا صَرْفُ الزَّمَانِ وَنَهْزُلُ	وَنُوقِظُ بِالْأَحْدَاثِ فِيهِ وَنَعْفُلُ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا ظَاعِنٌ وَمُودَعٌ	وَمُسْتَلَبٌ مُسْتَعَجَلٌ أَوْ مُؤَجَّلٌ
وَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا مَنَازِلُ	إِذَا مَا قَطَعْنَا مَنَزِلًا بَانَ مَنَزَلُ
فَنَاءٌ مُلِحٌّ مَا يُغِبُّ جَمِيعَنَا	إِذَا عَاشَ مِنَّا آخِرٌ مَاتَ أَوَّلُ
وَكَمْ صَاحِبٍ لِي كُنْتُ أَكْرَهُ فَقْدَهُ	تَسَلَّمَهُ مِنِّي الْفَنَاءُ الْمُعَجَّلُ

اسمعوا عظة الزمان إن كنتم تسمعون، وتأملوا تقلب الأحوال إن كنتم

تبصرون.

وقال يحيى بن معاذ: لو سمع الخلائق صوت النياحة على الدنيا من ألسنة الفناء لتساقطت القلوب منهم حزناً^(١). وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله عدد ما خلق وذراً وبراً، والحمد لله رب العالمين كما ينبغي لكمالته وجماله وجلاله.

بِحَمْدِ اللَّهِ

(١) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار، لعبد العزيز السلطان (٣ / ٢٦٥).

مؤلفات إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

(١٨)	الالتجاء إلى الله تعالى	(١)	مقدمات في أقوال وأعمال القلوب
(١٩)	الاعتصام بالله تعالى	(٢)	التوحيد والإخلاص
(٢٠)	سلامة الصدر	(٣)	العبودية
(٢١)	العفاف	(٤)	الصدق مع الله تعالى
(٢٢)	الصبر	(٥)	محبة الله تعالى
(٢٣)	الرضا بالله تعالى	(٦)	الشوق إلى الله تعالى
(٢٤)	شكر الله تعالى	(٧)	الأنس بالله تعالى
(٢٥)	حمد الله تعالى	(٨)	الإرادة
(٢٦)	الفرح بالله تعالى	(٩)	العزم
(٢٧)	(١٠)	الرجاء
		(١١)	الرغبة
		(١٢)	التوكل على الله تعالى
		(١٣)	حُسنُ الظنِّ بالله تعالى
		(١٤)	الثقة بالله تعالى
		(١٥)	الافتقار إلى الله تعالى
		(١٦)	الاستغناء بالله تعالى
		(١٧)	التعلق بالله تعالى

سلسلة

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء)

- | | |
|--|--|
| ١- محمد رسول الله ﷺ | ٨- سبع بشارات تورانية برسول الله ﷺ |
| ٢- هل انتشر الإسلام بالسيف؟ | ٩- أشهر بشارات العهد الجديد |
| ٣- كشف شبه أهل الكتاب عن الإسلام (١٣) شبهة | ١٠- نظرة فاحصة في الكتاب المقدس (البيبل) |
| ٤- النصرانية من التوحيد إلى الوثنية | ١١- العقائد النصرانية في الميزان |
| ٥- أخلاق الكنيسة وأخلاق الإسلام | ١٢- ربحت محمداً ولم أخسر المسيح عليها السلام |
| ٦- يا سائلاً عن بني إسرائيل | |
| ٧- المسجد الحرام والحج في صحف أهل الكتاب | |

كتب متنوعة

- | | |
|--|--|
| ١- (ولا تفرّقوا) معالم وتأصيلات. | ٨- نافذة على قصة الحضارة لديورانت |
| ٢- حديث الإفك (عبرات وعبر) | ٩- المدهشات |
| ٣- لله درك يا كعب | ١٠- تهافت الليبرالية، أركون أنموذجاً |
| ٤- إذا ذكر الصالحون فحيهاً بعمر | ١١- متى يشرع البحث في تفاصيل القدر |
| ٥- كفاءة النسب وزیوف الجاهلية | ١٢- وقد يجمع الله الشتيتين |
| ٦- صفحة مطوية من تاريخ الجزيرة العربية (إخوان من طاع الله) | ١٣- دموع على سفح الفؤاد |
| ٧- (ويكون الدين كله لله) | ١٤- نَظَرَاتٌ في أعماق النفس الإنسانية |
| | ١٥- أزمة الفكر المادي |

٢٣- الحنيفية، ملة إبراهيم عليه السلام

٢٤- من سير الراجلين

٢٥- انفساخ العزائم وانتقاص

الدعائم

٢٦- مقدمة الحموية.. طلع الصباح

فأطفؤا القنديلا

٢٧- صقيع الفلاسفة (كيف تؤذي

الفلسفة غير الرشيدة طمأنينة

النفوس)

٢٨- مسائل ملحة في القدر

١٦- السلفية محض الإسلام العتيق

١٧- إضاءة الجنان من أضواء البيان (في

حجاب الوجه)

١٨- رقائق المتقين

١٩- شعاع الفكر (١) مقالات شرعية

٢٠- شعاع الفكر (٢) مقالات فكرية

وأدبية

٢١- مختارات من البداية والنهاية، للشيخ

محمد الدميحي رحمه الله تعالى

(تحقيق)

٢٢- من رسائل وقصائد العلماء، للشيخ

محمد الدميحي رحمه الله تعالى

(تحقيق)

